علي أحمد
دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

الأندلسيّون والمغاربة في بلاد الشام

من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري

دمشق ــ أوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١
تلكس: ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

الأندلسيّون والمغاربة
في بلاد الشام

الطبعة الأولى
١٩٨٩

الإهداء

إلى روح المغفور له كامل حسن قاسم، الذي علمني في مدرسته الاعدادية والثانوية دون مقابل يذكر، فكان بحق خير أب وخير قريب، ليس لي وحدي فحسب، بل للكثيرين من أمثالي، وسأظل أذكره بالخير ما دمت على قيد الحياة.

المؤلف

« كلمة شكر »

ليس أحق بشكري وتقديري واحترامي من الأستاذ الدكتور سهيل زكار ، الذي قام بالإشراف على هذا المؤلف ، فلم يبخل بنادر ولا نفيس .

علي أحمد

توطئة

في الوقت الذي تتعرض فيه الأمة العربية لإثارة الأحقاد السياسية، وتمتين عوامل الجفاء بين دول هذه الأمة وخاصة دول المشرق، ينشط تيار معاد أكثر خطورة وضرراً، يهدف إلى إظهار أن مغرب الوطن العربي، يختلف عن مشرقه على جميع الصعد. ويحاول أصحاب هذا التيار بكل الطرق والوسائل أن يبرهنوا لعرب المغرب بصورة خاصة، على أن جميع الدول التي تعاقبت على حكم المغرب والأندلس، أرادت من عملية الانفصال عن المركز في بغداد، أن تتخلص من السيطرة العربية المشرقية، وأن تخلق لنفسها كياناً حضارياً مستقلاً. وهم بذلك لا يبتغون الوقوف على الحقيقة، بقدر ما يبتغون حفر هوة عميقة جديدة، تكون فاصلاً أبدياً بين جزئي الوطن العربي، الأمر الذي يمكّن بسهولة من إضعاف وجود الأمة العربية، ويجعلها قوة هشة البنيان، يمكن تسييرها بأي اتجاه يراد لها. ولتبيان حقيقة زيف هذا المخطط وظلمه، فإن الأمر لا يحتاج إلى كبير تعمق وإطالة دراسة. فلم تكن الثقافة العربية في المغرب والأندلس غير الثقافة العربية في المشرق، فكلاهما ثقافة واحدة، ظهرت في المشرق وانتقلت إلى المغرب والأندلس مع الفاتحين الأوائل، وتطورت في عصر الدول التي تعاقبت على حكم هذه المنطقة العربية، التي استطاع أهلها أن يتعمقوا في كل ضرب من ضروبها، ويتفوّقوا إلى أقصى الحدود. ومن ناحية أخرى، فإن شعب المغرب والأندلس بالرغم من تبدل الحكام وتباين مبادئهم، ظل يقصد دول المشرق العربي، ينهل من ثقافته، وينزل حيث

استطاب النزول. وإذا كانت رحلات المغاربة والأندلسيين العرب، حتى القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، هي رحلات مؤقتة، فإنها أصبحت في الفترة التي تلت رحلات من أجل الاستقرار الدائم لفئة لابأس بها من الأندلسيين، بعد ضياع ملكهم في الأندلس، وغدا المشرق العربي قبلة وملاذا لكل النازحين المغاربة، لا يقف في وجههم مانع ولا يعوقهم عائق. ووجدوا فيه أرضاً خصبة عوضتهم ما فقدوه من مال وحرية وغير ذلك، وانخرطوا في بوتقة حياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بسرعة فائقة. ولم يبخلوا بشيء مما يملكون. ولما كانت هذه الحقائق غير معروفة لجزء كبير من شعبنا العربي في المغرب والمشرق، حيث خدَّرته وأعمت بصيرته فواصل الحدود والدعاية الاقليمية، إلى حد وصل به الأمر إلى الكفر بالوحدة العربية ومن يدعو إليها، لما كان هذا هو واقع الأمة العربية في الفترة الراهنة، فقد رأيت أن يكون موضوع بحثي عن الأندلسيين في بلاد الشام في العصور الوسطى، حيث سيظهر من خلال دراستهم، أن جذور الوحدة العربية ليست وليدة زمننا هذا، بقدر ما هي بعث الوحدة العربية الماضية، وبالتالي فإن أية محاولة لتزوير هذا الواقع، لا يقصد منها — سوى ذر بذور الفرقة والشتات بين الأمة العربية. وكدليل على وجود جذور الوحدة العربية، فإن بلاد الشام وسائر أقطار المشرق العربي، لم تستقبل الأندلسيين والمغاربة، على اعتبار أنهم أمويون أو مرابطون أو موحدون بقدر ما استقبلتهم، كونهم عرباً يشتركون معهم بجميع روابط القومية العربية. وإذا كان مروجو القومية البربرية في المغرب، يؤكدون على انفصالها عن القومية العربية، فليس أدل على بطلان ادعائهم، من أن عظماء علماء اللغة العربية في فترة هذا البحث من المغاربة في الشام كانوا من أصل بربري، كابن معطي وغيره، كما سيظهر من خلال الصفحات القادمة. فلو كان ابن معطي وغيره، يشعرون بأنهم أصحاب حضارة متميزة عن الحضارة العربية، لما كانوا ركزوا بالدرجة الأولى على إتقان اللغة العربية، التي تعتبر، الوسيلة الأساسية التي تجمع العرب وتميزهم عن غيرهم.

مدخل

ــ دراسة تقويمية لأهم المصادر ــ

يمكن تقسيم المصادر من حيث فترتها الزمنية إلى قسمين رئيسيين، أولهما المصادر القديمة الأصلية، وثانيهما المراجع الحديثة.

١ ــ المصادر الأصلية، وتشكل هذه المجموعة من المصادر العمود الفقري، الذي اعتمد عليه هذا البحث.

ولم تكن جميعها متساوية على صعيد المعلومات التي احتوتها، انما تفاوتت، فاحتوى بعضها أكثر من البعض الآخر. أيضاً فقد اختلفت من ناحية أخرى، هي أن الذين وضعوها، لم يتبعوا فيها أسلوباً أو منهجاً واحداً في طريقة كتابتها، الأمر الذي يدعو إلى تقسيمها بحسب المنهج المتبع في تأليفها. فمنها ما وضع على طريقة التراجم، ومنها ما وضع على طريقة الطبقات، وبعضها الآخر على طريقة الموضوعات، أو على طريقة التاريخ العام. هذا بالإضافة إلى كتب الجغرافيا والمعاجم.

وستتم دراسة كل فئة من هذه المصادر بشكل مستقل عن بقية الفئات.

٢ ــ كتب التراجم. وتبحث هذه الكتب في حياة مشاهير الرجال وأعمالهم،

كالعلماء والسياسيين، والأدباء ورجال الدين إلى غير ذلك. وباعتبار أن موضوع هذا البحث يدور حول تتبع الأندلسيين المغاربة في بلاد الشام ودراستهم، فمن الطبيعي أن تكون كتب التراجم، هي المصادر الأكثر اعتماداً، أو بالأحرى، هي المعول عليها في إنشاء هذا البحث، سواء منها التي ألفت في المشرق أو في الأندلس. والجدير بالذكر أن هذه المصادر، لا تتساوى من حيث الفائدة أو الفترة الزمنية التي تناولتها بالبحث، الأمر الذي يجعل من بعضها أكثر أهمية من البعض الآخر. ومهما يكن من أمر، فإنها تكمل بعضها بعضاً، فالذي أغفله مصدر ما من هذه الفئة، أكمله مصدر آخر، وهكذا حتى نهاية فترة موضوع هذا البحث. وهذا ما سيظهر بوضوح من خلال صفحات هذا الكتاب، وكان من هذه المصادر:

١ ــ كتاب «تاريخ علماء الأندلس» لعبد الله بن محمد بن يوسف المعروف بابن الفرضي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ــ ١٠١٣م: وهو كتاب تراجم لعلماء الأندلس الذين عاشوا فيها، والذين رحلوا عنها، أو الذين استوطنوها، كالفقهاء والرواة والأدباء والشعراء، منذ افتتاح العرب للأندلس، وحتى سنوات قليلة من وفاته. وقد رتب تراجمه على حروف المعجم. وبشكل عام فإن جميع هذه التراجم غدت مختصرة إلى حد كبير، لكنها مفيدة جداً. وقد اعتمد على مصادر متنوعة، كالكتب التي وقعت بين يديه، وسماعه الأخبار من محدثيه، الذين كانوا على معرفة واتصال بالتراجم له، إضافة إلى أنه كان يعرف الكثيرين منهم، الأمر الذي يجعل جزءاً من كتابه هذا وثائقياً. ويفرد في نهاية كل باب فصلاً عن الغرباء القادمين من المشرق. ويساعد هذا الكتاب إلى حد ما على فهم العلاقات الثقافية، التي لم تنقطع بين الشام والأندلس، وذلك من خلال الرجالات الذين نهلوا العلم من بقاع شامية كدمشق وفلسطين وغيرها، عبر فترة الأربعة قرون الأولى.

٢ ــ كتاب «جذوة المقتبس» لمحمد بن فتوح الحميدي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ــ ١٠٩٥م. وهو من كتب التراجم الأندلسية، رتبه الحميدي على طريقة حروف المعجم، فقدم حرف الميم على بقية الحروف تبركاً بالنبي العربي محمد بن عبد الله (ص). ويحتوي على تراجم رجال الأندلس من الحكام ورواة الحديث والفقهاء

والأدباء، إضافة إلى المشارقة الذين زاروا الأندلس أو الذين استوطنوها. والحقيقة فإن مصادره في هذا الكتاب غير واضحة، باستثناء ابن حيان والخشني وابن القوطية والحكم المستنصر. لكن شخصية الحميدي تشكل مصدر ثقة، فهو محدث يعرف أصول الحديث والفقه، وله معرفة أكيدة وصلة وثيقة بالأدب[1] ولم يكن لهذا الكتاب قيمة ذات أهمية كبيرة، بالنسبة لموضوع هذا البحث. وكل ما في الأمر أنه احتوى على إشارات بسيطة جداً.

٣ ــ كتاب «الصلة» لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ــ ١١٨٣ م. وهو كتاب تراجم أيضاً، جعله ذيلا على تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، سلك فيه طريقة ابن الفرضي من حيث ترتيب التراجم على طريقة حروف المعجم كما يقول[2]. وتغطي تراجمه في هذا الكتاب القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي. وينقل عن كتب أندلسية كجذوة المقتبس للحميدي، بالاضافة إلى شيوخ وعلماء يصعب حصرهم هنا. ويمتاز هذا الكتاب، بأنه يساعد على الاستنتاج، بأن العلاقات التجارية في فترة ماقبل القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، كانت تسير بشكل طبيعي بين الشام والأندلس. فقد أتى على ذكر بعض التجار الشاميين، الذين دخلوا الأندلس في فترات مختلفة. ومن ناحية أخرى، فان هذا الكتاب يغطي العلاقات الفكرية بين القطرين في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي.

٤ ــ كتاب «بغية الملتمس» لأحمد بن يحيى الضبي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ ــ ١٢٠٣ م : وهو كتاب تراجم مرتب على طريقة حروف المعجم، بدأه الضبي منذ الفتح العربي للأندلس، وحتى نهاية القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وذكر فيه المشاهير من أهل العلم والفضل، الذين عاشوا في الأندلس، والذين دخلوها، أو خرجوا منها. وكان كتاب «جذوة المقتبس» للحميدي مصدره الرئيسي حتى سنة ٤٥٠ هـ ــ ١٠٥٨ م يقول : «... انتهى فيه إلى حدود الخمسين

١ ــ الحميدي ــ جذوة المقتبس ــ ت محمد بن تاويت الطنجي ــ ط ١ القاهرة ١٩٥٢ ص ٦ ــ ٧.

٢ ــ ابن بشكوال ــ الصلة ج ١ ــ طبعة الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦ ص ١.

وأربعمائة، فاعتمدت على آكثر ماذكره، وزدت ماأغفله وغادره، وتممت من حيث وقف...»[٣] وهو ضئيل الفائدة فيما يخص هذا البحث.

٥ ــ كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء» لعلي بن يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦هــ ١٢٤٩م قام باختصار هذا الكتاب محمد بن علي الزوزني في سنة ٦٤٧هــ ١٢٥٠م، أي بعد وفاة المؤلف بسنة واحدة. وقد جمع فيه القفطي الأطباء والفلاسفة من العرب المسلمين وغيرهم من الأمم الأخرى، منذ أقدم العصور وحتى زمانه، ورتبه على حروف المعجم، وهو يكتب عن كل صاحب ترجمة «كل ماحفظ عنه من قول انفرد به، أو كتاب صنفه، أو حكمة عليّة ابتدعها ونسبت إليه...»[٤]. لذلك فهو كتاب متخصص. ويعتبر من الكتب الفريدة في هذا الميدان. ويمتاز بأنه يفصل في ترجمة كل شخصية، بما أمكنه ذلك. وتأتي أهميته بالنسبة لهذا الموضوع من كونه عاش في مدينة حلب، فغطى جميع الأندلسيين، الذين عاشوا فيها، والذين لم يشكلوا الا قلة قليلة، سواء منهم الذي دخل عن طريق جنوبي الشام، أو شماله. لكن في الوقت نفسه انبرى إلى ترجمة غيرهم من الذين عاشوا بمدينة دمشق، وبشكل خاص المشاهير منهم. ومن الذين ذكرهم في مدينة حلب، الطبيب المغربي يوسف بن يحيى المعروف بابن سمعون، الذي كان أحد أصدقائه المقربين[٥]. وبالرغم من أن تراجمه بأغلبها من الحكماء والفلاسفة، فإنه يتضمن تراجم متفرقة لمقرئين أندلسيين عاشوا بحلب، الأمر الذي يجعله من المصادر الهامة في هذا البحث.

٦ ــ كتاب «التكملة لكتاب الصلة» لمحمد بن عبد الله بن أبي بكر المعروف بابن الآبار المتوفى سنة ٦٥٩هــ ١٢٦١م. وهو كتاب تراجم للعلماء الأندلسيين وغيرهم من الذين لهم صلة بالأندلس، غطى فيه رجال القرن السادس وثلثا من القرن

---

٣ ــ الضبي ــ بغية الملتمس ــ ط دار الكاتب العربي ١٩٦٧ ص ٢.

٤ ــ القفطي ــ أخبار العلماء بأخبار الحكماء ــ عني بتصحيحه ونشره محمد أمين الخانجي مصر ١٣٢٦هـ ص ١.

٥ ــ المصدر السابق ص ٢٥٧ وما بعدها.

السابع الهجري، بحيث اعتبر مكملاً لابن الفرضي. وابن بشكوال، وهذا ما يظهر من تسميته، وهو مرتب على حروف المعجم، يبدؤه بـ(أحمد)، تبركا بالرسول العربي الذي يسمى أحياناً بهذا الاسم.

وأما مصادره، فكان معظمها من السماع والمكاتبات، التي كانت تجرى بينه وبين الشيوخ الذين عاصرهم. وينقل أحياناً عن ابن عساكر فيما يخص الأندلسيين الذين سكنوا دمشق. وهو يعطي فكرة ذات قيمة عالية، حول الأوضاع السياسية في الأندلس، خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ومدى تأثير هذه الأوضاع على الأندلسيين، مما جعلهم ينزحون عن أوطانهم باتجاه الشام وغيرها من أقطار المشرق العربي. كما يستفاد منه بالتعرف على طريق الأندلسيين البحرية[6] وكتابه الثاني من حيث الأهمية في مجال هذا البحث، هو كتاب «المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي». وهو كتاب تراجم رتبه على حروف المعجم، وضمنه تراجم وسير أصحاب وتلاميذ وشيوخ أبي علي الصدفي المذكور، إضافة إلى أسماء الذين رووا عنه[7] وقد تجسدت قيمة هذا الكتاب بأنه يعكس المكانة الدينية لمدينة بيت المقدس من خلال الأحاديث والقصص الشعبية التي دونها، والتي كانت قد نقلت إلى الأندلس عبر زوّار القدس من الأندلسيين في الفترة التي تلت تحريرها من الصليبيين، الأمر الذي يجعل من هذه المكانة عامل جذب أكثر تأثيراً على الأندلسيين، فأثار فيهم شوقاً جديداً إلى زيارتها، بشكل أكثر من ذي قبل. وله كتاب آخر وهو «الحُلّة السيراء» ضمنه سير المشاهير من السياسيين والعلماء والأدباء الأندلسيين منذ القرن الأول، وحتى نهاية القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي. ولا يتبع فيه نظاماً معيناً، كما هو الحال بالنسبة لكتب التراجم. وعلى كل حال فإن هذا الكتاب، لم يشكل أهمية تذكر على صعيد هذا البحث.

٧ ـــ كتاب وفيات الأعيان لأحمد بن محمد الاربلي المعروف بابن خِلِّكان المتوفى

---

٦ ـــ ابن الآبار ـــ التكملة لكتاب الصلة ـــ ج ٢ ت عزت العطار الحسيني ط مصر ١٩٥٦ ص ٦٣٧ ـــ ٦٣٨.

٧ ـــ ابن الآبار ـــ المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي ط مجريط ١٨٨٥ ص ٥.

سنة ٦٨١هـ ــ ١٢٨٢م. ويعتبر هذا الكتاب من كتب التراجم الكبيرة، إذا ما قورن بالكتب المذكورة آنفاً، وصاحبه ابن خلكان من الشخصيات الاسلامية المرموقة. فقد تصدى لعدة مهمات إدارية وعلمية، وخاصة في مدينة دمشق، في الفترة التي تلت سنة ٦٥٩ هـ ــ ١٢٦١م، حيث عمل قاضياً للشافعية، إضافة إلى أنه تسلم نظر الأوقاف والجامع الأموي والبيمارستان، وتدريس سبع مدارس، هي الناصرية والعادلية والعذراوية والفلكية والركنية والاقبالية والبهنسية(٨). وقد رتب كتابه هذا على حروف المعجم، وركز بشكل خاص على المشاهير من الحكام والوزراء والعلماء في المشرق والأندلس، ويعتمد على مصادر كثيرة مشرقية ومغربية، منها ابن العماد الكاتب، وابن شداد، وابن بشكوال وابن الأثير وغيرهم. وقد اشتمل على تراجم لابأس بها لشخصيات أندلسية من مختلف الفعاليات، إضافة إلى أنه ذكر في معرض حديثه عن مدينة حلب، أنها لم تكن توازي مدينة دمشق، على صعيد النهضة العلمية في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، ويشير إلى أن العلماء لم يقصدوها بصورة نشطة، إلا في أوائل القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، حيث تصدى ابنُ شداد لبناء المدارس ودور الحديث فيها، بمساعدة الظاهر الأيوبي(٩).

ويؤخذ على ابن خلكان إغفاله ترجمة أكبر شخصية أندلسية على صعيد النحو خلال هذه الفترة كلها. وهو ابن مالك النحوي، وذلك بالرغم من أنه كان يعرفه جيدا ويحترمه كثيراً إلى حد أنه كان يرافقه عند خروجه من المدرسة العادلية مقر عمله، وذلك تجسيداً لهذا الاحترام(١٠). وقد ذيل على كتاب ابن خلكان فضل الله أبي الفخر الصقاعي بكتاب سماه:

٨ ــ «تالي وفيات الأعيان»، بدأ فيه من عشر سني الستين وستمائة إلى آخر سنة

٨ ــ الدارس في تاريخ المدارس ــ ج ١ ت جعفر الحسني ط دمشق ١٩٤٨ ص ١٩١ وما بعدها.
٩ ــ ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ج ٧ ت احسان عباس ط بيروت ١٩٧١ ص ٨٩.
١٠ ــ الكتبي ــ فوات الوفيات ج ١ ت محمد محيي الدين عبد الحميد ط مصر ١٩٥١ ص ٤٥٢.

خمس وعشرين وسبعمائة[11] ويتبع فيه نظام حروف المعجم. وينفرد هذا الكتاب بميزة خاصة، تتجلى بأنه يحتوي على تراجم أندلسية مغربية، اشتغل أصحابها في المجال الإداري بمدينة دمشق وغيرها، وفي ميدان القضاء وغيره، كدواوين الانشاء. ويفهم منه، أن كثيرين من الأندلسيين المغاربة نزلاء الشام، عاشوا حياة فقر وفاقة خلال حياتهم، برغم أنهم كانوا في مستوى علمي يؤهلهم إلى شغل أعلى المناصب العلمية والادارية.

٩ ــ كتاب «الذيل والتكملة على كتابي الموصول والصلة» لمحمد بن عبد الملك المراكشي المتوفى سنة ٧٠٣هـ ــ ١٤٠٤م. وهو كتاب تراجم مرتب على حروف المعجم. يتناول فيه المراكشي رجال القرن السابع الهجري: الثالث عشر الميلادي من الأندلسيين وغيرهم من الغرباء الذين دخلوا الأندلس، ويمتاز بشكل خاص عن كتب التراجم الأندلسية، بأنه يميل إلى التطويل والاسهاب في الترجمة. ومعظم الأجزاء، التي عثر عليها من هذا الكتاب مطبوعة ومحققة، وهي ثلاثة أجزاء، تتضمن قسماً من السفر الرابع، الجزء الثاني، والسفر الخامس، القسمين الأول والثاني. ومصادره متعددة، تعتمد على الرواة الثقاة الذين سمع عنهم المراكشي، إضافة إلى ماتلقاه عن مشايخه الذين أخذ عنهم، وما التقطه من طبقات القراءات. وهو لا يخلو من بعض تراجم الأندلسيين الذين حلوا بالشام، والتي يمكن من خلال بعضها التعرف على الطريق البحري، الذي كان يسلكه الأندلسيون القادمون إلى الشام.

١٠ ــ كتاب «فوات الوفيات» لمحمد شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤هـ ــ ١٣٦٣م ولم يكن الصقاعي المذكور آنفاً وحده، الذي ذيل على وفيات ابن خلكان، انما حذا حذوه ابن شاكر الكتبي، لأن ابن خلكان كما يقول الكتبي نفسه: «.. لم يذكر أحدا من الخلفاء، رأيته قد أخل بتراجم فضلاء زمانه فأحببت أن أجمع كتابا يتضمن ذكر من لم يذكره من الأئمة الخلفاء والسادة الفضلاء من وفاته إلى الآن..»[12] وقد رتب الكتبي هذا الكتاب على طريقة حروف المعجم. وينقل

---

١١ ــ الصقاعي ــ تالي كتاب وفيات الأعيان ــ ت جاكلين سويلة ط دمشق ١٩٧٤ ص ١.

١٢ ــ فوات الوفيات ج ١ ص ٢.

معلوماته عن الذين سبقوه في هذا الميدان، كابن أبي أصيعة وابن الأثير واليونيني وغيرهم. أما بخصوص تراجم الأندلسيين، فهي غير كثيرة فيه، رغم أنه عاش فترة لابأس بها من القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، كان الأندلسيون خلالها يشكلون عدداً كبيراً في بلاد الشام. وكل ما فعله بصددهم، أنه استدرك بعض نواقص ابن خلكان، مثال ذلك ترجمته لابن مالك النحوي، الذي أغفله هذا الأخير. ولعل أهم ما في هذا الكتاب، الملاحظة التي دوَّنها الكتبي، حول المتصوف الكبير ابن عربي الأندلسي. فقد أثنى عليه من خلالها، ووصف كلامه بأنه جيد ولا خطورة فيه(١٣)، وتضمن ملاحظة أخرى، تتعلق بالمحدث الحافظ البرزالي (علم الدين)، وتدور حول كرمه وسخائه بشكل عام، الأمر الذي يوحي، بأنه كان من عداد الأغنياء الأندلسيين المعروفين.

١١ ــ كتاب «الوافي بالوفيات» لصلاح بن أيبك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ــ ١٣٦٣ م وهو من الكتب المهمة في ميدان التراجم، اقتصر فيه الصفدي على ترجمة الأعيان من الحكام والعلماء والاداريين البارزين، الذين كان من ضمنهم الأندلسيون المغاربة. وقد رتبه على نظام حروف المعجم بادئا بحرف الميم، تبركاً باسم الرسول العربي الكريم واعتبر هذا الكتاب من المصادر الغنية بالمعلومات في هذا الموضوع: فهو يحتوي على تراجم كثيرة مفيدة، عمل أصحابها في الادارة والقضاء وغيرها من المناصب الأخرى يضاف إلى ذلك. أن الصفدي يركز بشكل خاص على سيرة ابن عربي، فأثنى على مؤلفاته وخاصة كتابه المسمى بـ(الفتوحات المكية) الذي أطلع عليه الصفدي بنفسه، فدافع عن مضمونه، وذكر أنه لا يوجد فيه، ما يجعله هدفاً للشناع والمبغضين(١٤) وهذا أمر في غاية الأهمية، لكونه صادرا عن الصفدي، الذي كان يحتل مكانة مرموقة ومميزة على صعيد العلوم الدينية في عصره. ومصادره في هذا الكتاب متنوعة، اعتمد على سابقيه، كاليونيني وابن أبي أصيبعة وغيرهما كثيرون.

---

١٣ المصدر السابق ج ٢ ص ٤٨٠.

١٤ ــ الصفدي ــ الوافي بالوفيات ج ٤ ت محمد بن عبد الله + محمد بن محمود باعتناء س. ديدرينغ ط دمشق ١٩٥٩ ص ١٧٤ ــ ١٧٥.

كتاب «وفيات ابن رافع محمد بن رافع السلامي» المتوفى ٧٧٤هـ/١٣٧٢م وهو ذيل على وفيات القاسم بن محمد البرزالي المتوفى سنة ١٣٣٩/٧٣٩م ويؤرخ فيه للوفيات من سنة ٧٣٧/هـ/١٣٣٧م وحتى سنة ٧٧٤هـ/١٣٣٢م، وهو مصنف على مبدأ السنين، ويركز بشكل خاص على علماء مصر ودمشق وغيرها من المدن الأخرى. ويستفاد منه في التعرف على عدد من الأندلسيين في مختلف المجالات. وقد حقق ضمن رسالة جامعية، قدمت إلى كلية الآداب بجامعة دمشق، لم تنشر بعد.

١٢ ــ **كتاب أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن**، وهو كتاب «نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان» لاسماعيل بن الأحمر المتوفى سنة ٨٠٧هـ ــ ١٦٠٥م. وهو كتاب تراجم قسمه ابن الأحمر إلى عدد من الأبواب بحسب اختصاص التراجم، الذين منهم الكتاب والقضاة والشعراء وغيرهم، كانوا قد عاشوا في القرن الثامن ــ الهجري، الرابع عشر الميلادي. وقد احتوى على ترجمة للشاعر ابن جابر الأعمى الأندلسي نزيل حلب[١٥].

١٣ ــ **كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ ١٤٤٨م** وهو أهم كتاب تراجم كتب عن رجال القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي لذلك فهو أهم من كتاب الصفدي وابن الأحمر السابقي الذكر. رتبه ابن حجر على حروف المعجم. ويعتبر بحق من المصادر الرئيسية في هذا البحث، لكونه احتوى على تراجم لأندلسيين مغاربة سكنوا بلاد الشام في القرن المذكور. واضافة إلى أنه يعرف كثيراً من علماء الأندلس نزلاء الشام، فإنه ينفرد عن غيره بأنه يذكر بعض الذين اشتغلوا في المجالات الاقتصادية، وخاصة في مضمار الصناعة[١٦]، لكون جميع الذين ألفوا في تلك الفترة اهتموا بالدرجة الأولى بالتعريف برجال العلم. ويمتاز بناحية أخرى، تتجلى بأنه يركز على أساتذة المترجم وتلاميذه،

---

١٥ ــ أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن ــ وهو كتاب نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان لابن الأحمر الغرناطي ت محمد رضوان الداية ط ١ بيروت ١٩٧٦ ص ٢٠٠.

١٦ ــ ابن حجر العسقلاني ــ الدرر الكامنة ج ٣ ط ١ حيدر آباد الدكن ١٣٤٩ هـ ص ٢٠٦.

وقضية تحوله من المالكية إلى الشافعية أو غير ذلك. ومصادره متنوعة في هذا الكتاب، كتاريخ البرزالي والذهبي وابن كثير والصفدي.

١٤ ــ كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ هـ ــ ١٤٩٧ م. وهو كتاب على منوال «الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة» لابن حجر العسقلاني المذكور آنفاً. وهو من أكبر كتب التراجم، التي تناولت علماء القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، صنفه السخاوي على طريقة حروف المعجم بادئاً من سنة ٨٠١ هـ ــ وحتى قبل وفاته بسنين قليلة. وتشمل تراجمه العلماء والرواة والأدباء والقضاة والشعراء، إضافة إلى الملوك والأمراء والوزراء من مختلف البقاع والبلدان المغربية والمشرقية.

ومن هنا فقد شكل أحد المصادر الرئيسية لكثير من فقرات هذا البحث وبشكل خاص في ميدان الإدارة كالقضاء.

١٥ ــ كتاب ذيل وفيات الأعيان المسمى «درة الحجال في أسماء الرجال» لأحمد ابن محمد المكناسي المعروف بابن القاضي المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ ــ ١٦١٦ م وهو من كتب التراجم المتأخرة، الذي ذيل فيه على وفيات ابن خلكان، منذ وفاة هذا الأخير سنة ٦٨١ هـ ١٢٨٢ م، وحتى نهاية القرن العاشر وبداية الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي[١٧] وقد رتبه على حروف المعجم بادئا بالألف، وابن القاضي لا يذكر مصادره في هذا الكتاب في غالب الأحيان، وتراجمه في معظمها من أهل الأندلس والمغرب. وعلى الرغم من أنه لا يخلو من بعض الفوائد، فانه لا ينفرد بشيء جديد يمكن أن يميزه عن غيره من المصادر.

كتب الطبقات: وهي الكتب التي تتناول تاريخ فئة من المجتمع، كالأطباء والنحويين، أو تاريخ رجال مذهب من المذاهب الدينية إلى غير ذلك. وهذه المجموعة من المصادر، كانت بالنسبة لموضوع هذا البحث على درجة كبيرة من الأهمية، وهي إذا لم تتساو

---

١٧ ــ ابن القاضي ــ ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال ج ١ ت محمد الأحمدي أبو النور ط القاهرة ١٩٧٠ ص ٥.

مع كتب التراجم ، فانها تأتي بالدرجة الثانية بعدها تماماً . من هذه الكتب ما اختص بترجمة رجال الطب ، التي منها :

كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء لموفق » الدين أحمد بن القاسم الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ١٢٧٠ م، وهو أكمل مؤلف عن الأطباء في القرون الوسطى ، أرخ لهم منذ فترة ما قبل الاسلام، وحتى فترة قليلة من وفاته ، ويتبع في هذا الكتاب التسلسل الزمني ، فقسمه إلى فصول بحسب ذلك ، الأمر الذي يساعد على الاستفادة منه بسهولة ويسر ، وتأتي أهمية هذا الكتاب بالنسبة لموضو ع هذا البحث ، من أن غالبية الأطباء الأندلسيين المعنيين هنا ، عاشو ومارسوا أعمالهم في مدينة دمشق . إذن والحالة هذه فإن ابن أبي أصيبعة معاصر للعديد منهم ، وبالتالي فانه يعرف عنهم أكثر من غيره كطبيب ، وهذا ما يجعل معلوماته عنهم أصلية لا يعتورها الشك . مثال ذلك أنه سمع وحفظ من واحد منهم ، هو الطبيب ابن البيطار ، الذي ذكر في سياق ترجمته ، أنه اجتمع به أكثر من مرة ، كانت الأولى سنة ٦٣٣ هـ ١٢٣٦ م بدمشق[١٨] . ومن هذه الكتب ما اختص بتراجم النحويين وعلماء اللغة منها .

كتاب « إنباء الرواة على أنباه النحاة » لأبي علي بن يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هــ ١٢٤٩ م وقد اشتمل هذا الكتاب على ترجمة علماء النحو واللغة من عصر أبي الأسود الدؤلي وحتى عصر المؤلف في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، إضافة إلى ذلك فقد اشتمل على تراجم أخرى كثيرة كقراء ومحدثين وكتاب ومتصوفين ومؤرخين ، ممن كان له مشاركة في اللغة أو معرفة النحو ، ولا يختص هذا الكتاب بترجمة علماء إقليم اسلامي دون آخر ، بل شمل كل علماء الأقطار الاسلامية من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، ومن أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال[١٩] لذلك فقد تنوعت مصادره وتعددت ، منها على سبيل المثال ، « تاريخ بغداد » لابن الخطيب « وتاريخ دمشق » لابن عساكر ، « والمقتبس في تاريخ الأندلس »

---

١٨ ــ ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ط ١ الطبعة البهية ١٨٨٢ ص ١٣٣ .

١٩ ــ القفطي ــ انباه الرواة علي أنباه النحاة ج ١ ت محمد أبو الفضل ابراهيم ط القاهرة ١٩٥٠ ص ٢ .

لابن حيان، «ورجال الأندلس» لابن حزم «والصلة» لابن بشكوال، «وطبقات النحويين» للزبيدي وغيرها.

وقد رتبه على حروف المعجم. وبالرغم من ضخامة هذا الكتاب، فانه لم يحتو على تراجم أندلسية كثيرة تخص هذا البحث. وكل ما ذكر فيه، اقتصر على بعض تراجم الذين سكنوا مدينة حلب مقر عمل المؤلف واقامته، وبعض هذه التراجم تعرف بوضوح على الحالة المتدهورة في الأندلس خلال القرن السادس الهجري. والكتاب الثاني الذي اقتصر على تراجم النحويين هو:

«طبقات النحويين» لتقي الدين بن أحمد المعروف بابن قاضي شهبة المتوفى سنة ٨٥١ هـ ١٤٤٧ م ومازال هذا الكتاب دون تحقيق، وقد اعتمدت على النسخة المخطوطة الموجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق. وهو يحتوي على عدة تراجم أندلسية عاش أصحابها في الشام. ولا تختلف المعلومات التي أوردها عنهم في كثير من الأحيان، عن المعلومات التي جاءت على لسان الذين سبقوه في مضمار التراجم، ما عدا بعض الذين عاصروه ودرس عليهم، حيث يعطي عنهم معلومات وافية جداً. أما الكتاب الآخر الذي يختص بالنحويين فهو. كتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى ٩١١ هـ ــ ١٥٠٥ م ويعتبر السيوطي من المؤلفين المتأخرين الذين اعتنوا بالترجمة لسابقيهم من العلماء والمشاهير وبالرغم من ذلك، فإن هذا لا يمنع من الاعتماد عليه، كأحد المصادر الرئيسية، وخاصة كتابه هذا، الذي احتوى على تراجم النحويين من مختلف الأصقاع العربية والاسلامية، سواء الذين اشتهروا منهم أم الذين لم يشتهروا[٢٠]. وقد رتبه السيوطي على طريقة حروف المعجم، لكنه خالف هذه الطريقة، بأن ابتدأ بحرف (الميم) كالكثيرين من مؤلفي التراجم.

وقد جمع فيه كل ما عثر عليه في الكتب السابقة، والتي يمكن أن أذكر منها «تاريخ بغداد» لابن الخطيب وذيله لابن النجار والذيل عليه للسمعاني، و «تاريخ

٢٠ ــ السيوطي ــ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ج ١ ط القاهرة ١٣٢٦ عني بتصحيحة محمد أمين الخانجي ــ ص ٥.

دمشق» لابن عساكر، و «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي والصلة عليه، وصلة الصلة والذيل والتكملة، و «المغرب في حلى المغرب»، وتاريخ الذهبي وغيرهم كثيرون. لذلك فهو مرجع عظيم الأهمية للتعرف على التفاصيل الدقيقة، للنحويين الأندلسيين، الذين سكنوا الشام خلال فترة هذا البحث، بحيث يكاد لا يجارى في هذا المجال. وفي مجال القراء أُلِّف كتاب هام عنهم هو:

«غاية النهاية في طبقات القراء» لمحمد بن محمد الجزري المتوفى سنة ٨٣٣هـ ــ ١٤٣٠م ويذكر الجزري في هذا الكتاب القراء، سواء منهم الذين كان لهم معرفة بعلوم القرآن وتجويده، أو أولئك الذين درسوا مواد أخرى كالنحو وغيره. وهو مرتب على حروف المعجم ــ مع مخالفة بسيطة، تجلت بأن الجزري قدم حرف (الميم) على غيره من الحروف كما فعل السيوطي. وقد اعتمد على عدة مصادر فيما يخص هذه الفترة، كالذهبي وسبط ابن الجوزي وغيرهما. ويمتاز هذا الكتاب بأنه يفصل في السيرة الشخصية لصاحب الترجمة، حياته، ثقافته، المواضع التي درس فيها، مؤلفاته، تلاميذه إلى غير ذلك من أمور.

ونال الأندلسيون الذين حلوا بالشام منه اهتماماً كبيراً، مما يجعله من المصادر الرئيسية التي توضح جوانب كبيرة من حياة قسم لابأس به منهم، وبشكل خاص أولئك الذين عاشوا بدمشق وحلب وفلسطين، من الذين عملوا بالتدريس على مختلف جوانبه وفروعه. وهناك نوع آخر من كتب الطبقات، يؤرخ لرجال مذهب من المذاهب الاسلامية. كان من كتب هذا النوع كتاب طبقات الشافعية لعبد الوهاب تاج الدين السبكي الشافعي، وهو كما يدل اسمه، يقتصر على تراجم العلماء على المذهب الشافعي. قسمه السبكي إلى عدة طبقات بحسب القدم الزمني. والذي يستفاد منه في مجال هذا البحث قليلاً من ناحية الكم، لكنه مهم جدا من ناحية الكيف. ويتجلى ذلك في الترجمة التي أوردها عن علم الدين البرزالي المحدث الأندلسي الشافعي نزيل دمشق. فقد أورد السبكي أدق التفاصيل عن هذا المحدث، ثقافته، شيوخه، مكانته العلمية، الثغرة التي تركها بموته في ميدان علم الحديث. واعتمد في معلوماته على والده، الذي كان صديقا للبرزالي المذكور، وعلى ابن فضل الله العمري

صاحب المسالك والممالك. ويمكن وضع كتاب آخر ضمن هذه المجموعة، هو كتاب (ترتيب المدارك) للقاضي عياض اليحصبي المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ـ ١١٥٠م وذلك لأنه يتحدث فيه عن الكثيرين من فقهاء الأندلس والمغرب. وهو يعرِّف بشكل خاص مدى تعلق المالكية بمذهبهم. ومثله أيضاً كتاب «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب»، لابراهيم بن علي المعروف بابن فرحون المتوفى سنة ٧٩٩ هـ ـ ١٣٩٧م وقد أتى فيه على ترجمة العلماء المشاهير من المالكية، كالحفاظ والرواة والمحدثين وغيرهم. وهو كتاب قليل الفائدة على صعيد هذا الموضوع، لكونه لا يحتوي شيئاً جديداً يعول عليه. وقد ألفت كتب في طبقات المحدثين ورواته، اقتصر فيها أصحابها على الحفاظ من المحدثين الكبار، كان أهمها (تذكرة الحفاظ للذهبي، (وطبقات الحفاظ للسيوطي) وهذان الكتابان مرتبان على حسب قدم المحدثين وتسلسلهم الزمني. وعلى اعتبار أن بعضاً من الأندلسيين، اشتهروا في هذا المضمار، فان هذين الكتابين، تضمنا سير هذا البعض، مثال ذلك علم الدين البرزالي وغيره. ومن المؤلفات التي تنضوي تحت عنوان الطبقات، ماألف في طبقات الصوفية. مثال ذلك كتاب (الطبقات الكبرى المسمى بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار) الذي ألفه عبد الوهاب الشعراني. ويستفاد منه بشكل خاص، بالتعرف على أشياء هامة، تتعلق بالمتصوف الكبير ابن عربي الأندلسي، الذي يدافع عنه الشعراني بشدة، وخاصة مذهبه في الوجود[٢١] يضاف إلى ذلك أن هذا الكتاب يحتوي على سير لبعض تلامذة ابن عربي في دمشق وغيرها. ومن كتب الطبقات، مااقتصر على تصنيف الأمم والشعوب، وأهليتها على جميع الأصعدة، وبشكل خاص على الصعيد العلمي. والكتاب الوحيد في هذا المضمار (طبقات الأمم) لصاعد بن أحمد الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٢ هـ ـ ١٠٧٠م وقد أشار فيه، إلى أن الحركة العلمية الأندلسية، بدأت باتجاه الازدهار والتطور، منذ نهاية الثلث الأول من القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي.

---

٢١ ـ عبد الوهاب الشعراني ـ الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار ـ ج ١ ط مصر ١٣٠٥ ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

كتب التاريخ العام : وهي التي تبحث في التاريخ العام منذ بدء الخليقة وحتى عصر المؤلف وما يجعل مثل هذه الكتب هامة على صعيد بحثي هذا، أنها احتوت على سير كثير من الأندلسيين المغاربة، الذين عاشو في بلاد الشام، اضافة إلى بعض الأمور الأخرى منها :

كتابي مروج الذهب ومعادن الجوهر، والتنبيه الاشراف لعلي بن الحسين المسعودي المتوفى في سنة ٣٤٥هـ ــ ٩٥٦م يمتاز المسعودي عن مؤرخي التاريخ العام، بأنه يميل إلى الاختصار والاختيار، فهو لا يعطي رواية تاريخية متصلة الحلقات لحوادث التاريخ الاسلامي، بقدر ما يركز على حوادث جلبت انتباهه أكثر من غيرها[٢٢] . كما أنه يمتاز بناحية أخرى، لا توجد عند الطبري مثلاً، تتجلى بأنه يؤرخ للأندلس. أما بالنسبة للمادة التي يوردها في كتابه الأول، فلم تكن متعددة الوجوه، اقتصر على ملاحظة نقلها عن الجاحظ. وتتعلق بكتاب العثمانية الذي شاهده بنفسه واطلع على مضمونه كما يقول[٢٣] . أما في كتابه الثاني «التنبيه والاشراف»، فإن الفائدة، كانت أكثر قيمة والتصاقا بهذا الموضوع، حيث يبين فيه من خلال كتاب شاهده في مدينة طبريا سنة (٣٢٤هـ ــ ٩٣٦م) مدى رغبة الأمويين في الأندلس بالسيطرة على المشرق وخاصة بلاد الشام، الأمر الذي يساعد على التدليل على وجود علاقة سياسية بين الأندلس والشام. والكتاب الثاني في هذه المجموعة هو :

ــ كتاب «الكامل في التاريخ» لعلي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٠هـ ــ ١٢٣٣م. بدأه منذ الخليقة والطوفان وبلغ فيه سنة ٦٢٨هـ ــ ١٢٣١م وهو مرتب على النظام الحولي، يجمع الحادثة في مكان واحد حتى لا يجعلها مضطربة، ويؤرخ للحوادث الصغيرة والوفيات في آخر كل سنة، ولا وجود للسند عنده. والذي يزيد هذا الكتاب أهمية عن كثير من كتب التاريخ العام، بالنسبة للمعنيين بتاريخ الأندلس والمغرب، أن ابن الأثير يؤرخ للمغرب كما يؤرخ للمشرق.

---

٢٢ ــ فاروق عمر ــ طبيعة الدعوة العباسية ط ١ بيروت ١٩٧٠ ص ٣٤ .

٢٣ ــ المسعودي ــ مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٤ ت شارل بلاط بيروت ١٩٧٣ ص ٧٧.

ولعل أفضل اشارة لابن الأثير فيما يتعلق بهذا البحث، تلك التي وردت ضمن حديثه عن حكام سرقسطة في الأندلس (بنو هود). فيذكر كيف سيطر عليهم المرابطون سنة ٥٠٠ هـــ ١١٠٧م. ويضيف أنه شاهد أحد أبنائهم بدمشق سنة ٥٩٠ هـــ ١١٩٤م وبهذا يعطي فكرة واضحة عن عوامل الطرد، التي استجدت بفعل تعاقب الدول على الساحة العربية في الأنـدلس، والتي تعـددت وجوههـا وأسبابها[٢٤].

ـــ كتاب «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» ليوسف بن قزاوغلي المعروف بسبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤هـــ ١٢٥٦م. وهو كتاب في التاريخ العام انتهى فيه عند السنة التي توفى فيها سبط ابن الجوزي. وهو مرتب على نظام الحوليات. فهو يتكلم عن أحداث كل سنة على حدة، مستعرضاً الأحداث الهامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويفرد في نهاية كل سنة فصلاً خاصاً للوفيات، وإذا كان أحد المتوفين من الرجال المشاهير، فإنه يفرد له فصلاً خاصاً به. أما بخصوص مصادره فهي متعددة في هذا الكتاب، أهمها في الفترة التي تخص هذا البحث ابن عساكر وابن القلانسي. ويعتبر سبط ابن الجوزي شاهد عيان ومعاصر للفترة التي تلت نهاية القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي. وبالرغم من ذلك، فانه لم يأت بمعلومات ذات أهمية كبيرة فيما يخص الأندلسيين في بلاد الشام، باستثناء بعض التراجم، التي كان أهمها ابن دوباس الفندلاوي[٢٥]. ودليل ذلك ترجمته القصيرة جداً للمتصوف الكبير ابن عربي، والذي كان من المتوقع أن يعطي حوله شيئاً كثيراً من التفاصيل، لكونه معاصراً له.

ـــ كتاب «المختصر في أخبار البشر» للملك المؤيد عماد الدين اسماعيل المعروف بأبي الفداء المتوفى سنة ٧٣٢هـــ ١٣٣٢م بدأ فيه من آدم، وانتهى قبل

---

٢٤ ـــ سبط ابن الجوزي ـــ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ـــ القسم الأول من الجزء الثامن ط ١ حيدر أباد الدكن ١٩٥١ ص ٢٠٠.

٢٥ ـــ ابن الأثير ـــ الكامل في التاريخ ـــ ج ٩ ط بيروت ١٩٦٦ ص ٢٨٩.

وفاته بعدة سنوات . وأسلوبه فيه يشبه أسلوب ابن الأثير ، فهو كتاب حولي ، يؤرخ للأحداث الكبيرة ، التي يضع لها عناوين بارزة وبعد أن ينتهي من شرحها ، يلجأ إلى ذكر الحوادث الصغيرة والمستجد من الأمور ، ويتلو ذلك ذكر للذين توفوا في السنة التي يكتب عنها وهكذا .

ومصادره متعددة في هذا الكتاب ، كابن الأثير في « الكامل » وابن مسكويه في « تجارب الأمم » و « التاريخ المظفري » لابن أبي الدم ، وابن خلكان وابن سعيد المغربي وابن واصل وغير ذلك . وهو لا يذكر مصادره في سياق الحادثة كما هو حال الكثيرين من المؤرخين . وأهمية هذا الكتاب ليست كبيرة على صعيد هذا البحث ، بالرغم من أنه كان حاكم حماة لفترة طويلة (٧١٦ هـ ـ ٧٣٢ هـ ـ ١٣١٦ م ـ ١٣٣١ م) إضافة إلى علو مرتبته عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، بالرغم من كل هذا ، فلم يول الجالية الأندلسية اهتماماً يستحق الذكر : وخاصة في مدينة حماة ، التي كان يرتادها الأندلسيون بصورة مستمرة . وهو كتاب غني للمهتمين بالناحية السياسية وبشكل خاص في فترة حكم المماليك التي كتب عن قسم كبير منها . وقد اختصره وذيل عليه زين الدين عمر بن الوردي في كتاب سماه (تتمة المختصر في أخبار البشر) ووصل فيه حتى سنة ٧٤٥ هـ ـ ١٣٣٢ م . وقد اتبع في كتابته أسلوب أبي الفداء نفسه . ويمتاز عنه بأنه أضاف بعض المعلومات والحواشي التي لم ترد في المختصر ، كما أن مجال الفائدة منه ، كان مميزا إلى حد ما ، فقد أمكن التعرف على مدى ما كان يكنه صلاح الدين الايوبي للأندلسيين من احترام وإعجاب ، فقد ذكر ابن الوردي ، حادثة عنه جاءت ضمن حديثه عن مشاكل سنة ٥٨٤ هـ ـ ١١٨٨ م ، عندما كان صلاح الدين عائداً من مدينة حلب ، حيث عرج على دير سمعان لزيارة قبر عمر بن العزيز ، وأثناء ذلك سمع بوجود شيخ مغربي هو أبو زكريا المغربي ، فقام بزيارته شخصياً[٢٦] ومن ناحية أخرى فقد عكس ابن الوردي حقد الفقهاء على المتصوف الأندلسي ابن عربي ، من

---

٢٦ ـ ابن الوردي ـ تتمة المختصر في أخبار البشر ج ٢ ت أحمد رفعت البدراوي ط ١ بيروت ١٩٧٠ ص ١٥١ .

خلال حادثة يرويها في سنة ٧٤٤ هـ ــ ١٣٤٣ م، والذي كان أحد أبطالها، والتي تتلخص بأن لفيفا جاهلاً من الفقهاء، اجتمعوا في المدرسة العصرونية بحلب، وتدارسوا فيما بينهم كتاب فصوص الحكم، وقرروا إحراقه بهدف عدم تداوله بين الناس[٢٧] يضاف إلى ذلك، فقد احتوى كتابه على بعض تراجم الأندلسيين، وقد ألقى عليها ضوءاً أكثر دقة من غيره، كابن مالك النحوي وغيره.

أما كتاب «العبر في خبر من غبر» للحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ــ ١٣٤٣ م. فهو مرتب على نظام السنين فبدأه من السنة الأولى للهجرة إلى سنة ٧٠٠ هـ ــ ١٣٠١ م. ويمتاز هذا الكتاب عن غيره من كتب التاريخ العام، بالاختصار الشديد. فقد ركز على الحوادث الكبرى ووفيات المشاهير ويمكن اعتبار هذا الكتاب خلاصة للتاريخ العربي الاسلامي في هذه الفترة، الأمر الذي حدا بالكثير من المؤرخين، لأن يعتمدوا عليه بصورة رئيسية كالنعيمي وابن العماد الحنبلي. وما يدلل على ذلك، أن الذهبي لم يذكر مصادره في كثير من الأحيان. ومهما يكن من شيء، فهو مصدر رئيسي اعتمدته بشكل كبير، لما تمتعت معلوماته به من أهمية بالغة، كونه أحد كبار علماء الشام ومحدثيها في القرون الوسطى. وهناك كتاب آخر هو:

ــ كتاب «مرآة الجنان وعبرة اليقظان» لعبد الله بن أسعد اليافعي اليمني المكي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ ــ ١٣٦٧ م. ويمكن اعتباره من كتب التاريخ العامة، وان كانت الصفة الغالبة عليه، هي صفة كتب التراجم. وقد رتبه اليافعي المكي على نظام السنين (الحوليات) فبدأ من السنة الأولى للهجرة وبلغ فيه سنة ٦٩٤ هـ ــ ١٢٩٥. وهو يذكر الحادثة بشكل مقتضب، ويورد في آخرها أهم الوفيات. ويعتمد في مصادره على ابن خلكان والذهبي وغيرهما. وتراجمه عن الأندلسيين في هذه الفترة، لا تشكل أهمية كبيرة، إذا ما استثني رأيه في ابن عربي، الذي يعتبر أحد العلماء المدافعين عنه[٢٨] وبعض التصحيحات عن بعض الأندلسيين

---

٢٧ ــ المصدر السابق ج ٥ ص ٤٧٨.

٢٨ ــ اليافعي المكي ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ــ ج ٤ ط ١ حيدر آباد الدكن ١٣٣٩ ص ١٠٠ ــ ١٠١.

كبدر الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ هـ ـــ ١٢٩٤ م، فقد صحح معلومات الذهبي عن المذكور، لكنه لم يتخذ أمراً فصلاً في ذلك[٢٩].

ـــ **كتاب البداية والنهاية لاسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ـــ ١٣٧٣ م**. ويؤرخ فيه منذ بدء الخليقة وحتى سنة ٧٦٧ هـ ـــ ١٣٧٢ م. وقد اتبع فيه الترتيب الحولي. ويركز على الأحداث الهامة والبارزة، ويقوم بعرض الوفيات في نهاية كل سنة، وهنا يلاحظ أن الترجمة تطول أو تقصر بحسب أهمية الشخصية المترجم لها. ومصادره في القسم الخاص بهذه الفترة متعددة، كالعماد الكاتب وابن شداد وابن واصل وابن الأثير وأبو شامة وسبط ابن الجوزي والبرزالي وغيرهم. يضاف إلى كل ذلك أنه عاش فترة لابأس بها من المدة التي أرخ لها. ويعتبر ابن كثير من المؤرخين الثقاة، حيث تتسم كتاباته بالموضوعية وشدة الدقة والاتقان. وهو يفيد بشكل خاص في التعرف على القضاء والقضاة المالكية، أضف إلى ذلك أنه يفيد بالتعرف على النهضة العلمية بمدينة دمشق من خلال بعض التراجم. وهو أحد الذين اتهموا ابن عربي بالكفر الصريح في كتابه «فصوص الحكم». ويأتي في خاتمة هذه الكتب:

ـــ **كتاب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لعبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفى ١٠٨٩ هـ ـــ ١٦٧٨ م** وهو من الكتب المتأخرة جداً، التي دونت حول الفترة، وهو كغيره من كتب التاريخ العام، الذي صنف على نظام الحوليات. وقد بدأه من السنة الأولى للهجرة وحتى سنة ٩٩٩ هـ ـــ ١٥٩١ م ويؤرخ للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والطبيعية في بداية كل سنة. وكثيرا مايشذ عن القاعدة ليبدأ بعرض الوفيات مباشرة، وغالباً مايقتصر على ذكر المشاهير والأعلام. وباعتبار أن ابن العماد الحنبلي لم يعش شيئاً من هذه الفترة، فإن من الطبيعي، أنه اعتمد النقل بشكل كامل عن الذين سبقوه، وهو ينقل فيما يخص فترة هذا البحث عن أعلام مشاهير، كالذهبي وابن خلكان، وابن حجر العسقلاني في «لسان الميزان»

---

٢٩ ـــ المصدر السابق ص ٢٠٣.

والسيوطي وغيرهم . وبرغم بعده عن هذه الفترة ، فإنه يلقي أضواء ساطعة على كثير مما يتعلق بالأندلسيين في بلاد الشام ، مثال ذلك ابن عربي الذي وصفه بالاجتهاد المطلق[٣٠] ويعرف بشكل واضح على أعدائه وخصومه ، إضافة إلى أقوال تلاميذه ، الشيء الذي لا يتوفر في مصادر أخرى ، وإذا ماأضيف إلى ذلك اهتمامه بتراجم القضاة الأندلسيين ، فإن التراجم الأخرى تبقى عادية لا جديد فيها .

تواريخ البلدان والموضوعات : وهي كتب مخصصة لتاريخ بلد ما أو عدة بلدان وربما اقتصر بعضها على تاريخ مدينة واحدة فقط ، أو سيرة لأحد القادة أو أكثر . وهي كثيرة جداً على صعيد هذا البحث ، إضافة إلى أنها مفيدة . ومنها :

كتاب ذيل تاريخ دمشق لحمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي المتوفى سنة ٥٥٥هـ ــ ١١٦٠م ويؤرخ فيه ابن القلانسي لمدينة دمشق من سنة (٤٤٨ ــ ٥٥٥) رتبه على نظام الحوليات . وبالرغم من أن غالب أحداثه عن دمشق ، فانه يتناول أحداثاً أخرى هامة عن مصر وبغداد وحلب وغيرها من المدن الشامية الأخرى ، وبعض الأخبار السياسية بمدينة دمشق ، وغيرها من بلاد الشام ، في عهد الفاطميين والبوريين ، وفترة قصيرة من الدولة النورية . وتأتي أهمية هذا الكتاب بالنسبة لموضوع هذا البحث ، أن ابن القلانسي عكس من خلال كتاباته عن فترة نور الدين زنكي ، أن بعض الفقهاء دعوا إلى نسيان كل شيء الا الجهاد ضد الصليبيين ، الأمر الذي توافق مع أهداف نور الدين نفسه ورغبات الأندلسيين . كما أنه يعكس من خلال بعض الأخبار عن الأندلس ، التأثير الكبير الذي سببته الحروب بين الموحدين والمرابطين على الأندلسيين أنفسهم ، واللجوء إلى النزوح والهجرة وقدوم بعضهم إلى دمشق ، مثال ذلك الفقيه محمد بن عبد الجبار الصقلي الذي أكد للقلانسي هذه الأخبار[٣١] . وعن مدينة دمشق ألف القاسم بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ ــ ١١٧٥ م ، كتابا يعرف عادة بتاريخ مدينة دمشق . وهو وان كان على

٣٠ ــ ابن العماد الحنبلي ــ شذرات الذهب ج ٥ ط بيروت ص ٢٠٠ .

٣١ ــ ابن القلانسي ــ ذيل تاريخ دمشق ط بيروت ١٩٠٨ ص٢٩٣ .

ترتيب كتب التراجم، فان من المستحسن وضعه تحت عنوان كتب الموضوعات، لكونه يختص بالعلماء الدمشقيين والوافدين إلى دمشق فقط. وهو من الكتب الضخمة التي تؤرخ للعلماء الذين سكنوا وزاروا دمشق منذ صدر الاسلام وحتى قبل وفاة المؤرخ بقليل. ويتبع فيه ابن عساكر طريقة السند متأثراً بذلك بأسلوب المحدثين، حيث لا غرابة في ذلك وهو المحدث الكبير. وقد طبع بعد التحقيق من هذا الكتاب جزءآن، هما الأول الذي حققه الدكتور صلاح الدين المنجد، والعاشر الذي حققه الدكتور شكري فيصل، أما بقية الأجزاء وعددها سبعة عشر جزءاً فما زالت مخطوطة تنتظر من يظهرها إلى حيز الوجود. والنسخة التي اعتمدت عليها هي النسخة المحفوظة في دار الكتب الوطنية بدمشق (الظاهرية). ولم يكن ابن عساكر ليشمل جميع الأندلسيين، الذين قدموا إلى الشام، بل تناسى، وربما نسي، أن يأتي على ترجمة أحدهم وهو معاصر له، هو أبو الحجاج يوسف الفندلاوي. لكنه بالرغم من هذا فان كتابه يحتوي على بعض التراجم الهامة، وخاصة التي ورد أصحابها دمشق في القرن السادس الهجري. وبعض الذين وردوها بقصد نهل العلم في القرون السابقة الأولى. أما الكتاب الثاني. فهو «تهذيب ابن عساكر»، الذي اختصره بشكل تخلص من السند بعض الشيء. لكنه يبقى صورة طبق الأصل عن الأول.

كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» للعماد الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ــ ١٢٠١ م ويأتي الكاتب الأصفهاني بالدرجة الثالثة بعد القاضي الفاضل وابن شداد، كتاب «صلاح الدين الايوبي»: وكتابه هذا يختص بأعمال صلاح الدين الحربية ضد الصليبيين. لذلك فان أهميته بالغة تكمن بأن صاحبه كان كاتباً ملازماً لصلاح الدين الايوبي المعني بهذا الكتاب، الأمر الذي يجعله من المصادر الأصلية للمهتمين بتاريخ الحروب الصليبية، لما للعماد من معرفة ضليعة بها. ومع ذلك فهو لا يولي اهتماماً كبيراً لوضع المغاربة، بالرغم من تواجدهم الكبير في جيش صلاح الدين إلا في القليل النادر.

مثال ذلك، أنه في سنة ٥٨٧ هـ ــ ١١٩٣ م وعندما حاصر صلاح الدين مدينة عكا، طلب الملك الصليبي الصلح وقبل صلاح الدين. وجاء رسول الصليبيين

ومعه أسير مغربي[٣٢] ومثل هذا الأمر له أهميته البالغة، فهو يدل من ناحية أولى على اشتراك المغاربة بشكل فعلي بالحرب ضد الصليبيين، ويدل من ناحية أخرى على مدى التقدير الذي أولاه صلاح الدين لهم جزاء حسناً على أفعالهم. وهناك كتاب آخر حول هذا الموضوع هو: كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) لابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ـ ١٢٣٥ م. ويعتبر ابن شداد أيضاً من الرجال المقربين جدا من السلطان صلاح الدين الأيوبي، منذ أن تسلم السلطة حتى وفاته. ويركز بشكل كبير في هذا الكتاب على المعارك التي خاضها صلاح الدين ضد الصليبيين، سواء في حطين أم في غيرها. يضاف إلى ذلك أن ابن شداد يدرس أخلاقه وتصرفاته السياسية وغيرها. وبالرغم من قربه من صلاح الدين ومعرفته الأكيدة بكل شيء يتعلق به، فانه لم يول الأندلسيين اهتماماً كبيراً. لكنه يوضح بشكل بارز موقف صلاح الدين من العلماء وتشجيعه لهم. وهذا أمر يساعد على ايضاح أمور كثيرة وخاصة منها عوامل الجذب. كما أنه يشير في مكان آخر إلى كره صلاح الدين الايوبي للفلاسفة وبعض العلوم الأخرى، في الوقت الذي قرب فيه رجال العلوم الدينية[٣٣].

ولابن شداد كتاب آخر، هو الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة دمشق). وهو عبارة عن كتاب خطط، يتعلق بما شاده صلاح الدين وغيره من الايوبيين من مدارس ومساجد وغيرها. ولعل أغنى ما فيه بالنسبة لموضوع هذا البحث، تجديد الكلاسة من قبل صلاح الدين، وتعيين أبي أحمد جعفر القرطبي إماما لها، وتسلسلت بأولاده حتى سنة ٦٤٣ هـ ـ ١٢٤٥ م[٣٤]. وينقل في أمكنة متفرقة أشعاراً لبعض الأندلسيين، الذين أعجبوا بدمشق كابن سعيد وغيره. وعن صلاح الدين كتب مؤلف آخر كتاباً ضمنه الدولة النورية هو:

«كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» لعبد الرحمن بن

---

٣٢ ـ العماد الكاتب ـ الفتح القسي في الفتح القدسي ت محمد محمود صبح بدون تاريخ طبعة ص ٥٠٢.

٣٣ ـ ابن شداد ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ت جمال الدين الشيال ط ١ القاهرة ١٩٦٤ ص ١٠.

٣٤ ـ ابن شداد ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة دمشق) ت سامي الدهان ط دمشق ١٩٥٦ ص ٥٦.

اسماعيل المقدسي المتوفى سنة ٦٦٥هـ ـ ١٢٦٦م. وهو بمجمله تاريخ سياسي، جمع فيه المقدسي عصارة كتب سابقة ألفت حول هذا الموضوع. وهو من المصادر القليلة الفائدة على صعيد هذا الموضوع. وله كتاب آخر أكثر فائدة هو: الذيل على الروضتين. وهو كتاب ذو قيمة كبيرة للغاية من جميع النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لفترة امتدت من سنة ٥٩١هـ ـ ١١٩٥م وحتى سنة ٦٦٥هـ ـ ١٢٦٦م، وهو مرتب على نظام السنين. ويركز فيه المقدسي على ذكر الوفيات المشهورة في كل من مصر وبلاد الشام. وربما أن هذا هو السبب الذي حدا بالبعض لتسميته بتراجم القرنين السادس والسابع. لكن هذا الأمر لا يمنع من القول، أنه احتوى على الأخبار السياسية الهامة، التي حدثت خلال هذه الفترة من تاريخ مصر وبلاد الشام والأندلس. وتنبع أهمية هذا الكتاب بشكل خاص، من أن صاحبه معاصر وشاهد عيان على نسبة كبيرة من حوادثه وتراجمه. لذلك فهو من المصادر الأصلية الدقيقة. ولم يكن حظ الأندلسيين موضوع هذا البحث قليلا في هذا الكتاب، حيث أتى على ذكر كثيرين منهم، وكشف من خلال تراجمهم أشياء كثيرة تتعلق بأماكن عملهم وسكنهم وأوضاعهم الاجتماعية العامة. لكن يؤخذ عليه، أنه لم يفصل كثيرا في أحوالهم كما فعل بتراجم غيرهم من الشاميين والغرباء الآخرون، بالرغم من أنه هو ووالده تزوجا من نساء آندلسيات، أضف إلى ذلك، أنه كان يعرف نسبة كبيرة من الذين عاشوا بدمشق، حتى أنه صلى على بعضهم وشارك في تشييع آخرين. وهناك كتاب اختص بتاريخ مدينة حلب هو كتاب: زبدة الحلب من تاريخ حلب لعمر بن أحمد المعروف بابن العديم المتوفى سنة ٦٦٠هـ ـ ١٢٦٢م تعرض فيه ابن العديم لتاريخ مدينة حلب، منذ أقدم العصور وحتى القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، فيذكر أحوالها السياسية والعلمية والاجتماعية. ورغم أنه يوحي للوهلة الأولى بأنه مختص بمدينة حلب، فإنه يتضمن معلومات وافية عن مناطق شامية متعددة. وهو لا يحتوي على معلومات تتعلق بالأندلسيين، إلا في النادر، الأمر الذي يجعله من المصادر الثانوية على هذا الصعيد. وقد ذيل عليه علي بن خطيب الناصرية الحلبي بكتاب سماه «الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب». وقد اطلعت على الجزء الأول والثاني من الكتاب، وهو مخطوط محفوظ بمكتبة المدرسة الأحمدية بحلب، بدأ فيه ابن

خطيب الناصرية المذكور من سنة ٦٥٨ هـ ـــ ١٢٦٠ م. وقد رتبه على حروف المعجم، فأرخ للعلماء والأعيان والقضاة والرجال المرموقين؛ الذين ولدوا بحلب أو درسوا بها أو زاروها أو حكموا بها كولاة أو قضاة أو غير ذلك. وهو يشبه تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر من حيث الأسلوب والهدف. ويعتمد في هذا الكتاب على مصادر متعددة، أهمها تاريخ الصفدي، والبرزالي، وابن رافع وابن حبيب وغيرهم. ويمتاز هذا الكتاب، بأنه يحتوي على معلومات تفصيلية قلما توجد في غيره عن الرجال، الذين تحدث عنهم ويحتوي على تراجم أندلسية مغربية، علمية وإدارية لا بأس بها.

ـــ كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لعبد الواحد المراكشي، وهو من الكتب التي أرخت للأندلس والمغرب من سنة ٩٢ هـ ـــ ١٧١١ م وحتى سنة ٦٢١ هـ ـــ ١٢٢٤ م وبذلك يكون قد اقتصر على الدول التي تعاقبت على أرض المغرب والأندلس. ويعتمد على المعلومات التي كانت عالقة في فكره من خلال مطالعاته عن الفترة التي سبقت حكم الموحدين. ومعلوماته عنهم تعتبر من الوثائق الأصلية، كونه واحداً من الذين شاركوا وخبروا عن قرب أحداث البلاط الموحدى. وهو يفيد بشكل خاص على صعيد هذا البحث، بأنه يوحي من خلال تركه لبلاده والهجرة إلى المشرق، على أن الخلافات السياسية، كان لها أثرها الفعال على الهجرة من الأندلس إلى الشرق، ليس فقط للذين يعادون النظام، بل أيضا للذين يؤيدونه، كما هو الحال بالنسبة للمراكشي هذا[٣٥]. يضاف إلى ذلك، فانه يحتوي على أمثلة لعلماء كانوا ينتقلون من مدينة أندلسية إلى أخرى في فترة حكم دول الطوائف. وهناك كتاب آخر عن الأندلس والمغرب، هو كتاب «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» لابن عذارى المراكشي. درس فيه تاريخ الأندلس والمغرب منذ الفتح وحتى سنة ٦٦٧ هـ ـــ ١٢٦٩ م[٣٦]. وقد رتبه على نظام السنين.

---

٣٥ ـــ عبد الواحد المراكشي ـــ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـــ ت محمد سعيد العريان + محمد العربي العلمي ط ١ ـــ القاهرة ١٩٤٩ مقدمة المحقق ص ١٢.

٣٦ ـــ ابن عذاري ـــ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ١ ت ج. س كولان ـــ ليفي بروفنسال ط دار الثقافة بيروت ص ٥٠٤.

ومعظم معلوماته سياسية : لكنه لا يخلو من بعض الأمور الإدارية والاقتصادية وغيرها، ومصادره في هذا الكتاب كثيرة جدا، بحيث لا يمكن عرضها هنا، وهي مغربية أندلسية ومشرقية(٣٧) وهو يعطي فكرة واضحة عن حنين عبد الرحمن الداخل إلى الشام، أضف إلى ذلك أنه يكشف عن بعض الاضطرابات الداخلية على صعيد الأندلس، منذ سقوط الخلافة الأموية فيها. ويحتوي على إشارات تتعلق بالتجارة بين الشام والأندلس، ومن هذه المصادر ما أرخ صاحبه للبلدان العديدة مثال :

ـ كتاب «معجم البلدان» لياقوت بن عبد الله الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ـ ١٢٢٩ م وهو من الكتب النادرة التي صنفت على طريقة المعاجم. وهو يرتب المدن والبلدان على أساس الترتيب الهجائي. فيورد لمحة تاريخية عن كل مدينة، ولمحة عن موقعها والقلاع والمرافىء التي فيها، ولمحة عن الذي سكنها من المشاهير. وتنعكس في هذا الكتاب الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة وعلم الاجناس والأدب الشعبي. ويعتمد ياقوت الحموي على عدة مصادر، أدبية وتاريخية سابقة عليه، إضافة إلى أنه سمع من أفواه الرواة، وشاهد بالعين، لكونه كان تاجراً(٣٨). وهو كتاب لا يخلو من فائدة، بالنسبة لأمور متفرقة تخص الأندلسيين، مثال ذلك، ما يذكره في معرض حديثه عن مدينة دمشق، بأنها تتمتع بخصائص جاذبة، لا تتوفر في غيرها من البلدان على الصعيد الطبيعي والاجتماعي(٣٩)، أما كتابه «معجم الأدباء»، فهو لا يتساوى مع الكتاب الأول، من حيث الاعتماد عليه هنا.

ـ كتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» لابن واصل المتوفي ٦٩٧ هـ ـ ١٢٩٨ م، وهو كتاب سياسي محض يتناول فيه ابن واصل بحث الأحداث التي جرت لأولاد صلاح الدين الأيوبي واحفاده. وهو ذو قيمة عالية بالنسبة لدراسة هذه الفترة من الناحية السياسية وغيرها، لكون ابن واصل أحد المقربين من الايوبيين، فقد خبر الأحداث وعاشها على أرض الواقع، وبالتالي فإن معلوماته تعتبر

---

٣٧ ـ البيان المغرب ـ ج ١ ص ٢ ـ ٣.

٣٨ ـ معجم البلدان ـ ج ١ ط بيروت ١٩٥٥ ص ١١ وما بعدها.

٣٩ ـ معجم البلدان مجلد ٢ ص ٤٧٤.

وثائق أصلية في كثير من الأحيان. وكل ما يستفاد منه خول الأندلسيين المغاربة موضوع هذا البحث أنه يذكر أحدهم، وهو جمال الدين عبد الحق المغربي، الذي كان من خواص الملك الناصر صلاح الدين داود المعظم صاحب الكرك. فكان منجمه الخاص يعتمد عليه كثيرا في هذا المجال(٤٠) وجمال الدين هذا، هو أحد المتصوفين الأندلسيين في القرن السابع الهجري. واشتغاله في ميدان التنجيم دليل حي، على أن التصوف كثيراً ما كان يختلط بالتنجيم، الذي اشتهر على صعيده المغاربة في بلاد الشام. وهناك كتاب آخر، ينضوي تحت عنوان هذه المجموعة، وان كانت مضامينه أوسع بكثير من غيره، هو كتاب:

— **«ذيل مرآة الزمان» لموسى بن محمد اليونيني المتوفى سنة ٧٢٦هـ — ١٣٢٦م**، وهو كتاب في أربعة أجزاء ذيل فيه اليونيني على كتاب مرآة الزمان لابن الجوزى، الذي ينتهي عند سنة ٦٥٤ هـ — ١٢٥٦. وقد رتب اليونيني هذا الكتاب على نظام السنين، ويدرس فيه الحوادث الهامة البارزة من جميع النواحي تقريباً، ويركز بشكل خاص على السياسية منها، في جميع المناطق والبلدان، التي كانت تتبع لسيطرة وحكم الايوبيين والمماليك. ويفرد فصلاً في نهاية كل سنة، يذكر فيه الوفيات المشهورة. ومصادر اليونيني متعددة الأنواع، كالنقل عن سابقين عليه كابن خلكان وغيره، والسماع من أفواه الرجال مباشرة إلى غير ذلك. وقد برهن اليونيني في كتابه هذا على براعته في مضمار تراجم الأشخاص، الأمر الذي يجعل منه مصدراً رئيسياً غنياً لكثير من الشخصيات الأندلسية التي سكنت الشام خلال القسم الأول من فترة هذا البحث، ويمتاز عن غيره، بالإحاطة الشاملة بترجمة الشخص المعني من كل النواحي، حياته مولده وفاته تنقلاته أماكن عمله، وأقوال العلماء وآراؤهم فيه، إضافة إلى انتاجه العلمي، ويهتم بصورة خاصة بالتلاميذ الذين تخرجوا ودرسوا على العلماء الأندلسيين المغاربة. كما يعطي أمثلة واقعية على مدى الاحترام الفائق، الذي أولاه أحفاد صلاح الدين الايوبي للمغاربة، كما حدث لشيخ الرباط الناصري بالصالحية بدمشق

٤٠ — ابن واصل — مفرج الكروب في أخبار بني أيوب — ج ٤ ت حسنين محمد ربيع — ط دار الكتب ١٩٧٢ ص ٣٣٠ — ٣٣١.

محمد بن أحمد جمال الدين البكري الشريسي سنة ٦٥٦ هـ ــ ١٢٥٨ م مع الملك الناصر يوسف الايوبي[٤١] وهناك كتاب اقتصر على أخبار غرناطة) للسان الدين محمد بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ــ ١٣٧٤ م وهو عبارة عن معجم أعلام، جمع فيه ابن الخطيب سير النابهين من أهل مملكة غرناطة، ومن وفد عليها وسكنها. وقسمه إلى عدة أقسام، وذلك بحسب المنصب والمكانة، كالملوك والأمراء والعمال والقضاة والقراء والمحدثين والفقهاء إلى غير ذلك.

وهو يدلل من خلال بعض تراجم الأشخاص الذين زاروا الشام، على أن هذه الأخيرة، كانت تحتل مكانة عظيمة الأهمية عند الأندلسيين المغاربة من جميع النواحي، أضف إلى ذلك، أنه يذكر إشارات متفرقة ضرورية لهذا البحث. وقد وجد من بين هذه المجموعة من المصادر، مااختص بتاريخ مصر والشام، ككتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) لأحمد بن علي المقريزي. ويعتبر هذا الكتاب تكملة لكتابي (عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط) و (اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا). وهذان الكتابان كما يقول المقريزي نفسه: «يشتملان على ذكر من ملك مصر من الأمراء والخلفاء وما كان في أيامهم من الحوادث والأنباء، منذ فتحت إلى أن زالت الدولة الفاطمية»[٤٢] ويلخص مضمونه بالقول:

«وأحببت أن أصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية والسلاطين المماليك التركية والجركسية في كتاب يحصر أخبارهم الشائعة، ويستقصي أعلامهم الذائعة، ويحوي أكثر ما في أيامهم من الحوادث والماجريات، غير معتن فيه بالتراجم والوفيات..»[٤٣] وقد رتبه على نظام السنين. ويستعرض فيه الأحداث التي جرت بمصر وبلاد الشام على حد سواء بدءاً من ظهور صلاح الدين في مصر وحتى سنة ٨٠٨ هـ ــ ١٤٠٥ م ويمكن اعتباره مصدراً أساسياً لبلاد الشام في هذه الفترة الزمنية، لكون المقريزي، خصها بقسم كبير منه، على اعتبار أن الشام، كانت تشكل

---

٤١ ــ اليونيني ــ ذيل مرآة الزمان ــ مجلد ٤ ط ١ حيدر أباد الدكن ١٩٦١ ص ٣٠٠.

٤٢ ــ المقريزي ــ السلوك لمعرفة دولة الملوك ــ ج ١ ق ١ ت محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٦٤ ص ٢.

٤٣ ــ المصدر السابق ص ٩.

إحدى المقاطعات الكبيرة الهامة، التي ركز عليها الأيوبيون والمماليك لتكون تحت سيطرتهم.

والمقريزي من المؤرخين الذين أحبوا عدم ذكر المصادر في غالب الأحيان، وخاصة فى الأخبار التي لها مساس بموضوع هذا البحث. ومهما يكن من أمر، فان كتاب السلوك هذا، شكل بالنسبة لهذا البحث رفداً قليلاً جداً، لكن هذا القليل كان كبير الفائدة، وتجلى ذلك، بأنه كشف عن اشتراك المغاربة في حروب صلاح الدين الايوبي ضد الصليبيين بشكل واضح وجلي. وكان المصدر الوحيد، الذي احتوى مثل هذه الاشارة الطيبة(٤٤) ويستفاد منه على صعيد آخر، يتجلى بأنه يعرف على كيفية تعيين القضاة الأندلسيين في الشام وذلك من خلال تعرضه لبحث الأمور الادارية. ومثله كتاب آخر، هو تاريخ ابن قاضي شهبة، تقي الدين بن أحمد الدمشقي المتوفى سنة ٨٥١ هـ ــ ١٤٤٧ م وهو الجزء الثالث من المخطوط، الذي انتقاه من كتب مؤرخين قبله، كالذهبي والبرزالي وغيرهما. وقد قام بتحقيقه الدكتور عدنان درويش السوري. وهو كتاب حولي بدأ من سنة ٧٧١ هـ ــ ١٣٦٩ م وانتهى عند سنة ٨٠٠ هـ ــ ١٣٩٨ م ويستعرض فيه أحداث كل سنة على حدة، وخاصة منها السياسية في كل من مصر وبلاد الشام. ويذكر في نهاية كل سنة الوفيات الهامة.

ويستفاد منه بشكل خاص بأنه يعرف على سيرة عدد من القضاة الأندلسيين في عدة مدن عربية شامية كدمشق وحماه وبعض النواحي الأخرى. ومثله في المنهج والمضمون كتاب (انباء الغمر بأبناء العمر) لابن حجر العسقلاني، الذي أرخ فيه لمصر وبلاد الشام من سنة ٧٧٣ هـ ــ ١٣٧٢ وحتى سنة ٨٥٠ هـ ــ ١٤٤٠ م، أي قبل وفاته بعامين. ويؤرخ للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك. ومصادره متعددة كتبها معاصرون له، كناصر الدين بن الفرات في تاريخه الكبير، وابن دقماق وابن حجي الدمشقي والمقريزي، وشيخ الحرم تقي الدين القاسمي والأقفهسي وتاريخ عقد الجمان وغيرها(٤٥). وبالرغم من أنه ليس كتاب تراجم محض، فقد

---

٤٤ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ٩٤.

٤٥ ــ ابن حجر ــ إنباء الغمر بأبناء العمر. ج ١ ت حسن حبشي ط القاهرة ١٩٦٩ ص ٤.

احتوى على سير كثير من الشخصيات الأندلسية، التي كان لها دور بارز في ميدان القضاء. وامتاز عن غيره من المصادر، اضافة إلى ذلك أنه ذكر أهم اعمال القضاة خارج اختصاصهم، كالاشتراك بالحرب ضد الغزوات الخارجية، التي تعرضت لها الشام في القرنين الثامن والتاسع الهجريين.

ولمحمد بن اياس المتوفى سنة ٩٢٨ هـ ــ ١٥٢٢ م، كتاب سماه (بدائع الزهور في وقائع الدهور) أرخ فيه لمصر بالدرجة الأولى، من أقدم العصور، وحتى فترة متأخرة من عصر المماليك (٩٠٦ هـ ــ ١٥٠١ م). وهو كتاب سياسي المضمون. وأرّخ بالدرجة الثانية للشام بدءا من فترة حكم الأيوبيين وانتهاء بالمماليك. وهو على نظام السنين. وبالجملة فانه قليل الفائدة على صعيد الأندلسيين نزلاء الشام. والأفضل منه كتاب (النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة) ليوسف بن تغري بردي بن عبد الله الأتابكي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ ــ ١٤٦٩ م. ويمتاز ابن تغري بردي في كتابه هذا بموضوعيته وحسه النقدي المتميز، والذي يظهر في أماكن متعددة منه، حيث يعلق على كثير من الحوادث، وهو وان كان يؤرخ لمصر بالدرجة الأولى فانه كتاب مفيد أيضاً لبلاد الشام، وخاصة في الفترة ما بعد القرن الخامس الهجري، وذلك لأن الشام، ظلت خلال الفترة تابعة من الناحية السياسية والادارية لمصر، ويسلك ابن تغري بردي في هذا الكتاب طريقة جميلة جداً. فهو يتناول بحث فترة كل حاكم أو سلطان حسب تسلسلهم الزمني، فيذكر زمن وصوله إلى السلطة، ومن ثم الأحداث السياسية الكبرى والتبدلات الادارية والأعمال العمرانية والشؤون الاقتصادية، التي أنجزت في عهده. بعد ذلك يفرد فصلا للذين ماتوا في فترة حكمه سنة بسنة من الحكام والأعيان والعلماء في مصر والشام. وبالرغم من أن تراجمه فيما يخص العلماء مقتضبة، فانها تعطي فكرة واضحة وهامة عن المغاربة في ظل المماليك، وما لاقوهُ من عناية خاصة على اختلاف فئاتهم، حتى بلغ الأمر بأحد سلاطين المماليك، وهو الظاهر برقوق، أنه كان يُجلِس أبا عبد الله محمد بن سلامة النويري المغربي فوق قاضي القضاة[٤٦]. وأوصى بأن يدفن تحت أرجل أحدهم، وهو الشيخ طلحت المغربي المعروف بالمجذوب[٤٧] ومن جهة

٤٦ ــ ابن تغري بردي ــ النجوم الزاهرة ج ١٢ ط وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر ص ١٦٥.

٤٧ ــ المصدر السابق ص ١٣٠.

أخرى، فإنه يشير بصراحة إلى أن منصب القضاء على جميع المذاهب، كان يُشترى في كثير من الأحيان. ومصادره في بحث هذه الفترة متنوعة، اعتمد على كثيرين، كابن واصل وابن شداد وسبط ابن الجوزي وعلي والده، الذي اشترك في كثير من الأحداث في فترة حكم المماليك، يضاف إلى أنه عاصر فترة لابأس بها من حكمهم.

ومن كتب هذه المجموعة، مااختص بدراسة أوضاع وأحوال مدينة أو مدينتين، كما هي الحال في كتاب مجير الدين الحنبلي، المسمى كتاب (الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل). والذي يدرس فيه كل مايتعلق ببيت المقدس والخليل منذ أن ظهرتا على مسرح الشهرة إلى وقت متأخر، يقول في هذا المعنى: «وأذكر مايتعلق ببيت المقدس من ابتداء أمره وبنائه وما وقع من أخباره وأنبائه، من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى عصرنا هذا، وهو آخر عام تسعمائة من هجرة المصطفى خير الانام، وأضيف إلى ذلك نبذة من الحوادث والأخبار، وتراجم الأعيان على وجه الاختصار»[٤٨]. والحقيقة أن هذا الكتاب احتل مكانة خاصة على صعيد هذا البحث، لكونه أوفى مصدر على الاطلاق، تناول ودرس وضع الجالية الأندلسية المغربية في فلسطين العربية، وبشكل خاص بمدينة بيت المقدس، التي شكلت قاعدة استقطاب مميزة للقادمين من الأندلس والمغرب، سواء منهم المقيمون أو المؤقتون. فقد احتوى على معلومات قيمة عن القضاة المالكيين بشكل يمكن من خلالها تكوين فكرة شبه كاملة وواضحة عن القضاء المالكي في فلسطين، وبالتالي الاستنتاج بأن الجالية الأندلسية أضحت كبيرة فيها، وخاصة في الفترة الأخيرة من هذا البحث. أضف إلى ذلك، أنه احتوى على تراجم لبعض رجال الصوفية الاندلسيين، وبعض العاملين في المجالات الأخرى، كالمدرسين وأئمة المساجد. كما تطرق إلى ذكر أماكن سكنى الجالية المغربية، وأهم المدارس والزوايا، التي خصصت لها في مدينة القدس الشريف. وهو لايذكر مصادره بصراحة، الأمر الذي يجعل أمر معرفتها صعباً ومتعثراً في كثير من الأحيان. ومن كتب هذه المجموعة مااقتصر على تاريخ ناحية معينة من بعض المدن، مثال ذلك. كتاب «الدارس في تاريخ المدارس» للنعيمي الدمشقي المتوفى سنة

---

٤٨ — مجير الدين بن الحنبلي — الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل — ج ١ بدون تاريخ الطبعة ص ٥.

٩٢٧هـ ـــ ١٥٢١م وهو من المؤرخين الدمشقيين في القرن العاشر الهجري. ويعتبر كتابه هذا من أجل الكتب والمؤلفات التي عالجت موضوع النهضة العلمية بمدينة دمشق منذ القرن الخامس وحتى العاشر الهجري[٤٩]. فقد أتى على ذكر جميع المدارس ودور القرآن والحديث والزوايا والخوانق والربط وغير ذلك. وقد لخص ذلك بقوله:

«... أني أذكر دور القرآن، ثم دور الحديث ثم دور الأئمة الأربعة، لكني أبدأ بمدارس أئمتنا الشافعية ثم الحنفية ثم المالكية ثم الحنابلة، ثم أذكر مدارس الطب ثم الربط والخوانق، ثم الترب ثم الزوايا، وأذكر تراجم المتصدرين بكل واحدة منها من حيث أنشئت واحداً بعد واحد إلى آخر وقت ما أدركته...»[٥٠]. وبالرغم من أن النعيمي من المؤرخين المتأخرين، الذين لم يعاصروا إلا فترة وجيزة من فترة هذا البحث، فقد استفدت منه أشياء متعددة: فقد كان المرجع الرئيسي للتعريف بالمدارس والأماكن العلمية، التي شكلت قاعدة نشاط الأندلسيين محور هذا البحث. أضف إلى ذلك، أن التراجم التي ذكرها، تضمنت شخصيات كان لها علاقة بالأندلسيين في دمشق، وهو إذ يذكر كثيراً من المغاربة الذين عملوا بدور العلم بدمشق، فانه يتجاهل بعض المشاهير منهم، كابن مالك النحوي، الذي احتل مكانة عالية بين العلماء. وهو من جهة أخرى، مصدر يساعد على التعرف على كثير من التلاميذ الذين درسوا على الأندلسيين. ويشير أيضاً إلى طبيعة العلوم، التي شجعها كل من الزنكيين والأيوبيين، والتي لم يطرأ عليها تغيير في الفترة المملوكية، والتي تنحصر بالعلوم الدينية من حديث وفقه وتفسير إلى غير ذلك، يقابل ذلك الابتعاد عن أضداد هذه العلوم كالفلسفة والكيمياء وغيرهما، ويشير إلى أن إرادة الحكام في هذا المجال، لاقت قبولا طيبا عند العلماء، مثال ذلك، تقي الدين بن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣هـ ـــ ١٢٤٦م، ومدرس الحديث بالأشرفية يقول عنه: «وكان لايمكّن أحدا في دمشق من قراءة المنطق والفلسفة، والملوك تطيعه في ذلك»[٥١] وباختصار فإن كتاب الدارس هذا، يعتبر من

٤٩ ـــ النعيمي الدمشقي ـــ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ت جعفر الحسني ط دمشق ١٩٤٨ ص (ب) مقدمة المحقق.

٥٠ ـــ المصدر السابق ص ٥.

٥١ ـــ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٢٠ ـــ ٢١.

المصادر الرئيسية، التي تلقي ضوءا ساطعا وواضحا على الجالية المغربية بدمشق أكثر من غيره بكثير، مثال ذلك أنه يكشف عن زاوية للمغاربة غير تلك المعروفة بالجامع الأموي، كما أنه يوضح، أن أجور العمال المغاربة، كانت أدنى بكثير من أجور أمثالهم من الشاميين.

كتاب مفاكهة الخلان لشمس الدين محمد بن طولون الدمشقي المتوفى سنة ٩٥٣ هـ ــ ١٥٤٦ م لسوء الحظ أن ابن طولون، لم يؤرخ إلا لفترة وجيزة من أصل فترة هذا البحث، ابتدأت من سنة ٨٨٤ هـ ــ ١٤٧٩ م وهي بداية كتابه، الذي ينتهي عند سنة ٩٢١ هـ ــ ١٥١٥ م والذي رتبه على نظام الحوليات، ويركز بشكل خاص وفي القسم الأول على مدينة دمشق فسيتعرض أهم الأحداث، التي جرت فيها، والتي لها اتصال بمركز السلطان بالقاهرة. وهو يذكر الوفيات في آخر كل سنة، لكن بشكل مختصر، وهو كتاب جليل الفائدة من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية. أما بالنسبة لموضوع هذا البحث، فقد كانت فائدته كبيرة، حيث يعتبر أول مصدر، احتوى على ترجمة أحد الأندلسيين، الذين اشتغلوا بالتجارة بدمشق[٥٢] الأمر الذي يجعل أمر الاستنتاج، بأن الاندلسيين، اشتغلوا بالتجارة في بلاد الشام أمراً سهلاً ومقنعاً.

ــ كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» لأحمد بن محمد المقري التلمساني المتوفى سنة ١٠٤٨ هـ ــ ١٦٣٩ م. وهو من الكتب المتخصصة بتاريخ الأندلس، والذي يمكن اعتباره موسوعة عن الأندلس، جسد فيها المقري أخبارها من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغير ذلك. وأسلوب المقري في هذا الكتاب غير مستقر على نمط معين. فكثيرا ما يترك الحادثة الأساسية، ليذهب إلى ذكر أخرى خطرت له في أثناء حديثه عن الأولى، مثال ذلك ما يتبعه في الجزءين الأول والثاني، الذي يتحدث فيهما عن الراحلين من الأندلس إلى المشرق وبالعكس. وهو

٥٢ ــ ابن طولون ــ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ــ قسم ١ ت محمد مصطفى ط القاهرة ١٩٦٢ ــ ص ٣٥.

لا يضع الأشخاص على ترتيب معين ، كما هو حال كتب التراجم . ويمتاز المقري ، بأنه يذكر مصادره بشكل واضح ودون تحفظ ، وهي كثيرة جدا أذكر منها على سبيل المثال ، الوافي بالوفيات للصفدي ووفيات الأعيان ، والدرر الكامنة ، وتاريخ الاسلام للذهبي ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، والروضتين لأبي شامة والذيل عليه ، وذيل مرآة الزمان لليونيني وغيرهم شيء كثير . وبالرغم من أن هذه المصادر متوفرة في أغلبها ، فإن العودة إلى نفح الطيب ، توفر وقتاً كثيراً ، لأن صاحبه ينقل بأمانة وبشكل يكاد أن يكون كلياً . لكن الشيء الأهم في هذا الكتاب ، أنه يحتوي على كثير من الأمور الأساسية ، نقلها المقري عن مؤلفات غير موجودة الآن ، مثال ذلك (ترتيب الرحلة) لأبي بكر بن العربي ، وبعض كتب ابن سعيد المغربي وغيرهما . لذلك فان كتاب نفح الطيب مصدر أساسي لابد منه ، خاصة وأن مؤلفه مغربي . وهناك مجموعة من الكتب التي تدرس ناحية معينة في مدينة ما أو موضوعاً علمياً معيناً . منها كتاب (فضائل الشام ودمشق) لعلي بن محمد الربعي المالكي المتوفى سنة ٤٤٤ هـ ـ ١٠٥٣ م ، وفيه الكثير من الإشارات الهامة التي تجسد فضل مدينة دمشق بصورة خاصة ، وبلاد الشام بشكل عام . وأيضاً كتاب (نزهة الأنام في محاسن الشام) للبدري الذي يتحدث فيه عن كثير من النواحي الايجابية ، التي كان لها دور عظيم في استقطاب الجالية الأندلسية التي حلت بالشام في فترة العصور الوسطى . ومنها كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) لمحمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي ، وهو كتاب نادر الفائدة على صعيد هذا البحث ، وكتاب للعلموي (مختصر تنبيه الطالب وارشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس) وهو شبيه بكتاب «الدارس في تاريخ المدارس» للنعيمي الدمشقي السابق الذكر ، من حيث المضمون والمنهج ، لكن الدارس يمتاز عنه بأن معلوماته أكثر غنى واتساعاً منه .

لذلك فإن اعتماد هذا الكتاب يكون نادراً في حال وجود كتاب الدارس . وقد حدث أن أُلفت كتبٌ اقتصرت على منطقة واحدة من مدينة دمشق ، ككتاب (القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية) لمحمد بن طولون . كتب فيه عن علماء الصالحية ، فورد في سياق حديثه أسماء لبعض الذين تتلمذوا على علماء أندلسيين . ومن

الكتب هذه، ما اقتصر على معالجة ناحية تختلف عن جميع ما ذكر، مثال ذلك، كتاب (سراج الملوك) لمحمد بن الوليد المعروف بالطرطوشي. وبالرغم من أنه كتاب تعليمي موجه للحكام، فإنه احتوى على بعض الإرشادات الهامة. فقد ذكر أنه إذا ما فشل في ايجاد عمل علمي فإنه سيلجأ إلى حراسة البساتين، الأمر الذي يوحي، بأن هذه الحرفة، كانت تقليدية معروفة عند الاندلسيين(٥٣). وهناك كتاب آخر، هو كتاب (الشفاء) للقاضي عياض، استعرض فيه حياة الرسول (ص) واخلاقه، وما يجب على المسلمين أن يفعلوا تجاهه من تنفيذ لأقواله والابتعاد عن الحط من قيمته ومركزه كخاتم للأنبياء. وهو يفيد بشكل خاص، بأنه يستنتج منه على أن عقوبات القضاة بحق الزنادقة كانت قاسية، وكثيراً ما وصلت إلى حد الموت. الأمر الذي يجعل من أحكام القضاة الأندلسيين المالكيين في الشام، أموراً طبيعية بالقياس على ما ورد في تعاليم مالك وخلفائه من الأئمة. ومن الكتب التي اعتمدت عليها في هذا البحث، كتابان لابن عربي الأندلسي المتوفى سنة (٦٣٨هـ ــ ١٢٤١م)، هما (الفتوحات المكية) و (فصوص الحكم) وكلاهما يدوران حول مذهبه في الوجود، وان كان الأول أوسع من الثاني، مما يجعل الثاني أوضح وأكثر سهولة بالنسبة للقارىء. ولعلي بن أبي بكر الهروي المتوفى سنة ٦١١هـ ــ ١٢١٤م، كتاب (الاشارات إلى معرفة الزيارات). ويستفاد منه أشياء كثيرة لتجسيد عوامل الجذب الكائنة بالشام، وخاصة مدينة دمشق. إضافة إلى تراجم بعض الأندلسيين، الذين نزلوا بها. ومن الكتب التي اختصت بالتعريف على الأمور الادارية، كتاب (صبح الأعشى في كتابة الانشا) لأحمد بن علي القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ ــ ١٤١٨م وهو من الكتب الكبيرة، التي تعالج الشؤون الادارية، منذ ظهور الاسلام، وحتى فترة متأخرة من عصر المماليك. وقد شكل أحد المصادر الهامة المعتمدة، وخاصة في الأمور المتعلقة بمنصب القضاء على المذهب المالكي، وبعض النواحي الإدارية الأخرى، التي توصل إلى تسلمها بعض الأندلسيين في الشام خلال هذه الفترة. أما كتاب (كشف الظنون) لمصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧هـ ــ ١٦٥٧م فهو

---

٥٣ ــ الطرطوشي ــ سراج الملوك ــ ط مصر ١٢٨٩هـ ص٢٩٣.

من المراجع، التي لا بد منها في التعرف على كثير من الأمور الهامة، التي تتعلق بهذا البحث، خاصة وأنه يحتوي على كثير من سير الأندلسيين، وأسماء مؤلفاتهم، لكونه يدور حول هذا المحور، والذي يتجلى بدراسة أهم المؤلفين العرب والمسلمين والتعريف باتجاهم العلمي والثقافي. ومن الكتب التي تنفصل بعناوين خاصة، كتاب «منامات الوهراني ومقاماته ورسائله»، وهو محمد بن محمد الوهراني المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ــ ١١٧٩ م وهو مجموعة مقامات أدبية ووسائل لحكام ووزراء مشارقة في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وبالرغم من طبيعته الأدبية، فإنه يحتوي على معلومات هامة في ميدان عوامل الطرد، وبالتالي تأثير تبدل الدول على بعض الأندلسيين، الذين هاجروا إلى المشرق، والذي كان الوهراني واحداً منهم، حيث يشير إلى هذا في بعض أحاديثه عن الموحدين[٥٤] ومن هذه المصادر ما اختص بالتحدث ومناقشة كتب الآخرين، كما هي الحال، في كتاب تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي لمؤلفه ابراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ ــ ١٤٨٠ م.

وهو من المؤلفات التي تمحورت بالهجوم على ابن عربي، حيث حاول البقاعي فيه أن يفسر جميع العبارات الواردة في كتاب (فصوص الحكم) لابن عربي المذكور، ويدحضها بالاعتماد على ما جاء في القرآن الكريم والحديث، وعند علماء السنة. وضمّنه أقوال العلماء، الذين شاركوه الهجوم على ابن عربي وعقيدته في وحدة الوجود، فلم يترك رأياً لهؤلاء منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي وحتى عصره، إلا وذكره في هذا الكتاب، وتناسى عن قصد أو غير قصد آراء المنصفين لابن عربي، باستثناء أنه ألمح إليهم باشارة بسيطة، فوصفهم بأنهم متواضعون وعاجزون عن فهم ما يقصده ابن عربي، فما كان منهم إلا تأييده، الأمر الذي يجعله غير موضوعي إلى درجة تشجع الاعتماد عليه، ودليل ذلك، أن علماء كبارا لا يرقى البقاعي إلى مستواهم في حال من الأحوال، وان لم يكن ذلك، فهم على الأقل يتساوون معه، كانوا قد أثنوا على ابن عربي ودافعوا عنه من منطق المنطق والحق. ومهما يكن من

٥٤ ــ الوهراني ــ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ــ ت ابراهيم شعلان + محمد نغش ط القاهرة ١٩٦٨ ص ١١.

أمر ، فإن فائدة هذا الكتاب على صعيد هذا البحث ، اقتصرت على التعرف على الذين هاجموا ابن عربي ، حتى فترة متأخرة من القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي[٥٥] .

كتب الجغرافيا والرحلات

كان لمثل هذه الكتب أهمية عظيمة في انشاء الكثير من فقرات هذا البحث ، الأمر الذي جعل بعضها من المصادر الرئيسية المعتمدة ، وبشكل خاص كتب الرحلة ، التي ألفها وعاش أحداثها ووقائعها ، رجال من الأندلس والمغرب . منها كتاب « المسالك والممالك » لعبد الله بن عبد العزيز البكري المتوفى سنة ٤٨٧ هـ ـ ١٠٩٤ م ولم يبق من هذا الكتاب إلا القسم الخاص في صفة المغرب ، وبالرغم من أنه من عداد مصادر هذا البحث ، فإن الأمور التي ذكرها بصددها لم تكن بذات أهمية كبيرة . أما الكتاب الآخر فقد ألفه محمد بن محمد المعروف بالشريف الإدريسي المتوفى سنة ٥٦٤ هـ ـ ١١٦٩ م والجزء الذي اعتمدت عليه من كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، هو الجزء المسمى بـ (صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس) . ويتكلم فيه عن الكثير من المناطق الأندلسية ، ويفصل أحياناً بما تشتهر به كل مدينة على جميع الأصعدة الجغرافية والاقتصادية مما يساعد على استنتاج عدة أمور خاصة في العلاقات الاقتصادية بين الشام والأندلس . ويشبه إلى حد كبير كتاب صورة الأرض لمحمد بن علي المعروف بابن حوقل . الذي يحتوي بعض المعلومات غير المباشرة من العلاقة التجارية بين الشام والأندلس ، اضافة إلى بعض الاشارات من الصناعة . أما كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » لمحمد بن أحمد المقدسي ، فيميز على صعيد آخر ، يتجلى بأنه يبرز أهمية دمشق الاقتصادية ، وتمسك أهل الأندلس بمذهب مالك . مما يساعد على إثارة بعض الأسئلة المفيدة حول بعض القضايا الهامة . أما الكتاب المتميز في هذا الميدان ، فهو « رحلة ابن جبير الأندلسي » المتوفى سنة ٦١٤ هـ ـ ١٢١٧ م وهي كتاب جغرافي دون فيه رحلته الأولى إلى المشرق . فزار كلا

---

٥٥ ـ البقاعي ـ تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي ـ ت عبد الرحمن الوكيل ط القاهرة ١٩٥٢ ص ١٥١ وما بعدها .

من مصر والعراق وبلاد الشام. وهذه الرحلة متعددة الوجوه، تحتوي على معلومات جغرافية متنوعة، طبيعية وبشرية واجتماعية وتاريخية واقتصادية إلى غير ذلك من وجوه الجغرافيا.

وقد تجلت فائدة هذه الرحلة بالنسبة لهذا الموضوع من ناحيتين اساسيتين. الأولى أنها تعرف على الطريق البحري، الذي كان يسلكه الأندلسيون إلى المشرق، فقد وصفه ابن جبير وصفا دقيقا بشكل أوضح فيه الصعوبات الطبيعية والبشرية التي تكتنفه، وبالتالي يمكن التعرف على الموانيء الهامة، التي لعبت دوراً كبيراً في الاتصال ما بين الشرق والغرب في القرون الوسطى، وذلك على شاطىء المتوسط بشكل خاص.

أما الناحية الثانية، فكانت أعظم قيمة من الأولى، لكونها تمت بصلة وثيقة إلى صلب هذا البحث. فيعطي ابن جبير في رحلته هذه صورة واضحة عن الجالية الأندلسية في بلاد الشام، وخاصة أوضاعها العامة، التي كانت جيدة، بفضل المعاملة الطيبة التي لقيها أفراد هذه الجالية من الشاميين شعباً وحكاماً على حد سواء، إضافة إلى أنواع الخير، وتنوع وجوهه في هذه البلاد. الأمر الذي ساعد على استقطاب الكثير من أهل الأندلس إليها. وأشار إلى ملاحظة على قدر كبير من الأهمية، تجسدت باشتراك المغاربة بالحروب التي خاضها صلاح الدين الأيوبي ضد الافرنج، مما حدا بهم إلى فرض ضريبة عليهم، كانت غير موجودة سابقاً. وبشكل عام فإن هذه الرحلة جليلة الفائدة لمثل هذا البحث، لكونها تحتوي على عوامل الجذب بكل معانيها ووجوهها تقريباً، والتي كان لها أثرها الفعال في نفوس الأندلسيين نزلاء الشام. والذي يزيد من أهمية هذه الرحلة، أن معلوماتها دُوِّنت بعد مشاهدة صاحبها لكل ما وصفه، ولمس عن قرب كل ما ذكره. لذلك فهي وثائق أصلية بكليتها.

والرحلة الثانية، كانت التي دونها العبدري في أواخر القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي. وقد ركز فيها على الناحية العلمية، التي تكاد هذه الناحية تسيطر على مضمون معلوماتها. وهي من جهة أخرى، تقتصر على أجزاء بسيطة من بلاد الشام كالقدس وغزة وغيرها من مدن فلسطين العربية. أضف إلى ذلك قصر

الفترة، التي أمضاها صاحبها في هذه المدن. لذلك لم تكن قيمتها كبيرة في أي جانب من جوانب هذا البحث، كما هي حال رحلة ابن جبير السالفة الذكر. أما الرحلة الثالثة؛ فهي التي قام بها ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري. وهي تشبه إلى حد بعيد رحلة سابقه ابن جبير من حيث المنحى العام والمضمون. فقد ذكر ابن بطوطة، أن المغاربة كانوا في أثناء زيارته للشام يتمتعون بذلك الاحترام والتقدير من قبل حكام الشام وأهلها، كما كانوا في القرن السادس، عندما جاء ابن جبير. وتعتبر معلوماته التي دونها عن دمشق هامة جداً، وان كانت لا تختلف عن تلك التي دونها ابن جبير إلا في بعض النواحي، مثال ذلك، أنه فصل بعض الشيء في نظام الدراسة في المدارس، وألمح إلى الاهتمام الخاص بالطلاب وأهل العلم. وفائدة أخرى تعتبر وثيقة الصلة بهذا البحث، وتتجلى بأن ابن بطوطة فصَّل في الطريق البرية، التي سلكها عندما غادر المغرب إلى المشرق، وكيف دخل مصر ومنها إلى الشام. ومن الكتب الجغرافية المعتمدة في هذا البحث، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري. وهو يعتبر من الكتب الجغرافية الهامة، التي تنعكس فيه المعلومات التاريخية إلى جانب الجغرافية. وقد رتبه الحميري على طريقة حروف المعجم، سالكا فيه طريقة الانتقاء، بحيث يلاحظ، أنه حرص على أن يكون المكان المترجم، من الأماكن المشهورة، ممن اتصل به قصة أو حكمة أو خبرٌ أو مولد شخصية هامة إلى غير ذلك[٥٦]. والحميري في كتابه هذا لا يذكر مصادره في كثير من الأحيان فيعتمد كلمة (قالوا). لكن الشيء الواضح أن هذه المصادر متنوعة، فمنها ما هو جغرافي، ومنها ما هو تاريخي أو أدبي. ومهما يكن من أمر، فإن الحميري يعطينا إشارات لابأس بها حول التجارة بين الشرق والغرب من خلال ذكره للمدن الأندلسية الساحلية، إضافة إلى أنه كتب عن دمشق، فأظهر بعض العوامل التي ساعدت على جلب الأندلسيين إليها[٥٧] ومن الجغرافيين الرحالة من كان من أصل غير عربي، مثال ذلك، مثل الرحالة الفارسي ناصر خسرو علوي الذي ألف كتابا سماه (سفرنامة)، قام

---

٥٦ ــ الحميري ــ الروض المعطار ــ ت احسان عباس ــ ط بيروت ١٩٧٥ ــ ص(م).

٥٧ ــ الروض المعطار ــ ص ٢٤٠.

بترجمته إلى العربية يحيى الخشاب. وتضمن هذا الكتاب معلومات لابأس بها عن لبنان وفلسطين. فقد أشار إلى أن مرفأ طرابلس الشام، كان أحد المرافيء التي يرتادها الأندلسيون المغاربة، والذين كانوا يدفعون مقدار العشر للسلطان(٥٨). وهناك أربع رجلات قام بها أندلسيون، بعضها إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، وبعضها الآخر إلى مصر والحجاز فقط. وهي، رحلة البلوي الذي زار قسماً كبيراً من فلسطين. ورحلة ابن رشيد، الذي زار اضافة إلى فلسطين مدينة دمشق. وما زالت هذه الرحلة بدون تحقيق حتى اليوم، وان هاتين الرحلتين، تفيدان بالدرجة الأولى بالتعرف على الطريق البحري، الذي كان يسلكه الأندلسيون عندما يريدون الدخول إلى الشام، وخاصة منهم الذين كانوا يأتون عن طريق الشمال الأفريقي، أما الرحلة الثالثة، فهي التي قام بها التجيبي السبتي والمسماة (مستفاد الرحلة والاغتراب) وقد زار بعد مصر والحجاز، مدينة دمشق. والرحلة الأخيرة، هي رحلة القلصادي الأندلسي، وهما كسابقتهما تفيدان في معرفة الطريق الموصل إلى الشام، لأن القسم الثالث من رحلة التجيبي مفقود، وفيه يدون أعماله في الشام واقتصر القلصادي على زيارة مصر والأماكن المقدسة. وهناك مصادر أقل أهمية من التي ذكرت، ومن مختلف الفئات، منها: كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» لمحمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطيه القرطبي المتوفى سنة ٣٦٧هـــ٩٧٨م. وكتاب «فتوح البلدان» للبلاذري، و «فتوح مصر والمغرب» لابن عبد الحكم، وكتاب «القلائد» لمحمد بن عبد الله المعروف بابن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ هـــ١١٣٥م، وكتاب «الغصون اليانعة» لعلي بن سعيد المغربي المتوفى سنة ٦٨٥ هـــ١١٣٥م، وله كتابان آخران، هما «المغرب في حلى المغرب»، وكتاب «اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلي»، وكتاب لسان الدين بن الخطيب المسمى بكتاب «أوصاف الناس في التواريخ والصلات»، وكتاب العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي، المتوفى سنة ٥٤٣هـــ١١٤٩م، وكتاب «برنامج شيوخ الرعيني»، لابن الرعيني الاشبيلي. وكتاب «الاعتبار» لابن منقذ، و «تاريخ حلب» لابن الشحنة، و «الأخبار المجموعة» لمؤلف مجهول و «عنوان الدراية»

٥٨ ـــ ناصر خسرو علوي ـــ سفرنامة ـــ ترجمة ـــ يحيى الخشاب ط ١ القاهرة ١٩٤٥ ص ١٣.

للعنبريني ، و « ذيول العبر للذهبي » والحسيني وكتاب « طبقات الأولياء » لعمر بن علي ابن علي بن أحمد المعروف بابن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ هـ ــ ١٤٠٢ م وكتاب « المجالس والمسايرات » للقاضي النعمان ، وكتاب « العثمانية » للجاحظ ، وكتاب « سيرة أحمد بن طولون » للبلوي وغيرها . وهي تحتوي على معلومات متفرقة ، فيما يخص هذا البحث ، لكنها ليست بدرجة المصادر الأخرى ، التي فصلت عنها بعض الشيء .

المراجع الحديثة

أما المراجع الحديثة ، وان كانت لا ترق إلى درجة المصادر القديمة الأصلية فإنها تحتل مكانة ذات أهمية كبيرة إلى حد ما . فهي تساعد على ايضاح الكثير من الأمور التي تفتقر إليها المصادر القديمة ، خاصة وأن أصحابها يتبعون فيها أسلوب النقد والتعليل . ولم تكن هذه المراجع بلغة واحدة ، والمراجع غير العربية ، منها ما هو مترجم ، وبعضها الآخر ما زال بدون ترجمة . أما المراجع العربية ، فان أهمها ، كتاب (دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها منذ الفتح وحتى الخلافة) وكتاب (تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري) للدكتور أحمد بدر السوري . وتأتي أهمية هذين الكتابين على صعيد هذا البحث ، أن الدكتور بدر ، يعالج العلاقات السياسية بين المشرق والأندلس . فيؤكد في الكتاب الأول أن عبد الرحمن الداخل ، ومنذ اللحظة الأولى لتسمية نفسه بالأمير جعل الأندلس تسير على خط سياسي مستقل ومنفصل عن مسار السياسة العباسية ، إن لم يكن مناقضا في بعض الأحيان . ويدلل على ذلك بالقول : « وهذا يلاحظ في علاقات الطرفين مع الدولة البيزنطية ، فبينما كان العباسيون في حالة حرب شبه دائمة ضد بيزنطية ، كان أمراء الأندلس يتبادلون شعارات الود والصداقة معها »(٥٩) . أما في الكتاب الثاني فإن الأمر أكثر وضوحاً والتصاقا بموضوع هذا البحث ، حيث يعالج فيه قضية هامة جداً ، تتعلق بكتاب البراهين على إمامة الأمويين ، الذي عثر عليه المسعودي في طبريا سنة ٣٢٤ هـ ــ ٩٣٦ م وحول هذا الكتاب يقول الدكتور بدر بما معناه ، أن الكتاب كان موجودا في الشرق ، حيث توجد

٥٩ ــ أحمد بدر ــ دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها منذ الفتح وحتى الخلافة ــ ط ٢ دمشق ١٩٦٩ ص ١٦٧ .

مجموعات من الناس موالية للأمويين، إضافة إلى العثمانية، الذين يرون في الأمويين الخلفاء المجسدين لآمالهم، لذلك فقد كانوا متعصبين لهم وللأندلس[٦٠].

ويعزو سبب عدم ظهور هذا الكتاب، حتى عصر الخلافة في الأندلس إلى «...أن أمويي الأندلس، قد يكونون على صلة به، وأنه ربما كان كتاب دعوة لهم... وما يجعل هذا الأمر غير مستبعد، هو أنهم كانوا على علاقات دائمة بالمشرق سواء قبل عصر الخلافة أو في أثنائه»[٦١]، كما يؤكد من ناحية أخرى، على أن السبب الذي منع من انتشاره في الأندلس نفسها، يتجلى بأن الأندلسيين على مذهب واحد هو مذهب أهل المدينة، ونشره سيؤدي إلى معارضة الفقهاء المنافحين عن هذا المذهب، الذي يقر إمامة علي بن أبي طالب، الذي يتجاهلها كتاب البراهين المذكور[٦٢]. ومن المراجع العربية الهامة أيضاً، كتاب (خطط الشام) لمحمد كرد علي، الذي يتسم بالفائدة والتنوع، لما احتواه من دراسة لفترة تاريخية طويلة من الزمن. فقد أكد صاحبه، على أن الشاميين نقلوا عدة زراعات إلى الأندلس وبعض المظاهر الحضارية الأخرى[٦٣]. كصناعة الأقمشة المزركشة بالرسوم من الحرير والكتان، التي عرفت بمدينة دمشق بشكل خاص[٦٤].

كما أشار في موضع آخر من كتابة، إلى أن سقوط مدينة بغداد سنة ٦٥٦ هـ، كان أحد الأسباب الرئيسية، التي جعلت من مدينة دمشق أرض الملتقى للعلماء من جميع الأصناف[٦٥] أما سعيد عبد الفتاح عاشور، فقد ألف كتابا سماه (العصر المماليكي في مصر والشام) فقد ضمّنه دراسات حول نواح عديدة، سياسية واجتماعية واقتصادية. ويعتبر هذا الكتاب بحق، من أهم الكتب الحديثة التي ألفت في هذا الميدان، لما يتمتع به الدكتور عاشور من جرأة على قول الحقيقة، التي تتسم بموضوعية

---

٦٠ ــ أحمد بدر ــ تاريخ الأندلس في القرن ٤ الهجري ــ ط دمشق ١٩٧٤ ص ١١٦ ــ ١١٧.

٦١ ــ تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري. ص ١١٧.

٦٢ ــ المصدر السابق ص ١٢٠ ــ ١٢١.

٦٣ ــ كرد علي خطط الشام ــ ج ٤ ط دمشق ١٩٢٦ ص ١٦٣.

٦٤ ــ المصدر السابق ص ٢٢١.

٦٥ ــ المصدر السابق ص ٤٣.

كبيرة جدا. ويفيد في مجال هذا البحث بشكل خاص أنه يعلل سبب انتشار ظاهرة الصوفية، فيرجعه إلى الحالة النفسية القاتلة، التي أصابت الأندلسيون بعد سقوط معظم مدنهم بيد الأسبان. ولما حل قسم منهم في المشرق، وجدوا قبولا لأسلوب الزهد والتصوف، الذي لجأ إليه عدد كبير منهم، لكون سكان مصر والشام، لم يكونوا بأحسن حال منهم على هذا الصعيد.

فقد كانوا دائماً، يعانون من القلق وعدم الاستقرار والرضى نتيجة سوء أحوالهم التي تعرضوا لها من جانب الصليبيين والتتار، فضلاً عن تحكم المماليك فيهم واستئثارهم بخيرات البلاد. ويشير معقبا على هذا الوضع، أن المماليك أنفسهم قاموا بتشجيع تيار التصوف، فكثرت الخوانق والزوايا، وعينوا لها الأوقاف السخية[٦٦] أما زكي محمد حسن، فقد تميز عن غيره من المؤلفين المحدثين، الذين تعرضوا لدراسة الأندلس بأنه أكد في كتابه (الرحالة المسلمون في العصور الوسطى) على اشتراك المغاربة في الحرب ضد الصليبيين مع أهل الشام. وعزا سبب ذلك، إلى العداء القوي، الذي استشرى، بين العرب والأسبان، منذ اللحظات الأولى للفتح العربي للأندلس[٦٧]، ومن الكتب العربية الحديثة كتاب (طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب) لمؤلفه نعيم زكي فهمي، الذي ذكر فيه أن صناعة السكر، انتقلت إلى أوروبا عن طريق أسبانيا، وهذه الأخيرة عرفتها عن طريق الشاميين[٦٨]. وهناك كتاب آخر بعنوان (تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام). اشترك في تأليفه العبادي وعبد العزيز سالم. ويشير إلى ناحية هامة، تتجلى بأن التجارة بين الشرق والغرب، أصبحت بأيدي تجار المدن الايطالية كجنوة، وبيزة وغيرهما، اعتبارا من بداية القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي. وأصبحت هذه المدن تنافس بقوة الأسطول البحري العربي الاسلامي في منطقة غرب البحر المتوسط[٦٩]. وهناك

---

٦٦ ـــ سعيد عبد الفتاح عاشور ـــ العصر المماليكي في مصر والشام ـــ ط ١ القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٣٩ وما بعدها.

٦٧ ـــ زكي محمد حسن ـــ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ـــ ط دار المعارف بمصر ص ٨٥.

٦٨ ـــ نعيم زكي فهمي ـــ طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ـــ ط القاهرة ١٩٧٣ ص ٢٤٢.

٦٩ ـــ العبادي+عبد العزيز سالم. تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ط بيروت ١٩٧٢ ص ١٧٣ ـــ ١٧٤.

كتاب حديث جدا ألفه الدكتور أنور عبد العظيم هو (الملاحة وعلوم البحار عند العرب)، تناول فيه دراسة شؤون البحرية العربية في القرون الوسطى، وبالرغم من أنه يعتمد مصادر معروفة. فانه لا يخلو من فائدة. فقد اعتمدته في مواضع هامة من هذا البحث. وقد ألف الدكتور صلاح الدين المنجد كتابا سماه (المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في العصور الوسطى) فذكر فيه بعض العوامل الجاذبة الكائنة في بلاد الشام، وبوجه خاص بمدينة دمشق. وهو يذكر هذه العوامل بشكل مختصر. فقد ذكر أن الشام، كان لها اسم رنان في نظر المغاربة من عدة نواحٍ سياسية ودينية وعلمية وغير ذلك[٧٠].

ولم تقتصر الكتب العربية على ميادين التاريخ والجغرافيا، بل تعدتها إلى ميدان آخر، هو ميدان التصوف، الذي ألف فيه العربي المصري أبو الوفا التفتازاني كتابا سماه (مدخل إلى التصوف الاسلامي). وبالرغم من أن محوره يدور حول دراسة التصوف في العصور الاسلامية، فإنه لم يأت بشيء جديد فيما يخص هذا البحث باستثناء أنه قام باختصار تفسير مذهب ابن عربي في وحدة الوجود، وتقريبه إلى الفهم بصورة أيسر. ومن الكتب باللغة العربية ماألفه عبد الله عنان، حيث وضع كتابا عن المرابطين والموحدين، يؤكد فيه أن الانهيار الاقتصادي وصل إلى ذروته في نهاية عصر الموحدين، الأمر الذي أجبر الأندلسيين على النزوح عن بلادهم. وألف كتابا آخر سماه (دولة الاسلام في الاندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر)، ليس فيه من جديد يمكن أن يشكل أهمية خاصة هنا.

ومن المؤلفات العربية الأخرى، ما كتبه بعض الكتاب المغاربة عن ابن خلدون، وهي دراسة لعدة كتاب تونسيين، صدرت في مجلد صغير عن جمعية الاتحاد التونسي الصفاقسي الزيتوني. شملت إحداها رحلة ابن خلدون إلى مصر، ومن ثم إلى الشام في أوائل القرن التاسع الهجري، والدور الذي لعبه في تخفيف الدمار عن مدينة دمشق، من قبل جيش تيمورلنك. ومن المجلات العربية التي اعتُمِدت في هذا البحث، مجلة

---

٧٠ ــ صلاح الدين المنجد ــ المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى ط بيروت ١٩٦٣ ص١٧.

« الفكر » العدد الأول الصادر في الكويت ، ومجلة « التراث العربي » التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب في القطر العربي السوري وخاصة منها العدد الرابع لسنة ١٩٨١ . وقد احتوت هاتان المجلتان معلومات متفرقة لها أهميتها الخاصة .

أما المصادر التي ألفت باللغة الفرنسية ، فقد احتلت الصدارة تقريبا في هذا البحث ، إذا ما قورنت بغيرها من المصادر الحديثة ككل . وقد ترجم بعضها إلى العربية منذ فترة غير قصيرة ، مثال ذلك كتاب (تاريخ الاسلام في المغرب والأندلس) للاستاذ ليفي بروفنسال ، الذي قام بترجمته إلى العربية محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي . وقد أشار بروفنسال في كتابه هذا إلى أن امتداد الزمان وطوله ، وبعد الأندلس عن مركز الخلافة في المشرق العربي ، زادا من حدة العداء بين خلفاء المشرق وأمويي الأندلس ، الأمر الذي أفقد في نظر هؤلاء الأخيرين الأمل بالعودة إلى المشرق وخاصة الشام (الفردوس المفقود) . ويعزو سبب ذلك إلى أن الأندلس تحتوي المميزات نفسها والثراء والخصوبة والطبيعة ، التي لا تقل عن الشام تنوعا ، وانسجاماً ، وبالتالي أصبح تطلع الأمويين إلى الشام ، لا يتعدى كونه تطلعاً داخلياً عاطفياً أكثر منه واقعياً(٧١) وهناك بحث آخر كتبه الفرنسي لويس بوزيه في مجلة الدراسات الشرقية التي يصدرها المعهد العلمي الفرنسي للدراسات الشرقية بدمشق ، بعنوان (المغاربة في دمشق في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي) .. وقد أطلعت عليه في الفترة المتأخرة في وقت كنت فيه قد انتهيت من كتابة موضوعي . ومع ذلك فقد وجدت فيه بعض الشخصيات الأندلسية التي لم أكن قد ضمنتها في بحثي . وفيما عدا ذلك فلا فائدة ترجى منه ، بالنسبة لي ، حيث لم أجد فيه شيئا جديدا ، كنت قد أغفلته . أما الكتاب الآخر فهو عن نور الدين زنكي ألفه السييف بالفرنسية صدر أيضاً عن معهد الدراسات الشرقية الفرنسي بدمشق . وهو كتاب يلقي ضوءا ساطعا على السياسة التعليمية ، التي وضع أسسها وقواعدها نور الدين زنكي ، والتي ركزت على نشر وتدريس علوم السنة ، الأمر الذي جاء موافقا مع المفهوم الأندلسي العام . لذلك فهو

---

٧١ — ليفي بروفنسال — تاريخ الاسلام في المغرب والأندلس — ترجمة محمود عبد العزيز سالم + محمد صلاح الدين حلمي — نشرته مطبعة نهضة مصر القاهرة . ص٩٣ — ٩٤ .

من الكتب الهامة على صعيد هذا البحث ومن الكتب الحديثة باللغة الاسبانية كتاب (تاريخ الفكر الأندلسي) لأنخل جنثالث بالنثيا، الذي ترجمه إلى العربية حسين مؤنس. وهو كتاب يكشف ويركز على عدة نواح هامة من صلب هذا البحث، لعل في مقدمتها ما ذكره عن حالة الأندلس المزرية، التي أدت إلى نزوح الأندلسيين عن أرضهم. فذكر أن الأمر لم يكن ناتجاً عن تدهور الأحوال السياسية فحسب، انما كان أيضا بسبب حالة الركود الاقتصادي، التي ترافقت مع تدهور الأحوال السياسية(٧٢). يضاف إلى ذلك، أنه توقف طويلا عن سيرة المتصوف الكبير ابن عربي الأندلسي، فدرس حياته وتنقلاته ومذهبه في الوجود وأثره في بلاد الشام وغيرها حتى العصر الحديث. كما يستفاد منه في الوقوف على حقيقة وتطور العلوم العربية في الأندلس حتى أواخر أيامها تقريباً. وقد ألف آسين بالاثيوس الاسباني أيضا كتابا سماه (ابن عربي) درس فيه حياة هذا الصوفي وعقيدته في وحدة الوجود، ومن ثم أثره الصوفي ومكانته في دمشق وغيرها(٧٣) وهو ذو فائدة عظيمة، حيث أن المؤلف المذكور آنفاً اعتمد عليه بشكل كبير وبصورة واضحة. وكان لبعض الكتب التي ألفت باللغة الالمانية أهمية خاصة في هذا البحث. مثال ذلك كتاب (أثر الشرق في الغرب في العصور الوسطى) لجورج يعقوب، والذي ترجمه فؤاد حسين علي. وقد أكد فيه أن صناعة السكر، يرجع الفضل فيها إلى العرب، التي عرفتها أوروبا عن طريقهم، عندما نقلوها إلى إسبانيا مع عادة زراعة قصب السكر(٧٤). أما الكتب التي ألفت بالإنكليزية، فهي قليلة هنا، تأتي في مقدمتها الموسوعة الاسلامية غير المترجمة، التي اعتمدت عليها في عدة مواضع من هذا البحث، بالرغم من أن معلوماتها مستقاة بأغلبها من المصادر العربية التراثية، لكن الذي يجعلها هامة، أنها تحتوي بعض المعلومات الاستنتاجية الجديدة والتي لا توجد في غيرها من المراجع. وتنحصر هذه

---

٧٢ ــ آنخل جنثالث بالنثيا ــ تاريخ الفكر الأندلسي ــ ترجمة حسين مؤنس ــ ط١ القاهرة ١٩٥٥ ص٢٢ ــ ٢٣.

٧٣ ــ ترجمة إلى العربية عبد الرحمن بدوي.

٧٤ ــ جورج يعقوب آثر الشرق في الغرب خاصة في العصور الوسطى ــ ترجمة فؤاد حسين علي ط القاهرة ١٩٤٦ ص٩٧.

المعلومات تقريباً في الشخصيات المعروفة والتي تضمن بعضها هذا البحث كابن عربي وابن مالك النحوي وغيرهما. وهناك النسخة المترجمة إلى العربية، والمسماة بـ(دائرة المعارف الاسلامية. فهي لا تختلف كثيراً عن نظيرتها في الانكليزية. وهناك كتاب أخير لجورج كيرك بعنوان (تاريخ الشرق الأوسط منذ ظهور الاسلام وحتى العصور الحديثة)، احتوى على بعض المعلومات الهامة عن الأندلس، وخاصة في الميدان الاقتصادي، حيث أكد على أن الأندلس أصبحت من البلدان المزدهرة في القرن الثالث الهجري، مما شجع حركة الاستيراد والتصدير.

الباب الأول

الفصل الأول

مقدمة عن العلاقات بين الشام والأندلس منذ الفتح وحتى نهاية القرن الخامس الهجري

كانت العلاقة بين الشام والأندلس علاقة خاصة ومتميزة، منذ أن افتتح العرب الأندلس. ويمكن تسمية هذه العلاقة ووصفها بالعاطفية، فعلى سواعد أجناد الشام وقواها العسكرية كان الاعتماد لاتمام عملية الفتح واستتباب أمور السلطة العربية هناك. لذلك والحال هذه، فليس غريبا القول، بأن الذين دخلو الأندلس من الشام كجند ومحافظين على السلطة، ظلت قلوبهم بالشام وأجسادهم في الأندلس، وبالتالي ظلت أبصارهم ترنو بشوق وحنين إلى أرض الشام التي كان فيها المولد والمنشأ ومنها المنطلق. وعلى الطرف الآخر يستشم رائحة تأييد ضمني، تجلى بالشعور والميل من قبل الشاميين إلى أمويي الأندلس، ويبدو هذا الأمر طبيعيا إذا ما أُخِذ بعين الاعتبار الكرهُ الذي تولد بين الأمويين والعباسيين، بعد أن سقطت الدولة الأموية في المشرق، وتجسد هذا الكره في طبيعة العلاقات بين الدولتين العباسية في المشرق والأموية في الأندلس، وفي معاملة العباسيين للشام، وتوجد أمثلة عديدة تدلل على وجود مثل هذا الترابط العاطفي بين البلدين، منذ أن أصبحت الأندلس تحت الحكم العربي. فقد استخدمت أسماء البلدان التي انطلقت منها الأجناد الشامية، على البلدان التي نزلتها عند وصولها واستقرارها في الأندلس. مثال ذلك أن جند دمشق أنزل في كورة البيرة، وسميت هذه الكورة دمشق. وأطلق على أشبيلية حمص الأندلس، وعلى جيان قنسرين، وعلى

شذونة فلسطين[1] ويظهر هذا التوافق العاطفي بصورة أوضح في تصرفات مؤسس الدولة الأموية في الأندلس عبد الرحمن الداخل، فبالرغم من أنه وصل إلى سدة الحكم، وأصبح مصدر كل أمر وسلطة بالرغم من هذا، فانه لم يتمكن من إخفاء حنينه وشوقه إلى مسقط رأسه ومستقر حكم آبائه وأجداده، واقترن ذلك بأمل لا يتزعزع بالعودة إلى الشام، عبر عنه في الأبيات التالية:

يَا أَيُّهَا الرَّكْبُ الميمِّمُ أرضي ... إقرأ بعضَ السلام عنيْ لبَعْضِي
إنَّ جِسْمِيْ كَمَا تَرَاهُ بأرضٍ ... وَفُؤَادِيّ وَمَالِكِيْهِ بأَرْضٍ
قَدْ قَضَى ٱللهُ بالبُعادِ علينا ... فغداً بِاقْتِرَابِنَا سَوْفَ يَقْضِيْ[2]

ويتجلى هذا الشوق في وجه آخر، وذلك عندما نزل لأول مرة في منية الرصافة، فوقعت عينه على شجرة نخل، فتذكر من خلالها الأرض والوطن فقال شعرا:

تبدتْ لنا وسطَ الرصافةِ نخلةٌ ... تناءتْ بأرضِ الغرب عنْ بلدِ النخْلِ
فقلتُ شبيهِيْ في التغُّربِ والنوى ... وطولُ التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرضٍ أنت فيها غريبةٌ ... فمثلكِ في الاقصاءِ والمنتأى مِثلي[3]

ويبرز عمق هذا الترابط في أنه ترجم إلى حقيقة واقعة لدى وصول الداخل إلى الأندلس، فاختار ــ النزول في مقاطعة البيرة مستقر جند دمشق، وبعد أن شاع خبر نزوله هناك بفترة قصيرة، انفض جميع الجنود من حول يوسف الفهري، وعادوا إلى حيث كانوا، وانضووا تحت راية الداخل والسير في ركبه حتى النهاية[4] وهذا الحادث إن دل على شيء، فانما يدل على مدى التعاطف وقوته بين الأمويين في الشام والأندلس، وإذا كان في ذلك بعض من شكٍ إذن فما سبب انحياز معظم الجند الشامي إلى جانبه بهذه السرعة المذهلة، وترك الوالي الجديد جانباً؟ وللجواب على هذا السؤال فانه لا يوجد خير من القول، إن سبب

---

١ ــ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ــ ابن الآبار الحلة السيراء ــ تحقيق حسين مؤنس ج ١ ط القاهرة ١٩٦٣ ص ٦١ ــ ٦٢.

٢ ــ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٦٠.

٣ ــ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٦٠ الصلة ج ١ ص ٢٠٩.

٤ ــ الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٤٦.

هذا الانحياز انما هو محبة الشاميين في الأندلس لعبد الرحمن الداخل، القادم الجديد من بلادهم، حيث كان الأمويون سادتها لوقت قريب.

ويوجد بعض الاشارات الأخرى التي تدل على ميل الأندلسيين للشاميين، لكن لم تبلغ درجة كبيرة من الوضوح والصراحة والعمق، بالرغم من أن كبار الكتاب الأندلسيين في هذه الفترة، كانوا أمويين، أمثال ابن حزم الأندلسي، وأبو بكر بن العربي، الذي زار الشام في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي ـــ والذي يستشف من مناقشاته مع الاسماعيلية في فلسطين أنه كان يعمل على تبرئة ساحة الأمويين، ويثني عليهم[٥] وبصورة عامة فقد كان الأندلسيون، إذا أتوا على ذكر الشاميين، نوهوا بعبادة بن الصامت ومعاذ ومعاوية وغيرهم[٦]. لكن بالرغم من كل هذا الولاء وذلك الاتصال الذي نشط في القرن الرابع الهجري، وخاصة في الفترة التي تلت إعلان الخلافة بالاندلس، فإن الشام، لم تكن في نظر الأندلسيين إلا بمثابة فردوس مفقود، بعد أن صاروا يحكمون أرضا فيها المميزات نفسها والثراء والخصوبة والطبيعة، التي لا تقل عن الشام تنوعاً وانسجاماً[٧]. ويبدو أن هذا الواقع كان ماضي التأثير وعلى درجة كبيرة من الأهمية، إذا ما أخذ بعين الاعتبار، عدم جدية الأندلسيين شعبا وحكاما لتحقيق العودة والسيطرة على المشرق، فلو كان بودهم تحقيق ذلك بالفعل لكانوا تحركوا بهذا الاتجاه في الفترة التي تحرك خلالها الفاطميون أعداؤهم الرئيسيون، لأن جميع الظروف في الشام، كانت مواتيه لهم أكثر من الفاطميين. هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا من القوة والمنعة بشكل يساعدهم على فرض سيطرتهم على الشام والانطلاق منها إلى بقية المقاطعات المشرقية بأقصر فترة زمنية، إذا ما أخذت بعين الاعتبار مسألة العقيدة الدينية المشتركة بينهم وبين أهل الشام. فهم على سبيل المثال مقبولون من هذه الناحية أكثر من الفاطميين، الذين اتهموا بالكفر والخروج على السنة والدين. لكن يوجد هناك مسألة أكثر أهمية بالنسبة لأمويي الأندلس، تتجلى بأن أوضاعهم غير مستقرة. فعلى الصعيد الداخلي كثرت الانفصالات عن المركز قرطبة، وكادت أن تسير الأندلس في طريق النهاية لولا أن قيض الله لها الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله،

---

٥ ـــ أبو بكر بن العربي ـــ العواصم من القواصم تحقيق عمار طالبي ط الشركة الوطنية للتوزيع والنشر الجزائر ص ٦١ ـــ وما بعدها.

٦ ـــ نفح الطيب ج ٣ ص ١٦٤.

الذي تمكن من إعادة الأمور إلى حالتها الطبيعية بعد فترة مضنية أمضاها في الحروب والمعارك. وهكذا فان الترابط العاطفي بين سكان الشام والأندلس، ظل حيا متجددا في النفوس، بالرغم من المسافات البعيدة الفاصلة بين البلدين، إلى حد يمكن اعتباره، أساساً فاعلاً وأرضية خصبة، كانت بداية المسير باتجاه تشجيع وترويج حركة الانتجاع بين الشام والأندلس في جميع أنواع العلاقات وفروعها، وبعد هذا العرض البسيط، فإن من الممكن دراسة العلاقات بين البلدين بشكل مفصل، والتي تنحصر في ثلاثة أنواع، هي العلاقات السياسية والفكرية والاقتصادية.

١ ـــ العلاقات السياسية

لقد كانت الأندلس في الفترة التي سبقت قيام دولة الأمويين فيها، إحدى الولايات التي كانت تتبع لولاية إفريقية في غالب الأحيان، والتي تتبع بدورها إلى المركز بدمشق، مصدر جميع الأوامر الادارية والعسكرية وغيرها، مثلها في ذلك مثل بقية الولايات العربية الأخرى. والسؤال المطروح هنا ماذا حدث بعد قيام الدولة العباسية وسقوط الدولة الأموية في المشرق؟ إن الذي حدث على هذا الصعيد كان كبيراً جداً، بحيث أدى إلى تغيير جذري شمل كل شيء. وأول مظاهر هذا التغيير، تجلى بانتقال الأمويين إلى الأندلس، وإعلان دولتهم هناك، رغم أنوف العباسيين. فقد أعلن عبد الرحمن الداخل في مستهل حكمه بالأندلس ولاءه للخليفة العباسي في بغداد، ودعا له في الخطبة لمدة عشرة أشهر[٨] تنصل بعدها من هذا الولاء وتحرر منه نهائياً، وبادر بتسمية نفسه (بالأمير) ومنذ ذلك الحين، أخذت الأندلس، تسير على خط سياسي مستقل ومنفصل عن مسار السياسية العباسية، ان لم يكن مناقضا لها في بعض الأحيان، وهذا ما يلاحظ في علاقات الطرفين مع الدولة البيزنطية، فبينما كان العباسيون في حالة حرب شبه دائمة ضد بيزنطة، كان أمراء الأندلس، يتبادلون سفارات الود والصداقة معها[٩] ويقصد بهذه السفارات، تلك التي أرسلت زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط، التي قصد منها البيزنطيون التحالف مع أمراء الأندلس ضد العباسيين، والتي لم تسفر عن نتائج ذات قيمة كبيرة، لكون عبد الرحمن رفض التعاون معهم ضد شعب

٧ ـــ الاسلام في المغرب والأندلس ص ٩٣ ـــ ٩٤.

٨ ـــ نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ١ ص ٦٠ ـــ ٧٠.

٩ ـــ دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها منذ الفتح وحتى الخلافة ص ١٦٧.

مسلم، يمثله العباسيون، واقتصرت نتائجها على أن يسود الهدوء والاستقرار بين الجانبين[١٠] وبشكل مختصر، فإن من الممكن القول في هذا الصدد، أن العلاقات السياسية بين البلدين، كانت غير موجودة على المستوى الرسمي المعترف به من قبل الحكم، وأن موجة من القطيعة العلنية، هي التي سادت طيلة الفترة المعنية بهذا البحث، وذلك على المستوى الظاهري المعلن. وإن كانت هناك من علاقة بينهما، فإنها كانت سرية، عمل من أجل تحقيقها في الخفاء في كلا البلدين، بالشكل الذي سيذكر في الصفحات القادمة. لكن وقبل الشروع في معالجة الأمثلة، التي تدلل على وجود مثل هذه العلاقة، بين الشام والأندلس، فلا بد من الاعتراف بحقيقة هامة، تتلخص بأنه لا وجود لمعلومات صريحة حول هذا الأمر، يمكن الاعتماد عليها بشكل يدعو للطمأنينة والثقة، وكل ما هو موجود بصدد ذلك ضمن المصادر الأندلسية والمشرقية وغيرها، لا يشكل أكثر من إشارات بسيطة جداً، سأورد منها فقط، ما يتعلق بطبيعة العلاقة السرية بين الشام والأندلس موضوع هذا البحث. ويمكن إرجاع، أو بالأحرى تحديد أساس هذه العلاقة وبدايتها إلى الفترة، التي تلت سقوط الدولة الأموية في المشرق، والتعويض عنها في دولة أخرى في الأندلس. فمنذ ذلك الحين، بدأ الحكام الأمويون في الأندلس يعبرون عن حنين ظاهر إلى أرض الآباء والأجداد، تطور مع مرور الأيام وتقادم السنين، إلى استراتيجية، يجب ترجمتها إلى حقيقة ملموسة، تتجسد بإعادة السيطرة على المشرق وإحياء أمجاد الدولة الأموية البائدة. لكن من الجدير بالمرء أن يعترف به، هو أن هذه الاستراتيجية لم تكن أكثر من حلم راود حكام الأندلس في أحيان كثيرة. وعبد الرحمن خير مثال على ذلك. فقد كان في نيته، منذ أن استقرت له الأمور في الأندلس، تجديد دولة بني أمية في المشرق. وظل هذا حلماً يرافقه حتى وافته المنية ولم يتحقق، أو ان يعمل شيئاً من أجله[١١]. وقد وجد الأمويون حكام الأندلس، أن خير أرض يمكن استغلالها في سبيل الوصول إلى هذا الهدف، هي أرض الشام، وذلك لاعتبارات في غاية الأهمية. يأتي في مقدمة هذه الاعتبارات أن أنصارهم فيها كثيرون ومخلصون في آن واحد، ويشد هؤلاء الأنصار إلى مساعدة حكام الأندلس، يشدهم أمل وطيد في أن تتحقق المعجزة مرة ثانية، وتعود الشام كمركز للدولة العربية من جديد، كما كانت قبل مجيء العباسيين إلى الحكم. وخير دليل على صحة هذا الواقع، أو بالأحرى هذا الترابط بين الطرفين الشامي والأندلسي، ما قام به أبو

١٠ ــ نفح الطيب ج٣ ص٢٢ ــ ٢٩.

١١ ــ نفح الطيب ج١ ص٣٣٣.

اليسر الشيباني العالم الرياضي الوافد على الأمير محمد، الذي حكم من سنة ٢٢٨ هـ ـــ ٨٤٣ م وحتى سنة ٢٧٣ هـ ـــ ٨٨٧ م، والذي قام بتزوير رسالة توصية على لسان أنصار للأمويين في بلاد الشام، وذلك قبل أن يدخل الأندلس[١٢] ويستنتج من هذا، أنه لولا وجود مثل هؤلاء الأنصار، لما لجأ الشيباني إلى عملية التزوير هذه، الذي نال بموجبها حظوة واهتماما زائدين لدى الأمير الأموي محمد، وهو الذي عرف أي (الشيباني) عن قرب متانة وصدق الاحترام المتبادل بين أمويي الأندلس وأنصارهم في بلاد الشام. وفي القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، وخلال فترة الصراع حول أحقية الخلافة، الذي نشأ بين أطراف ثلاثة، الأمويين في الأندلس، والفاطميين في المغرب، والعباسيين في المشرق، ظهر دليل أكثر وضوحاً وتأكيداً على ميل الشام للأندلس، ويتمثل هذا الدليل بأن المسعودي الجغرافي والمؤرخ، عثر على كتاب لدى أحد موالي الأمويين بمدينة طبرية سنة ٣٢٤ هـ ـــ ٩٣٦ م يحمل عنوان البراهين في إمامة الأمويين)، ويتحدث هذا الكتاب كما جاء على لسان المسعودي، عن استمرار الإمامة في الأمويين ابتداء بعثمان بن عفان ومروراً بمعاوية بن أبي سفيان وبعبد الرحمن الداخل إلى الخليفة الأندلسي المعاصر عبد الرحمن الناصر لدين الله.

وتوجد في الكتاب أيضاً ملاحم تدور حول ظهور السفياني المنتظر[١٣] ويلقي الدكتور أحمد بدر حول هذا الأمر سؤالاً مفاده: ما علاقة الحكام الأمويين بالأندلس في هذا؟ ويجيب عن ذلك بالقول: «ولعل أول ما يتبادر للذهن أن الكتاب موجود في المشرق، حيث توجد مجموعات من الناس مناصرة للأمويين كأناس من مواليهم، وآخرين أكثر عدداً من العثمانية، كانت وراء وضع مثل هذه الأفكار المتضمنة في الكتاب، خاصة وأن العثمانية كانوا يرون في الأمويين الخلفاء المجسدين لآمالهم، وكانوا متعصبين للأمويين وللأندلس...»[١٤] والجدير بالذكر أن العثمانية هؤلاء، هم أتباع الأفكار الواردة في الكتاب المسمى بهذه التسمية نفسها، وهو من مؤلفات الجاحظ، يحتج فيه على أحقية الأمويين، ويذكر المسعودي، أن الجاحظ تبعه في مؤلف آخر رآه معنوناً بـ(إمامة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان). واتبعه بآخر سماه (مسائل العثمانية). وكل هذه المؤلفات ترى وتقر أحقية الأمويين وبني مروان بالإمامة،

---

١٢ ـــ الأخبار المجموعة ص ١٤٦ ـــ ١٤٨.

١٣ ـــ المسعودي التنبيه والاشراف تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي ط القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٩٠ ـــ ٢٩١.

١٤ ـــ تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري ط دمشق ١٩٧٤ ص ١١٦ ـــ ١١٧.

دون علي وشيعته[١٥] . ومرة أخرى يطرح الدكتور أحمد بدر السؤال التالي : ما هو السبب الذي منع من ظهور كتب على شاكلة كتاب « البراهين على إمامة الأمويين » ، إلا في فترة إعلان الخلافة بالأندلس ، واحتدام الصراع بين الخلفاء فيها وبالمغرب ؟ . ويجيب بالقول : « ... أن أمويي الأندلس ، قد يكونون على صلة به ، وأنه ربما كان كتاب دعوة لهم .. وما يجعل هذا الأمر غير مستبعد ، هو أنهم كانوا على علاقة دائمة بالمشرق ، سواء قبل عصر الخلافة أو في أثنائه »[١٦] . ولعل بعضهم يقول ، ما السبب الذي وقف حائلاً دون ظهور وانتشار هذه الكتب وأمثالها في الأندلس بالذات ، ما دامت وجدت قبولاً من الحكام وغيرهم؟ ربما يعود السبب في ذلك إلى وضع الأندلس ذات المذهب الواحد . هذا بالإضافة إلى أن مثل هذه الأفكار تتعارض مع آراء الفقهاء المدافعين عن المذهب ، كما أن هذه الكتب وخاصة منها كتاب البراهين المذكور آنفاً ، يتجاهل خلافة علي بن أبي طالب على اعتباره رابع الخلفاء الراشدين[١٧] . ويرى في موقف منذر بن سعيد دليلاً أكيداً على صحة عدم إمكانية نشر هذه الكتب في الأندلس خشية معارضتها من الفقهاء ورجال الشريعة الاسلامية . فقد رأى منذر بن سعيد في هذا ظلماً صارخاً وامتهاناً كبيراً لحقِّ علي رابع الخلفاء الراشدين ، فيجعل من معاوية بن أبي سفيان رابعهم بدلاً من علي بن أبي طالب ، مما أثار غضبه إلى حد شتم فيه ابن عبد ربه بقوله :

أو ما علـيٌّ لابـرحتَ ملعنـاً ... يابنَ الخبيثـةِ عنـدكم بإمـامِ
ربُّ الكساء وخيرُ آلِ محمـدٍ ... داني الولاءِ مقـدمُ الاسلامِ[١٨]

ويستشم من موقف القاضي هذا ، أن الجو في الأندلس ، لم يكن مواتيا بشكل يسمح بانتشار كتب كالتي ذكرت في الأندلس على نطاقٍ واسع ، الأمر الذي يؤثر على موقف الحكام بشكل سلبي . وتكاد تكون كتابات ابن عبد ربه التي ورد ذكرها ، والتي أثارت غضب القاضي منذر بن سعيد ، أكبر تعبير عن مدى التعاون السري بين الأندلس والشام في

---

١٥ ــ المسعودي ــ مروج الذهب ومعادن الجوهر ــ ج ٤ تحقيق شارل بلا ط بيروت ١٩٧٣ ص ٧٧ الجاحظ العثمانية تحقيق عبد الله محمد هارون ط مصر ١٩٥٥ ص ١٣٦ وما بعدها . لم أعثر على كتاب مسائل العثمانية .

١٦ ــ تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري ص ١١٧ .

١٧ ــ المصدر السابق ص ١٢١ .

١٨ ــ التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ٢٩٣ .

سبيل تحقيق الهدف السياسي. ويشبه ابن عبد ربه، أولئك الذين كان يرسلهم أحمد بن طولون إلى العراق للدعاية له والتحدث عن سيرته وجلب الأخبار له. لأن مثل هذه الأعمال الدعائية سادت خلال هذه الفترة، خاصة في القرنين الثالث والرابع(١٩).

لذلك وانطلاقاً من هذا الواقع الصعب مضافا إليه الميل إلى الاكتفاء بامتلاك الأندلس التي عوّضت إلى حد لابأس به عن الشام الضائعة، فإن من الممكن القول أن ذلك الحلم الجميل الذي راود معظم الحكام الأمويين هناك، والذي يتلخص بالعودة إلى الشام، ظل دون تحقيق وانتهى بموت أصحابه. ويعود السبب في ذلك إلى أن مغامرة كهذه بعد استتباب الأمور في الأندلس على زمن الخليفة الناصر، ربما كانت تعني له ولغيره من بعده ضياع الأندلس من أيديهم، خاصة بعد أن ظهر خطر الاسبان الذي أضحى مثيرا للخوف والقلق أكثر من ذي قبل. وإذا ما قيل جدلاً أن الهجوم على المشرق وبخاصة الشام، كان ممكنا قبل هذه الفترة، على اعتبار أن الأندلس كانت أكثر هدوءاً واستقراراً. فإن قولا كهذا يصحُّ من الناحية النظرية، لكن العبرة ليست في الهجوم، بقدر ما تكون في النتائج التي ستتمخض عن هذا الهجوم، والتي لن تكون في صالح الأندلسيين، فيما لو قدر لهم وهاجموا الشام في هذه الفترة، لسبب بسيط جدا، يتجلى بأن الدولة العباسية كانت من القوة والقدرة على صد أية محاولة من هذا القبيل، وظلت هكذا تقريبا حتى ما بعد منتصف القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، الأمر الذي يجعل من العبث والجنون في وقت واحد التحرك بهذا الاتجاه من قبل أمويي الأندلس، الذين لم يكونوا بعيدين عن هذه التصورات، وإن لم تصدر عنهم أية إشارات حولها.

٢ ــ العلاقات الفكرية

تميزت هذه العلاقات عن غيرها بالنشاط والحيوية، بشكل لا يمكن مقارنتها بأي فرع من فروع الاتصالات الشامية الأندلسية. فقد بقيت الأندلس تعتمد اعتماداً كبيراً على بلدان المشرق، باعتبارها مصدر ثرّاً للفكر والثقافة. ويبدو هذا الأمر طبيعياً جداً بالنسبة للأندلسيين، لأن بواكير الحركة العلمية العربية، قدر لها أن تولد بالشام، لتنمو وتترعرع في ظل الحكم الأموي فيها. لتنتقل بعد ذلك وخلال القرن الثاني الهجري إلى بغداد كما هو

١٩ ــ البلوي ــ سيرة أحمد بن طولون تحقيق محمد كرد علي ط دمشق ١٩٣٩. ص ٧٣.

معروف ، والتي أصبحت خلال هذا القرن قبلة أهل العلم وطالبيه . لكن بالرغم من خطورة هذا الانتقال على وضع الشام ، والذي أعقبه ازدهار علمي وصل إلى أعلى مراتب الإبداع والنضوج وبسرعة مذهلة ، فإن الشام بقيت محافظة على مركزها العلمي ، واستطاعت أن تواكب بجد وجدارة تلك الحركة العلمية التي شهدتها حاضرة الدولة العربية بغداد . وبذلك بقيت الشام مصدراً فكرياً لا يستهان به ، ظل مقصوداً للاستزادة العلمية طيلة فترة القرون الوسطى . والشيء الملاحظ هنا خلال فترة هذا البحث ، والتي تمتد من الفتح العربي للاندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، أن الأندلس كانت تعتمد اعتماداً أساسياً على المشرق بما فيه الشام ، وذلك بالرغم من وجود شخصيات أندلسية علمية عالية المستوى ، كانت قد ظهرت خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين هناك . ولعل السبب في ذلك ، يعود في الفترة الأولى من حكم العرب في الأندلس ، إلى الفقر الشديد الذي اتصف به الأندلسيون على صعيد الفكر ، الأمر الذي أثّر على تطور الثقافة الأندلسية .

فعرب الأندلس غادروا المشرق في أواخر القرن الأول ومطلع القرن الثاني ، وذلك قبل أن تتفجر الثورة العلمية بالشكل الذي شهدته مدينة بغداد ، أيام العباسيين . يضاف إلى ذلك أن نوعية غالبيتهم لا تجعلهم أهلاً لحمل العلم والثقافة ، إذ كانوا في أغلبهم جندا محاربين ، لعل الصميل بن حاتم الأمي أحد زعمائهم خير مثال على وضوح مستواهم الفكري[٢٠] وقد قدر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز هذه الناحية ووعاها بشكل جيد ، مما جعله يرسل إلى الأندلس عشرة رجال من أهل العلم المتمكنين في الشام ، ليعملوا على نشر علومهم ومعارفهم هناك.[٢١] وبعد سقوط الدولة الأموية في الشرق وإحيائها في الأندلس ، بدأ الاهتمام بالنواحي الفكرية والثقافية يحتل مركزاً مميزاً على صعيد الحكام والشعب الأندلسي . وبدأ الأندلسيون يقصدون المشرق وخاصة مدينة بغداد يشجعهم الحكام أنفسهم[٢٢] . وكان نصيب الشام كبيراً من الأندلسيين الذين قصدوها بهدف اكتساب المعارف والعلوم على مختلف فروعها وأنواعها .

---

٢٠ ـــ دراسات في تاريخ الأندلس ص ١٦٩ .

٢١ ـــ التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ٢١٦.

٢٢ ـــ George- E-KIRK Ashort history of the middle east From the Rise of Islam to modern times. Ed- london withoutdate- p39.

فكانت دمشق وعدد آخر من مدن الشام مراكز إشعاع علمية يجتمع فيها الأندلسيون وغيرهم. وإذا كان من المستحيل ذكر أسماء جميع الأندلسيين. الذي جاؤا الشام لتلقي العلم فيها لكثرتهم، فإن من الضروري ذكر البعض منهم، ليكونوا بمثابة أمثلة واقعية تؤكد وجود العلاقة الفكرية بين الشام والأندلس في تلك الفترة من الزمن.

فقد حفلت الكتب التراثية الأندلسية والمشرقية على حد سواء. بأسماء الذين قصدوا مدينة دمشق وغيرها من المدن الأخرى، كالقدس والخليل ونابلس وعكا والرملة وعسقلان وغزة وانطاكية. فإلى مدينة عسقلان جاء من قرطبة عمر بن حفص سنة ٦٦٠ هـ ـ ٨٧٤ م وفيها أخذ العلم عن أحمد بن الفضل العسقلاني[٢٣] وإلى مدينة الرملة جاء من طليطلة محمد بن عبدوس في أوائل النصف الثاني من القرن الرابع، وفيها أخذ عن أحمد ابن صالح الرملي وأبي الحسن علي بن محمد القدسي[٢٤]. وكان وصل قبل ذلك وفي سنة ٣١٣ هـ ـ ٩٢٦ م محمد بن عبد الحميد القرطبي، فسمع عن الكثير من علمائها كأبي بكر بن جابر وغيره[٢٥] ووفد إليها من قرطبة في سنة ٣٤٥ هـ ـ ٩٥٧ م خلف بن قاسم الأزدي المعروف بابن الدباغ، وسمع من علمائها، وتنقل بين مدينتي عسقلان والقدس والتقى بالعلماء فيهما. ومن مدينة دانيا في شرق الأندلس، جاء أبو علي الحسن بن خلف، فسمع ببيت المقدس من ابي الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي، وبعسقلان من أبي عبد الله محمد بن الحسن التجيبي[٢٦]. وهذا يدل على أن الأندلسيين، كانوا يأخذون من بعضهم البعض في فلسطين. وحرص بعض الأندلسيين في هذه الفترة، على أن تكون ثقافته واسعة ومعلوماته متنوعة ورحلته أكثر فائدة، فقاموا بزيارة أكثر من مدينة والسماع على أكبر قدر من العلماء. ومن الذين نفذوا هذه المهمة الصعبة القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مفرج المولود سنة ٣١٥ هـ ـ ٩٢٨ م، فزار كلاً من غزة وعسقلان وطبريا والرملة وقيسارية، وبلغ عدد شيوخه مائتين وثلاثين شيخا[٢٧] ويمكن الاستنتاج من حركة هؤلاء باتجاه فلسطين، أن الذي جعلها منهلاً ثقافياً يعتمد عليه الأندلسيون، إضافة إلى غناها بالكوادر العلمية. أنها

---

٢٣ ـ تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٣٢١.
٢٤ ـ تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٣٤١.
٢٥ ـ المصدر السابق ص ٥٣.
٢٦ ـ نفح الطيب ج ٢ ص ٥٠٨.
٢٧ ـ نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٨ ـ المصدر السابق ص ٩٢.

كانت ممراً رئيسياً لهم على طريق الحج، على اعتبارها أرضاً مقدسة، كثيراً ما كانت زيارتها واجبة عليهم قبل الحج أو بعده. ولم يكن حظ المدن العربية الشامية الأخرى بأقل من حظ المدن الفلسطينية السابقة الذكر. فقد توافد إليها الأندلسيون بين الحين والآخر، يحدوهم في ذلك الحصول على شتى أنواع المعرفة. ففي سنة ٣٢٧ هـ ــ ٩٣٩ م، وصل الأندلسي أفلح مولى محمد بن هارون العتقي إلى مدينة الرقة، فسمع فيها عن أبي علي محمد بن سعيد الحراني، ليزور بعد ذلك مدينة حلب، حيث سمع عن أبي بكر شهرد الفارسي وابن رويط العدلي. وقصد مدينة دمشق، فأخذ عن أبي الطيب أحمد بن ابراهيم المعروف بأبي عبادل، وأبي يحيى زكريا بن يحيى القاضي البلخي وغيرهما كثيرون. وبقنسرين عن محمد بن عبد الصمد القرشي[٢٨] وإلى طرابلس الشام وصل أحمد بن عون الله بن تبيع البزاز قادماً من قرطبة، وفيها أخذ عن خيثمة بن سليمان بن حيدرة الطرابلسي، ليعرج على دمشق، التي أخذ فيها عن الأذرعي أبي يعقوب وأبي الميمون الدمشقي، وابن أبي العقب وغيرهم، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري[٢٩] وعرفت دمشق قبله بسنوات قليلة طالباً أندلسياً، وهو محمد بن صالح المعافري، الذي غادرها بعد أن سمع على عدة علماء فيها سنة ٣٤١ هـ ــ ٩٥٣ م[٣٠]. وفي الفترة نفسها وصل إلى أنطاكية الطلمنكي أحمد بن محمد المعافري الملقب بأبي عمر قادماً من قرطبة، لكونه كان نزيلاً بها، فقرأ على علي بن محمد الأنطاكي، ولم يعد إلى الأندلس، إلا بعد أن حصّل علماً كثيراً. وهو أول من أدخل علم القراءات إليها على حد قول صاحب كتاب (غاية النهاية في طبقات القراء)[٣١].

ولم تأت نهاية القرن الرابع الهجري، حتى كان في الأندلس على مختلف وفي شتى فروع العلم أقطاب وشخصيات علمية. وصلت إلى أعلى مستويات النضوج والتبحر في العلم بشكل يمكن من القول إن هذه الشخصيات، استطاعت أن تتفوق على أضرابها في المشرق الذي كان يعتبر النبع الرئيسي للفكر والثقافة منذ البداية. لكن وبالرغم من ذلك، فلم يتوقف الأندلسيون عن ارتياد الشام بقصد نهل العلم واكتساب المعرفة. ففي النصف الأول من القرن الخامس الهجري، يصل إلى الشام الأندلسي المشهور، سليمان بن خلف بن

---

٢٨ ــ تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٨٣.

٢٩ ــ تاريخ علماء الأندلس ص ٥٤.

٣٠ ــ ابن عساكر ــ تاريخ مدينة دمشق ــ ج ١٥ من مخطوط الظاهرية ــ ورقة ٢٣٩.

٣١ ــ غاية النهاية في طبقات القراء ج ١ عني بنشره ج ــ برجستراير ط ١ مصر ١٩٣٢ ص ١٢٠.

سعد أبو الوليد الباجي، فسمع الحديث بمدينة دمشق وصيدا وغيرهما[٣٢] وأيضاً وصل إلى دمشق في سنة ٤٨٥ هـ ـ ١٠٩٢م طالب علم آندلسي آخر، قدم إليها من مدينة اشبيلية، وهو محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري، والتقى بدمشق جماعة من العلماء والمحدثين، كان منهم مواطنه محمد بن الوليد الطرطوشي، الذي تفقه عليه واستفاد منه[٣٣] واستفادته من علم الطرطوشي المذكور دليل أكيد على اهتمام الأندلسيين بالعلم والتحصيل، فخلال فترة بسيطة تمكن الطرطوشي من أن يصبح ملقناً ومعلما للطلاب والمهتمين. ومن سرقسطة وخلال سنة واحدة، هي سنة ٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥ م، تستقبل مدينة دمشق أيضاً طالباً جديداً هو حسين بن محمد بن حيون الملقب بأبي علي، وصلها قادماً من بغداد، فسمع عن أبي الفتح نصر بن ابراهيم القدسي وأبي الفرج سهل بن بشر الاسفراييني وغيرهما كثيرون[٣٤]. ولم يتوقف التبادل العلمي بين الشام والأندلس على قدوم الأندلسيين إلى الشام فحسب، انما حدث العكس تماماً، عندما سافر بعض علماء الشام إلى الأندلس واستقروا فيها، يشتغلون بالتدريس والتعليم، مثال هؤلاء في القرن الثاني الهجري، مثل صعصعة بن سلام من أهل دمشق، وهو أحد الفقهاء المعول عليهم من رفاق الأوزاعي وأصحابه، وحدَّث بالأندلس، ويعتبر أول من نقل مذهب الأوزاعي إليها، وعاصر كلاً من عبد الرحمن الداخل، وجزءاً من فترة حكم هشام[٣٥]. وكان من هؤلاء أيضاً محمد بن عبد الله بن بشر الانطاكي المولود سنة ٢٩٩ هـ ـ ٩١٢ م في أنطاكية المنسوب إليها. تتلمذ على شيوخ في المدينة حتى أصبح مصدر ثقة وضبط كبيرين. وفي سنة ٣٣٨ هـ ـ ٩٥٠ م، ذهب إلى الحج ليعود إلى دمشق، وفيها بقي يشتغل بعلم القراءات حتى سمع بوفاة شيخه الأول ابراهيم بن عبد الرزاق، الذي كان موجوداً بمصر. فذهب إلى مصر على أثر ذلك، وبقي فيها يقرىء الطلاب حتى كان وصول سفير الحكم المستنصر، الذي كان قد كلفه بالبحث عن مقرىء يصحبه إلى الأندلس، فالتقى بالأنطاكي، فاصطحبة معه إلى قرطبة سنة ٣٥٢ هـ ـ ٩٦٣ م. وهناك بدأ بتدريس علوم شتى، كعلوم اللغة العربية والحساب والفقه والحديث، وقد عرف عنه تمكنه وقدرته الفائقة بهذه العلوم، وإجادة طرق ايصالها إلى التلاميذ بشكل لم يتمكن أحد من

٣٢ ـ ابن عساكر ـ تهذيب تاريخ دمشق ج ٦ نشرة أحمد عبيد ط ١ دمشق ١٣٤٩ هـ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.
٣٣ ـ الصلة ـ ج ٢ ط الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦ ص ٥٩٠.
٣٤ ـ نفح الطيب ج ٢ ص ٩٠ ـ ٩١ الصلة ج ١ ص ١٤٤ ـ ١٤٥.
٣٥ ـ تهذيب تاريخ دمشق ج ٢ ص ٤٢٣.

مجاراته في هذا المجال في عصره. وظل مثابراً في هذه المهمة حتى وافته المنية سنة ٣٧٧ هـ ـــ ٩٨٨ م في قرطبة، ودفن بمقبرة الربض[٣٦]، وقد تخرج عليه كثيرون من أهل الأندلس، استطاع بعضهم أن يسهم بحمل لواء تطوير الحركة العلمية والثقافية وخاصة في مدينة قرطبة، أذكر منهم على سبيل المثال وسيم بن أحمد بن ناصر المكنى بأبي بكر، الذي ظل يشتغل بعلوم الحديث والفقه والقراءات حتى وفاته سنة ٤٠٤ هـ ـــ ١٠١٤ م[٣٧] ومن كل ما تقدم يمكن استنتاج عدة أمور. أولها أن الأندلسيين ركزوا جلّ إهتمامهم على اغتراف ما يستطيعون من العلوم الدينية، كعلم الحديث والقراءات والأمور الفقهية، والعلوم اللغوية من نحو وصرف وعروض وما شابه ذلك. ثانيها أنهم كانوا يضعون أمامهم قبل الانطلاق إلى الشام هدفين اثنين، الحج والتحصيل العلمي. فكثيراً ما كانوا يؤدون فريضة الحج في البداية، لينطلقوا بعدها باحثين منقبين عن مصادر العلم وأهله في مختلف المدن العربية الشامية، ويحدوهم في ذلك تصميم ورغبة في عدم العودة إلا بعد امتلاء الجيوب وصقل المواهب.

وكثيرا ما عانوا من مشقات ومصاعب الانتقال من مدينة إلى أخرى في سبيل تحقيق هذا الهدف. ثالثها، أنه لم تكن هناك حواجز من قبل السلطات السياسية في كلا البلدين. فالحكام الأندلسيون عملوا بكل الوسائل على تشجيع الراغبين من أبناء شعبهم على الذهاب إلى المشرق وبلدانه التي منها الشام لنهل شتى أنواع المعارف والعلوم. كما عملوا من جانب آخر على استقطاب الكوادر العلمية المشرقية وإغرائها بالأعطيات والهدايا، ايمانا منهم بتطوير حركة الفكر الأندلسية بشكل يليق بالدولة العربية هناك. إذن وبعد كل ما تقدم، فإن من الضروري الاشارة إلى أن الشاميين أنفسهم لم يبخلوا بشيء من هذا القبيل، فبرهنوا على أن العداء السياسي يبقى منفصلاً لوحده دون أن يؤثر على نواحي الثقافة والفكر، خاصة وأن الشعبين الشامي والأندلسي، تجمعهما روابط مشتركة، لعل في مقدمتها روابط اللغة وروابط الأصل والانتماء في تلك الفترة من الزمن، وبذلك فإن العلاقات الفكرية، كانت أقوى من بقية فروع العلاقات الأخرى، فاتسمت بالنشاط والحيوية دون ما صعوبات ولا خوف، وبدت في غالبها طبيعية دون أن تتأثر بأي خلاف سياسي كان، أو مذهبي.

---

٣٦ ـــ غاية النهاية في طبقات القراء ج ١ ص ٥٦٤ ـــ إنباء الرواة على أنباه النحاة ج ٢ ص ٣٠٨ ـــ ٣٠٩.

٣٧ ـــ المصدر السابق ج ٢ ص ٣٥٩.

٣ ــ العلاقات الاقتصادية

ان العلاقات الاقتصادية بين البلدين العربيين الشام والأندلس في فترة ما قبل نهاية القرن الخامس الهجري، تشبه إلى حد كبير العلاقات الفكرية من حيث ضرورتها لكلا البلدين على حد سواء، أضف إلى ذلك أنها لم تقيد بحواجز وممنوعات من قبل السلطات السياسية. فقد ظلت حرة ومستمرة طيلة هذه الفترة بشكل طبيعي، وان كانت المصادر تغفل ذكر أي شيء مباشر عن بعضها، كما سيظهر بوضوح من خلال الصفحات التالية، ويمكن تقسيم هذه العلاقات إلى زراعية وصناعية وتجارية، لأن كل واحدة منها تختلف عن الأخرى من حيث النشاط والتأثير بالشام.

الزراعة : ان العلاقة بين الشام والأندلس على الصعيد الزراعي، تكاد تنحصر في تلك الغروس الزراعية المتنوعة، التي قام بنقلها أهل الشام، عندما استتبت أمور الحكم العربي في الأندلس. ويبدو هذا الأمر طبيعياً بالنسبة للفاتحين العرب، الذين كانو في أغلبهم من أصل شامي. إذ كانوا قد عرفوا هذه الغروس وخبروا طرق وفنون زراعتها، على اعتبار أنهم مارسوا هذه الزراعات منذ السنين الأولى لحياتهم. ومما ساعد على اعتمادها والتركيز على انتشارها في الأرض الجديدة (الأندلس)، أنه بعد أن استقر العرب هناك، وجدوا جميع الظروف ملائمة ومشجعة لنموها في كثير من المناطق الأندلسية. لعل في مقدمة هذه الظروف، التشابه في الطبيعة والأقليم بين الشام والأندلس ويبرز هذا التشابه على صعيد الأقليم والطبيعة، حاجة المجتمع الجديد الماسة إلى المنتوجات الزراعية التي اعتاد أفراده على استهلاكها، عندما كانوا في الشام، لأن مثل هذه المنتوجات وغيرها، كانت تشكل عماد الحياة الاقتصادية، فهي المنطلق والأساس للوصول إلى ازدهار صناعي وتجاري، كما أنها المصدر الوحيد لسد حاجة الاستهلاك المحلي.

لذلك يلاحظ أن مجاعات أو شبه مجاعات، كانت تحدث عندما تنحبس الأمطار أو تقل نسبتها عن الضروري. ومهما يكن من أمر فان العرب الأندلسيون منذ أن وصلوا إلى الأندلس عملوا على نقل الكثير من الزروع والغروس الشامية إلى الأندلس. لتنتشر بكثافة ونجاح، وتصبح من الزراعات البلدية المستوطنة، التي لا يمكن الاستغناء عنها، بحيث بقيت متوارثة وما زالت حتى أيامنا هذه. ولم يكن يتوقف الأمر على المبادرات الشعبية بصدد نقل هذه الزراعات، بل تعداه حتى شمل بعض الحكام الأمويين الأوائل، فكان لهم دور رائد في

هذا المجال، أذكر منهم الأمير الأموي الأول عبد الرحمن الداخل، الذي يعود إليه الفضل في اعتماد وترويج زراعة الرمان، عندما قام بنقل بعض غروس الرمان وزرعها في الرصافة، التي نسبت إليه بالقرب من قرطبة، وكان الذي جاء بهذه الغروس سفر بن عبيد الكلابي، الذي عرف الرّمان* باسمه، واشتهر بالرمان السفري(٣٨). ومن الفاكهة الأخرى، التي عرفتها الأندلس عن طريق الشام، شجرة البرتقال والتوت الشامي وغيرهما(٣٩). وعن طريق الشام أيضاً، عرفت الأندلس أنواعاً متعددة من الخضراوات، قدر لها أن تنجح وتستوطن، مثال ذلك نبات السبانخ الذي يعود أصله إلى أرض فارس وانتقلت زراعته إلى الشام، بعدما انتشر الاسلام ونقل من فارس بعيد الفتوحات العربية الأولى. ومن الشام نقله العرب إلى الأندلس(٤٠) إلى جانب هذا النوع من الخضراوات فهناك أنواع كثيرة من نباتات الشام عرفت زراعتها في الأندلس بشكل واسع، منها الهندباء والخرشوف. والطرخون والباذنجان والزعفران والبصل العسقلاني والأرضي شوكي وغيرها.

وجميع هذه الأصناف كانت معروفة في الشام منذ أقدم العصور. ومن الشام أيضاً انتقلت عادة زراعة بعض الأصناف من الحبوب كالذرة والحنطة السوداء والأرز والسمسم(٤١) كما انتقلت إضافة إلى ذلك طريقة زراعة نباتات صناعية مختلفة، كان في مقدمتها قصب السكر والقطن، التي لم تكن تعرفها الأندلس قبل الفتح العربي(٤٢) وإذا كان الفضل يعود إلى الشاميين في نقل هذه الزراعات والغروس إلى الأندلس، فاليهم يعود من جهة أخرى فضل نقل واعتماد وسائل الري الشامية في الأندلس، كالنواعير وفن سقاية الجنائن(٤٣) وهكذا فان أغلب الزراعات الشامية انتقلت إلى الأندلس بشكل أو بآخر، وأسهم في عملية النقل هذه أولئك الشاميون، الذين قدر لهم أن يستوطنوا بصورة دائمة في الأندلس — فعملوا

---

٣٨ — نفح الطيب ج ٢ ص ٤٦٧ — ٤٦٨.

٣٩ — خطط الشام ج ٤ ص ١٦٣.

٤٠ — جورج يعقوب — أثر الشرق في الغرب خاصة في العصور الوسطى — ترجمة فؤاد حسنين علي ط القاهرة ١٩٤٦ ص ٩٧.

٤١ — خطط الشام — ج ٤ ص ١٦٣ توفيق فهد مجلة التراث العربي — العدد الرابع اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٨١ ص ١٦٨.

٤٢ — نعيم زكي فهمي — طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ط القاهرة ١٩٧٣ ص ٢٤٢.

٤٣ — خطط الشام ج ٤ ص ١٦٣.

بكل الوسائل والطرق على توطين زراعتهم وغروسهم التي عرفوها ومارسوا العمل فيها، عندما كانوا في الشام، لتكون البديل في الوطن الجديد، الذي يحل محل الأصل. وبذلك يمكن القول، إن الأندلس هي بنت الشام على الصعيد الزراعي. ومعظم هذه الزراعات عرفتها أوربا عن طريق الأندلس.

الصناعة: أما عن تبادل الخبرة في مجال الصناعة ووسائلها بين الشام والأندلس في فترة هذا البحث، التي تبدأ من الفتح وحتى نهاية القرن الخامس الهجري. فلا توجد معلومات واضحة ولا حتى إشارات بسيطة يمكن اعتمادها أساساً لمعالجة هذه الناحية بين البلدين، وذلك بعكس ما حدث في المجال الزراعي، حيث كانت الصورة واضحة إلى حد ما. وتكاد تكون كل كلمة تقال حول هذا الأمر مشوبة بالحذر ومدعاة لعدم الثقة والاطمئنان. وكل ما يمكن قوله بهذا الصدد، أن أسماء لكثير من الصناعات، كانت قد انتشرت وعرفت بشكل واسع في العديد من المدن الأندلسية، خلال فترة حكم الأمويين فيها. فقد عرفت مدينة قرطبة بدباغة الجلود، ومالقة بصناعة الفخار، والمرية بعمل الأجواخ والحديد والنحاس وبناء السفن، وصناعات أخرى متفرقة، وسرقسطة بعمل الأقمشة الحريرية والكتانية، وشاطبة بعمل الورق، واشبيلية بنسج الحرير وحياكته إلى غير ذلك من الصناعات الأخرى المختلفة(٤٤) والسؤال الذي يطرح نفسه هنا.

من أين جاء الأندلسيون بالخبرة والمعرفة لاعتماد مثل هذه الصناعات وتطويرها؟ فالقول بأنهم اعتمدوا على بعض الخبرة المحلية من سكان البلاد الأصليين، يبدو من الصعب حسمه أو البت فيه بشكل نهائي، على اعتبار أنه لا وجود لمعلومات تشير إلى ذلك. لكن ليس من المستبعد على كل حال أن يكون الأندلسيون قد استعانوا ببعض خبرات أهل البلاد الأصليين في مجال بعض الصناعات، لتصبح فيما بعد عربية خالصة. ويبدو دور الشام كبيراً ورائداً أكثر من غيره في مجال تطوير الصناعة في الأندلس إذا ما أخذ بعين الاعتبار، أن معظم الصناعات التي انتشرت واشتهرت في الأندلس، كانت معروفة في بلاد الشام. وكما هو

---

٤٤ ــ القاضي النعمان ــ المجالس والمسايرات تحقيق الحبيب الفقي ابراهيم شبوح محمد اليعلاوي ط تونس ١٩٧٨ ص ١٨٠ ــ حيث يورد القاضي النعمان رواية عن عبد الرحمن الثالث، يفاخر فيها بصناعات الأندلس أمام المعز لدين الله الفاطمي، وأن هذه الصناعات جعلت الأندلس بمستقل عن المشرق وصناعاته.

معروف فإن الأندلسيين أنفسهم يرجعون في أصولهم إلى الشام في غالب الأحيان، لذلك ليس مستبعداً أن يكونوا قد نقلوا خبراتهم في ميدان الصناعة إلى حيث الأرض المفتوحة. لأن نقل مثل هذه الخبرة، كان من الضرورات التي لا غنى عنها، وخاصة في مجال الصناعة الحربية خلال السنوات الأولى من بدء الفتوحات هناك. وبعد أن تم أمر الفتح وظهرت الدولة الأموية إلى حيز الوجود وبشكل مستقل، أضحت بحاجة ماسة إلى وجود صناعات محلية، تستطيع أن تدعم هذا الاستقلال، والأمر كذلك بالنسبة لنواح أخرى كالثقافة والزراعة وغيرهما. فالشام كانت بالنسبة للأندلس مصدراً اعتمدت عليه كثيراً في هذه النواحي، الأمر الذي يجعل أمر اعتمادها على الشام في مجال الصناعة شيئاً طبيعياً جداً، لا يثير التساؤل أو الاستغراب. وما يؤكد صحة ذلك، أن زراعة قصب السكر، كانت قد انتقلت من الشام إلى الأندلس. إذن والحالة هذه فكان لا بد من انتقال طريقة تصنيع وتحضير السكر، وهذا ما أكده المستشرق الألماني جورج يعقوب في كتابه (أثر الشرق في الغرب في القرون الوسطى) عندما قال: «أما صناعة السكر فيرجع الفضل فيها للعرب، فالعرب هم الذين جاؤا بالقصب إلى أسبانيا»[٤٥]. والدليل الآخر، يأتي من مدينة دمشق، التي اشتهرت بصناعة الأقمشة المزركشة من الحرير والكتان منذ القديم، وما أن استقر العرب في الأندلس حتى عمل الشاميون على نقل هذه الصناعة إلى هناك[٤٦].

التجارة: ظهر في الحديث عن العلاقات بين الشام والأندلس على صعيد الفكر، أن القطيعة العلنية على الصعيد السياسي، لم تكن ذات تأثير كبير. وكذا الحال بالنسبة للعلاقات التجارية، حيث بقيت التجارة ككل بين البلدين من الحرف الرائجة بينهما، بشكل يمكن معه تصنيفها من حيث النشاط والحيوية، بعد العلاقات الفكرية مباشرة. وكما كانت المصادر ضنينة في معالجة أسس العلاقات السياسية، فإنها تبقى هكذا في مجال العلاقات التجارية، وان كانت تظهر في هذا الميدان بعض الإشارات التي تمكن من ايضاح جزء من طبيعة هذه العلاقات. والجدير بالذكر، أنه قبل إعلان الدولة الأموية المستقلة في الأندلس، كانت العلاقات طبيعية جداً بين الشام والأندلس، على أن هذه الأخيرة، كانت إحدى ولايات الدولة العربية، الأموية التي مركزها دمشق. وظلت طبيعية، بعد أن تم انفصال

٤٥ ـــ أثر الشرق في الغرب في القرون الوسطى ص ٩٧.

٤٦ ـــ خطط الشام ج ٤ ص ٢٢١.

الأندلس عن الشام في عهد العباسيين ، لتشهد نشاطاً لم يعهد له مثيل بدءا من نهاية القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي عندما ازدهرت الزراعة والصناعة في الأندلس ، الأمر الذي جعلها بحاجة ماسة لترويج عمليات الاستيراد والتصدير[٤٧] . وكان التجار من كلا القطرين الشامي والأندلسي يجوبون سواحل البلدين محملين بشتى أنواع البضائع . مثال هؤلاء التجار ، مثل التاجر الأندلسي ذو النون الأخميمي الذي ، كان يسافر إلى فلسطين وإلى القدس بشكل خاص في كل عام ، وكان يمر في كل مرة على مدينة الرملة ويتجر بها[٤٨] ومن هؤلاء أيضاً من عرف عنه بجلب أشياء ثمينة من الشام ، كربيع الأسقف وأحمد اليوناني , فقد جلب أحمد اليوناني معه إلى الأندلس ، حوضاً صغيراً مزيناً بنقوش تمثل الانسان ، تم وضعه في مدينة الزهراء ، التي أمر ببنائها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله[٤٩] . ولم يقتصر الأمر على المبادرات الفردية من قبل الأندلسيين ، بل تعداه إلى الحكام أنفسهم ، الذين شجعوا الاستيراد والتصدير . ففي سنة ٤٨٤ هـ ـــ ١٠٩١ م ، أرسل صاحب دانيا وحاكمها آنذاك مركبا محملا بأنواع مختلفة من الزروع إلى الشام ، ليعود بعد فترة قصيرة محملاً بالتحف غالية الثمن ، والتي يندر وجودها في الأندلس . وتقول الرواية ، أن هذه التحف بقيت محفوظة عنده حتى سيطر بنو هود على شمال شرق الأندلس فاحتفظوا بها لنفاستها حتى مجيء المستعين بالله أحمد بن هود ، فقام بتقديمها إلى ابن تاشفين كهدية ، أراد من ورائها اسكاته عنه ، لأن هدف ابن تاشفين كان يتجسد بالقضاء عليه واستئصال شأفة حكمه ، كما فعل مع زعماء دول الطوائف الآخرين[٥٠] وبالمقابل فإن العديد من أهل الشام ، قدموا الأندلس بقصد التجارة ، مثال هؤلاء التاجر الدمشقي العلاء بن الحارث بن كثير بن العلاء الحضرمي الملقب بأبي وهب ، الذي قدم الأندلس سنة ٤٢٩ هـ ـــ ١٠٣٨ م ، وكان بصحبته ابنه كثير ، الذي كان يساعد والده في مسائله التجارية[٥١] ويمكن التعرف على العلاقة التجارية بين البلدين العربيين ، وبالتالي توضيح هذه العلاقة بشكل أكبر ، من خلال تتبع ما كتب عن المدن الأندلسية والشامية على حد سواء ، وخاصة منها المدن البحرية . فقبل

---

٤٧ — Ashort history of the middle east From the Rise Islan to modern times-p 38.

٤٨ ـــ الصلة ج ٢ ص ٣٧٨ .

٤٩ ـــ نفح الطيب ج ١ ص ٥٦٨ .

٥٠ ـــ البيان المغرب ج ٤ ص ١٤٥ ـــ ١٤٦ .

٥١ ـــ كتاب الصلة ج ٢ ص ٤٣٥ .

ظهور مدينة المرية واشتهارها على الصعيد التجاري، في الجزء الجنوبي من الأندلس، كانت مدينة دانيا على الساحل الشرقي تحتل مكانة مرموقة على صعيد استقبال السفن التجارية في الفترة التي سبقت منتصف القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، وربما ظلت هكذا حتى بعد ظهور مدينة المرية. يقول عنها الإدريسي الجغرافي: «... ودانية مدينة تسافر إليها السفن، وبها ينشأ أكثرها، لأنها دار إنشاء السفن، ومنها تخرج السفن إلى أقصى المشرق..»(٥٢) أما مدينة المرية على الشاطىء الجنوبي للأندلس، فقد شيدت سنة ٣٤٤ هـ ــ ٩٥٦ م من قبل الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله، لتصبح أهمّ القواعد البحرية على السواحل الأندلسية، فميناؤها محمي ضد عوامل الطبيعة وخاصة منها الرياح، مما يجعل السفن تقصده وترسو به بأمان. وكانت المراكب التي تقصد هذه المدينة تفد من الشام وغيرها من أقطار المشرق، تحمل إليها البضائع وبالعكس. وما كثرة الفنادق المخصصة لنوم الوافدين إليها واستراحتهم، سوى دليل أكيد على غزارة ما يؤمها من التجار من المشرق والمغرب بمن فيهم تجار الشام.

وقد جاء في الروض المعطار ما يؤكد ذلك بوضوح: «... وقد كانت مراكب التجار من الاسكندرية والشام تقصد مدينة المرية.. وهي كثيرة الخيرات وفيها ألف فندق إلا ثلاثون فندقاً»(٥٣). وتزداد أهمية هذه المدينة مع تقادم الأيام، ليس فقط لأنها أهم الثغور البحرية على سواحل الأندلس من الناحية التجارية، لأنها أهم الثغور البحرية على سواحل الأندلس من الناحية التجارية، بل لأنها أصبحت أيضاً مدينة صناعية من الدرجة الممتازة، مما عزز مركزها التجاري بشكل أكبر من ذي قبل. ففي الربع الأخير من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وهي فترة حكم المرابطين الأولى، كانت قد أصبحت مستقرا لكل الصناعات في الأندلس تقريباً. يقول صاحب الروض المعطار عنها: «وكانت المرية أيام الملثمين مدينة الإسلام، وبها من كل الصناعات كل غريبة، وكان بها من طراز الحرير ٨٠٠ طراز، وتعمل الحلل والديباج والأصبهاني والجرجاني والستور الملكية والثياب... وكانت فيما تقدم تصنع بها من صنوف آلات النحاس والحديد ما لا يحد»(٥٤) ونظرة فاحصة على هذا القول، تمكن المرء من استنتاج عدة أمور هامة، منها أنه يفهم من قوله (وكانت مدينة

---

٥٢ ــ الادريسي ــ صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ــ ط ليدن ١٨٦٤ ص ١٩٢.

٥٣ ــ الروض المعطار ص ٥٣٨ ــ صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٩٧.

٥٤ ــ الروض المعطار ص ٥٣٨.

الاسلام) أنها كانت مقصداً وقبلة للمسلمين التجار من جميع أقطارهم . فلا عجب والحالة هذه أن يكون نصيب التجار الشاميين كبيراً في زيارتها بشكل مستمر . شيء آخر يمكن استنتاجه من خلال الجواب على التساؤل التالي : لماذا استقرت فيها كل هذه الصناعات وما الدافع لذلك ؟ والأقرب للواقع والدقة ، أن يكون ذلك عائداً في أغلب الأحيان إلى كثرة القوافل التجارية التي تؤمها للشراء والتصريف . ويبدو من العسير جداً تفسير هذا الأمر بغير هذه الصورة . وكل قول لا يأخذ بعين الاعتبار هذا التفسير ، يكون قد جانب الحقيقة والواقع . وهناك دليل واضح على نشاط العمليات التجارية بين القطرين ، قبل فترة ظهور المرية بقليل ، وبهذا الشكل البارز . ويتجلى هذا الدليل للعيان من خلال ذكر الصفة التي حملها ابن حوقل الجغرافي . فحينما أراد الذهاب إلى الأندلس لاستطلاع أحوالها العامة ، وتقديم تفاصيل هذا الاستطلاع إلى صاحب الدعوة الفاطمية تمهيداً لاحتلالها ، فقد قدمها على هيئة تاجر في سنة ٣٣٧ هـ ـ ٩٤٩ م وبالمقابل فإن ما ذكر عن المدن الأندلسية البحرية ، من الممكن ذكره عن المدن الساحلية الشامية ، وبالتالي استنتاج أمور تدلل على حقيقة ووجود علاقات تجارية نشطة بين البلدين . وقد برزت مدينة عكا ، كأهم مرفأ على الساحل الشامي بالنسبة لاستقبال التجار المغاربة وغيرهم من جميع الأقطار[٥٥] إلى جانب مرفأ عكا ، فقد ظهر في العهد الفاطمي مرفأ مدينة طرابلس ، ليتبوأ مركز الصدارة على الصعيد التجاري بين الأندلس والشام .

وهذا ما أشار إليه العديد من الرحالة العرب والمسلمين . فقد ذكرنا صر خسرو الرحالة الفارسي عنها ما يلي : « وتحصل المكوس بهذه المدينة ، فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والأندلس والمغرب العشر للسلطان .. وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة »[٥٦] . وقد تنوعت السلع المتبادلة بين الشام والأندلس في تلك الفترة من الزمن ، واقتصرت في كثير من الأحيان على السلع ، التي تفتقر إليها كل منهما ، بشكل تكمل إحداهما الأخرى . فعلى صعيد الأندلس ، أصبحت منذ القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي من أغنى المناطق بالفائض الزراعي ، مما جعلها مصدرا ثرا إلى كل من أوروبا والشرق الاسلامي على حد سواء[٥٧] فقد جلب ثمر التين من مدينة مالقة إلى الشام ، لأن تين هذه

٥٥ ـ الروض المعطار ص ٤١٠ .

٥٦ ـ ناصر خسرو ـ سفرنامة ـ ترجمة يحيى الخشاب ط ١ القاهرة ١٩٤٥ ص ١٣ .

٥٧ ـ انظر ص ٧٢ وما بعدها . من هذا البحث.

المدينة تميز عن غيره بجودته ووفرته بكميات كبيرة، مما أدى إلى تصدير الفائض منه إلى الشام وغيرها من أقطار الشرق.

فقد جاء على لسان صاحب الروض المعطار عند حديثه عن مدينة مالقة ما يلي: «.. وبها تستدير كروم التين من جميع الجهات، والتين يحمل منها إلى مصر والشام والعراق .. وهو من أحسن التين طيبة وعذوبة»(٥٨) ومن المواد المصنعة التي جلبت إلى الشام من مدينة شاطبة الأندلسية، الورق. يقول الادريسي عن شاطبة: «.. يعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ويعم المشارق والمغارب»(٥٩) ومن احدى القرى المجاورة لمدينة طليطلة، كان يجلب الطين، الذي يستخدم للأكل وتنظيف الشعر. وجلب منها الحديد والنحاس(٦٠) ومن كرتيش احدى ضواحي مدينة قرطبة، كانت تجلب الفضة. وجلب القصدير من اكشونبة والزئبق من جبال البرانس، والتوتياء من إحدى قرى البيرة، والكحل من طرطوشة(٦١) وكان العصفر يجلب من مدينة اشبيلية، التي اشتهرت بانتاجها الوفير من هذا الصنف(٦٢) ومن الأندلس أيضاً كان يجلب الصوف المصنع، والمصبوغ بأصبغة خاصة، وأنواع أخرى كالديباج واللبود والحرير المصبوغ والألبسة الكتانية(٦٣) ولعل هذه الأصناف، كانت أهم ما ركز على استيراده من الأندلس على أيدي تجار الشام. وشكلت الشام أحد المصادر الرئيسية لكثير من البضائع التي تحتاجها الأندلس، والتي كان منها أدوات الزينة وحاجات البناء النادرة في الأندلس(٦٤) وكثيرا ما نقل التجار الصابون الشامي إلى الأندلس، والحرير المعروف بالبروكار، والذي كان يصنع بشكل خاص في كل من دمشق وحلب وطرابلس وانطاكية(٦٥) وبصورة عامة، فان جميع الاسباب كحرية التنقل بين الشام

---

٥٨ — الروض المعطار ص ٥١٧.

٥٩ — صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٩٢.

٦٠ — المصدر السابق ص ١٨٨.

٦١ — البكري — جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك ت عبد الرحمن علي الحجي ط ١ بيروت ١٩٦٨ ص ١٢٩ — ١٣٠.

٦٢ — العذري — نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ت عبد العزيز الأهواني ط مدريد ١٩٦٥ ص ٩٦.

٦٣ — ابن حوقل — صورة الأرض قسم ١ ط ليدن ١٩٣٨ ص ١١٤.

٦٤ — انظر ص ٧٦ من هذا البحث.

٦٥ — طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب ص ٧٧.

والأندلس، التي لم تعارضها أنظمة الحكم في كلا البلدين، ووجود الأسطول التجاري، ومعرفة الطريق البحرية، وقرب المرافيء من التجمعات الاقتصادية النشطة والهامة، كل ذلك ساعد بشكل كبير على رواج التجارة بين الشام والأندلس طيلة هذه الفترة المعنية بهذا البحث. لكن الشيء المميز أن هذه العلاقة لم تكن رسمية، كأن تكون هناك معاهدات تنظم هذه العلاقة، أو غير ذلك على سبيل المثال. كما سيظهر جليا في الفترة التالية بدءا من القرن السادس الهجري، حيث تنقلب الصورة، وتصبح العلاقات التجارية أكثر أهمية ورواجا من ذي قبل، لكونها أصبحت محط أنظار واهتمام الحكام، وبشكل خاص المماليك.

وهكذا فان العلاقات بين دياري العرب والاسلام في الشام والأندلس، قدر لها أن تكون طيبة وطيدة الدعائم والأسس، خلال فترة الخمسة قرون الأولى، باستثناء العلاقات السياسية، التي لم تكن طبيعية. فكانت الطريق بين القطرين التوأمين نابضة بالحياة والحركة، مكتظة بالقادمين والمغادرين من والي البلدين، دونما شعور أو احساس بالخوف أو الحرج أو الغربة أو أي شيء من هذا القبيل. ويمكن القول أن عرب البلدين كانوا يشعرون بأنهم أبناء وطن واحد، وأرض واحدة، لهم حق وحرية التنقل والعيش في أية بقعة يشاؤن، ودليل ذلك كما مر سابقاً، أن العلاقات الفكرية والاقتصادية، لم تتخذ صفة رسمية، الأمر الذي يدل بدوره على أن الاختلاف على الساحة السياسية، لا يؤدي إلى القطيعة بين الشعوب، التي تعود في أصلها إلى أرومة واحدة، وتشترك في حاضر ومسقبل واحد، كما الحال بين الشعبين العربيين الشامي والأندلسي، حيث بقيت حركة الانتجاع والاتصال قائمة بينهما خلال هذه الفترة. فقد اسقبلت الشام الأندلسيين على جميع فئاتهم، استقبلتهم حجاجا وتجارا وطالبي علم ومعرفة، وأيضاً بالنسبة للأندلس. لتتطور هذه المسألة بدءا من أوائل القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، فتصبح الشام بالنسبة لأهل الأندلس ملجأ أمينا يعولون على ارتياده والإقامة به كبديل عن ديارهم المفقودة وهذا ما سيبحث بالتفصيل في الفصول القادمة.

الفصل الثاني

العوامل المساعدة على استقطاب مجموعات من الأندلسين إلى بلاد الشام

منذ بداية القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، أو قبل ذلك بقليل، ظهر نزوع لدى بعض الفئات من المجتمع الأندلسي، إلى ترك بلادهم والتوجه إلى أقطار عربية اسلامية، كان من ضمنها بلاد الشام، التي ظل يقصدها الأندلسيون طيلة الفترة المتبقية من العصور الوسطى، وبصورة نشطة ومتميزة إلى حد كبير. فما البواعث لظهور هذه المشكلة؟ وما أهم عوامل نشأتها؟ حتى تطورت من عملية نزوح إفرادية في البداية إلى عملية نزوح جماعية، تدعو إلى الحزن والأسى، منذ السنين العشر الأولى من النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. وواقع الحال أن هذه العوامل، لم تكن موجودة بشكل مستقل في جهة دون أخرى، كأن يقال جدلاً، أنها كائنة في ظروف الدولة العربية في الأندلس وحسب، ولا علاقة لبلاد الشام بهذا كله. لكن الحقيقة تبدو غير ذلك وبصورة مختلفة تماماً، تتجلى بأن هذه العوامل، كانت موجودة على الساحتين الشامية والأندلسية، وان كانت تختلف من ناحية قيمتها كعوامل إيجابية مشجعة، أو كعوامل سلبية قاهرة بالنسبة للأندلسيين أنفسهم. فالعوامل الموجودة على الصعيد الأندلسي في تلك الفترة من الزمن، اتسمت بالسلبية ككل، الأمر الذي أجبر الكثيرين من السكان على النزوح عن وطنهم نهائياً، بعد أن غدا أمر بقائهم مستحيلاً فيه. وهذه العوامل التي كانت مصدر وأداة قهر

وضغط وإجبار ، هي ما سأعالجها تحت اسم (عوامل الطرد) أما تلك التي تجسدت على الساحة العربية في بلاد الشام ، فقد اتسمت بالايجابية شبه المطلقة ، الأمر الذي شجع الأندلسيين المقهورين على ارتيادها باستمرار ، وهي ما سأبحثها تحت عنوان (عوامل الجذب) .

عوامل الطرد

ويقصد بها مجموعة الاضطرابات والتبدلات السياسية التي حدثت على صعيد الأندلس الداخلي ، وتلك الأخطار التي أحدقت بالأندلس وسكانها من جراء الهجمات الاسبانية الفاعلة . فالاضطرابات الداخلية وعدم الاستقرار ، أضحت عناوين مزعجة للعرب المسلمين في الجناح الغربي من الدولة العربية ، وخاصة في الفترة التي تلت نهاية العقد التاسع من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي . فقبل هذه الفترة على سبيل المثال لم تكن الأندلس قد عانت من مثل هذه الاضطرابات ، التي اتسمت بالقلق والتأثير على السكان . مما أدى إلى ظهور جالية كبيرة من الناس ، لم يعد أمامها من خيار ، إلا النزوح والرحيل عن الوطن إلى غير رجعة . فقد بقيت الأمور السياسية مستقرة في الأندلس طيلة فترة حكم الأمويين ، بشكل لا يدعو إلى الهجرة والبحث عن وطن جديد . وهذا الاستقرار أدى بدوره إلى ازدهار اقتصادي وفكري . فعلى صعيد الاقتصاد الأندلسي ، يرى أن الزراعة ، ارتقت إلى أعلى المراتب ، الأمر الذي أدى إلى ارتقاء الصناعة والتجارة على حد سواء . وهذا الازدهار الاقتصادي الرائع ، أدى بالحكام والرعية إلى الالتفات والتركيز على النواحي الفكرية ، فتطورت العلوم في الأندلس بشكل سريع ومذهل ، حتى وصلت إلى أعلى المستويات ، مما ساعد الأندلسيين على المفاخرة بعلمائهم ومؤلفاتهم المتنوعة ، والوقوف بثقة أمام أمثالهم من العلماء المشارقة ، عدتهم في ذلك الذخر الضخم والمتنوع من الانتاج الثقافي والفكري . وإن كان الصرح السياسي في الأندلس ، قد أصيب بضربة مؤلمة في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ، عندما زالت الخلافة الأموية ، وانتهى حكمها إلى ظهور دويلات ، أطلق عليها تسمية (دول الطوائف) . وبالرغم من حدوث هذا الانقسام ومجيء هذه الدول ، فإن الحالة الاقتصادية ، بقيت محافظة على بعض الاستقرار والثبات ، بسبب الاحتفاظ بالأموال واختزانها لدى بلاطات الملوك ، الأمر الذي منع من الوصول إلى حالة من التدهور الكامل ، كما حدث على الصعيد السياسي ، وانعكس ذلك ايجابا على الحركة الفكرية

والثقافية، مما ساعد سكان الأندلس على أن يستمروا بزخمهم القديم في البقاء والتشبث بالأرض، وعدم اللجوء إلى الهجرة، وإن كان الأمر لا يخلو من حالات شاذة، لا يعوّل عليها كثيرا. والشيء الذي ساعد على عدم نزوح الأندلسيين في هذه الفترة بالشكل الذي سيظهر فيما بعد، يعود إلى الاهتمام الجدي من قبل حكام دول الطوائف ببناء صروح دويلاتهم وممالكهم. فقد عمل كل واحد منهم بكل ما أوتي من قدرة، وبما توفر لديه من امكانات مختلفة، أن يجعل من دولته كيانا متميزا من جميع النواحي عن الدولة الأخرى التي تجاوره. سواء أكان ذلك على الصعيد السياسي أو العلمي أو الاقتصادي أو العسكري إلى غير ذلك من الأمور. ويبدو هذا بديهيا إذا ما أخذ بعين الاعتبار، أن حكام دول الطوائف في الأندلس، لم يكونوا على وفاق فيما بينهم في أغلب الأحيان، بل كانت روح العداء هي السائدة، بالرغم من رابطة الدم. والعقيدة والمصير المشترك. وباختصار يمكن القول، إن حكام دول الطوائف هؤلاء، عملوا بشيء من الجد والمثابرة على دفع الحركة العلمية والفكرية قدما إلى الأمام، يحدوهم في ذلك حب الظهور وشهوة الحكم والاستئثار. واستقطبوا كثيراً من الكوادر العلمية وغيرها، انطلاقا من علة الحقد والأنانية الضيقة التي اتسم بها أكثرهم. وفي هذا الجو وجد الرعايا الأندلسيون مناخا ملائماً وعاملاً مساعداً على تحقيق أهدافهم ومصالحهم ضمن نطاق الحدود الأندلسية. لذلك يلاحظ أنه عندما كان أي من العلماء، يتعثر عند حاكم ما من حكام دول الطوائف، يلجأ إلى بلاط حاكم آخر، مثال ذلك، الشاعر الوزير ابن زيدون، الذي أجبر على ترك مدينة قرطبة، بعدما استحال بقاؤه فيها، والتجأ إلى اشبيلية مقر حكم المعتمد بن عباد[1] حيث لقي هناك ترحيباً عظيماً وعناية خاصة. وبقيت الحال هكذا، حتى قبل نهاية العقد التاسع من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي بقليل، ليطرأ تبدل جذري على الحالة العامة، بالنسبة لفئة من الأندلسيين، ولتبدأ تأثيرات العوامل الداخلية تفعل فعلها، بشكل أدى إلى نتائج سلبية ومأساوية، انعكست على تلك الفئة، التي لم تتمكن من التعايش مع التطورات الجديدة. إذ بدأت هذه الفترة بسقوط دول الطوائف نهائياً في الأندلس وقامت على انقاضها دولة المرابطين (٤٨٥ هـ ـ ١٠٩٢ م ـ ٥٤١ هـ ـ ١١٤٦ م)، وخلفتها دولة الموحدين، التي حكمت فترة لابأس بها، استمرت من سنة (٥٤١ هـ ـ ١١٤٦ م ـ ٦٦٨ هـ ـ ١٢٧٠ م).

١ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٠٦.

وهذا التبدل في الدول، كان يترافق بتبدل عقائدي، الأمر الذي انعكس على فئة ليست قليلة من الشعب الأندلسي، كونت طبقة معارضة للحكم في عهد المرابطين والموحدين على حد سواء. وهذه التبدلات العقائدية، لم تتخذ شكلاً واحداً فحسب، إنما تبلورت في اتجاهين رئيسيين، الأول ظهر بالولاء السياسي من قبل فئة من الأندلسيين لبعض دول الطوائف. وهذا ما حدث وظهرت نتائجه عشية سيطرة المرابطين على الأندلس. والاتجاه الثاني ظهر من خلال التبدل على صعيد العقيدة الدينية نفسها، عندما سقطت دولة المرابطين، على أيدي الموحدين. فبينما كانت حركة المرابطين، حركة فقهية مالكية، مثلها الأعلى تطبيق الشرع الاسلامي وفق أحكام المذهب المالكي الفقهي، كانت الحركة الجديدة (حركة الموحدين) تجمع كل تيارات الفكر الاسلامي المعاصر[٢] فقد اتخذت هذه الحركة طريقة المتكلمين، الذين صبوا الاعتقادات الاسلامية في قوالب وقواعد المنطق اليوناني، بحيث برهنوا عن صحة العقيدة، مثل وحدانية الله وعدله، ببراهين عقلية من النصوص القرآنية، ما يدعم حججهم المنطقية الفعلية[٣]. ولعل الجديد الذي خالف الموحدون من خلاله السنة دفعة واحدة، أنهم قالوا بالإمامة والمهدوية على الطريقة الشيعية، واعتبروها أي (الامامة) ركنا من أركان الدين، وعمدة من عمد الشريعة، وأن اعتقادها دين، والعمل بها دين، والتزامها دين، وأن الامام لا يكون إلا معصوما من الباطل، ليهدم الباطل[٤] وهكذا، فبعد أن سيطر المرابطون على الأندلس، ظهر في المجتمع الأندلسي فئة من الناس، تدين بالولاء السياسي للحكم البائد، الذي تمثل بحكام دول الطوائف، وكذا الحال بالنسبة للمرابطين، عندما ظهر لهم مؤيدون، لم يتمكنوا بتأثير ولائهم لهم من الاستمرار في ظل الدولة الموحدية. وكل هؤلاء المعارضين على اختلاف عقائدهم وانتماءاتهم، كان لا بد أن يشكلوا مجموعة من الناس، تضررت مصالحهم المادية والمعنوية، أكثر من غيرها. يضاف إلى كل ذلك أن عوامل الاستقرار في الأندلس، منذ زوال الخلافة الأموية، لم تكن مدعاة للثقة والاطمئنان بشكل كامل ومطلق. بحيث يمكن القول أن عوامل الاستقرار، كانت مهزوزة هشة الأسس والبنيان، بفعل الحروب التي كانت شبه مستمرة بين الدول والمعارضين سواء في عهد المرابطين أو الموحدين. والأمثلة كثيرة في مجال التأثر من جراء تعاقب الدول وتبدلها

---

٢ ــ أحمد بدر ــ مقرر المغرب والأندلس ــ ط مؤسسة الامالي الجامعية عام ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ ص ١٥٣.

٣ ــ المصدر السابق ص ١٥٨ ــ ١٥٩.

٤ ــ المصدر السابق ص ١٥٩.

على الساحة الأندلسية ، سأذكر بعضا منها كأمثلة حية ، تدلل على ما أنا بصدده فمن الذين هربوا من الأندلس إثر سقوط دول الطوائف والد أبي بكر بن العربي ، الذي كان حسب رواية المقري في نفح الطيب :

« بأشبيلية بدرا في فلكها ، وصدرا في مجلس ملكها ، اصطفاه معتمد بني عباد اصطفاء المأمون لابن أبي داود ، وولاه الولايات الشريفة ، وبوأه المراتب المنيفة . فلما اقفرت حمص من ملكهم وخلت ، والقتهم من ملكها وتخلت ، رحل به إلى المشرق ، وحل فيه محل الخائف الغرق »[٥] . وعند سقوط دولة المرابطين ، وقيام دولة الموحدين ، كان من الطبيعي نزوح ، من ينتمون للأسرة الحاكمة سابقا ، كما هو حال أمين الربوة ، الذي يتحدث عنه الرحالة الأندلسي ابن جبير ، عند زيارته لمدينة دمشق في أواخر القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي ، ويصوره وكأنه يشعر بمسؤولية الحاكم تجاه رعاياه ، فيحاول تدبير أمور القادمين من الأندلسيين ، الذين أصبحوا بدون أرض ولا مأوى فيقول : « والأمين فيها أي الربوة ، من بقية المرابطين المسوفيين ومن أعيانهم يعرف بأبي الربيع . سليمان بن ابراهيم بن مالك ، وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة ، وله في الشهر خمسة دنانير حاشا فائدة الربوة ، وهو متسم بالخير ومرتسم به ، وهو متعلق بسبب من أسباب البر في ايواء أهل المغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات ، يسبب لهم وجوه المعايش من إمامة في مسجد أو سكن بمدرسة ، تجري عليه فيه النفقة ، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع ، يجبى إليه فيها رزقه ، أو حضور في قراءة سبع ، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ، ويجرى عليه بما يقوم به من أوقافه ، إلى غير ذلك من الوجوه المعاشية على هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه »[٦] وقد ذكره ابن الأثير في كتابه الكامل بأنه رآه « .. بدمشق سنة ٥٩٠ هـ ـ ١١٩٤ م وهو فقير جدا ، وهو قيم الربوة »[٧] . ولعل أوضح مثال على الحالة السياسية وتبدل الدول ، هو ما جاء على لسان الوهراني بعد سقوط دولة المرابطين بقوله :

« لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي ، ألقيت حبلي على غاربي ، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي ، ومن أخلاق الأدب رضاعتي ... »[٨] ، وعبر الوهراني هذا عن كرهه

٥ ـ نفح الطيب ـ ج ٢ ص ٣٤ .

٦ ـ رحلة ابن جبير ص ٢٥٠ .

٧ ـ الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٢٨٩ .

٨ ـ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله تحقيق ابراهيم شعلان ـ محمد نفش ط القاهرة ١٩٦٨ ص ١٠ .

للموحدين، من خلال جوابه على سؤال حول رأيه في عبد المؤمن بن علي الموحدي وأولاده وسيرته ببلاده، فقال: «مؤيد من السماء، خواض للدماء، مسلط على من فوق الماء، حكم سيفه في المعمم، وأعمه في رقاب الأمم... ولو أن للعلم لسانا والورقة انسانا، لتألمت وتظلمت ولأنشدتك في الملا قول الشيخ ابي العلا:

جلوا صارما وتلوا باطلاً   وقالوا صدقنا فقلنا نعم

ولكن السكوت على هذا أرجح ومسالمة الأفاعي أنجح»[٩]. ومن هذه الأمثلة يظهر بوضوح مدى تأثير الولاء السياسي، وعدم قدرة أصحابه من مسايرة التطورات الجديدة، أو القبول بالأمر الواقع، وهنا يطرح السؤال التالي: هل حدث مثل هذا الأمر من جراء التبدل على صعيد العقيدة والمبادىء الدينية؟ وخاصة بعد أن تسلم الموحدون دفة الحكم في الأندلس؟ الحقيقة ان ما حدث من جراء ذلك، لم يقل في حال من الأحوال عن الذي حدث من جراء التبدل السياسي، بل يمكن القول، إن تأثيره كان أعمق وأشد على فئة من الأندلسيين. وللوقوف على شدة هذا التأثير، فلا بد من ايراد بعض الأمثلة، التي تظهره بسهولة ووضوح. لقد نظر الموحدون إلى الذين خالفوهم على صعيد العقائد والمبادىء نظرة معادية، اتسمت بالحقد والكراهية، كونهم غير مؤمنين، فعاملوهم بقسوة بالغة، مما أثار لدى البعض منهم، موجة من الذعر والخوف، وصلت إلى درجة قريبة من الجنون والخبل، مثل هؤلاء، مثل أبي الوليد محمد بن عبد الله بن فيرة القرطبي، الذي يصف المقري أحواله في كتابه نفح الطيب بقوله: «وخرج في الفتنة بعدما علا ذكره في قرطبة، وأقام بالاسكندرية خوفا من بني عبد المؤمن بن علي، ثم قال: كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الاسكندرية.

ثم سافر إلى مصر، وأقام بها مدة ثم قال: فوالله ما مصر والاسكندرية بمتباعدين، ثم سافر إلى الصعيد، وحدث بقوص بالموطأ ثم قال: والله ما يصلون إلى مصر ويتأخرون، عن هذه البلاد، فمضى إلى مكة وأقام بها ثم قال: ويصلون إلى هذه البلاد ولا يحجون، ما أنا إلا هربت منه إليه. ثم دخل اليمن، فلما رآها قال: هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن، فتوجه إلى الهند حيث أدركته منيته بها سنة ٥٥١ هـ وقيل مات باليمن»[١٠] ولم تقتصر عوامل الطرد

---

٩ — المصدر السابق ص ١١.

١٠ — نفح الطيب ج ٢ ص ٢٤٠. وانظر أيضاً ابن فرحون — الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ط ١ مصر ١٣٥١ هـ ص ٣٢١ — ٣٢٢.

على هاتين الظاهرتين فحسب، إنما هناك ظواهر أخرى، يتجلى بعضها بما كان يحدث في بلاطات الحكام، وخاصة الموحدين منهم، فكثيرا ما كانوا يتغيرون على بعض من يشاركهم في الحكم، بوشاية من عدو مغرض، أو أي سبب آخر من هذا القبيل. الأمر الذي لا يبقى أمام المعني بهذا التغير، إلا وسيلة الهرب، من أجل النجاة من موت محتم، أو سجن أبدي مهين. وعملية الهروب أو النزوح هذا، لم تكن مقتصرة على حادثة فردية معينة، بل يمكن القول إنها إن لم تكن مستمرة، فهي شبه مستمرة، لأنه بين الفينة والأخرى، كان يظهر أشخاص لا طريق أمامهم إلا الهروب باتجاه المشرق. وهذا ما يظهر من خلال الأمثلة التالية: فأبو محمد عبد الله بن محمد الأشيري الذي كان يعمل كاتباً عند حكام الموحدين بالمغرب، نراه يلجأ إلى المشرق، بعد أن تغيرت أحواله عند أسياده، مما جعله يخشى عاقبة هذا التغير، وبعد أن جمع ما أمكنه من الكتب والمتاع، التي كانت بحوزته، يمم وجهه إلى بلاد الشام، فنزل في مدينة اللاذقية، ومنها تابع إلى مدينة حلب ومعه أهلة وعائلته وأقام بها مدة، طلبه بعدها إلى العراق الوزير يحيى بن هبيرة، لأن الوزير المذكور، كان قد انتهى من تأليف كتاب سماه (الإفصاح) فاحتاج إلى فقيه مالكي، كي يعطيه رأيه بالكتاب، كما هو الحال بالنسبة لعلماء وفقهاء المذاهب الأخرى، ليعود بعد ذلك إلى الشام، ويبقى فيها حتى توفي سنة ٥٦١ هـ ـ ١١٦٦ م[١١]. ومن هؤلاء محمد بن أحمد بن عبد الملك الباجي من أشبيلية، فبعد أن تغيرت أحوال ابن أخية المدعو أبو مروان أحمد ابن أبي عمر لدى حكام الموحدين باشبيلية، احتج بأنه يريد الحج إلى الديار المقدسة فقام ببيع جميع ممتلكاته بداخل أشبيلية وخارجها، ثم غادرها سنة ٦٣٣ هـ ـ ١٢٣٦ م إلى غير رجعة[١٢] ومثلهم أيضاً، مثل ابن سعيد صاحب كتاب (المغرب في حلى المغرب) وغيره، الذي خاف على نفسه من الموت بعد أن تغيرت مرتبته وأحواله لدى ابن عمه أبو عبد الله محمد بن سعيد، الذي كان يعمل وزيرا، لدى ملك إفريقية أبي زكريا يحيى ابن عبد الواحد ابن أبي حفص الموحدي[١٣] وغيرهم كثيرون. ولم تكن هذه العوامل التي ذكرت حتى الآن، والتي يمكن أن أسميها بعوامل الطرد الداخلية، لم تكن تقاس بتلك العوامل الخارجية، التي حصلت بفعل التقدم الاسباني

---

١١ ـ إنباء الرواة على أنباه النحاة ـ ج ٢ ص ١٣٧ ـ ١٤٠ ـ التكملة لكتاب الصلة ـ ج ٢ ص ٩١٧ ـ ٩١٨ معجم البلدان ـ مجلد ١ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ مادة اشير.

١٢ ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ـ سفره ق ٢ ص ٦٨٩.

١٣ ـ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

الجاد والمنظم، باتجاه معاقل العرب المسلمين في الأندلس، والاستيلاء عليها واحداً تلو الآخر وبشكل نهائي.

فلم تأت سنة ٦٥٩ هـ ـــ ١٢٦١ م حتى وقعت جميع المدن العربية الأندلسية تقريباً تحت وطأة الاحتلال الأسباني. فقد استولوا على لوشة وماردة وبطليوس سنة ٦٢٢ هـ ـــ ١٢٢٥ م وعلى جزيرة ميورقة سنة ٦٢٧ هـ ـــ ١٢٣٠ م وعلى قرطبة سنة ٦٣٣ هـ ـــ ١٢٣٦ م، وعلى شاطبة سنة ٦٣٥ هـ ـــ ١٢٣٨ م وعلى بلنسية سنة ٦٣٦ هـ ـــ ١٢٣٩ وعلى مرسية واشبيلية سنة ٦٤٥ هـ ـــ ١٢٤٨ م وعلى شلب وطلبيرة سنة ٦٥٩ هـ ـــ ١٢٦١ م وهكذا فانه لم يبق بيد العرب المسلمين غير غرناطة وضواحيها تحت حكم بني الأحمر. وليت الأمر توقف على الاحتلال فحسب، انما تبعته اجراءات قاسية، وفرضت على كل من آثر البقاء من العرب المسلمين في مدنهم شروطاً بلغت حداً من الإهانة والشراسة، لا يطاق بأي شكل من الأشكال، فقد أجبروا على وضع إشارة على ثيابهم تميزهم عن غيرهم من السكان، وأنه لا يجوز لمسلم أن يستخدم مسيحياً على الاطلاق، ومن يخالف هذا الأمر تصادر أملاكه. ومن يفر منهم إلى بلاد المسلمين، يعتبر أسيراً في حال القبض عليه، وبالتالي يصبح ملكاً لمن قبض عليه من الاسبانيين. كما فرض عليهم التنصير، إلى آخر ما هنالك من اجراءات مجحفة وغير انسانية(١٤). وقد كان لهذه العوامل الخارجية آثارٌ سلبية جداً على الأندلسيين من عدة نواحٍ، يأتي في مقدمتها، أن الحالة الاقتصادية أصبحت من التدهور والانهيار بشكل لا يمكن الحياة معه بأي شكل من الأشكال، حيث انتشرت الأوبئة والأمراض، وعم الجوع والحرمان، واستشرى الغلاء، في الوقت الذي ضاعت في مصادر النقد من زراعة وصناعة وتجارة(١٥). ومن الآثار السلبية أيضاً، يمكن أن أذكر، أن الهجرة أصبحت جماعية أكثر من ذي قبل، وهذا ما يظهر بجلاء من خلال تتبع الأندلسيين، الذين وفدوا إلى المغرب أو الذين وفدوا إلى المشرق، وذلك في الفترة التي تبدأ من نهاية الثلث الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي. ففي هذه الفترة تكثر أعدادهم بشكل ملفت للنظر، ولا يمكن مقارنته، بما حدث في الفترة

---

١٤ ـــ محمد لبيب البتنوني ـــ رحلة الأندلس ط ١ ـــ مطبعة الكشكول ١٩٢٧ ص ١٣٧.

١٥ ـــ محمد عبد الله عنان ـــ عصر المرابطون والموحدين في المغرب والأندلس ـــ قسم ٢ ط ١ ـــ القاهرة ١٩٦٤ ص ٦٢٧.

السابقة، خاصة على صعيد بلاد الشام موضوع هذا البحث. ومهما يكن من أمر، فإن جميع هذه العوامل، أدت إلى نتيجة واحدة، تجلت بضياع الجزء الأكبر من أرض العرب والاسلام في الأندلس، وبالتالي تشريد وإجبار أعداد كبيرة من الأندلسيين على النزوح عن أرضهم إلى أقطار عربية واسلامية متعددة، منها بلاد الشام التي لم يكن نصيبها قليلاً منهم، وكانت هذه العوامل مستمرة بتأثيرها وفاعليتها على أهل الأندلس منذ ظهور المرابطين على مسرح الحكم، وحتى نهاية فترة حكم الموحدين في سنة ٦٦٨ هـ ــ ١٢٧٠ م حيث بلغت ذروتها بانحسار حكمهم. وعندما اقتصر حكم العرب في الأندلس على غرناطة وضواحيها فإن من التجأ إليها أو من كان فيها من العرب، لم يكونوا بمجموعهم ينعمون بالاستقرار الحقيقي الكامل، إنما غلب القلق وعدم الاستقرار على حياتهم العامة، بسبب الحروب، التي لم تنقطع تقريباً، بينهم وبين الاسبان، وكانت نتائجها تتراوح بين حالة المد والجزر حتى سقوطها في السنوات الأخيرة من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي. لذلك فقد كان النزوح منها مستمراً بتأثير هذا الوضع إلى بلاد الشام وغيرها.

عوامل الجذب

لا بد من القول في مستهل الحديث عن هذه العوامل، إلى أن هجرة الأندلسيين من بلادهم، لم تقتصر على بلاد الشام فحسب، إنما كانت باتجاه جميع الأقطار العربية المشرقية، خلال فترة القرون الوسطى، موضوع هذا البحث. لكن يا ترى هل كان حظ هذه الأقطار متساويا من الأندلسيين النازحين؟ وإذا كان من المستحيل أن يتساوى لعدة أسباب وعوامل متباينة، فإني أرى من الخير والضرورة التي لا بد منها، أن أتوقف عند أهم وأبرز العوامل، التي جعلت من هذا القطر المشرقي قبلة ومقصداً للأندلسيين، أكثر من ذلك القطر على سبيل المثال. وسآتي على ذكر هذه العوامل بشكل مختصر، بالنسبة لكل من مصر والعراق والحجاز، كي أتمكن من المقارنة بين العوامل التي تتجسد فيها، وتلك التي تتجسد في بلاد الشام، والتي سأدرسها مفصلة، بالشكل الذي تسمح به معطيات المراجع والمصادر المتوفرة. إن عوامل الجذب والاستقطاب، يمكن حصرها بأنها، كانت طبيعية وسياسية واقتصادية وفكرية وربما نفسية. هذه العوامل لم تكن متوفرة في كل أقطار المشرق العربي، بشكل يمكن أن يقال بأنها متساوية. بل على العكس تماماً، إنها كانت متفاوته ومتباينة بحسب طبيعة البلد وطبيعة سكانه، وبالتالي بحسب الظروف السياسية التي لم تستقر

على نمط واحد طيلة هذه الفترة. مثال ذلك العراق حيث مدينة بغداد والموصل وغيرها، والتي شكلت ولفترة طويلة من الزمن، إحدى المحطات الرئيسية للأندلسيين في المشرق العربي، نراها تسقط على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ ــ ١٢٥٨ م، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في تقليص حركة الأندلسيين باتجاهها. بشكل واضح تماماً، بالقياس على حركتهم باتجاه الشام. مثال آخر يتجلى بمدن الحجاز، فالبرغم من مكانتها الدينية الكبيرة عند الأندلسيين كشعب عربي مسلم، فإنها لم تشكل قاعدة استقرار واستيطان، بالشكل الذي سيرى بالنسبة لبلاد الشام. وليس بعيدا أن يكون سبب ذلك، فقر هذه البقاع بالموارد الطبيعية، وعدم توفر فرص العمل بسهولة، إضافة إلى قساوة طبيعتها الصحراوية وصعوبة التأقلم فيها على شعب اعتاد على طبيعة معتدلة، كالشعب الأندلسي. أما بالنسبة لمصر، فإن الأمر يختلف كثيراً عن الحجاز والعراق بعد سقوط بغداد فهي تقع على طريقهم الرئيسية إلى الحج، ومواردها تمكن من الاختيار بين السكن في أية بقعة يختارونها. يضاف إلى كل ذلك أمرا في غاية الأهمية، تجلى بأنها أصبحت منذ أوائل النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي مستقر السلطان والخليفة والحاشية من الحكام ورجال الدولة، فغدت مصدر كل أمر وسلطة، مما جعلها مأوى، يأوي إليها الأندلسيون بشكل مميز وملحوظ خلال هذه الفترة. وبالرغم من كل ذلك، فإن من الممكن القول، أن بلاد الشام، تميزت عن غيرها ومصر بصورة خاصة، بأنها كانت أكثر ملاءمة للأندلسيين، من الناحية الطبيعية وربما الاقتصادية، التي تجسدت بتوفر فرص العيش، إضافة إلى معاملة الأهلين، هذه المعاملة التي تميز بها الشاميون من غيرهم من أهل المشرق، ويظهر ذلك جليا بالمقارنة مع مصر من خلال ماكتبه ابن سعيد المغربي عن الفسطاط والقاهرة في أثناء زيارته لهما سنة ٦٤٠ هـ ــ ١٢٢٣ م، ونقله عنه المقري في نفح الطيب يقول: «وسائر الفقراء لا يتعرضون إليهم بالقبض للأسطول، إلا المغاربة، فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة البحر، وقد عم ذلك من يعرف معاناة البحر منهم ومن لا يعرف، وهم في القدوم عليها بين حالين: إن كان المغربي غنياً طولب بالزكاة، وضيقت عليه السعاة، وإن كان مجرداً فقيراً حمل إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول»(١٦) وعن القاهرة يقول: «هواؤها ردىء.. وأيضاً فرمد العين فيها كثير، والمعايش فيها متعذرة نزرة، لا سيما أصناف الفضلاء وجوامك المدارس قليلة كدرة،

---

١٦ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٣٤٨.

وأكثر ما يتعيش بها اليهود والنصارى في كتابة الطب والخراج ... »[١٧] وبعد هذه المقارنة الموجزة بين عوامل الجذب في الأقطار المشرقية ، فلا بد من عودة إلى التركيز على عوامل الجذب في الشام بالتفصيل لكونها محور هذا البحث . فاذا كانت عوامل الطرد ، قد تجسدت في الأندلس ، فإن العوامل المشجعة الجاذبة ، تجسدت في بلاد الشام ، فقد كانت هذه الأخيرة ، إحدى المناطق المشرقية التي استقطبت جالية كبيرة من الأندلسيين ، الذين أجبروا على ترك بلادهم في الفترة التي تلت نهاية القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، ومن خلال المقارنة بين عوامل الجذب بين أقطار المشرق السالفة الذكر ، يمكن للمرء أن يستنتج بسهولة أن ما استقبلته بلاد الشام من النازحين الأندلسيين ، لا يقل كثيراً عن ما استقبلته كل من مصر والحجاز مجتمعة ، فما هي الأسباب التي جعلت من بلاد الشام مقصدا دائما للاندلسيين ؟ لا بد أن ذلك يرجع إلى عدة مزايا توفرت فيها ، وانفردت بها دون بقية أقطار المشرق العربي ، كالتشابه الطبيعي ، والأهمية الدينية ، والاستقرار السياسي ، والازدهار الاقتصادي والفكري . ولتكون الصورة أكثر وضوحاً وجلاء فقد رأيت أن أدرس كل ناحية من هذه النواحي منفصلة عن الأخرى .

١ ــ النواحي الطبيعية ويُقصد بها أحوال الطقس والمناخ السائدة في بلاد الشام . ففي هذا المجال ، وجد تشابه بين عدة مناطق أندلسية وأخرى شامية ، مما جعل الاستقرار سهلا ومستطاعا بالنسبة للأندلسيين القادمين إلى الشام . ويمكن اعتبار هذا العامل مشجعا إلى حد لا يمكن الاستغناء عن ذكره عند بحث مسألة من هذا القبيل . وكدليل على أهميته فليس أجدر من القول ، بأنه أُخِذَ بعين الاعتبار وبدرجة كبيرة ، عندما نقلت أجناد من الشام إلى الأندلس ، للقيام بأعباء الدفاع عن هذه الأخيرة ، وبعد وصول هذه الأجناد إليها ، وزعت بحسب المناطق التي تلائمها من حيث الأقليم والمناخ السائد . فعلى سبيل المثال ، أنزل أهل دمشق في كورة البيرة لشبهها بها وسميت دمشق ، وأنزل أهل حمص في كورة اشبيلية وسميت حمص ، وأهل قنسرين في جيان ، وأهل الأردن في رية ومالقة ، وأهل فلسطين في شذونة[١٨] . وقد أكد كثير من أهل الأندلس على وجود هذا التشابه ، بعدما لمسوه بأنفسهم . ففي رواية لابن سعيد ينقلها المقري في كتابه « نفح الطيب » ، يظهر مدى هذا التشابه بشكل واضح

---

١٧ ــ المصدر السابق ص ٣٥٠ .

١٨ ــ نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٧ .

من خلال قول ابن سعيد : « منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت في بر العدوة ورأيت مدنها العظيمة ، كمراكش وفاس وسلاوسبته ، ثم طفت في إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية ، فرأيت الاسكندرية والقاهرة والفسطاط ثم دخلت الشام ، فرأيت دمشق وحلب وما بينهما ، لم أر ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها ، إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام ، وفي حماة مسحة أندلسية ... »[19] . ولعل قائلا يقول : أن ابن سعيد في روايته هذه ينفي التشابه بين الشام والأندلس ، وهذا بدوره يلغي صحة ما جاء على لسان المقري في المقولة السابقة . فابن سعيد كما هو واضح من نصه لم يقصد إلا الناحية الخارجية فقط ، والتي تجلت عنده بذكر المياه وكثافة الأشجار ، وخاصة في مدينة دمشق . ومن الأندلسيين الذين زاروا الشام وأكدوا على هذه الناحية ، ابن جبير الرحالة ، فقد ذكر في مستهل حديثة عن قنسرين « ... وتشبهها من البلاد الأندلسية جيان .... »[20] . وعند مروره بمدينة حمص ، لم يفته أن يذكر التشابه بينها وبين اشبيلية بقوله : « ... وتجد في هذه البلاد عند اطلالك عليها من بعيد في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها ، بعض شبه بمدينة اشبيلية من بلاد الأندلس ، يقع للحين في نفسك خياله ... وهذا التشبيه ، وان لم يكن بذاته ، فله لمحة من إحدى جهاته »[21] . وهناك مؤلفون آخرون ، جاؤا على ذكر التشابه بين الشام والأندلس بقولهم : « والأندلس شامية في طيبها وهوائها ... »[22] . والأمثلة كثيرة في هذا المضمار ، وهي في جملتها لاتحيد عن مضمون ما جاء حتى الآن حول هذا الموضوع . لذلك يكفي ما ورد من أمثلة ، كونها تشير بوضوح إلى التشابه بين بعض الاقاليم الأندلسية والشامية ، وان كان هذا التشابه لا يصل إلى حد المطابقة الكلية ، فإنه غدا عاملاً مهما لا يستهان به من ناحية تأثيره في عملية التطبع والتأقلم مع الأحوال السائدة في الأرض الجديدة . وكان له دور فعال في تنشيط حركة الاستيطان في الشام من قبل الأندلسيين ، الذين وفدوا إليها في فترات مختلفة من العصور الوسطى .

العوامل الدينية

لقد شغلت المكانة الدينية المرموقة التي تتمتع بها بلاد الشام دوراً كبيراً في تشجيع

---

١٩ ـ المصدر السابق ص ٢٠٩ .

٢٠ ـ رحلة ابن جبير ـ ص ٢٢٨ .

٢١ ـ رحلة ابن جبير ص ٢٣٣ .

٢٢ ـ جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك ـ ص ٧٠ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٣٣ .

الأندلسيين للسكن والاستقرار . وتظهر مكانة الشام من الناحية الدينية من خلال الآيات الكريمة التي وردت في القرآن ، ومن الأحاديث الشريفة ، التي صرح بها الرسول العربي الكريم في كثير من الأوقات والمناسبات . لذلك ليس غريبا القول ، بأن الأندلسيين أنفسهم كانوا على اطلاع أكيد على كل ما جاء حول هذا الموضوع ، باعتبارهم مسلمين ، عرف عنهم تضلعهم في علوم القرآن والحديث . ومن جملة الأحاديث النبوية التي حضّ الرسول بها المسلمين على قصد الشام ، إذا ما أحدقت بهم المصائب والضائقات على اختلاف أنواعها لأنها أي بلاد الشام مصدر للايمان وموئل له ، إذا ما انتهى في بقاع أخرى ، عن عبد الله بن عمر قال : « قال لنا نبي الله (ص) يوما ، اني رأيت الملائكة في المنام ، أخذوا عمود الكتاب ، فعمدوا به إلى الشام ، فإذا وقعت الفتن ، فإن الايمان بالشام »[٢٣] . وفي حديث آخر يؤكد الرسول العربي الكريم على الحقيقة نفسها ، بقوله لأبي ذر الغفاري : (... الحق بأرض الشام فإنها أرض محشر والأرض المقدسة[٢٤] ....

وبشكل عام ، فان الشام ككل هي « عقر دار المؤمنين » كما جاء على لسان الرسول (ص)[٢٥] . وبالرغم من أن الرسول العربي (ص) أشار في أحاديثه إلى فضل بلاد الشام ككل من ناحية دينية واقتصادية ، فانه اختص مناطق وركز عليها أكثر من غيرها ، وتأتي في مقدمتها كل من القدس ودمشق . فالقدس الشريف كما هو معروف ، تأتي بالدرجة الثانية بعد الحجاز بالنسبة للمسلمين عامة ، ففيها المسجد الأقصى وهي أرض الأسراء والمعراج للرسول العربي الكريم . قال تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ وهناك فيض زاخر من الأمثلة ، التي تؤكد عظمة وسمو المكانة التي تمثلها أرض الشام ، وخاصة مدينة بيت المقدس . وسأكتفي بإيراد الأحاديث النبوية ، التي توضح أبعاد هذه المكانة ومعانيها ، مراعيا تنوع هذه الأحاديث ، من حيث الهدف التي ترمي إليه ، وبالتالي إبرازها بصورة ، تغدو كل مجموعة منها عامل جذب للأندلسيين وغيرهم من المسلمين يختلف عن الآخر . فمنها ما حض على الزيارة ، ومنها ما حضّ على الاقامة بالأرض المقدسة . من هذه الأحاديث التي تجعل القدس عامل جذب للأندلسيين للمرور بالقدس والاقامة فيها

---

٢٣ ــ فضائل الشام ودمشق ــ ص ١٤ .

٢٤ ــ تاريخ مدينة دمشق ــ مجلد ١ ــ ت صلاح الدين المنجد ط دمشق ١٩٥١ ص١٣٧ .

٢٥ ــ السلمي ــ ترغيب أهل الاسلام في سكنى الشام ــ صححه ونشره أحمد سامح الخالدي ط القدس ١٩٤٠ ص ١١ .

أمدا، حيث يأخذون العلم المتمثل بالأمور الدينية، ماينص على فضل الصلاة في المسجد الأقصى، كالحديث الذي يقول: «لا تشد الرحال، إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا»[٢٦]. ومثل هذه المشقة التي يتحملها القادم إلى الأقصى، يمكن أن تنسى من خلال الأمل باكتساب الثواب والمغفرة من جراء الصلاة فيه. ففي حديث آخر يقول: «.. أئتوه فصلوا فيه، فان كل صلاة فيه كألف صلاة...»[٢٧] ففي هذه الصلاة إضافة إلى مضاعفتها، غفران وتكفير للذنوب التي اقترفها المصلي خلال حياته، كما يستنتج من هذا الحديث الذي يقول: «من خرج إلى بيت المقدس لغير حاجة إلا الصلاة، فصلى فيه خمس صلوات صبحاً وظهراً وعصراً ومغربا وعشاء، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه»[٢٨] من أمثال هؤلاء الذين قصدوا القدس الشريف، لكسب ثواب الصلاة في المسجد الأقصى، ابراهيم بن حارث بن عبد الملك بن مروان الأنطي المقرىء من قرطبة ٣٩١هـ ــ ١٠٠١م، الذي رحل قبل موته بثلاث عشرة سنة إلى المشرق لأداء فريضة الحج، حيث سمع بمكة فقط، ثم انتقل إلى بيت المقدس[٢٩] وكذلك مواطنه ومعاصره حسن ابن نسيب التميمي، الذي أخذ العلم ببيت المقدس[٣٠] وكما طبق الأندلسيون مضمون هذه الأحاديث، الذي يدور حول قيمة الصلاة بالأقصى، فانهم طبقوا مضمون أحاديث أخرى، حضت على المجاورة والإقامة بيت المقدس، والانطلاق منها للحج إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، وربطت بين الحج إلى هذه المناطق، وبين زيارة بيت المقدس، فلكي يكون الحج كاملاً فان من الواجب أو المستحسن الانطلاق من بيت المقدس كما في الحديث القائل: «من أهل بحج أو عمرة من المسجد الأقصى الشريف إلى المسجد الحرام غفر الله، ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ووجبت له الجنة»[٣١] فاغتفار الذنوب دفعة واحدة، والصعود إلى السماء، حيث الجنة، أمران مغريان بالنسبة للمسلمين. مثال هؤلاء، مثل علي بن أحمد القادسي الكناني، واسماعيل بن محمد الأنصاري[٣٢] ومن مثل آخر، يظهر حالة نفسية،

---

٢٦ ــ الأنس الجليل ج ١ ص ٢٠٥.
٢٧ ــ المصدر السابق ص ٢٠٧.
٢٨ ــ المصدر السابق ص
٢٩ ــ تاريخ علماء الأندلس ص ٤٩.
٣٠ ــ المصدر السابق ص ٤١٧.
٣١ ــ الأنس الجليل ج ١ ص ٢٠٥.
٣٢ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٤.

تنتاب بعض الأتقياء، وتدل على ايمانهم بهذا الحديث. صاحب هذا المثال، هو محمد بن عمر بن يوسف المالكي الشهير بابن الفخار، فقد رحل هذا إلى الحجاز، وأدى فريضة الحج، وسكن المدينة وأفتى بها، لكنه رأى لأول سنة من حجه في النوم، كأن ملكا من الملائكة يقول له «ابق مجاورا إلى موسم قابل فانه لم يتقبل حجا هذا العام، فارتاع لما رآه، وأقام بمكة مجتهدا في عمله، وخرج إلى المدينة، فزار قبر النبي وجعله وسيلة إلى ربه، ثم صار إلى بيت المقدس، فتعبد فيه زمانا، ثم انصرف إلى مكة وحضر الموسم الثاني، فلما رأى النبي في نومه، كان يسلم عليه ويصافحه ويبتسم إليه ويقول له: يا محمد حجك مقبول أولا وآخراً يرحمك الله»[٣٣] ومن الدوافع التي لعبت دوراً مميزاً في جذب الأندلسيين إلى القدس، فضل الموت فيه، فقد تساوى الموت فيه، بالموت في السماء. عن عبد الله بن عمر عن النبي (ص) قال: «... ومن مات مقيما محتسباً في بيت المقدس، فكأنما مات في السماء ومن مات حول بيت المقدس، فكأنما مات في بيت المقدس»[٣٤] وقال خالد بن معد، أن: «مقبور بين المقدس لا يعذب»[٣٥] ومن الأندلسيين، الذين أخذوا بهذه الأحاديث وطبقوها، يمكن أن أذكر، محمد بن عبد الله بن تمام الطليطلي، الذي رحل إلى المشرق، فسمع بمكة، ثم أقام بالقدس إلى أن لقي وجه ربه سنة ٣٤١ هـ ــ ٩٥٣[٣٦]، وأيضاً الفقيه الزاهد عبد الله بن الوليد بن سعد بن بكر الأنصاري، الذي رحل إلى القيروان قبل الثمانين وثلاثمائة، حيث تفقه، ثم أقام بمكة حيث سمع بها كثيراً، كما سمع بمصر، ثم انتقل إلى بيت المقدس وبها مات[٣٧] وكدليل آخر يمكن أن يشمل جميع الأهداف التي جاء من أجلها الأندلسيون إلى القدس الشريف، يظهر بوضوح أن عدداً كبيراً منهم قتل في المسجد الأقصى، عشية وقوع مدينة بيت المقدس فريسة في أيدي الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ ــ ١٠٩٩ م[٣٨] وهكذا فقد اتخذت عادة الإقامة في المسجد الأقصى وزيارته والصلاة فيه، والانطلاق إلى الحج منه، اتخذت صفة الاستمرار والخلود عند الأندلسيين، تناقلها الأبناء عن الآباء، وظلت بشكل فعلي طيلة فترة القرون الوسطى. لكن هل بقيت

٣٣ ــ الصلة ــ ص
٣٤ ــ الأنس الجليل ج ١ ص ٢١١.
٣٥ ــ الاعلاق الخطيرة ص ١٨٩.
٣٦ ــ تاريخ علماء الأندلس ص
٣٧ ــ جذوة المقتبس ص ٢٤٧.
٣٨ ــ الأنس الجليل ج ١ ص ٢٧٣.

العوامل الجاذبة التي مر ذكرها حتى الآن، هي نفسها، أم أن عوامل أخرى استجدت فأضيفت إليها، وخاصة في الفترة التي تلت نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، بعد أن احتلها الصليبيون؟ للجواب على هذه التساؤلات، لا بد من القول في البداية، إن العوامل القديمة التي تجلت بالأحاديث النبوية الشريفة، لم تبق هي الوحيدة، التي تثير بالأندلسيين حب وشغف زيارة بيت المقدس. بل أضيفت إليها عوامل أخرى زادت من حدتها وقوة تأثيرها الشيء الكثير. فمن المعروف أن دولتي الأيوبيين والمماليك التي اجتذبت إليها الأندلسيون، ضمتا كلا من بلاد الشام ومصر، أي أن فلسطين والقدس بوجه خاص تقع في قلب هذه الدولة، أضف إلى ذلك أنها كانت ميدان فعالية أساسية بالنسبة لهاتين الدولتين، وخاصة بالنسبة للدولة الأيوبية، لأنها ساحة الجهاد ضد الصليبيين. مما جعل العوامل التي جعلت تجتذب الأندلسيين تزداد، لأن الأهمية العسكرية أضيفت الآن إلى الأهمية الدينية. وقد ازداد تأثير جاذبية هذه الأهمية الآن، بفضل نشاط ورواج أدب من نوع جديد، هو أدب تقديس الأماكن والأراضي الذي هدف إلى إثارة حماسة الناس للدفاع والذود عما بيدهم من أرض، واسترجاع الأراضي المحتلة. وكان من الطبيعي أن تحتل مدينة بيت المقدس المرتبة الأولى في هذه العملية، انطلاقا من مكانتها الدينية. وقد قامت حركة التقديس هذه على أبساس زرع قبور للانبياء فيها، والصالحين وشاع هذا التقديس على شكل أخبار بين الناس عن وجود قبر للنبي الفلاني أو الفلاني. وخير من كتب في هذه الناحية، هو المؤرخ الدمشقي المعاصر ابن القلانسي في حوادث سنة ٥١٣ هـ ـــ ١١٢٠ م، يقول بما معناه: في هذه السنة ورد الخبر من بيت المقدس بظهور قبور الخليل ولديه إسحق ويعقوب، عليهم الصلاة والسلام، وهم مجتمعون في مغارة بأرض القدس، وكأنهم أحياء لم تبل أجسادهم، ولا رم لهم عظم[٣٩] ويبدو أن هذه الأخبار بدقائقها، أو في فحواها، تصبح جزءاً من النتاج الثقافي المتداول في طول البلدان التي تسودها الحضارة العربية الاسلامية وعرضها، ومن جملتها الأندلس، فتعمل عملها، ولدى المتدينين الاتقياء والصوفيين الزهاد منهم بشكل خاص. وتشير بعض القصص المسجلة في كتبهم على مدى ما وصل إليه الاعلاء من مكانة القدس والمسجد الأقصى فيها. ففي ترجمة يوسف بن عبد العزيز يورد ابن الأبار في كتابه المعجم رواية بسند طويل عن أبي الزاهرية قال: «أتيت بيت المقدس أريد

---

٣٩ ـــ ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٢.

الصلاة فدخلت المسجد وغفلت سدنة المسجد حتى أطفئت القناديل، وانقطعت الرجال، وغلقت الأبواب، فبينا أنا على ذلك، إذ سمعت حفيفا له جناحان قد أقبل وهو يقول: سبحان الدائم القائم سبحان الحي القيوم سبحان الملك القدوس، سبحان رب الملائكة والروح، سبحان الله بحمده، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى، ثم أقبل حفيف يتأوه يقول مثل ذلك، ثم أقبل حفيف بعد حفيف، يتجاوبون بها، حتى امتلأ المسجد، فإذا بعضهم قريب مني فقال: آدمي قلت نعم: قال: لا ردع عليك»[٤٠]. مثل هذه القصص التي أحاطت بالقدس وفلسطين خلال الغزو الصليبي لها. شكل دافعاً جديداً له فعله المؤثر في زيادة الرغبة والشوق لزيارتها والإقامة بها. لأن القدسية غدت أعظم من ذي قبل، وأصبحت زيارتها لا تقتصر أو تهدف لكسب ثواب الصلاة فيها فحسب، انما كانت تهدف إلى جانب ذلك، زيارة المشاهد الموجودة ضمنها وتلك التي حولها، وفي مواقع فلسطين الأخرى.

ولعل في ذلك تفسير لتدفق الزوار والرحالة إليها. وخير ما يمثل حدة الشوق إلى زيارتها، وما يدل على العاطفة الملتهبة التي عمرت القلوب بالرغبة لهذه الزيارة، مسلك ابن جبير الرحالة الأندلسي، يقول المراكشي، أنه بعد تحرير القدس من الصليبيين «ولما شاع الخبر المبهج للمسلمين جميعا حينئذ بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، وكان فتحه يوم السبت لثالث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، كان ذلك من أقوى الأسباب التي بعثته على الرحلة الثانية، فتحرك لها من غرناطة أيضاً يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين قال: وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام وزيارة المصطفى وزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد متوجها وفي شهر واحد متصرفا»[٤١] ودليل آخر يتبين منه علو مرتبة ومكانة بيت المقدس في نظر الأندلسيين بعد تحريرها، ما قاله الشاطبي صاحب القصيدة المشهورة في القراءات السبع، وينقل قوله هذا المؤرخ أبو شامة في كتابه الذيل على الروضتين: «قدم بيت المقدس من قبل وفاته بثلاث سنين، فصام به شهر رمضان واعتكف. قال لي الشيخ أبو الحسن: سمعته وقد جاءه رجل يودعه والرجل عازم على المسير إلى القدس، فقال: ذكر الله عنا ذلك الموضع بخير. وقال: لا أعلم موضعا أقرب إلى

---

٤٠ ــ المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي ص ٣١٤ ــ ٣١٥.

٤١ ــ الذيل والتكملة سفره ق ٢ ص ٦٠٥ ــ ٦٠٦.

السماء منه بعد مكة والمدينة ... »[٤٢] إضافة إلى بيت المقدس فقد وجدت مدن عربية فلسطينية كان لها احترام كبير عند المسلمين ، كالخليل وعسقلان وعكا وطبريا وغيرها ، لكن هذا الاحترام. لا يمكن أن يقارن أو يوضع على قدم المساواة مع ذلك الاحترام والتقديس بالنسبة لمدينة بيت المقدس . وتبدو هذه الصورة واضحة فيما يرويه الرحالة ابن بطوطة يقول : «عسقلان فيها مشهد رأس الحسين قبل نقله لمصر ، وفي قبلة المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر ، وفي القبلة منه بئر ابراهيم . وفي ظاهر عسقلان وادي النمل الوارد ذكره في القرآن . أما الرملة ففي قبلة الجامع الأبيض منها ثلاثمائة من الانبياء مدفونين . وفي عكا قبر النبي صالح وبشرقها عين ماء ، تعرف بعين البقر ، يقال أن الله تعالى أخرج منها البقر لآدم عليه السلام ، وكان عليها مسجد بقي منه محرابه »[٤٣] وفي طبريا قبر النبي شعيب وعلى مقربة منها الجب الذي أنزل فيه يوسف وفي الخليل مشاهد وقبور لأنبياء وصالحين ومساجد شيئاً كثيراً[٤٤] . وإذا كانت مدينة بيت المقدس وغيرها من مدن فلسطين ، قد استهوت قلوب كثير من الأندلسيين ، انطلاقاً من المكانة الدينية ، فان دمشق هي الأخرى ، استهوتهم من هذه الناحية ، لكن ليس بالزخم نفسه والعمق والتأثير . ولعل أهم ما في هذه المدينة على الاطلاق ، من الأماكن المقدسة والعزيزة على قلوب المسلمين ، الجامع الأموي الذي ابتناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، في الربع الأخير من القرن الأول الهجري السابع الميلادي والذي أصبح فيما بعد من الجوامع الجليلة ، ذات القيمة العالية والكبيرة بالنسبة للمسلمين ، وذلك لأسباب تبدو وجيهة من الناحية الدينية المحضة ، مثال ذلك ، أن البقعة التي بني عليها هذا المسجد ، ظهر فيها آثار لقبور أنبياء ورجال صالحين ، مما حدا ببناة المسجد إلى اتخاذ أماكنها مشاهد ، ترمز إلى شخصيات أصحابها ، وينظر إليها نظرة احترام وتقدير كبيرتين . ومصداق ذلك ما روى عن زيد بن واقد قال : «وكلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق ، وجدنا فيه مغارة ... وإذا فيها صندوق ، ففتح الصندوق فاذا فيه سفط ، وفي السفط رأس يحيى بن زكريا ، فأمر به الوليد ، فرد إلى المكان وقال : اجعلوا العمود فوقه مغيرا من الأعمدة . فجعلوا عليه عمود مسقط الرأس »[٤٥] .

---

٤٢ ــ الذيل على الروضتين ص ٧ .

٤٣ ــ رحلة ابن بطوطة ص ٥٦ ــ ٦١ .

٤٤ ــ المصدر السابق ص ٧٠٤ ــ ٧٧٩ .

٤٥ ــ فضائل الشام ودمشق ص ٣٣ .

ويستفاد من حديث آخر أن الخضر كان يصلي في الجامع الأموي في كل ليلة بعد إتمام بنائه[٤٦] . يضاف إلى ذلك أن هناك مشاهد في الجامع الأموي هذا، تحمل اسم علي ابن أبي طالب، الخليفة الراشدي الرابع، واسم الحسين وزين العابدين. وأيضاً هناك مقصورة، تدعى بمقصورة الصحابة، ووجود مصحف عثمان بن عفان، ذكر أنه بخط يده[٤٧] . وفي دمشق قبور صحابة وأنبياء وصالحين لا يمكن حصرهم. ودليل أهمية هذه القبور والمشاهد مضافة إلى أهمية المسجد الأموي، كعامل ديني يجتذب الأندلسيين، يظهر من خلال اهتمامات الرحالة وخاصة الأندلسيين منهم عند زيارتهم لمدينة دمشق. فأول ما كان يثير اهتمامهم التركيز على الجامع الأموي، فوصفوه بشكل مستفيض، وإلى حد وصل إلى ذكر كل شيء يتعلق به، بشيء من التفصيل والدقة، وتأتي بعده أوصاف المشاهد الأخرى، ومن الطبيعي أن جميع هذه الأوصاف نقلت مكتوبة عن طريق أصحابها إلى الأندلس، كما فعل ابن جبير ومن بعده ابن بطوطة. وزيادة على المسجد الأموي والمشاهد المختلفة الأخرى التي احتوتها دمشق، فإن هناك ناحية أعمق وأشد أثراً، تظهر بأجلى صورها ومعانيها من خلال الأحاديث التي نقلت عن الرسول العربي الكريم، والتي اختص فيها مدينة دمشق، وجعل منها خير أرض يلجأ إليها المسلمون، إذا ما ألمت بهم النوائب. والأحاديث التي به رويت في هذا المجال كثيرة ومتعددة، ولكنها بمجموعها تتمحور وتدور حول فكرة واحدة، هي دعوة الرسول وتشجيعه على سكن مدينة دمشق والاستقرار فيها عندما تغدو الحاجة ملحة. من هذه الأحاديث ما رواه أبو الدرداء عن الرسول (ص) بقوله: «سمعت النبي (ص) يقول: يوم الملحمة الكبرى فسطاط المسلمين بأرض يقال لها الغوطة، فيها مدينة يقال لها دمشق، خير منازل المسلمين يومئذ»[٤٨] . وفي حديث آخر يجعلها (ص) إحدى بقاع الجنة ومدنها على الأرض. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص): «اربع مدائن من مدائن الجنة في الدنيا، مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق..»[٤٩] وقد فضلها في حديث آخر على جميع المدن الشامية بما فيها بيت المقدس، وربما قصد من ذلك ناحية اقتصادية، وليس دينية. عن أبي أمامة عن النبي (ص) أنه تلا هذه الآية، قوله تعالى: ﴿ وآويناهما إلى

٤٦ ــ المصدر السابق ص ٢٩ .
٤٧ ــ الاشارات إلى معرفة الزيارات ص ١٥ .
٤٨ ــ فضائل الشام ودمشق ص ٢٦ ــ ٢٧ .
٤٩ ــ المصدر السابق ص ٢٩ .

ربوة ذات قرار ومعين ﴾[٥٠] ثم قال : «أتدرون أين هي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال هي بالشام بأرض يقال لها الغوطة ، مدينة يقال لها دمشق هي خير مدائن الشام»[٥١] . وسواء أكانت هذه الأحاديث صحيحة أم غير صحيحة ، موضوعة أم غير موضوعة ، فإنها عملت بشكل ايجابي على ترغيب أهل الأندلس بقصد الشام ، وهم الذين انطبقت عليهم معاني هذه الأحاديث ، أكثر من غيرهم . وإذا كانت قد استجدت عوامل جاذبة أخرى ، وخاصة في فترة ما بعد نهاية القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، والتي أضافت أهمية جديدة للأهمية الدينية ، فإن مثل هذه العوامل ، كانت أكثر في دمشق من غيرها من المدن الشامية الأخرى ، الأمر الذي جعلني أحجم عن معالجتها في هذا المكان ، وأرجأتها إلى مكان آخر من هذا البحث ، تمشيا مع تقسيم عوامل الجذب .

العوامل السياسية

بدأت العوامل السياسية في بلاد الشام ، تسير لصالح النازحين الأندلسيين ، منذ انحسار حكم الفاطميين فيها ، في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي وخاصة في المدن التي لم تقع تحت سيطرة الصليبيين كدمشق وحلب وغيرهما . وتبلورت الملامح الأولى لهذه العوامل في ظل حكم البوريين في مدينة دمشق الذي استمر حتى نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي ، وفي ظل حكم الزنكيين قبل ظهور نور الدين الشهيد على المسرح السياسي ، في تلك المناطق التي شملت مدن المنطقة الوسطى ، والشمالية ، والشمالية الشرقية من بلاد الشام . ومجموع الحكام الذين تعاقبوا على حكم الشام في هذه الفترة ، مثلوا السلطة الشرعية ، التي يجب أن تكون ، حسب نظرة ومفهوم الأندلسيين لشرعية السلطة في تلك الفترة من الزمن . الأمر الذي جعلهم يقصدون الشام ويستقرون فيها دون خوف ولا حرج . فوجدوا فيها بيئة صالحة ، تشبه إلى حد كبير تلك البيئة التي عاشوا فيها ، والتي تشدد على التمسك بالسنة والشرع ، وعدم اللجوء إلى الجدل في الدين ، ومما يعكس هذه الصورة ، وحال هذه البيئة ، ما يرويه المؤرخ الدمشقي المعاصر ابن القلانسي في حوادث سنة ٥٤٣ هـ ــ ١١٤٩ م بقوله : «في رجب من هذه السنة ، أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جاري العادة والرسم ،

٥٠ ــ سورة المؤمنون ــ ٢٣ ــ ٥١ .

٥١ ــ فضائل الشام ودمشق ص ١٧ .

فبدأ من اختلافهم في أحوالهم وأعراضهم، والخوض فيما لا حاجة إليه من المذاهب، ما أوجب صرفهم عن هذه الحال، وإبطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد مطمح سفهاء الأوغاد»[٥٢] وإذا كانت المعلومات المباشرة عن معاملة حكام الشام للمهاجرين الأندلسيين نادرة الوجود، خلال هذه الفترة، فإن من الممكن القول، أنهم عوملوا معاملة طيبة، كما سيظهر بجلاء ووضوح في الفصل القادم، من خلال تراجم الذين سكنوا دمشق وغيرها، قبل مجيىء نور الدين زنكي إلى الحكم. لكن هذه المعاملة بالرغم من سمتها الايجابية، فانها لم تصل إلى درجة المتانة والخصوصية، التي وصلتها في أثناء حكم الزنكيين والايوبيين، ومن بعدهم المماليك. وتبدأ هذه المرحلة من سنة ٥٤٩ هـ ــ ١١٥٥ م حيث غدت الظروف أكثر ايجابية ووضوحا، ففي الوقت الذي كانت تسير فيه الأندلس على طريق الانهيار، وتعاني من اضطرابات سياسية حادة ومؤلمة، كانت بلاد الشام قد قطعت شوطاً كبيراً على طريق الوحدة والوئام الأمر الذي ساعد النازحين الأندلسيين على ايجاد المأوى البديل، حيث حدثت تطورات عظيمة الأهمية على الصعيدين السياسي والمذهبي، كانت في مجموعها لصالحهم. فقد استطاع نور الدين زنكي، أن يوحد ويؤلف ما بين المدن الشامية بعد أن عانت من الفرقة زمناً طويلاً. كما استطاع في الوقت نفسه كسب وضمان ولاء مصر بواسطة أنصاره من الأيوبيين، يحدوه في ذلك الحرص الشديد على إبقاء هذه الوحدة قائمة في سبيل غاية شريفة، ونبيلة تتجلى بالوقوف في وجه أشرس هجمة تعرضت لها بلاد الشام، والتي كان أبطالها هذه المرة الصليبيين، الذين استفادوا من حالة الانقسام والضعف اللذين حلا في كيان هذه البلاد. وكما كان نور الدين حريصاً على استمرار وبقاء عناصر الوحدة السياسية قائمة، فإنه كان حريصاً أيضا على إقامة وبناء صرح وحدة مذهبية، تكون عاملاً داعماً للحفاظ على عناصر الوحدة السياسية ــ ولكي تتحقق الغاية الأخيرة فانه ركز على إشادة المدارس ودور الحديث، لتكون دوراً لتعليم وتجديد علوم السنة، التي أصابها الركود لفترة طويلة، نتيجة خضوع بلاد الشام لحكم الفاطميين كما يقول البعض[٥٣] وليس من قبيل التجني على نور الدين زنكي إذا قلت، أنه كان متشدداً في هذا المجال إلى درجة كبيرة، وربما تأثر بمواعظ الفقهاء أمثال أبي طاهر السلمي في جامع بيت لهيا على مقربة من دمشق في ذلك الزمان. فقد توصل هذا الفقيه إلى تحديد أبعاد الغزو الفرنجي المتوجه ضد المسلمين

٥٢ ــ ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠١.

٥٣ ــ صلاح الدين المنجد ــ المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين ــ ط ١ بيروت ١٩٦٣ ص ٢٢.

ضمن ثلاث شعب (إلى الأندلس وصقلية والشام)[٥٤] كما رسم طريق الخلاص بالجهاد الذي دعا إليه الله ورسوله في الآيات والأحاديث، وأكمل غيره البحث عن طريق الخلاص بالدعوة لإزالة الأسباب التي أدت لنجاح الغزو على المستويين السياسي والمذهبي، وفي هذا الجو وجد الأندلسيون أعظم المغريات التي تلائم عقيدتهم المذهبية، خاصة وأنهم مالكيون في أغلبهم. كما أن حكام الشام وجدوا في الأندلسيين عنصراً في غاية الملاءمة لتطبيق سياستهم، فهم مالكية عاشوا في جو تسوده الوحدة المذهبية، إذ لم تقم في الأندلس قائمة لأي مذهب تعتبره السنة مارقا، كما أن محاربة الفاطميين الخصوم من الناحية العقائدية، أضحى للمالكيين عموماً والأندلسيين خصوصاً بمثابة تقليد منذ حاربهم الخلفاء الأمويون في المغرب خلال القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي. وامتدت المقاومة المالكية للفاطميين إلى المشرق، وتمثلت بشيخ مدينة الرملة محمد بن علي النابلسي، الذي اعتبرهم أجدر من الروم بالمحاربة، أثر عنه قوله: «لو أن معي عشرة أسهم لرميت تسعة في المغاربة (تسمية الفاطميين بالنسبة له) وواحدا بالروم»[٥٥]. واستمر المالكيون الأندلسيون في تقديم البرهان على عدائهم للفاطميين، إذ يروى ابن الأبار، أن أول من قطع خطبة الفاطميين في مصر هو اليسع بن عيسى بن حزم الأندلسي الذي «صعد المنبر والاغزاز حوله وسيوفهم مصلتة خوفا من الشيعة، أن ينكروا فيقوموا ولم يجسر أحد أن يخطب سواه فحظي بذلك»[٥٦]. وقد قام فيما بعد بالاتصال مع صلاح الدين الايوبي، فأكرم وفادته، وأجزل احسانه عليه، وخصص له راتباً شهرياً يكفيه، اضافة إلى ذلك، فانه كان يقبل أن يكون شفيعا للبعض عنده. ومن ناحية أخرى، فإن حركة الجهاد، تدعو لاسلام سلفي على صورته في صدر الاسلام دون بدع ودون جدل، فطبق نور الدين هذا بشكل فعلي. إذ يقول صاحب الروضتين: «وحكي أن انساناً بدمشق، يعرف بيوسف بن آدم، كان يظهر الزهد والنسك وقد كثر أتباعه، أظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ أمره نور الدين، فاحضره وأركبه حماراً، وأمر بصفعه، فطيف به البلد جميعه، ونودي عليه، هذا جزاء من أظهر في الدين البدع، ثم نفاه من دمشق»[٥٧].

---

٥٤ ــ شاكر مصطفى ــ مجلة كلية الآداب بجامعة الكويت ــ عدد ١ ص١٩٧.

٥٥ ــ القاضي عياض ــ ترتيب المدارك وتقريب المسالك ج٣ ــ ٤ ت أحمد بكير محمود ط بيروت طرابلس ليبياص ٣٠١ ــ ٣٠٢ ــ ٣٠٣ ــ الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٦١٥ ــ ٦٤٠.

٥٦ ــ المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي ــ ص ٣٣٤ ــ ٣٣٥.

٥٧ ــ أبو شامة ــ الروضتين في أخبار الدولتين ــ ت محمد حلمي محمد أحمد ــ ج ١ ق ١ ط القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٤.

ومثل هذا الاتجاه ، كان بالنسبة للأندلسيين ، طبيعياً وعادياً جداً ، لكونهم من أتباع مذهب مالك ، الذي ينهى عن الجدل في شؤون الدين ، فقد أثر عن مالك بن أنس قوله : « من كان دينه قائماً على الجدل فلا خير فيه ، ترى إذا جاءه من هو أجدل منه ، أيترك دينه كل يوم لدين جديد » . وهكذا فإن التوافق بين السلطة السياسية في الشام ، وبين الأندلسيين على صعيد الأفكار المذهبية ، والتي غدت مكملة للأهداف السياسية ، جعلت من نور الدين زنكي ، يقدم كل التسهيلات للقادمين من الأندلس والمغرب . فأحسن وفادتهم ، وأنزلهم أحسن المنازل ، وفضلهم في كثير من الأحيان على السكان الأصليين . فكان بحق الرائد الأول في هذا المضمار على صعيد الشام . فقد عمل بكل الوسائل والطرق على استجلاب الأندلسيين إلى ديار حكمه ، وقدم لهم خدمات جليلة في جميع الميادين وعلى مختلف الصعد . وهذا ما جعل الرحالة الأندلسي ابن جبير يصفه بأنه كان يرصد ويراقب من يأتي من الأندلس إلى الشام ، فيحيطه بعنايته ، ويجد له عملاً يتناسب ومقدرته يقول : « ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى ، أنه كان عينا للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافاً كثيرة منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين ، وأخبرني أحد المغاربة ، الذين كانوا ينظرون فيه ، وهو أبو الحسن علي بن سردال الجياني المعروف بالأسود ، أن هذا الوقف المغربي ، يغل إذا كان النظر فيه جيداً لخمسمائة دينار في العام ... »[٥٨] .

وقد بلغ اهتمام نور الدين بأمر الأندلسيين القادمين إلى الشام حدا وصل إلى أنه فضلهم على أهل البلاد المحليين . إذ يروى ابن جبير عنه ، أنه اهتم بفك الأسرى منهم قبل أسرى الشام بقوله : « وقد كان نور الدين رحمه الله ، نذر في مرضة أصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة ، فلما استبل من مرضه ، أرسل في فدائهم فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة ، وكانو من حماة من جملة عمالته ، فأمر بصرفهم واخراج عوض عنهم من المغاربة وقال : هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لا أهل لهم »[٥٩] . ولم تكن مساعدات نور الدين زنكي ، قد اقتصرت بالنسبة للأندلسيين ، على أنها مساعدات جماعية ، بل تعدت هذا الأسلوب الجماعي إلى أسلوب مساعدة فردية ، أذكر منها على سبيل المثال ،

٥٨ ــ رحلة ابن جبير ــ ص ٢٥٧ .

٥٩ ــ المصدر السابق ص ٢٨٠ .

تلك التي قدمها لأسرة عبد الله بن محمد الأشيري بعد وفاته سنة ٥٦١ هـ ـــ ١١٦٦ م. وهذا المذكور كان قد وصل إلى بلاد الشام عن طريق مدينة اللاذقية، والذي انتقل منها إلى حلب، وسكنها مدة قصيرة، ذهب بعدها مع أسرته لتأدية فريضة الحج، ولفقره الشديد وقلة ما في يده، اضطر أن يترك أسرته في المدينة المنورة وعاد إلى الشام، حيث استطاع أن يقابل نور الدين زنكي، وطلب منه العون للتغلب على ظروفه الصعبة، لكنه توفي فجأة، في الوقت الذي كانت فيه عائلته ما تزال في الحجاز، فبادر نور الدين بارسال مساعدة مالية لأسرته إلى الحجاز، وخيرها في الاقامة ما بين حلب ودمشق، فاختارت حلب[٦٠] وانتقلت عادة مساعدة الأندلسيين والاهتمام بشؤونهم العامة إلى الايوبيين، الذين خلفوا نور الدين في حكم الشام ومصر. وكان صلاح الدين الأيوبي، أول الذين عملوا بهذه العادة وطبقوها بكل جد وإخلاص، لأن صلاح الدين نفسه، لم يكن يختلف عن نور الدين الراحل بشيء. فقد سعى لتحقيق الأهداف نفسها التي قضى من أجلها سلفه المذكور، وخاصة من الناحية السياسية، التي تتجلى بالمحافظة على وحدة الشام ومصر، إضافة إلى ترسيخ الوحدة المذهبية. وفوق كل ذلك، فإن هناك ناحية عمقت من اعتنائه بشأن الأندلسيين أكثر، هي اشتراكهم بالحرب معه ضد الصليبيين. التي سوف أتحدث عنها بشيء من التركيز والتفصيل في مكان آخر من هذا البحث. ولصلاح الدين مواقف شتى في هذا المجال، مثال ذلك أنه جعل أحد الأطباء الأندلسيين، الذين قدموا الشام طبيبه الخاص، الذي رافقه في الحل والترحال، وهو عبد المنعم الجلياني[٦١]، بالرغم من وجود أطباء من أصل شامي، لايقلون من ناحية المستوى والأهلية العلمية عنه. وقام أيضاً باجراء تجديد وتحديث على المرافق التي خصصت للأندلسيين، فجدد مدارس المالكية بمدينة دمشق، والتي يعود الفضل في تأسيسها إلى سلفه نور الدين الشهيد[٦٢] وكذلك كان حال خلفاء صلاح الدين من ابنائه وأقربائه. والسؤال المطروح هنا؟ هل استمرت هذه المعاملة الطيبة في الفترة التي تلت حكم الأيوبيين في الشام ومصر والتي تعرف بفترة حكم المماليك؟ للجواب على هذا السؤال، يمكن القول في البداية، إن الحال بقيت كما كانت في زمن الدولتين البائدتين، وإذا كان

٦٠ ـــ القفطي ـــ إنباه الرواة على أنباه النحاة ـــ محمد أبو الفضل ابراهيم ـــ ج٢ ط القاهرة ١٩٥٢ ص١٣٧ وما بعدها.

٦١ ـــ نفح الطيب ـــ ج٣ ص ٣٩١.

٦٢ ـــ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص٤٤٨.

الزنكيون والايوبيون ، قد قربوا الأندلسيين وأحسنوا إليهم ، لما وجدوه فيهم من ملاءمة وتوافق على الصعيد السياسي والمذهبي ، فإن المماليك اختلفوا عنهم بعض الشيء ، وهذا الاختلاف ، تجلى بأن المماليك أرادوا من وراء تقريبهم للأندلسيين والاحسان إليهم ، تحقيق أهدافهم التي تجسدت بتقريب الفقهاء ورجال الدين من أجل الاستمرار في حكم العرب والمسلمين ، وصبغ هذا الحكم بالصبغة الشرعية ، فجعلوهم ومعهم جميع الفقهاء الشاميين وغيرهم مطية سهلة القياد بعدما أغروهم بالمناصب الدينية والتدريسية ، للوصول إلى هذا الهدف . لأن المالكيين الأندلسيين ، كما مر قبل قليل متمسكون بسلفية الدين بشكل كبير ، الأمر الذي وجد فيه المماليك ضالتهم المنشودة ، وكثيراً ما تلاقى الفريقان على هذا الصعيد ، فبمقابل تمسك المالكية بأهداب الدين ، يرى أيضاً تمسك المماليك بالدين ، لكن هذا التمسك يختلف عن الذي عند المالكية ، أنه تمسك مصطنع في سبيل تحقيق أهداف دنيوية حقيرة ولفئة قليلة ، أضف إلى ذلك أنه تعصب أكثر منه حقيقة وواقع ، ومهما كانت صورة الأمر وحقيقته ، فإن حكام المماليك اقتفوا سيرة سابقيهم من الحكام في هذا الميدان ، والأمثلة كثيرة أذكر منها على سبيل المثال ما جاء على لسان رحالة مغربي هو ابن بطوطة ، الذي ذكر في أثناء زيارته لمدينة دمشق في القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي أنه « .. كان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر (دينكز) يسمى عماد الدين القيصراني ، من عادته أنه متى سمع ، أن مغربيا وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن إليه ، فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته وكان يلازمه منهم جماعة ، وعلى هذه الطريقة علاء الدين ابن غانم وجماعة غيره »(٦٣) ومن المقطع الأخير من قول ابن بطوطة هذا ، يمكن الاستنتاج ما كان يهدف حكام المماليك من تقريبهم للأندلسيين . الذي لم يكن ليشمل جميع الفئات ، وخاصة الفئة الفقيرة التي لم تتمكن من العمل في القضاء أو التدريس أو الأعمال الفقهية ، لأنها لا تستطيع افادتهم بإقناع العامة بالتسليم بحكمهم والاعتراف بوجودهم ، طالما هم من العامة ، التي لم يقم لها المماليك وزناً ولا قيمة خلال فترة حكمهم الطويلة . وهناك مثل تتجلى فيه مساعدة المماليك للأندلسيين على الصعيد التجاري ، إذ يذكر ابن تغري بردي « أن السلطان الناصر فرج رسم سنة ٨١٤ هـ ـ ١٤١٢ م ، أن يؤخذ من تجار المغاربة العشر ، وكان يؤخذ منهم الثلث »(٦٤) فهل كان هذا الاجراء منطلقاً من مصلحة المغاربة ، أو بالأحرى

---

٦٣ ـ رحلة ابن بطوطة . ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

٦٤ ـ النجوم الزاهرة ج ١٣ ص ١٢٨ .

يقصد منه نفعهم، أم قصد منه نفع غيرهم أيضاً؟ حقيقة الأمر أنه إذا كان المماليك قد أحسنوا استغلال الفقهاء وعلماء الدين الأندلسيين لصالح حكمهم وديمومة هذا الحكم، فإنهم أحسنوا أيضاً استغلال التجار المغاربة لمصلحة تجارتهم لكي تبقى رائجة تجلب لهم الأرباح، والمكاسب، فتخفيض المكوس للمغاربة بشكل مميز عن بقية التجار الشاميين والمصريين، لا يخرج عن كونه اجراءً استهدف من ورائه حكام المماليك تحقيق رواج تجارتهم، ولعل أول مارسموا مقدار الثلث على تجارة المغاربة، كان في الربع الأخير من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، عندما طرد الصليبيون من الشام نهائياً، الأمر الذي أسفر عن ردة فعل عنيفة في الغرب الأوربي، عندما نادى المتحمسون للحرب الصليبية وعلى رأسهم البابوية، بأن دولة المماليك هي السبب، وأنه لا سبيل لاستعادة بلاد الشام إلا باضعاف دولة المماليك. ولن يكون ذلك إلا عن طريق فرض حصار اقتصادي شديد على شواطىء الشام ومصر، وذلك بمنع تجار أوروبا من الوصول بسفنهم إليها والمتاجرة مع دولة المماليك، فتصاب تجارتهم بالكساد والبوار، لما لها من أهمية بالغة، لكونها الأساس الأول لثروتهم وقوتهم(٦٥) وتخفيض الضريبة أو المكس من الثلث إلى العشر سنة ٨١٤ هـ ـــ ١٤١٢ م، لا يتعدى هذا الاطار، الذي لم ينطلق من مصلحة الأندلسيين، بقدر ما انطلق من مصلحة المماليك أنفسهم وهكذا فقد لاقى المغاربة عناية مميزة إلى حد كبير من جميع حكام بلاد الشام في مختلف الفترات والأوقات، استطاعوا بواسطتها الحياة بشيء من الطمأنينة والاستقرار.

العوامل الاقتصادية والنهضة العلمية

أما من الناحية الاقتصادية، فقد قدر لبلاد الشام، أن تكون في مقدمة المناطق التي ارتادها الأندلسيون، بعدما حلت بهم المصائب. ووجدوا في كل المدن والمناطق الشامية التي أموها بيئة صالحة ومشجعة للاستقرار وتوفر العيش الكريم. فهي بلاد زراعية تجود فيها زراعات متنوعة وهي بلاد تجارية لوفرة انتاجها وموقعها المرموق على البحر الأبيض المتوسط. وكذا الحال على صعيد الصناعة، فقد كانت متقدمة في هذا المجال، إذا ما قورنت بصناعات غيرها في ذلك الوقت. وتوفر هذه الأسس الاقتصادية المتينة والهامة، جعل منها مقصداً رئيسياً للأندلسيين المغاربة، وغدت بالنسبة لهم منهلاً ثرا للحصول على أسباب الحياة ووسائل المعيشة. ولعل

٦٥ ـــ سعيد عبد الفتاح عاشور ـــ العصر المماليكي في مصر والشام ـــ ط ١ القاهرة ١٩٦٥ ص ١٣٠.

خير من صور وضع بلاد الشام من ناحية وجود وتوفر الأسباب المعيشية والحياتية ، ابن جبير الرحالة الأندلسي ، الذي زار معظم المناطق والمدن الشامية بقوله : « وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد ، يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع ، فيكون فيها طيب العيش ناعم البال ، وينهال الخير عليه من أهل الضيعة ، ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء ، ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى ... »[٦٦] كما أن توفر أسباب العيش ووفرة الانتاج وتنوع مصادره في الشام ، جعل السكان فيها يفيضون على غيرهم بكرمهم وسعة عطائهم وبرهم بشكل جعل ابن جبير أيضاً يسجله بصدق وأمانة ، وبأسلوب الدعوة الحارة الصادقة الموجهة للأندلسيين والمغاربة ، بأن يتوجهوا إلى الشام ، بعد أن لمس بنفسه وتعرف بشكل عملي على مدى توفر مصادر الرزق والعيش من جميع الوجوه يقول : « ... فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك ، فأدخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد ... ولو لم يكن بهذه البلاد المشرقية كلها ، إلا مبادرة أهلها لا كرام الغرباء وايثار الفقراء ولا سيما أهل باديتها ، فانك تجد من يبادر إلى كرم الضيف عجبا ، كفى بذلك شرفا لهم »[٦٧] وأما من الناحية العلمية ، فقد كان للسياسة التعليمية التي اتبعها نور الدين زنكي وبعده الحكام الايوبيون والمماليك ، وبالتالي المنشآت التعليمية كالمدارس ودور الحديث والخوانق والزوايا والمساجد ودور القرآن وغير ذلك من هذا القبيل ، أثره الهام في استقطاب الأندلسيين من علماء مهتمين وصوفية زاهدين ، فعلى صعيد السياسة التعليمية ، كان لنور الدين زنكي الفضل الأكبر في رسم قواعدها وأسسها العامة في الشام . وذلك من أجل إحياء علوم السنة ، التي توقفت بعض الشيء في عهد الفاطميين ، فقد قام المذكور بالتركيز على إنشاء المدارس ، حيث أسست لتعليم القرآن والسنة والحديث ، التي وجدت الدعم لدى الشافعية ، الذين لعبوا دوراً كبيراً في التوفيق بين اللاهوت السني وعلم المنطق . فكانوا يهيئون الطلاب للجدال والمدافعة عن عقائد أهل السنة وذلك باللجوء إلى الحجج الفعلية ، التي أظهرها بشكل أفضل فيما بعد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ــ ١١١٢ م عشية ظهور نور الدين زنكي . وكانت المدرسة في ذلك العصر ، تشكل في الوقت نفسه مسجداً ومركزاً للصلاة ، بالاضافة إلى كونها مكاناً لتدريس العلوم الدينية العالية المستوى ، وكانوا يعطون الأولوية لتمارين الذاكرة والحفظ غيبا . وكانت المدرسة تهيء المرشحين لتولي المناصب والوظائف المدنية

---

٦٦ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٥٩ .

٦٧ ــ المصدر السابق ص ٢٥٨ .

والدينية والقضائية ، بالإضافة إلى أنها كانت تدرب الوعاظ الذين يرسلون إلى المناطق لمحاربة التأثيرات الشيعية ، وخاصة منهم عملاء الفاطميين . وكان التطور في بناء المدارس والذي سأتحدث عنه في صفحات تالية ، يؤدي دائماً إلى الطلب المتزايد لجلب العلماء ، الذين سيقومون بمهمة التدريس[٦٨] وهذا ما أدى إلى وجود فرص لابأس بها للأندلسيين القادمين إلى الشام ، على اعتبار أنهم كانوا يؤيدون مثل هذا الاتجاه في السياسة التعليمية ، التي تركز على إحياء علوم السنة ، وذلك بسبب العداء الذي يكنه هؤلاء للشيعة وخاصة منهم الفاطميين . ولكن يجب أن لا يفهم ، أن المدارس كانت غير موجودة في الفترة التي سبقت حكم نور الدين في الشام ، حيث وجدت في كل من حلب ودمشق عدة مدارس وزوايا .

ففي حلب كانت توجد مدرسة للشافعية ، وانتشرت فيها المدارس بسرعة في عهد نور الدين ، فقد بني فيها في عهده ، ثلاث مدارس للحنفية وأربع مدارس للشافعية ، أسس منها نور الدين ثلاث مدارس . إضافة إلى زاويتين واحدة للحنبلية وأخرى للمالكية . وكذلك الأمر في مدينة دمشق ، حيث وجد فيها إحدى عشرة مدرسة ، قبل مجيء نور الدين للحكم فقام هو ببناء إحدى عشرة مدرسة أخرى ، منها خمس مدارس للحنفية مع زاوية الأسدية في المسجد الكبير ، وأربع مدارس شافعية ، ومدرسة واحدة مختلطة للشافعية والحنفية ، ومدرسة مالكية كما انتشرت المدارس في المدن الأخرى كحماة وحمص وبعلبك وجزيرة ابن عمر . وبشكل عام فقد بلغ عدد المدارس التي بنيت في عهد نور الدين أكثر من خمسين مدرسة وزاوية لمختلف المذاهب الدينية[٦٩] . ولم يكن الأمر يقتصر على تشييد هذه المدارس ، بل نصت القوانين على الصرف عليها سواء من الأموال العامة أو من أموال المتبرعين في حال عدم كفاية الأموال المرصودة لها . وكان لكل عالم راتب خاص به ، اضافة إلى بعض المساعدات الأخرى ، الأمر الذي شجع العلماء الأندلسيين كغيرهم على ارتيادها والعمل بها ، إضافة إلى أن بعض العاملين بها منهم كانوا يتخذونها دار سكن[٧٠] وتبع انتشار المدارس ، انتشار دور الحديث ، التي تعلم الحديث الموروث عن النبي (ص) ، وكان نور الدين هو السباق في هذا المجال ، حيث شاد أول دار للحديث في الاسلام سماها النورية بدمشق[٧١] لتستمر عادة بناء مثل

---

٦٨ — Elisseeff- nuradin- tome 3 DANAS- 1967- p 156.

٦٩ — ElissEEFF-tome 3 p 757-758.

٧٠ — خطط الشام ج ٤ ص ٣٨ .

٧١ — المصدر السابق ص ٣٨ .

هذه الدور في العصرين التاليين الأيوبي والمماليكي الأمر الذي سيظهر في بحوث قادمة. وكان لانتشار الزوايا والخوانق، أثره البالغ أيضاً في استقطاب الأندلسيين إلى الشام. حيث أن هؤلاء القادمين، وجد منهم عدد كبير اشتغل في أمور التصوف والزهد والمرابطة، فوجدوا في هذه الخوانق والزوايا مجالاً فسيحاً لممارسة نشاطاتهم الصوفية. وخاصة أن الأموال الكفيلة باعالتهم كانت تخصص من قبل الحكام، وخاصة في العصر المماليكي، والذي سيظهر بوضوح من خلال بحوث تالية. وهكذا وبشكل عام فإن الاهتمام بهذه المنشآت المذكورة آنفاً، أصبح من المهمات الرئيسية التي ركز عليها الحكام، ابتداء من عهد نور الدين زنكي ومرورا بالعهد الأيوبي، وانتهاء بالعهد المماليكي، بحيث انتشرت في كل أنحاء الشام الكبرى، وأصبحت من التعدد والكثرة بشكل يصعب ايرادها بشكل تفصيلي، وفي كل العصور السابقة الذكر. لذلك فليس أجدر من إعطاء إحصاءات رقمية تقريبية، كي يمكن للمرء تصور الحالة التي كانت عليها في فترة هذا البحث، وبالتالي يمكن استنتاج ناحية هامة، كان لها دورها الفعال على صعيد استقطاب الأندلسيين إلى الشام. فقد عرف من المدارس والخوانق والزوايا ودور الحديث ودور القرآن والمساجد التعليمية في بلاد الشام في هذه الفترة ما ينوف عن الثلاثمائة مكان، كان للأندلسيين تواجد مهم في كثير منها الأمر الذي سيظهر جليا في بحوث قادمة، أضف إلى ذلك المستشفيات الطبية وغيرها. والشيء الذي يصصدم به كل باحث أو متتبع لحركة الاستيطان الأندلسية في الشام، يتجلى بأن مدينة دمشق استطاعت لوحدها، أن تستقطب أضعاف مااستقطبته المدن الشامية الأخرى مجتمعة، وذلك بالقياس إلى عدد الذين سكنوها بشكل دائم. وتبدو هذه الظاهرة من أعجب الظواهر وأشدها إثارة للدهشة والاستغراب. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هي الأسباب التي جعلت من مدينة دمشق تستأثر بالعدد الكبير من الأندلسيين الذين يمموا وجوههم إلى بلاد الشام؟ حتى وصل الأمر إلى أن بعضا منهم كانوا ينتقلون إليها بعد فترة من نزولهم في مدن شامية أخرى. وللجواب على هذا السؤال، لابد من القول إن ظروفاً موضوعية وايجابية مشجعة توفرت في هذه المدينة بشكل أفضل من غيرها. يمكن أن أذكر من هذه الظروف الايجابية، وان كان الأمر سيقود إلى شيء من التكرار لكثير من الأفكار التي وردت في صفحات سابقة، ولكن هذا التكرار يبدو ملحاً وضرورياً هنا على اعتبار أن الصورة ستبقى غامضة بدونه. من هذه الظروف ما كان سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وعلمياً. فمن الناحية السياسية، يمكن القول أن اسم دمشق بشكل خاص له صداه المؤثر والمحبب في نفوس أهل

الأندلس، لكونها كانت في عهد سابق عاصمة الدولة الأموية، التي كان منها انطلاق أجناد الشام لفتح الأندلس. وهؤلاء القادمون الآن هم أحفاد أولئك الأول من الأمويين، فهي أي دمشق بالنسبة لهم أرض الأجداد التي تحتل حيزاً كبيراً من احترامهم. كما أنها أصبحت من جديد ومنذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي عاصمة الدولة السياسية، ومستقر رجال الدولة ومعاونيهم، ومصدر بعث روح الجهاد وتجسيد معانيه في سبيل تحرير ما احتله الصليبيون من مناطق الشام وخاصة بيت المقدس. وهناك ناحية أخرى على قدر كبير من الأهمية، تتجلى بالمساعدة التي خصهم بها نور الدين زنكي، ومن بعده صلاح الدين والمماليك فتصبح المدارس المالكية بدمشق في العصر المماليكي ثلاث مدارس، هي الصمصامية والنورية والشرابشية[٧٢] وإذا ما أحصي عدد المدارس والخوانق والزوايا والربط ودور الحديث والقرآن والمساجد، التي كان قسم كبير من الأندلسيين ينزل فيها، يرى أن دمشق احتوت نسبة عالية منها إذا ما قورنت بمدن الشام الأخرى، ووصلت هذه النسبة على وجه التقريب إلى ٧٥٪، أو بالأحرى احتوت على ثلاث أرباع المدارس وما شابهها التي عرفت الشام ككل. وذلك لعدة أسباب، يمكن أن يذكر منها، ما حدث لمدينة بغداد من نكسات توجت بالدمار التتاري في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، حيث تصبح مدينة دمشق مركزاً علمياً للشرق كله، وبذلك تكون قد سبقت القاهرة في هذا المضمار[٧٣].

وعودة إلى الوراء قليلا تظهر أن دمشق، كانت تتقدم على حلب في هذا الميدان، حتى كانت نهاية القرن السادس الهجري، حيث تصدى ابن شداد صاحب كتاب الأعلاق الخطيرة، لبناء المدارس بتشجيع الملك الظاهر غازي الأيوبي[٧٤] وهذا ما أدى إلى الاستمرار بانشاء وتشييد دور التعليم المختلفة من قبل الحكام والأهلين على حد سواء. فقد جارى أهل الشام حكامهم في هذا الميدان خلال هذه الفترة كما يفهم من قول ابن بطوطة: «وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس... ومن أراد طلب العلم.. وجد الإعانة التامة على ذلك»[٧٥] إذن فكثرة المدارس في هذه المدينة، زاد من الطلب على المدرسين والعلماء، فكان نصيب الأندلسيين كبيراً إلى حد ما، لكونهم كانوا يدرسون مقابل رواتب كبيرة،

---

٧٢ — رحلة ابن بطوطة ص ٩٧.

٧٣ — المشرق في نظر المغاربة والأندلس في العصور الوسطى ص ٢٢. خطط الشام ج ٤ ص ٤٣.

٧٤ — وفيات الأعيان ج ٧ ص ٨٩.

٧٥ — رحلة ابن بطوطة ص ١٠٤ — ١٠٥.

هذا بالاضافة إلى تعليم أولادهم بصورة مجانية ، وأهم من ذلك أن السياسية التعليمية كانت متوافقة مع المبادىء التي يحملونها ويؤمنون بها ، وبالتالي تساعدهم على الاستمرار بمهمتهم دون إزعاج أو قلق ، إذا أخذ نظام هذه المدارس بعين الاعتبار ، والذي يقضي بتقديم الطعام والمصروف لجميع الطلاب والمدرسين من أوقاف المدرسة ، بما يشبه المدارس الداخلية الحكومية في وقتنا الحاضر ، يقول صاحب « نزهة الأنام في محاسن الشام » : « ... وتقرب إلى الله تعالى أهلها ببناء المدارس رغبة في جوار المجرد الفقير البائس ، ورتبوا له الخبز واللحم والطعام والزيت والحلو والصابون والمصروف في كل شهر على الدوام . فيجلس الطالب في شباكها ، ينظر إلى الماء والخضرة والوجه الحسن ، فكيف لا ينبعث إلى طلب العلم ، ويتحرك من فهمه ما سكن »[٧٦] . ونظرا لما تمتعت به دمشق على هذا الصعيد وغيره ، فإن لسان الدين بن الخطيب ، تمنى أن يزورها قبل أن توافيه المنية ، بعد أن أطنب في وصفها له أحمد ابن محمد بن أبي الخليل مفرج الأموي الذي زارها خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي يقول : « وكثيراً ما يطنب على دمشق ، يصف محاسنها ، فما انفصل عني إلا وقد امتلأ خاطري من شكلها ، فأتمنى أن أحل مواطنها ، إلى أن أبلغ الأمل قبل المنون »[٧٧] أما من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، فقد توفرت لمدينة دمشق ظروفا مواتية إلى حد جعلها مميزة بشكل ظاهر عن بقية المدن الشامية الأخرى ، وبالتالي لم تكن هذه الظروف مرحلية أو مؤقتة ، بل اتخذت صفة الاستمرار والديمومة . فقد وجد فيها الأندلسيون بقعة تعج بالخيرات والأرزاق ، فعلى صعيد الزراعة يلاحظ أنها كانت على درجة كبيرة من الأهمية لغزارة انتاجها ووفرة أرزاقها . وهذا الأمر لا يدعو للدهشة ، حيث وجدت الأرض الخصبة والمياه الوافرة . وعلى صعيد التجارة ، كانت دمشق مركزاً تجارياً كبيراً وهاماً ، أمها التجار عن جميع الأقطار ، أضف إلى ذلك عراقة أهلها واشتغالهم بهذه الحرفة منذ أقدم العصور . ولعل الذي شجع على تنشيط حركة التجارة في فترة هذا البحث أنها أصبحت (أي دمشق) مجمعاً لعدد كبير من البشر ، فرضته ظروف سياسية واجتماعية وعلمية وعسكرية . وكذا الحال بالنسبة للصناعة فقد عرفت هذه المدينة بصناعاتها التي عمت شهرتها العالم الاسلامي آنذاك . وقد كتب عنها الكثيرون ، فابرزوا من خلال كتاباتهم وضع دمشق الاقتصادي المتين . لعل أهم ما كتب

---

٧٦ ــ البدري ــ نزهة الانام في محاسن الشام ط مصر ١٣٤١ هـ ص ٧٠ ــ ٧١ .

٧٧ ــ لسان الدين بن الخطيب ــ الاحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ت محمد عبد الله عنان ط القاهرة ١٩٥٥ ص

عنها، هو الرحالة الأندلسي ابن جبير، كونه زارها، ومكث فيها فترة لابأس بها اطلع خلالها على كل شيء تقريباً بصورة عملية يقول عنها في مستهل حديثه: «جنة المشرق ــ مطلع حسنة المؤنق... ولله صدق القائلين عنها: ان كانت الجنة في الأرض، فدمشق لا شك فيها، وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها»[٧٨] وقد فضلها على جميع المدن الشامية بشكل واضح بقوله: «... وهذه البلاد المشرقية على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة (أي دمشق) أكثر والاتساع أجود...»[٧٩]. ولم يكن ابن جبير وحده هو الذي عني باظهار محاسنها وأهليتها من ناحية اقتصادية. فقد قال عنها صاحب معجم البلدان ياقوت الحموي: «وجملة الأمر أنه لم توصف الجنة بشيء إلا في دمشق مثله، ومن المحال أن يطلب بها شيء من جليل أغراض الدنيا ودقيقها، إلا وهو فيها أوجد من جميع البلاد...»[٨٠] وهذا ما جعل أهلها وساكنيها يعيشون حالة رخاء ورفاه، دون معاناة من فقر أو حاجة أو أي شيء من هذا القبيل. يقول صاحب الروض المعطار حول ذلك، وربما تأثر بما كتبه ابن جبير عنها: «... وأهلها في خصب ابدا، وهي أعز البلاد الشامية وأكملها حسناً»[٨١]. إضافة إلى كل ما تقدم فان أهل دمشق امتازوا بحسن معاملتهم واستقبالهم للغرباء، وخاصة الذين كانوا يفدون من الأندلس، مثال ذلك ما حدث لابن بطوطة الذي زار دمشق في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، حيث وقعت له خلال اقامته فيها، صحبة بينه وبين نور الدين السخاوي مدرس المالكية، ويروى أنه بقي في ضيافته أربعة أيام، وحدث أن ترك بيته دون أن يعلمه، فبادر السخاوي المذكور بالبحث عنه حتى التقى به، فلامه على فعله وقال له: «أحسب داري كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك» وكان في هذه الاثناء قد اعترى ابن بطوطة مرض مفاجىء، فقام السخاوي باحضار طبيب له، وضع الدواء له وهو في البيت، وعندما غادره زوده بالمال من أجل النفقة بعد أن كان قد نفد ما معه[٨٢] وقد صور ابن بطوطة حال دمشق بصورة عامة أحسن تصوير، حيث تتوفر فيها جميع مصادر العيش الكريم، ففيها فرص لكل العاملين على مختلف الوجوه يقول: «... وكل من انقطع بجهة من

٧٨ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥.

٧٩ ــ المصدر السابق ص ٢٥٨.

٨٠ ــ معجم البلدان مجلد ٢ ط بيروت ١٩٥٦ ص ٤٦٥ مادة دمشق.

٨١ ــ الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٢٤٠.

٨٢ ــ رحلة ابن بطوطة ص ١٠٥.

جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش من إمامة مسجد أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يجيىء إليه فيه رزقه أو قراءة قرآن .. أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة، فمن كان بها غريباً على خير، لم يزل مصوناً عن بذل وجهه يزرى بالمروءة، ومن كان من أهل المهنة والخدمة قله أسباب أخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة ...»[٨٣]. ومن الذين لمسوا عن قرب ازدهار دمشق على الصعيد الاقتصادي الحسن بن أحمد الاربلي الشافعي، الذي قال عنها واصفاً حالتها الاقتصادية العامة: «اني حين وردت دمشق المحروسة وطال مقامي بها، شاهدت بلداً كثير المحاسن، كامل الأوصاف، قريبا من الاعتدال، يجد الانسان فيه كل ما يحتاج إليه في انتظام مصالحه لسهولة موجودة ..»[٨٤].

وهكذا فإن جميع العوامل الجاذبة التي ذكرت ساعدت الأندلسيين وأثرت بهم بشكل جعلهم يقبلون على الشام بصورة مستمرة. لكن هذه العوامل لم تتساو على صعيد التأثير فيما بينها، انما تفاوتت وتباينت من هذه الناحية، حتى غدا بعضها أشد عمقاً وخلوداً من بعضها الآخر، مثال ذلك العوامل الاقتصادية، التي لا يمكن أن تقارن بالعوامل الطبيعية أو السياسية. حيث أن العوامل الاقتصادية يمكن وضعها في المقدمة من حيث التأثير بدون منازع. ودليل ذلك أنه لولا ندرتها حتى أصبح الحصول عليها من أعز المطالب واصعبها منالا، بعد ما حل بالأندلس من عدم استقرار من جراء تعاقب الدول وأنظمة الحكم، وأخيراً ما جرى على الأندلسيين بفعل المد العسكري الاسباني وما خلفه من نتائج، لولا هذا لما هاجر الأندلسيون إلى الشام بقصد الاستقرار فيها، حيث تكون البديل الجديد عن الوطن الضائع، يجدون فيها الرزق ووسائل العيش، ولعل بعضهم يقول بأن العوامل السياسية هي الأهم في هذا الصدد. وواقع الحال أن أمراً كهذا لا يصح إلا على صعيد الأندلس فقط أما على صعيد الشام، فإنه يبدو قولا ساذجاً جداً، لأنه لو افترضنا أن الوحدة السياسية بقيت قوية في الأندلس، فهل من المعقول أن يكون حدث ما حدث؟ ويتلخص الجواب على هذا السؤال، بأنه لا يمكن ذلك بالشكل الذي بدا أمامي من خلال تعرضي لهذا البحث. وما يصحُّ على صعيد الشام لا يصح على صعيد الأندلس أبدا، لأنه مهما كانت السلطة موالية في بلاد الشام للأندلسيين، تبقى الأهداف الاقتصادية هي المحرك الأول، والتي تؤخذ بعين الاعتبار بالدرجة الأولى بالنسبة للأندلسيين أنفسهم. فلولاها لما جاؤا إلى الشام واستقروا فيها،

---

٨٣ ــ المصدر السابق ص ١٠٥.

٨٤ ــ الاربلي ــ مدارس دمشق وحماماتها ت محمد أحمد دهمان ط دمشق ١٩٤٧ ص ١٠.

وتركوا الأندلس التي لا تقل عنها ثروة وغنى، إذ لم تفقها في بعض الأحيان. وما يجعل هذا الكلام مقبولا أنني لا أرى مفراً منه.

ومن الاستشهاد بوضع مدينة دمشق الاقتصادي الجيد، والذي أثر على حركة المغاربة وتوزعهم الطبوغرافي في هذه الفترة، يمكن القول بشيء من الحذر البسيط إن من سكن دمشق منهم، يساوي تقريباً ما سكن في المدن الشامية الأخرى مجتمعة. فلماذا حدث ذلك؟ أليس سببه توافر ووجود وسائل العيش في دمشق أكثر من غيرها؟ ومهما يكن من أمر فإن جميع العوامل التي ذكرت، سواء منها التي أسميتها عوامل الجذب أو تلك التي أسميتها عوامل الطرد، قد تضافرت وتعاونت فيما بينها، فشكلت مخاضاً طويلاً كانت نتيجته، أن حل في بلاد الشام جالية أندلسية مغربية، وجدت فيها وبحكامها وبأهلها البديل، الذي عوض عن خسارة الأرض والوطن وبنسبة عالية.

الفصل الثالث

طرق المواصلات بين الشام والأندلس وعلاقتها بالحج

يمكن القول في هذا المجال، أنه كانت هناك طريقان تصلان ما بين الشام والأندلس، أولهما الطريق البحري وهو الطريق الرئيسي والأهم، وثانيهما الطريق البري. وأما بخصوص الطريق الأول، الذي يصل السواحل الشامية بالأندلسية، فقد كان معروفاً منذ فترة مبكرة، فكان يشهد تحركات بين الساحلين قبيل الفتح العربي الاسلامي للأندلس، فهو الطريق نفسه، الذي سلكه القائد الروماني أشبان بن طيطش لدى خروجه من اشبيلية لمهاجمة بيت المقدس، ونهب كثير من آثاره ومحتوياته[1]. أما بعد ظهور الاسلام، فإن أهمية سواحل الشام، ازدادت بشكل مطرد بحيث تناسب مع تطور وطموحات الدولة العربية الاسلامية. وكان في مقدمة هذه الطموحات من حيث الأهمية، ضرورة السيطرة على أقطار بلاد الشام، على اعتبار أن سكانها من القبائل العربية، التي ينبغي إلحاقها بركب أخواتها العربيات من القبائل التي اعتنقت الدين الجديد، يضاف إلى ذلك حاجة المسلمين الماسة والملحة، لامتلاك قواعد عسكرية جديدة في الجانب الغربي والشمالي الغربي للدولة العربية الاسلامية، وذلك لجعلها مراكز وأمكنة انطلاق الجيوش العربية إلى الغرب. والذي زاد من أهمية السواحل

١ ـــ نفح الطيب ج ١ ص ١٣٥.

الشامية أيضاً وبشكل مميز، حاجة العرب المسلمين لقواعد بحرية تساعدهم على فتح مصر وما يليها من الغرب. وقد ترجمت هذه الأهمية إلى واقع محسوس في زمن الدولة الأموية، وبرزت السواحل الفلسطينية بشكل خاص، وذلك ربما لأنها قريبة من حاضرة الدولة (دمشق)، التي غدت بمنزلة خط الدفاع الأول عن حاضرة الخلافة، كما أنها أصبحت قاعدة رئيسية لترتيب وتجهيز الفيالق العربية المقاتلة، للانطلاق إلى حيث تدعو الضرورة، وخاصة إلى جهة الغرب. لذلك واعتمادا على ما تقدم، فانه ليس من الغريب أبدا أن نرى سواحل الشام، وخاصة منها السواحل الفلسطينية، تشهد حركة دائبة للسفن الرائحة والغادية، تنقل المسلمين وغير المسلمين، من الأطراف الغربية والشمالية الغربية للدولة العربية الاسلامية، وتنقل الجنود والتجار إلى تلك الأطراف. فمن هذه السواحل كان انطلاق عمرو بن العاص لفتح مصر[٢]. وقد توجت أهمية سواحل فلسطين ووصلت إلى القمة، منذ افتتاح الأندلس سنة ٩٢ هـ ــ ٧١١ م، ذلك لأن فلسطين هي نقطة متوسطة، تصل ما بين عاصمة الدولة العربية الأموية والبلدان المفتوحة، مما جعلها ممراً حيوياً لا بد منه لقربه من العاصمة، بالنسبة للراحلين إلى الأندلس والقادمين منها[٣] وكدليل على هذا الواقع، فان موسى بن نصير، عندما طلب منه الحضور إلى دمشق بأمر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، مر في فلسطين بطريقه إلى دمشق[٤] وأيضاً ومن فلسطين توجه عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ هـ ــ ٧٥٦ م[٥]. ولم تتأثر أهمية السواحل الشامية في زمن حكم العباسيين، بالرغم من بعد عاصمتهم عنها، فقد ظلت البحرية العربية، تتسم بالحيوية والنشاط، لاهتمامهم بالتجارة. ووصلت السفن الملاحية في عهدهم حتى مضيق جبل طارق، وظهرت مدينة صور كقاعدة بحرية هامة، حيث تمركز فيها الأسطول، خشية العباسيين من الهجمات البيزنطية[٦]. وإنه لمن المهم هنا أن تصنف المراسي البحرية الشامية بحسب موقعها والأهمية التي تحتلها على صعيد الاتصال بين الشام والأندلس. فتأتي بالدرجة الأولى مدينة عكا، كأهم قاعدة بحرية على الساحل الشامي بالنسبة للاندلسيين والمغاربة، فهي كما ذكرت قبل

---

٢ ــ ابن عبد الحكم ــ فتوح مصر والمغرب ج ١ ط ليدن ١٩٢٠ ص ٨٢.

٣ ــ ابن القوطية ــ تاريخ افتتاح الأندلس ت عبد الله أنيس الطباع ط بيروت ١٩٥٧ ص ١٥٧ فتوح مصر والمغرب ص ٢٧٦.

٤ ــ البيان المغرب ج ٢ ص ١٩.

٥ ــ تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧.

٦ ــ البلاذري ــ فتوح البلدان ط ١ القاهرة ١٩٠١.

قليل قريبة من دمشق التي كانت عاصمة الدولة الأموية، وولاية هامة في زمن العباسيين وغيرهم كالايوبيين والمماليك، وهي قريبة أيضاً من مدينة بيت المقدس، التي تحتل مكانة مرموقة عند المسلمين من الناحية الدينية: فمنذ الفترة الأولى لحكم الأمويين، يجعلها معاوية ابن أبي سفيان دارا لصناعة السفن، وفيها بنى أسطوله الذي استخدمه في كثير من العمليات الحربية ضد البيزنطيين(٧). وظلت هكذا طيلة فترة الحكم الأموي، لتتطور في العهد العباسي، عندما بنى فيها أحمد بن طولون استحكامات قوية سنة ٢٥٤هـ ــ ٨٦٨م، لدى توليه السلطنة في مصر. وقد جاءت مدينة عسقلان بالدرجة الثانية بعد مدينة عكا، كمرفأ هام لاستقبال الأندلسيين الوافدين من المغرب. وقد تطورت البحرية العربية في زمن الفاطميين بشكل فاق جميع العهود السابقة، حتى أصبحوا سادة الدول البحرية في البحر الأبيض المتوسط. فكانت لهم عدة أساطيل، أسطول مصر وبرقة، والأسطول الشامي الذي تتبعه دور صناعة اللاذقية وصور عكا(٨) وبصورة عامة فإن الساحل الشامي وخاصة ساحل فلسطين شهد حركة نشطة سواء من الأندلس إلى الشام أو بالعكس، وبقيت مدينة عكا على وجه الخصوص، أهم قواعده على الاطلاق بالنسبة للأندلسيين والمغاربة، إذا ما استثنيت فترة الاحتلال الصليبي للساحل الشامي وسيطرتهم عليه بشكل محكم منذ نهاية القرن الخامس الهجري، ونهاية القرن السابع الهجري. ولم يكن الأمر يقتصر على بلاد الشام من حيث امتلاك الأساطيل، بل شمل ذلك الأندلسيين أنفسهم، لتأمين الاتصال مع المشرق وغيره، لحاجات تجارية وأخرى عسكرية، إضافة إلى تأمين قدوم الأندلسيين إلى الحج، الذي لا يستبعد أنه كان من الأسباب الرئيسية التي حدت بالأندلسيين لامتلاك الأساطيل البحرية. وقد اتخذ الطريق البحري، أهمية بالغة في عمليات الاتصال بين المشرق والمغرب، كونه الوسيلة الأسرع والمختصرة، من أجل الوصول من الأندلس إلى الشام وبالعكس. ويمكن أن أصنف هذا الطريق إلى فرعين معروفين. الأول وهو الرئيسي، يصل ما بين سواحل الأندلس والاسكندرية ماراً بسواحل الشام. وخير من وصف هذا الطريق بتفصيل دقيق هو الرحالة الأندلسي ابن جبير عندما زار المشرق في الربع الأخير من القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي. فقد انطلق من مدينة سبتة محاذيا لبر المدن الأندلسية، كالقة والمنكب والمرية وقرطاجنة الحلفاء ولقنت ودانيا، ماراً بجزر يابسة وميورقة ومنورقة وسردانية وصقلية،

٧ ــ أنور عبد العظيم ــ الملاحة وعلوم البحار ط الكويت ١٩٧٩ ص ٨٩.

٨ ــ الملاحة وعلوم البحار ــ ص ١٠٤.

ومنها إلى كريت ومن ثم الاسكندرية[٩] . وفي كثير من الأحيان ، كانت السفن القادمة من الأندلس لا تصل إلى الاسكندرية ، انما تعرج إلى الشواطىء الشامية ، وخاصة إلى ساحل عكا . والجديد هنا ، أن السفن والمراكب البحرية ، كانت تسلك الطريق نفسه ، لكنها عندما تصل إلى جزيرة كريت ، تتجه إلى جزيرة قبرص ، ومن ثم إلى السواحل الشامية . فقد أورد محمد بن عبد الملك المراكشي صاحب كتاب الذيل والتكملة تفاصيل وافية عن هذا الطريق ، عندما كان في صدد ترجمة محمد بن عبد الملك الباجي الاشبيلي . فقد أقلع المركب الذي يحمل هذا الأخير من ميناء سبتة إلى مالقة ، فالمنكب فالمرية فقرطاجنة إلى لقنت ومنها إلى جزيرة يابسة فميورقة إلى سردينية ، ومنها إلى صقلية ، وأقلع منها إلى كريت فقبرص فمدينة عكا[١٠] وثمة طريق بحري آخر كان يحاذي القسم الشمالي لإفريقية بين طنجة والاسكندرية كانت تسلكه السفن التجارية المصرية أو الزيرية أو الصقلية أو الأندلسية ، منذ أن سيطرت بيزنطة على كل من جزيرتي كريت وقبرص[١١] وربما كان هذا الطريق أقل خطراً من الطريق المذكور آنفاً ، وخاصة من الناحية الطبيعية . وبمقارنة بسيطة بين هذين الطريقين البحريين ، يظهر بوضوح ، أن الطريق الأول أصعب بكثير من الثاني ، فهو محفوف بالمخاطر والمحاذير ، وخاصة شاطىء جزيرة سردينية ، فهو كما يقول ابن جبير : «.. أصعب ما في الطريق ، والخروج منه يتعذر في أكثر الأحيان»[١٢] يضاف إلى ذلك ، فإنه طويل جداً ، بالقياس على الطريق الثاني ، والذي من مميزاته ، أنه قصير ومأمون من الكوارث الطبيعية وعمليات القرصنة . وربما أصبح في الفترة التي تلت نهاية النصف الأول من القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، هو الطريق الرئيسي ، الذي تسلكه القوافل البحرية ما بين المشرق والمغرب . وذلك بعد أن سقطت معاقل العرب والاسلام في الأندلس بأيدي الأسبان ، أعني بالنسبة للعرب المسلمين ، وخاصة منهم الحجاج ، وتلك الفئة التي وفدت إلى المشرق بقصد الاستيطان ، أو لإنجاز أعمال أخرى . أما بالنسبة لبقية الشعوب الأخرى ، الذي لا يستبعد أن يكون منهم عرب غرناطة ، فإن الطريق الأول ، ظل حيوياً ومتبعاً كمعبر رئيسي بين الشرق

٩ ــ رحلة ابن جبير ص ٨ وما بعدها .

١٠ ــ الذيل والتكملة ــ سفره ق ٢ ص ٦٨٩ ــ ٦٩٠ .

١١ ــ الملاحة وعلوم البحار ص ٧٦ ــ العبادي+عبد العزيز سالم . تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ط بيروت ١٩٧٢ ص ١٧٧ .

١٢ ــ رحلة ابن جبير ص ١٠ .

والغرب ، خاصة وأن عمليات وشؤون التجارة نشطت بشكل فعال بين الصقعين أكثر من ذي قبل . ولكن بالرغم من صعوبة وتعدد مخاطر الطريق الأول ، فانه بقي بالنسبة للأندلسيين ممراً رئيسياً لا بد من سلوكه ، وذلك خلال الفترة التي حكم فيها الأمويون في الأندلس ، لأن العلاقات بينها وبين دول المغرب العربي ، لم تكن تدعو إلى الطمأنينة لكثرة الدويلات ، التي عرفتها أرض المغرب ، سواء منها التي أقيمت بمساعدة العباسيين ، أو تلك التي أقيمت قسراً عنهم ، لتزداد موجة القلق والحذر بالنسبة للأمويين بشكل لا مثيل له عندما ظهر الفاطميون في نهاية القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي . ويبدو واضحاً أن الكثيرين من الأندلسيين والمغاربة ، سواء منهم الحجاج أو غيرهم ، كانوا يقصدون الاسكندرية ، ومنها يتوجهون إلى حيث يشاؤون من أقطار المشرق العربي ، التي منها بلاد الشام طبعاً ، وأضحى ذلك مميزاً بشكل أكثر في الفترة التي تلت الاحتلال الصليبي لمعظم المدن الساحلية الشامية ، وهذا ما نتج عنه عزوف الكثيرين من أصحاب السفن عن ارتياد الساحل الشامي ، وان لم يكن هذا العزوف بشكل كلي ، فقد ساعد على عدم القطيعة النهائية عن ارتياد هذا الساحل ، ظهور أساطيل بحرية غير عربية ، أخذت على عاتقها تأمين عمليات النقل بين الشرق والغرب . وخير دليل على ذلك ، أن ابن جبير عاد إلى الأندلس عن طريق مدينة عكا بعد أن أنهى رحلته المعروفة ، في الوقت الذي كانت فيه قوات الصليبيين تسيطر عليها[١٣] . والذي يمكن قوله أيضاً ، أنه قبل الاحتلال الصليبي للسواحل الشامية ، كانت قوافل الحجاج القادمة من الأندلس ، تتجه إلى الاسكندرية في غالب الأحيان لتتابع إلى الأراضي المقدسة بقصد الحج ، لكن هذه القاعدة بالرغم من ذلك لم تكن مطلقة وثابتة ، لأنه يرى في المقابل أن الكثير من الحجاج الأندلسيين والمغاربة ، كانوا يستهلون حجهم بزيارة مدينة بيت المقدس ، فيأتون من الاسكندرية عبر الصحراء وعن طريق مدينة غزة ، كما فعل الرحالة البلوي ومعه مجموعة من الحجاج ، حيث زاروا مدينة بيت المقدس ، وسافروا إلى تأدية فريضة الحج مع الركب الشامي ، الذين انضموا إليه في مدينة الكرك الأردنية في سنة ٧٣٧ هـ ــ ١٣٣٣ م[١٤] وعاد عن طريق العقبة مرة أخرى إلى فلسطين[١٥] أما الطريق البري فلم يكن نشطا ، كما هو الحال بالنسبة للطريق البحري ، وذلك للصعوبات التي تكتنفه

---

١٣ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٨٤ .

١٤ ــ البلوي ــ تاج المفرق في تحلية علماء المشرق . مخطوط الظاهرية ص ٩٤ ــ ١٢٨ ــ ١٢٩ .

١٥ ــ المصدر السابق ص ١٣٠ .

من جهة ، وطول مسافته من جهة أخرى . وهو الطريق نفسه الذي سلكه ، ابن بطوطة وغيره من الرحالة العرب ، فقد كان المسافرون من أقطار المغرب العربي باتجاه الشرق ، يسايرون الساحل العربي المغربي ، فيمرون بالمدن التي تقع على هذا الساحل ، أو تلك التي تجاوره . فقد انطلق الرحالة ابن بطوطة من مدينة طنجة بالمغرب الأقصى ، فمر بمدينة تلمسان ومليانة والجزائر وبجاية وقسنطينة وبونة ، ومنها إلى مدينة تونس فصفاقص فقابس ، ومنها إلى طرابلس الغرب ثم إلى الاسكندرية[١٦] وفي غالب الأحيان ، كان هؤلاء القادمون من المغرب يتوجهون بحراً من طرابلس إلى الاسكندرية[١٧] وأحياناً أخرى يتوجهون من تونس ، كما فعل البلوي الرحالة في القرن الثامن الهجري وغيره فيما بعد كالقلصادي[١٨] وبعد أن يصلوا إلى الاسكندرية ، كانوا يتوجهون إلى الشام عن طريق مدينة غزة كما ذكرت آنفاً ، لأنها على ما يبدو ، كانت المفتاح الأساسي لكثير من الأندلسيين وغيرهم ، الذين وفدوا الشام ، وإن كانت هناك مفاتيح أخرى ، مثال تبوك ، التي تؤدي إلى الأردن ، وهي الطريق التي كان يسلكها الحجاج الشاميون ، الذين كان يرافقهم الحجاج الأندلسيون والمغاربة ، كما يفهم من أقوال الرحالة المغاربة أنفسهم يقول العبدري : «وكان الركب رحل من المدينة على طريق المعلى إلى تبوك ، وصحبه أكثر المغاربة حرصاً منهم على تقريب المسافة إلى الشام ، لأنها أقرب من طريق البرية بكثير ، ولكنها شاقة قليلة الماء جداً ، وردها على سبعة أيام ، فحملهم الكسل والحين المقدر إلى سلوكها مع ضعفهم وتهتك قواهم ، فوقع عليهم الثلج وهم بالقرب من معان ، فأفنى خلقاً منهم كثيراً ، وذكر بعض من حضر ذلك ، أنه أحصى منهم ألف وسبعمائة»[١٩] أما القادمون من مصر من المغاربة وغيرهم ، فكان طريقهم محدداً ، يخترق الصحراء أو ما يسمونه الرمل ، إذ كانت آخر مدن العمران من مصر الصالحية ، وبعدها يدخلون الصحراء وقد وصف ابن بطوطة ، هذه الطريق بقوله : «ومن الصالحية دخلنا الرمال ، ونزلنا منازل مثل السوادة والواردة والمطيلب والعريش والخردية ، بكل منزل منها فندق ، يسمونه الخان ومن منازلهم قطيا المشهورة ، وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ،

---

١٦ ــ رحلة ابن بطوطة ص ١٤ وما بعدها . الرحلة المغربية ص ٢٤ ــ ٢٦ ــ ٤٢ ــ ٦٤ ــ ٩١ ــ ٩٢ .

١٧ ــ رحلة ابن بطوطة ص ٢٠ .

١٨ ــ رحلة البلوي ص ٥١ القلصادي ــ الرحلة ت محمد أبو الاجفان الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٨ ص ١٢٢ ــ ١٢٣ .

١٩ ــ الرحلة المغربية ص ٢٢٠ ــ ٢٢١ ــ رحلة البلوي ص ١٣٠ ابن رشيد ــ ملء العيبة في ما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة والطيبة ومخطوط الأسكوريال ــ القسم الخامس رقم ١٦٨٠ ورقة ٤ ــ ٦ .

ويبحث عما لديهم أشد البحث ، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام احتياطا على أموال الناس ... وكان بها في عهد وصولي إليها عز الدين استاذ الدار قماري من خيار الأمراء ، أضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معي ، وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف ، وهو يعرف المغاربة وبلادهم ، فيسأل من ورد منهم من أي البلاد هو لئلا يلبس عليهم ، فإن المغاربة لا يعترضون جوازهم على قطيا »[٢٠] وهكذا وبعد هذا العرض لأهم طرق المواصلات بين شطري الوطن العربي في القرون الوسطى ، فاني أرى أن من الضروري القاء بعض الضوء على المصاعب والعقبات التي كانت تصادف المسافرين من المغرب إلى المشرق وبالعكس ، وخاصة الطريق البحرية ، لذلك فان الذي يمكن قوله ، أن عمليات الانتقال في البحر بين الشام والأندلس ، لم تكن من الأمور السهلة الممتعة كما يتصورها المرء للوهلة الأولى . فقد كانت محفوفة بالمخاطر ، مليئة بالمصاعب والمشقات . ويأتي في مقدمة هذه المصاعب اشتداد الرياح حينا وسكونها حينا آخر . فسكونها يعني التباطؤ بالمسير ، وبالتالي القاء عبء جديد على بحارة السفينة ، وخاصة منهم أولئك ، الذين يقومون بمهمة التجديف لتحريكها باتجاه الهدف أو البلد المراد الوصول إليه . وعلى العكس تماماً فان اشتداد الرياح وخاصة باتجاه الهدف ، يعني تخفيف العبء عن البحارة بشكل كبير ، ومن ثم زيادة سرعتها والوصول بأقصر سرعة ممكنة . وخير من صور هذا الواقع الرحالة الأندلسي ابن جبير ، عندما وصلت به السفينة التي تقله إلى المشرق ، إلى محاذاة برصقلية ، حيث توقفت الرياح فجأة وسكنت ، مما اضطرهم للتردد حذاء هذا البر فترة أطول مما لو استمرت الرياح بالهبوب[٢١] والشي البارز هنا ، يتجلى بأن الرياح الغربية أي تلك التي تهب من جهة الغرب ، كانت أكثر ديمومة واستمراراً وفعالية من تلك التي تهب من جهة الشرق ، والتي تعرف عادة بالرياح الشرقية ، لسبب أثبتته التجارب العلمية . ويتجسد بالحقيقة المعروفة والتي مفادها ، أن الرياح تهب من منطقة الضغط المرتفع إلى منطقة الضغط المنخفض ، أي من المناطق الباردة الرطبة إلى المناطق الحارة والجافة . لذلك يلاحظ أن الانطلاق من الغرب باتجاه الشرق ، كان أيسر بكثير من الانطلاق من الشرق إلى الغرب . يظهر ذلك بوضوح من خلال الفترة الزمنية التي كانت تستغرقها الرحلة بين الأندلس والاسكندرية أو الساحل الشامي . فقد بقي ابن جبير على ظهر السفينة في عكا اثنى عشر يوماً كاملاً ، لأن الرياح

---

٢٠ ــ رحلة ابن بطوطة ص ٥٦ ــ ٦١ .

٢١ ــ رحلة ابن جبير ص ١١ .

الشرقية لا تهب فيها إلا في فصلي الربيع والخريف ، والسفر لا يكون إلا في هذين الفصلين ، وكثيراً ما كان التجار ينتهزون هذه الفرصة للابحار ببضائعهم من عكا باتجاه الغرب . ولم تكن الرياح الشرقية متساوية الهبوب في هذين الفصلين ، إنما تطول في الفصل الربيعي ، وتمتد فترة لابأس بها ، تبدأ من منتصف شهر نيسان ، وتنتهي في أواخر تموز ، وأما في الفترة الخريفية فتكون قصيرة جداً ، تقل وتكثر عن خمسة عشر يوماً يقول ابن جبير : « فالمسافرون إلى المغرب وصقلية ، ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين ، انتظار وعد صادق .. »(٢٢) ومن المصاعب الأخرى ، التي كانت تسببها الرياح ، نتيجة التفاوت في قوة هبوبها وسرعته ، هي تأخير الرحلات زمناً طويلاً في عرض البحر . فقد ذكر ابن جبير ، أن الرياح الغربية كثيراً ما وقفت حائلاً في طريق مركبهم عندما كانوا بطريق العودة إلى الأندلس ، وكادت أن ترجع المركب على حد قوله(٢٣) لذلك فان رحلته استغرقت مدة شهرين تقريباً من مدينة عكا إلى جزيرة صقلية(٢٤) بينما لم تستغرق المسافة من سبته في الأندلس وحتى مدينة الاسكندرية في بداية رحلته إلى المشرق سوى ثلاثين يوماً(٢٥) وهذا يؤكد أن الرياح الهابة من جهة الغرب ، كانت أقوى بكثير من تلك التي تهب من الجهة الشرقية . وقد أدى هذا التباين في قوة الرياح واشتدادها ، أو بالأحرى عدم انتظامها إلى كوارث مأساوية ، ونتائج لم تكن في الحسبان . وان كنت لا أملك مثالاً يتعلق بالأندلسيين الذين وفدوا إلى المشرق ومنها الشام ، فإن من الممكن القول أن رحلاتهم لم تخل من بعض الكوارث ، التي كانت تحدث لغيرهم من عابري البحار . مثال ذلك ما ذكره لنا أبو الفدا صاحب كتاب « المختصر في أخبار البشر » وابن الوردي في كتابه « تتمة المختصر في أخبار البشر » ، أن أحد القادة الصليبيين ، لم يجد نفسه إلا وقد أصبح في ميناء عكا قبل أن تحتل من قبلهم ، بسبب جنوح مركبه بتأثير قوة الرياح(٢٦) ومثال آخر يذكره الحميدي في جذوة المقتبس أن مجاهد بن عبد الله العامري الملقب بأبي الجيش الموفق ، حاول احتلال جزيرة سردينية ، وبعد أن تمكن من احتلال جزر الباليار الحالية في شرق الأندلس ، دخل في مراكبه أحد مراسي سردينية ، ولما استقرت المراكب

---

٢٢ ــ المصدر السابق ص ٢٨٤ .

٢٣ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٨٥ .

٢٤ ــ المصدر السابق ص ٢٩٢ .

٢٥ ــ المصدر السابق ص ١٢ .

٢٦ ــ المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٧٢ ــ تتمة المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٤٧ .

في المرسى هبت ريح قوية ، أدت إلى قذف المراكب واحداً تلو الأخر إلى حيث الشاطىء ، مما ساعد أهل الجزيرة على أسر جميع من فيها تقريبا[27] ومهما يكن من أمر ، فإن من الجدير ذكره هنا ، أن الأندلسيين المغاربة ، كثيراً ما كانوا يدخلون إلى بلاد الشام من جهتين رئيسيتين هما الجنوبية وهي الطريق البرية ، التي دخلت عبرها الغالبية العظمى من المغاربة ، والغربية وهي الطريق البحرية ، التي مثلتها في أكثر الأحيان سواحل فلسطين ولبنان ، وإن كان الأمر لا يخلو من دخول أندلسيين مغاربة إلى الشام عن طريق الشرق والشمال ، لكن هذه الحالات كانت فردية لا يعول عليها كثيراً .

---

٢٧ ــ جذوة المقتبس ص ٣٣١ .

الباب الثاني

الفصل الأول

العلماء والاداريون
ورجال الاقتصاد والفن من الأندلسيين

آ ـ المقيمون

قبل الشروع في دراسة رجال العلم والإدارة من الأندلسيين، الذين استقروا في بلاد الشام خلال فترة هذا البحث، فإن من الضروري الإشارة إلى عدة ملاحظات على قدر كبير من الأهمية. تأتي في مقدمتها، أن الأندلسيين، الذين عرفتهم الشام خلال هذه الفترة، يختلفون كليا عن غيرهم، وأخص منهم بالذكر الذين جاؤا في الفترة المحصورة بين نهاية القرن الأول الهجري، السابع الميلادي، ونهاية القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي. حيث أن الغالبية العظمى من هؤلاء كان القصد من مجيئهم، الحصول على العلم واكتساب المعرفة، والعودة إلى حيث بلادهم. أما الآن فان الوضع قد تغير إلى عملية عكسية تماماً، تجلت بأنهم أصبحوا مصدراً للعطاء، والتصدي لمهمات عالية المستوى في مجالات عديدة، فكثيراً ما كانوا مثار اعجاب وتقدير واحترام، لما قاموا به من خدمات سامية للعلم، تدل عليهم آثارهم العظيمة وأعمالهم الخالدة، التي لم تخل منها فترة من فترات تاريخ بلاد الشام العلمي على مدى أربعة قرون متوالية، وهذا ما سيظهر واضحاً في الصفحات التالية من هذا البحث.

أما الملاحظة الثانية التي لا بد من ذكرها أيضاً، فتتجلى بأن الكثيرين منهم تحولوا عن

مذهب المالكية إلى مذهب الشافعية والحنفية بشكل خاص. الأمر الذي سيظهر بجلاء من خلال تراجمهم التالية. وهذه الظاهرة تبدو غريبة ومثيرة للتساؤل للوهلة الأولى، وذلك انطلاقاً من تمسك أهل الأندلس بمذهب مالك بشكل يصعب فيه تحويلهم عنه فيما لو قدر للأندلس أن تبقى كما كانت تحت الحكم العربي. وقد عرفت عنهم مواقف تدلل على مدى تشددهم وتمسكهم بتعاليم المذهب المالكي. من هذه المواقف، ما يذكره المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) بأن الأندلسيين لا يعرفون إلا كتاب الله وموطأ مالك، فان علموا بوجود حنفي أو شافعي نفوه من بلادهم، وكذا الأمر بالنسبة لمعتنقي المذاهب الأخرى. ويذكر حادثة وقعت معه شخصياً بقوله: «وبسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي.. وكنت يوماً أذاكر بعضهم في مسألة، فذكرت قول الشافعي، فقال: اسكت من هو الشافعي؟ انما كانا بحرين أبو حنيفة لأهل المشرق ومالك لأهل المغرب، افنتركهما ونشتغل بالساقية؟ ورأيت أهل المغرب يبغضون الشافعي، قالوا: أخذ العلم عن مالك ثم خالفه...»[1]، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، يتجلى بأنه، إذا كانت هذه حال أهل الأندلس على الصعيد المذهبي، فما السبب الذي أثر على معظمهم للتحول عن هذا المذهب إلى مذاهب أخرى كالشافعية بشكل خاص، الذي لا يكون في نظرهم أكثر من فرع أو ساقية لا أهمية لها البتة؟ وللاجابة على هذا السؤال، يمكنني القول، بأني لا أكون مجانبا للحقيقة، أو بالأحرى مبتعداً عنها كثيراً، إذا ما أرجعت سبب هذه الظاهرة إلى مشاكل اقتصادية بحتة، تتمثل بحاجة الأندلسيين إلى العمل من أجل توفير عيش كريم في الوطن الجديد (بلاد الشام، وبوجه خاص الفئة المشتغلة في ميدان العلوم لأن الوضع بالشام، كان يختلف عما هو في الأندلس، حيث أن المدارس والمؤسسات العلمية وما شابه ذلك، كانت تشاد باسم مذهب من المذاهب، فقد عرفت مدارس كثيرة اختصت بالتدريس على المذهب الشافعي، ومدارس للحنفية وأخرى للحنبلية، وتبع هذا الوضع أنظمة وقوانين خاصة في كل فئة من هذه المدارس، مثال ذلك أن من يود التدريس في إحدى مدارس الشافعية يجب أن يكون عارفا ومتفقها بهذا المذهب، وكذا الحال بالنسبة لمدارس المذاهب الأخرى. أمام هذا الوضع الشاذ، وجد الأندلسيون أنهم أمام خيارين لا ثالث لهما، أما البقاء على المذهب المالكي، مذهبهم الأصلي، الذي يعني عدم الحصول على وظيفة مرموقة،

---

١ ــ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٣٢.

في الوقت الذي لا تستطيع فيه مدارس المالكية استيعاب جميع العاملين بالشؤون العلمية والدينية ، وبالتالي تكون حصيلة هذه المعادلة بالنسبة للأندلسيين ، زيادة في فقرهم وفاقتهم وتفاقماً لمشاكلهم . وأما الخيار الثاني فكان التحول إلى مذهب الشافعية أو الحنفية تمشياً مع الوضع السائد في بلاد الشام ، فكان خياراً موفقاً وسليماً بحيث تمكن عديدون من أهل الأندلس من التوصل إلى إدارة أكبر المراكز العلمية والتدريس فيها ، على قدم المساواة مع علماء البلاد الأصليين . وبذلك تكون الحاجة المادية التي غدت ضرورة لا بد منها ، هي التي حركت فيهم ذلك النزوع إلى التحول عن المذهب المالكي إلى مذاهب أخرى . ولعل قائلاً يقول : بأن هذا التحول ربما يعود إلى قناعة شخصية ورغبة طوعية ، لا يراد من ورائها تحقيق مكاسب مادية أو أي شيء من هذا القبيل . واقع الحال أن قولا كهذا ، لا يخلو من سذاجة وسطحية ، إذا ما أخذ بعين الاعتبار تمسك أهل الأندلس بمذهبهم بشكل مميز وملحوظ . وقضية القناعة في مشكلة كهذه ، لا قيمة لها إذا عُريت عن الهدف المنشود من ورائها . لذلك فليس أجدر من القول في صددها ، إن الأندلسيين الذين تحولوا عن مذهب المالكية ، أجادوا التكتيك والمناورة ، فوصلوا إلى الأهداف التي أرادوها ، دون أن يتعرضوا للدين بضرر أو نقصان . أما الملاحظة الثالثة ، فهي لا تنطبق على فئة من الأندلسيين دون أخرى ، بل تتعلق بجميع هذه الفئات دون تفريق . وحقيقة وجودها ، لا تنبع من الأندلسيين أنفسهم ، بقدر ما تنبع من العلماء والمؤرخين ، الذين ترجموا أو كتبوا عن الجالية الأندلسية في بلاد الشام أو غيرها من الأقطار العربية الأخرى . وقد اعتاد هؤلاء أن يطلقوا كلمة (المغربي) على كل الذين جاؤا من الأندلس إلى الشام ، وقدر لهم أن يكونوا في عداد المؤرخ أو المترجم لهم . ويبدو أن هذه العادة ، كان قد درج عليها أهل الشام علماء أو غير علماء ، لذلك يجب أن لا يفهم من هذا اللقب (المغربي) أن أصل هؤلاء من المغرب العربي ، الذي يكون الآن كلا من المغرب العربي والجزائر وتونس . وان كان الأمر لا يخلو من هجرة بعض المغاربة إلى الشام . ومهما يكن من أمر ، فان جميع الذين جاؤا من الأندلس أو من أقطار المغرب العربي ، فقد عرفوا (بالمغاربة) بشكل عام بالنسبة للمشارقة على مختلف فئاتهم . وبعد هذه الملاحظات فاني سأقوم بتصنيف العلماء والاداريين الأندلسيين على فئات منطلقاً من الاختصاصات التي مارسوها واشتغلوا فيها ، وذلك بما أسعفتني المصادر والمراجع المختصة .

العلماء

ويمكن تقسيم رجال هذه الفئة إلى قسمين رئيسيين هما، رجال العلوم العقلية والتطبيقية، ورجال العلوم النظرية، والذي ينقسم كل قسم منها إلى فروع أخرى.

١ ـــ **رجال العلوم العقلية**. قدر لرجال هذه الفئة أن يشكلوا جالية قليلة جداً في بلاد الشام، إذا ما قورنت بالفئات الأخرى. وقد اقتصرت الاختصاصات التي عمل بها رجال هذه الفئة على صنف واحد هو علم الطب والصيدلة على وجه التقريب. ففي هذا الميدان، يمكن القول، أن الحال يختلف بشكل ظاهر وملموس، عما كان عليه بالنسبة للفئات الأخرى من الأندلسيين نزلاء الشام، وخاصة منهم رجال العلوم الدينية واللغوية وغيرها. ففي فترة حكم البوريين التي امتدت حتى نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي تقريباً، وفي عهد نور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي، يرى أن الأطباء الأندلسيين، لم يكونوا ملتزمين حق الالتزام بالورع والتقى، أو أمور التدين بشكل عام، وذلك بالمقارنة مع غيرهم ممن جاء من الأندلس. فقد جمع هؤلاء الرجال بين العلم الخالص، كالطب والصيدلة من جهة، وبين الفنون والموسيقى والخبرة بصناعة الآلات الموسيقية والعزف عليها، والشعر الماجن والهزلي من جهة أخرى. وهم بهذا الجمع يعكسون ذلك الانفصال الحاد بين حملة العلوم العربية من لغوية ودينية، وبين العلوم الفلسفية القديمة التي تضم في ثناياها العلوم الأخرى. وبالرغم من ذلك الوضع، فانه لا يؤثر عنهم أي إنجاز في المجالات الفلسفية القديمة التي تحاربها وترفضها جماعات الفقهاء، كالإلهيات أو الفلسفة البحتة. لكن تقريب الحكام الذين اتبعوا السياسة الشرعية، وحافظو على كل المظاهر التي تتطلبها، لهؤلاء لا يمكن تبريره فقط بابتعاد هؤلاء عما يحاربه الفقهاء من الفلسفة، وإنما بالحاجة الماسة إليهم، والتي أوجدتها ندرة المختصين في هذا المجال في بلاد الشام، يضاف إلى ذلك موجة الإعمار الواسعة التي عمت هذه البلاد بصورة عامة، ومدينة دمشق بصورة خاصة، والتي أصبحت منذ منتصف القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي قاعدة لدولة واسعة، بعد ان كانت ولاية تابعة لغيرها، كما أصبحت آمنة أكثر من ذي قبل من التخريب، وعدم الاستقرار ولفترات طويلة وقبل هذه الفترة، فإن عوامل عدم الاستقرار والمنازعات، أدت إلى فقر شديد في مجال الكوادر الطبية والعلمية بشكل عام. والدليل على ذلك، أن نسبة لابأس بها من الأطباء الذين عرفتهم هذه الفترة من الزمن، كانوا من أصل أندلسي. ومن الجدير بالذكر القول، أن الأطباء الأندلسيين، الذين وفدوا إلى الشام واستقروا

فيها ، أو حتى الذين لم يستقروا ، كان معظمهم جاهزاً للعمل في ميدان اختصاصه عشية وصوله إلى الشام ، وبالتالي فإن جزءاً كبيراً من المعلومات التي حصلوها ، كانت من الأندلس ، لأن هذه الأخيرة ، شكلت أحد القواعد العربية الاسلامية المتقدمة في ميدان علم الطب ، حيث ظهر فيها أطباء مشاهير ، أذكر منهم على سبيل المثال ابن زهر ، الذي ألف عدة كتب هامة ، ظلت معتمدة لفترة طويلة من الزمن ، منها كتاب (التيسير في المداواة والتدبير) وكتاب (الأغذية)(٢) . وقد قدر لمدينة دمشق أن تستقطب الغالبية العظمى من الأطباء الأندلسيين المغاربة الوافدين إلى الشام في مختلف الفترات ، التي تبدأ بفترة حكم البوريين وتنتهي بفترة حكم المماليك . وتبدأ سلسلة هؤلاء الأطباء بأبي الحكم تاج الحكماء عبد الله بن المظفر الباهلي ، وهو أندلسي ولد بالمرية Almeria في جنوبي الأندلس ، أو في مرسية Murcia بشرقي الأندلس سنة ٤٨٦ هـ ـــ ١٠٧٦ م ، قرأ بالأندلس وبصعيد مصر والاسكندرية ، وتبحّر في عدة فنون وعلوم ، إضافة إلى علم الطب ، الذي اشتهر به وأجاده أحسن إجادة . وقد اشتهر الطبيب الباهلي هذا أول مرة في مدينة بغداد ، كمعلم للصبيان . ولم يلبث أن أصبح طبيب البيمارستان ، الذي كان يحمل عقاقيره وأدواته في المعسكر السلطاني على أربعين جملاً(٣) ومن بغداد انتقل إلى مدينة دمشق ، في أثناء حكم البوريين فاستهوته الإقامة فيها بصورة دائمة ، حتى كانت وفاته في سنة ٥٤٩ هـ ـــ ١١٥٥ م . وبدمشق مارس صنعة الطب بدكان عند باب جيرون ، ومقر سكنه باللبادين(٤) إضافة إلى صناعة الطب ، التي تميز بها بشكل خاص ، فقد عرف عنه صناعة الموسيقى واللعب بالعود(٥) كما أنه كان يجيد قرض الشعر ونظم القصائد ، فمدح آل الصوفي وزراء الدولة البورية ، وهجا الكثيرين من أهل دمشق ، وخاصة الشعراء منهم ، كما رثى البعض الآخر ، وذلك انطلاقاً من حبه وهوايته لفنون وضروب الهزل والمجون والتسلية ، ووصل الأمر به إلى حد جمع كل هذه الضروب من القصائد الشعرية في ديوان سماه (نهج الوضاعة لأولي الخلاعة)(٦)

---

٢ ـــ نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٥ .

٣ ـــ إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٦٤ نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٣ ابن قاضي شهبة طبقات النحويين واللغويين مخطوطة الظاهرية ص ٣٤٧ وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٢٣ ـــ ١٢٤ .

٤ ـــ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٣٤ .

٥ ـــ المصدر السابق ص ٢٣٥ .

٦ ـــ ابن العماد الحنبلي ـــ شذرات الذهب فقي أخبار من ذهب ج ٤ ط بيروت ص ١٥٣ ـــ نفح الطيب ج ٢ ص ٣٣٥ .

وبلغ أمر مثابرته على الجمع بين الجد والهزل إلى حد خرج فيه كثيراً عن المألوف والتقاليد المتبعة في تلك الفترة من الزمن، مما جعل بعض الذين قاموا برثائه، ينحون عليه باللائمة، وينعتونه بأشياء قاسية، ونسبوا إليه أقوالاً، اعتبروها خروجاً على الدين وامتهاناً لقدسيته، ومن هؤلاء الشاعر عرقلة الدمشقي، الذي رثاه بقصيدة، أظهر فيها حقده عليه من خلال مواقفه اللادينية، كما صورها في الأبيات التالية:

يا عينُ سحي بدمع ساكب ودم	على الحكيم الذي يُكنى أبا الحكم
قد كان لا رحم الرحمن شيبته	ولا سُقــى من صيِّب الــديم
شيخا يرى الصلوات الخمس نافلة	ويستحل دم الحجاج في الحرم(٧)

وقد ظهر علم أبي الحكم عند ابنه أبي المجد محمد بن عبد الله الباهلي الملقب بأفضل الدولة، بشكل أكمل، فقد برع في جميع العلوم والفنون، التي كان يعرفها والده، ما عدا صناعة الشعر. ويبدو أن أبا الفضل هذا، كان أكثر جدية واتزانا من أبيه، مما جعله يتفوق عليه بشكل واضح وجلي، ففي ميدان الموسيقى أجاد الغناء والعزف على جميع آلات الطرب، وأضاف لذلك أرغنا بالغ في الاعتناء باتقانه وصنعه. وكان له يد طولى في ميدان الهندسة والفلك. أما في مجال علم الطب. فكان فيه أحذق أهل زمانه، الأمر الذي جعل نور الدين زنكي يعتمده كمسؤول أول عن إدارة البيمارستان، الذي أنشأه في دمشق خلال السنوات الأولى من النصف الثاني للقرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي. وقد عرف عن هذا الطبيب نظامه الثابت في مجال الإدارة وزيارة المرضى، دون تأخير. وتجلى هذا النظام بأن قسم أبا الحكم وقته إلى ثلاث فترات يوميا ــ تبدأ الأولى بزيارة البيمارستان، وخلالها يعود مرضاه ويتفقد أحوالهم، يضمن تنفيذ وايصال ما يوصفُ لهم من أدوية في الوقت المناسب. بعد ذلك تبدأ الفترة الثانية، فيغادر البيمارستان متوجها إلى القلعة، حيث مقر الحكم ومعاونيه من أكابر رجال الدولة، فيتفقد أحوالهم الصحية إلى غير ذلك. ومن القلعة كان يتوجه عائدا إلى البيمارستان، لتبدأ الفترة اليومية الثالثة، وكانت مدتها ثلاث ساعات في أغلب الاحيان يقضيها جالسا في الايوان، يناقش المشتغلين في مجال الطب، ويدرس المبتدئين من التلاميذ، ليعود إلى داره(٨) أما عن تاريخ ولادته فلا أعرف عنه شيئاً، أما وفاته فقد كانت

٧ ــ شذرات الذهب ج ٤ ص ١٥٣.

٨ ــ الوافي بالوفيات ج ٤ ط دمشق ١٩٥٩ ص ٢٤.

بدمشق، لكن تاريخها أيضاً غير معروف على وجه الدقة، لأن الذين ترجموا له، لم يأتوا على ذكر شيء من هذا القبيل، وربما كانت على وجه التقريب في الربع الثالث من القرن السادس الهجري أو قبل ذلك بسنوات قليلة.

أما النموذج الثالث من هؤلاء الأطباء، فيتمثل بالطبيب عمر بن علي البذوخ القلعي نزيل مدينة دمشق حتى وفاته سنة ٥٧٦ هـ ـ ١١٨١ م[٩]. وهو نموذج للطبيب الذي جمع ما بين الطب والصيدلة. وقد اقتصر عمل هذا الطبيب على مداواة العامة من الناس، بحيث يختلف عن كثير من زملائه الأندلسيين، الذين عملوا في المستشفيات الحكومية أو كأطباء للحكام ورجال الدولة. فكانت له دكان خاصة به في مدينة دمشق باللبادين يعالج فيها زواره من المرضى. وإضافة إلى عمله الرئيسي من تشخيص المرض ومعرفة أسبابه وتعيين نوع الدواء المناسب، فإنه امتاز عن غيره من الأطباء بمعرفته في صناعة الأدوية وتحضيرها بنفسه، الأمر الذي ساعده على إعطاء مرضاه الدواء الملائمة بشكل مباشر. وفي هذا الصدد يقول عنه صاحب كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) أنه: «كان يهيء عنده أدوية كثيرة مركّبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات وغير ذلك» وكان يدعم خبرته في مجالي الطب والصيدلة بشكل مستمر، وذلك بالاطلاع على الكتب الطبية، والتحقق من صحة ما ورد فيها، ومناقشته والتعليق عليه، حتى كتب عدة مؤلفات طبية، كان أهمها الحواشي على كتاب القانون لابن سينا[١٠] ومن هؤلاء الأطباء عبد المنعم الجلياني، نسبة إلى جليانه على مقربة من غرناطة GRANADA في جنوب الأندلس. ولد سنة ٥٣١ هـ ـ ١١٣٧ م واشتغل منذ وقت مبكر بالطب والأدب، ورحل إلى المغرب، وفيها اشتهر ذكره، وعلت مكانته، لكنه لم يألف الاقامة هناك، فغادر المغرب متوجها إلى بغداد، وفيها استفاد من معارفه السابقين، فخالط الأعيان والفضلاء، الأمر الذي مكنه من الاطلاع على خزائن الكتب الرئيسية وخاصة الطبية منها. ولكن تشاء الظروف فيترك مدينة بغداد، وبعدها تبلورت خبرته في مجال الطب واكتملت. فقصد مدينة دمشق، واستقر فيها بشكل دائم، يعمل طبيبا في البيمارستان السلطاني في السفر والحضر أيام اصلاح الدين الأيوبي، وظل هكذا حتى وافته المنية في سنة ٦٠٣ هـ ـ ١٢٠٧ م[١١] وعبد المنعم هذا لم يكن مقتصرا

٩ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ ج ٢ ص ١٥٥.

١٠ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ ج ٢ ص ١٥٧.

١١ ـ ابن سعيد ـ الغصون اليانعة ص ١٠٤ ـ ١٠٦.

على العمل في مجال الطب فحسب ، إنما برع في مجالات أخرى ، فكان نموذجا خليطا للنماذج السابقة مع بعض الابتكارات الجديدة ، ففي مجال الطب ، كان من الحاذقين العارفين ، أتقن صنعته بشكل كبير ودليل ذلك ، أن جميع الذين كتبوا عنه وترجموا سيرته ، يلقبونه بـ (حكيم الزمان) . يضاف إلى ذلك أنه اعتمد في معيشته على الوارد الذي يأتيه من عمله كطبيب ، فكانت له دكان باللبادين بدمشق ، يمارس فيها مهنة الطب والمداواة[١٢] وامتاز عن الأطباء الأندلسيين في ناحية ، تتجلى بأنه اضافة إلى كونه طبيباً عاماً ، فقد عرف عنه تضلعه وبراعته في علم الكحالة ، الذي هو بحد ذاته فرع من فروع الطب .

وبذلك يمكن تسميته وتصنيفه على أنه طبيب اختصاصي ، كما امتاز بمعرفته بعلم الكيمياء[١٣] إلى جانب معرفته بهذه الضروب من العلوم ، فقد اشتهر بفن من فنون الأدب ، وهو الشعر . الذي أثار من خلاله اهتمام ودهشة ياقوت الحموي صاحب كتاب (معجم البلدان) لقدرته الفائقة على مزجه للشعر والحكم والطب والفن فقال عنه : « كان عجيبا في عمل الاشعار التي تقرأ القطعة الواحدة بعدة قواف ، ويستخرج منها الرسائل والكلام الحكمي مكتوباً في خلال الشعر ، وكان يعمل من ذلك دوائر وأشعارا وصورا ، وكذلك لقيته ووقفني على أشياء مما ذكرته ، وأنشدني لنفسه ما لم أضبطه عنه »[١٤] وكان يجيد الكتابة على مبدأ الشيء وضده في وقت واحد . فقال عنه العماد الأصفهاني الكاتب في رواية ينقلها المقري في نفح الطيب : « هو صاحب البديع البعيد ، والتوشيح والترشيح ، والترصيع والتصريع والتجنيس والتطبيق ، والتوفيق والتلفيق .. والتعريف والتعريب »[١٥] .

ولعبد المنعم الجلياني مؤلفات عديدة ، معظمها قصائد شعرية لا مجال لذكرها هنا ، وربما سأذكرها في مجال الأدب والأدباء . أم مؤلفاته الطبية الخالصة ، فقد كانت قليلة ، لا تعدو كونها عبارة عن تعاليق متفرقة ومتنوعة في مجالي الطب والادوية المركبة[١٦] وهكذا فان عبد المنعم الجلياني ، استطاع أن ينال ذكراً طيباً من خلال براعته كطبيب ماهر بالدرجة الأولى ، وكعارف منتج في مجالات شتى ، كالحكمة والالهيات والأدب والكيمياء . وقد عرفت

---

١٢ ــ معجم البلدان ــ مجلد ٢ ص ١٥٧ مادة جليل .

١٣ ــ عيون الانباء في طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٥٧ ــ فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٥ .

١٤ ــ معجم البلدان ــ مجلد ٢ ص ١٥٧ .

١٥ ــ نفح الطيب ــ ج ٣ ص ٣٩٢ .

١٦ ــ عيون الانباء في طبقات الاطباء ــ ج ٢ ص ١٦١ ــ فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٦ .

مدينة حلب خلال فترة حكم الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين الايوبي ، طبيبا ماهراً ، جاء من مدينة فاس بالمغرب ، وهو أبو الحجاج يوسف الاسرائيلي ، ففي أول حياته هاجر إلى مصر ، وفيها درس الطب على موسى بن ميمون القرطبي ، واشتهر في هذا المجال ، الأمر الذي جعل الملك غازي الايوبي يعتمد عليه ويجعله من أطبائه المقربين ، اضافة إلى اشتغاله في تدريس هذا العلم في مدينة حلب . وقد ألف كتابا سماه (ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة) وضمنه بعض شروح أبقراط . وكان كسابقيه من الأطباء الأندلسيين في هذه الفترة ، يعرف ويلم ببعض العلوم الأخرى كالهندسة وعلم الفلك(١٧) .

وقد حظي عند صلاح الدين الأيوبي طبيب أندلسي آخر ، هو يحيى البياسي الملقب بأمين الدين . بعد أن ترك الأندلس ، وصل إلى مصر واستقر فيها مدة قصيرة من الزمن ، توجه بعدها إلى مدينة دمشق واستقر فيها بشكل نهائي . ويعتبر البياسي طبيباً أندلسياً درس الطب في بلاد الشام ، وقرأه على مهذب الدين علي بن عيسى المعروف بابن النقاش البغدادي . واشتهر في هذا العلم أكثر من أي علم أو فن آخر ، فعلا شأنه كطبيب ماهر ، مما جعل صلاح الدين الأيوبي ، يعتمده في قائمة أطبائه الرئيسيين ، الذين رافقوه في أثناء غيابه عن مدينة دمشق لمحاربة الصليبيين . وقد استعفى من هذه المهمة ، ليعود إلى دمشق ، ويستقر فيها يعمل في مجال اختصاصه ، بالإضافة إلى أنه بقي يتقاضى راتباً ، كان قد خصصه له صلاح الدين الأيوبي . وكما هو الحال بالنسبة للأطباء الذين عرفتهم الشام في هذه الفترة ، فإن البياسي ، تميز هو الآخر بمعرفته لعدة علوم وفنون غير علم الطب . فقد كان متمكناً بمعرفة الموسيقى إلى حد تدريسها ، والخبرة بصناعة آلاتها وخاصة الأرغن . كما تميز أيضاً بمعرفته النصيرة بالعلوم الرياضية والهندسة والنجارة ، مما جعله يصنع آلات متعددة ، تتعلق بالهندسة أهداها لأستاذه ابن النقاش المذكور أعلاه(١٨) وهناك طبيب آخر هو ابن إمام المالكية بدمشق برهان الدين علي بن علوش المغربي . ويلتقي مع الطبيب البياسي المذكور آنفاً ، بإن كليهما تلقياً علمهما في مدينة دمشق ، لكنه يختلف عن جميع الأطباء بأنه من مواليد مدينة دمشق ، واسمه منصور بن علي المغربي المعروف بناصر الدين ، نال معرفة عريضة ودقيقة في علم الطب ، لكن يد الموت خطفته وهو في مقتبل العمر ، دون أن يمارس عمله كالذين سبقوه ، وكانت وفاته سنة ٦١٧ هـ ـ ١٢٢١م بدمشق حيث دفن في مقابر سفح

١٧ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢١٣ .

١٨ ـ المصدر السابق ص ١٦٣ .

قاسيون[١٩] . وثاني الأطباء الأندلسيين في مدينة حلب ، كان يوسف بن يحيى السبتي المعروف بابن سمعون ، درس الطب في مدينة سبته فأتقن فنونه وطرقه قبل أن يغادر إلى مصر ، الذي لم يبق فيها سوى فترة قصيرة ، توجه بعدها إلى الشام ، ونزل في مدينة حلب ، وبعد إقامة قصيرة تركها بقصد التجارة ، فسافر إلى العراق ومنها إلى الهند ، ولم يعد إليها ، إلا بعد أن أثرى وتحسنت أحواله المادية . ومنذ ذلك الحين ، قام بشراء أرض قريبة من مركز المدينة ، وأشاد عليها بناء ، جعله مركزاً لتدريس علوم الطب ، إضافة إلى عمله ، كأحد الأطباء المقربين إلى الحاكم وأعوانه . ولم يكن ابن سمعون يختلف عن رفاقه في مجال الخبرة بالعلوم الأخرى ، إنما كان صورة طبق الأصل عنهم فقد كان له حظ وافر من المعرفة ، والتضلع في بعض العلوم الرياضية ـــ يقول عنه القفطي صاحب كتاب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) وهو معاصر له ، وكان يجتمع معه بصورة دائمة : « .. وعانى شيئاً من علوم الرياضة ، وأجادها ، وكانت حاضرة على ذهنه عند المحاضرة »[٢٠] . وبقي هذا الطبيب ، يمارس تدريس العلوم الطبية ومعالجة المرضى في مدينة حلب ، حتى كانت وفاته سنة ٦٢٣ هـــ ١٢٢٦م[٢١] . ومن هؤلاء الأطباء ابن البيطار ، الذي لم يسكن دمشق بصورة دائمة ، كما فعل الآخرون . وبالرغم من ذلك ، فقد رأيت من الواجب دراسته ووضعه في قائمة الأطباء الأندلسيين المقيمين . وذلك انطلاقاً من أن هذا الطبيب ، كان قد زار دمشق عدة مرات ، استفاد منه خلالها بعض من أطبائها المشاهير ، كابن أبي أصيبعة ، وكان يبقى فيها فترة من الزمن لابأس بها ، لكونه مرافقاً للملك الكامل الأيوبي ، الذي كان يعتمد عليه في جميع الشؤون الطبية ، يضاف إلى كل ما تقدم ، أن وفاته كانت في مدينة دمشق[٢٢] . واسمه الكامل عبد الله بن أحمد أبو محمد من مالقة Malage في جنوب الأندلس ، ولد سنة ٥٩٣ هـــ ١١٩٣ م ، وانتقل إلى اشبيلية Sevilla وسكن فيها ، ودرس الطب على النباتي أحمد بن محمد بن مفرج الأشبيلي ، لكنه لم يكتف بذلك ، فرحل عن أشبيلية في طلب العلم[٢٣] فسافر إلى بلاد الاغريق ، وأقصى بلاد الروم ، وبلاد المغرب . وخلال تجواله في هذه البلاد ، التقى بكثير من العارفين في علم النبات ،

---

١٩ ـــ الذيل على الروضتين ص ١٢١ .

٢٠ ـــ إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٥٧ .

٢١ ـــ المصدر السابق ص ٢٥٨ .

٢٢ ـــ عيون الانباء في طبقات الأطباء ـــ ج ٢ ص ١٣٣ .

٢٣ ـــ التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ١٢١ .

فأخذ عنهم الشيء الكثير . وامتاز بأنه كان يتعرف النبات بشكل عملي ، فيعرف مكانه ويتفحص البيئة التي يعيش فيها . كما ركز على حفظ كتب جالينوس وديسقوريدس ، فبلغ فيها الكمال . يقول عنه ابن أبي أصيبعة :

« وأول اجتماعي به كان بدمشق سنة ٦٣٣ .. ولقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيرا من النبات في مواضعه ، وقرأت عليه تفسيره .. وكان أحضر لنا عدة من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي .. فكنت أراجع تلك الكتب معه ، ولا أجده يغادر شيئاً مما فيها .. »[٢٤] ويعتبر ابن البيطار نموذجاً ماهراً للطبيب الصيدلي . فقد استطاع أن يجمع بين العلمين بجدارة وتفوق لا مثيل لهما بين أقرانه ورفاقه من الأطباء الأندلسيين ، وعلى وجه الخصوص في مجال علم الصيدلة ، الذي أظهر براعته وتعمقه فيه من خلال كتابه الجليل الموسوم (بالجامع في الأدوية المفردة) ، والذي يقول عنه ابن أبي أصيبعة : « وقد استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة وأسمائها وتحريرها وقواها ومنافعها ، وبين الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيه »[٢٥] . وهو أكمل ما ألفه العرب في هذا الميدان ، وأكثره تفصيلاً ، فقد اعتمد في تأليفه على كتب سابقيه من العرب واليونان وزاد عليهم بـ ٣٠٠ مادة دوائية لم يشر إليها أحد قبله[٢٦] . وله مؤلفات أخرى جيدة منها كتاب (المغني في الأدوية المفردة) وهو مرتب بحسب مداواة الأعضاء ، يتحدث فيه عن الأعشاب من وجهة النظر العلاجية فقط ، لا من ناحية التاريخ الطبيعي[٢٧] وله من الكتب أيضاً ، كتاب (الأفعال الغريبة والخواص العجيبة) وكتاب (الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام)[٢٨] وقد توفي ابن البيطار بمدينة دمشق على حين غرة دون مرض مسبق سنة ٦٤٦ هـ ــ ١٢٤٩ م[٢٩] وموته بشكل مفاجيء ، يعزز قول المقري صاحب نفح الطيب ، عندما ذكر أن سبب وفاته ، كانت نتيجة تناوله عقاراً ساماً أدى إلى موته في الحال[٣٠] وإذا

---

٢٤ ــ عيون الانباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٣٣ .

٢٥ ــ المصدر السابق ص ١٣٣ .

٢٦ ــ انخل جنثالث بالنثيا تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة حسين مؤنس ط ١ القاهرة ص ٤٧٩ .

٢٧ ــ المصدر السابق ص ٤٧٩ وأيضاً عيون الانباء في طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٣٣ .

٢٨ ــ فوات الوفيات ج ١ ص ٤٣٤ ــ ٤٣٥ ــ عيون الانباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٣٣ .

٢٩ ــ فوات الوفيات ج ١ ص ٤٣٤ ــ ٤٣٥ ــ عيون الانباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٣٣ الذهبي ــ العبر في خبر من عنبر ج ٥ ت صلاح الدين المنجد ط الكويت ١٩٦٦ ص ١٨٩ .

٣٠ ــ نفح الطيب ج ٤ ص ٣٤٨ فوات الوفيات ج ١ ص ٤٣٤ ــ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ١٨٩ . عيون الانباء في طبقات الاطباء ج ٤ ص ١٣٣ .

كان كل الذين تقدم ذكرهم حتى الآن من الأطباء العرب الأندلسيين ، قد مثلوا الانفصال الحاد بينهم وبين غيرهم من الفئات المتدينة ، وكانوا على طرفي نقيض ، بحيث لم يركزوا لا من قريب ولا من بعيد على أي مظهر ديني ، ولم يعيروه أدنى اهتمام ، خلال فترة حياتهم التي عاشوها في بلاد الشام أو في غيرها . وهذا ما يؤدي إلى القول ، بأن الذين سأقوم بدراستهم في الصفحات التالية ، لم يكونوا هكذا أبدا ، إنما مثلوا الصورة العكسية في كثير من الأحيان . وهذه ظاهرة تستحق وقفة قصيرة عندها ، حيث يمكن استنتاج عدة أمور أذكر منها في هذا الموضع ما هو أهم ومُلِح . ويتجلى بأن الأندلسيين الذين اشتغلوا في مضمار الطب في فترة ما بعد منتصف القرن السابع الهجري ، وهي فترة حكم المماليك ، كانوا قلة قليلة لا يتجاوزون عدد أصابع اليد .

وهم بالإضافة إلى قلة عددهم ، فإنهم لم يكونوا حاذقين متضلعين بعلم الطب وأسراره ، كما كان حال الذين سبقوهم في فترة حكم الزنكيين والأيوبيين وقبلهم البوريين ، الذين استطاعوا أن يكونوا نجوماً مضيئة وبارزة في علم الطبابة ، الأمر الذي جعلهم يتبؤون أعلى المراتب كأطباء للسلاطين ورجال الدولة ، وكرؤساء للمستشفيات ، ومدرسين أكفاء ، يعول عليهم في تهيئة وإعداد الكوادر الطبية الجديدة . وكما كانوا متقدمين في علم الطب فإنهم اشتهروا بمعرفتهم الرفيعة لبعض العلوم العقلية البحتة ، كالرياضيات والهندسة وغيرهما ، وأجادوا بعض الفنون كالموسيقى والنجارة وصنع الآلات وقرض الشعر وغير ذلك كما تقدم ذكره . لذلك وانطلاقاً من وضعهم هذا ، فان من الممكن القول أنهم كانوا صورة صادقة لحكامهم الزنكيين والايوبيين ، الذين جمعوا بين الدعوة للعلم وتشجيعه ، وبين السياسة الناجحة والخبرة في الادارة وفن الحرب . وبمقارنة بسيطة بين هؤلاء ، وبين الذين عاشوا وعاصروا حكام المماليك في الشام ، يظهر بوضوح وجلاء مدى الهوة الشاسعة على صعيد الأهلية في ميدان الطب . فلم يظهر في الفترة المملوكية أطباء من الأندلسيين ، بمستوى الذين عاشوا في الفترة الممتدة من أوائل القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي ، وحتى منتصف القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وهي فترة حكم البوريين في دمشق ، والزنكيين والايوبيين في سائر بلاد الشام . وإذا كان من الصعب تحديد أسباب هذه الظاهرة بشكل دقيق ، فإن ما يمكن استنتاجه ، أن حكام المماليك لم يكونوا بمستوى سابقيهم على صعيد التنور وتشجيع العلوم . فالبرغم من فترة حكمهم الطويلة في مصر وبلاد الشام ، فقد كانت بمعظمها فترة انحطاط وتأخر على صعيد العلوم كافة ، وإذا كان من الواضح أن أطباء هذه الفترة ، لم يكونوا

قد اقتصروا على معرفة الطب فقط، فان العلوم التي اشتهروا بها كانت دينية في غالب الأحيان، كالفقه والحديث ونحوهما، بعكس أطباء الفترة السابقة العظام. الذين لم يبتعدوا عن الدين، كما يفهم البعض، بقدر ما اقتربوا من جوهره وعظمته، وطبقوا تعاليمه، التي تحض على الأخذ بأسباب التقدم والبحث عن كل نافع ومفيد للانسانية والدين في وقت واحد. وهذا لا يعني أن الحكام الأيوبيين وسابقيهم كانوا غير دينيين أبداً، فهم لا يقلون عن الحكام المماليك تمسكاً بأهداب الدين وتعاليمه، لكن السر يكمن في أن الأيوبيين والزنكيين برهنوا على أنهم مسلمون متنورون أكثر من المماليك، عندما سمحوا للأطباء الأندلسيين بممارسة علوم وفنون، كان يعتبرها الجهلة من الفقهاء، وما أكثر نصيب العرب المسلمين منهم، أنها سهام سامة في مضمونها توقُّف وموت الحركة الدينية. كل ذلك تم وحدث ايماناً من الحكام الزنكيين والأيوبيين في إبداء الخدمات الضرورية الواجبة للمجتمع والدولة.

ويأتي في سلسلة هؤلاء الأطباء محمد بن ابراهيم المعروف بالكلي والملقب بشمس الدين. كان والده أندلسياً جاء إلى دمشق، وأقام بها إلى حين وفاته. ولد شمس الدين بدمشق سنة ٥٩٧ هـ ــ ١٢٠١ م، وتوفي سنة ٦٧٥ هـ ــ ١٢٧٧ م. وفي دمشق بدأ حياته العلمية بالاهتمام بالعلوم النقلية، كالحديث والآداب وغيرهما. فقد سمع عن عبد الصمد الحرستاني وغيره، لينتقل إلى مدينة بعلبك، وهناك لازم والد اليونيني صاحب كتاب (ذيل مرآة الزمان)، فسمع منه كثيراً(٣١) ومن بعلبك عاد إلى دمشق مرة ثانية، ليتحول إلى دراسة الطب، فدرس أصول هذا العلم على مشاهير أطبائها، مهذب الدين عبد الرحمن ابن علي، فكان يلازمه بصورة دائمة، حتى أتقن عليه كتب الطب القديمة، التي كان يدرسها ويعتمد عليها، كل من يود الاشتغال بصناعة الطب والمداواة. وقد بالغ الطبيب المذكور في دراسة هذه الكتب والتعمق فيها، فقد حفظ الكتاب المعروف بـ(القانون) لابن سينا حفظاً متقناً، استطاع أن يفهم معانيه وتفاصيله فلقب (بالكلي). لأن كتاب القانون المذكور، يجمع في طياته مختلف الطرق الطبية، كالتشريح والأخلاط وقواعد حفظ الصحة والأمراض والأدوية المفردة والمركبة، والعمليات الجراحية المتنوعة، وعلت شهرة شمس الدين هذا، كطبيب بارع في مدينة دمشق، الأمر الذي جعل الملك الأشرف موسى بن الملك العادل الايوبي، يعتمده في قائمة أطبائه الخاصين، حتى كانت وفاة الملك المذكور، لينتقل

---

٣١ ــ ذيل مرآة الزمان ــ مجلد ٣ ط حيدر أياد الدكن ١٩٦٠ ص ١٩٣ ــ ١٩٤.

بعد ذلك للخدمة في البيمارستان النوري، الذي ظل يتردد إليه لمعالجة المرضى فترة لابأس بها[٣٢] وتحول بعد أن استتب الحكم للمماليك عن صناعة الطب، وعمل بشراء حاجيات الحكام ورجال الدولة المماليك، حيث عرف عنه، أنه كان يشتريها بأوفر الأسعار وأقلها. وكانت له معرفة في مجال الأدب والتاريخ، لكنه لم يشتهر بهما[٣٣] ويعتبر هذا الطبيب دليلاً حياً على مدى التقهقر، الذي أصاب العلم في عهد المماليك، فمنذ الفترة الأولى لحكمهم تحول عن صنعته الرئيسية إلى صنعة أخرى، لا تنفع المجتمع بأي شكل من الأشكال. ويختلف الأمر بعض الشيء عن هذا الطبيب المذكور، حيث عرفت دمشق اثنين من الأندلسيين المغاربة عملا في المدرسة اللبودية التي انشئت سنة ٦٦٤ هـ ـ ١٢٦٦ م هما جمال الدين الزواوي القاضي المالكي بدمشق المتوفى سنة ٦٨٣ هـ ـ ١٢٨٤ م[٣٤] والذي سيدرس بالتفصيل في بحث القضاة، وياسين بن عبد الله المغربي، التي لا تذكر المصادر اسمه بالتفصيل، وكل ما ذكرته عنه (المغربي) فقط. لكن لويس بوزيه يتوقع أن يكون اسمه كما ذكر أعلاه. ويدعم توقعه بأنه أحد شيوخ النووي القدماء، والذي يعرف عنه أنه كان جراحاً بمكان بالقرب من باب الجابية بدمشق. أما الزواوي فقد كانت شهرته على صعيد القضاء، أكثر منها على صعيد الطب. والذي يمكن أن يقال فيه، أنه كان يعرف الطب بشكل نظري، بعكس الثاني الذي اشتهر بالجراحة، وقد بقيت المدرسة الطبية اللبودية المذكورة حكراً على هذين الطبيبين المغربيين لعشرات السنين كما يقول لويس بوزيه نفسه[٣٥] وكان خاتمة الأطباء الأندلسيين في بلاد الشام في فترة هذا البحث، نزيل مدينة دمشق، تقي الدين بن برهان الدين الحكيم المغربي، الذي استطاع، أن يجمع بين العلوم الدينية والطبية على حد سواء. فقد اشتغل في أول حياته بالفقه على مذهب الامام الشافعي، وبقي معتنياً بهذا الشأن حتى كانت وفاة والده، فتحول إلى دراسة الطب فتمهر فيه إلى درجة مكنته من أن يصبح رئيساً للأطباء في مدينة دمشق، والطبيب الرئيسي الذي يتولى معالجة المرضى من الحكام وأكابر رجال الدولة، الذين كان على رأسهم حاكم دمشق المملوكي قجماس الاسحاقي

---

٣٢ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢٦٣.

٣٣ ـ ذيل مرآة الزمان مجلد ٣ ص ١٩٤.

٣٤ ـ انظر عنه ـ ذيل مرآة الزمان ج ٤ ص ٢٣٩ حيث يجعل وفاته سنة ٦٨٤ هـ.

٣٥ ـ Louis Pouzet- Maghrebines DAMAS auxII xIII siecle Baulletin D'Exudes orientales tone xxvIII fimee 1975 DAMAS 1977 p.177-178.

الظاهري ، الذي ألمت به وعكة صحية أقعدته الفراش . فكان الطبيب المذكور ، هو الذي أشرف على علاجه ، حتى تم له الشفاء .

وتشاء الظروف أن يكون آخر من عالجهم ، حيث وافته المنية وهو موجود عنده في سنة ٨٨٧ هـ ــ ١٤٨٢ م فدفن بمقبرة الباب الصغير(٣٦) وهكذا فإن الفرق بدا شاسعاً بين أطباء الفترة المملوكية ، وبين أطباء الفترة السابقة ، من حيث السعة والاطلاع والدور الذي شغلوه من خلال ممارستهم الطب في الشام ، وبالتالي الآثار التي خلفوها في هذا المضمار من تأليف الكتب الطبية والصيدلانية المتنوعة . أما في بقية العلوم العقلية والتطبيقية ، كالهندسة والفلك والرياضيات والكيمياء ، فانه لم يشتهر فيها أحد من الأندلسيين ، الذين سكنوا الشام في فترة هذا البحث ، وذلك بشكل يمكن تصنيفه مختصاً أو عاملاً فيها . وإن كانت قد وجدت لدى البعض منهم ملكة المعرفة في بعض هذه العلوم ، فإنهم لم يشتغلوا فيها ، ولم يعملوا على تطويرها وترجمتها ، إلى ما ينفع المجتمع ويخدمه . ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة أمور ، منها أن الذين عرفوا أو اشتهروا بمعرفتهم في مجال بعض هذه العلوم ، كانوا من الأطباء المشاهير ، الذين نالوا دنيا عريضة في ميدان الطب(٣٧) ، وهؤلاء بدورهم وجدوا أن الجمع بين علمين ، والاشتغال فيهما ، من الأمور المستحيلة ، والصعبة التحقيق ، يضاف إلى ذلك أنهم وجدوا أن العمل في ميدان الطب ، أفضل بكثير من غيره كمصدر دخل دائم ، وكعمل محبب إلى قلوب الجميع دون استثناء ، بعكس العلوم المذكورة آنفاً ، التي لم تكن بدورها محببة ومرغوبة من قبل الحكام والفقهاء على حد سواء . وقد أعطى نور الدين زنكي صورة صادقة عن هذا الواقع ، ففي رواية للعماد الكاتب ينقلها النعيمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس ، تبين بوضوح عدم رغبته في تشجيع علم الكيمياء يقول : « .. في سنة سبع وستين وخمسمائة قال العماد الكاتب : في شهر رجب فوّض إلي نور الدين المدرسة التي عند حمام القصر* ، وهي التي أنا منذ قدمت دمشق فيها ساكن ، وكان فيها الإمام الكبير ابن عبد ، وقد استفاد من علمه كل حر وعبد ، فتوفي وخلف ولدين استمرا فيها على رسم الوالد ، ودرسا بها ،

٣٦ ــ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان قسم ١ ص ٥٦ .

٣٧ ــ انظر ص ١٣٥ من هذا البحث .

* هذه المدرسة ، هي العمادية داخل باب الفرج والفراديس ، لصيق المدرسة الدماغية من الجنوب بناها الخضر ابن شبل نور الدين محمود زنكي برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الحارثي ، وهو أول من درس بها ، ويقال لها العمادية نسبة للعماد الكاتب الاصفهاني لاقامته الطويلة فيها (الدارس ١/ ٤٠٦ ــ ٤٠٧) .

فخدعهما مغربي بالكيمياء، فلزماه والتقيا به، وأغنياه وغاظ نور الدين ذلك، فأحضرهما ووبخهما، ورتبني فيها مدرساً وناظراً»[٣٨] يضاف إلى ذلك أن العمل في مجال هذه العلوم، يحتاج إلى جهد فكري وعضلي كبيرين، مقابل دخل غير مأمون في كثير من الأحيان، إذا ما قيس بالدخل الذي يوفره العمل في مجال الطب على سبيل المثال. أمر آخر لا بد من ذكره، أنه في هذه الفترة بالذات، لم تعرف بلاد الشام مركزاً أو مقراً لتدريس مثل هذه العلوم، كما كان الحال بالنسبة للعلوم الدينية وبقية العلوم النظرية الأخرى، التي نالت اهتماماً كبيراً على الصعيدين الحكومي الرسمي والشعبي، باستثناء علوم الطب والصيدلة، التي بلغت الأوج في عصر الزنكيين والأيوبيين.

رجال العلوم النظرية

قيض الله لبلاد الشام أعداداً كبيرة من الأندلسيين والمغاربة، الذي عملوا في مجال هذه العلوم وكانوا في كثير من الأحيان موضع احترام وتقدير لا مثيل لهما، ليس فقط على الصعيد الشعبي، بل أيضاً على الصعيد الحكومي الرسمي، وبشكل خاص رجال العلوم الدينية، الذين أنزلوا أحسن المنازل وتبوؤا أرفع المناصب الدينية، وبالتالي ازدادت ثروتهم وأملاكهم، مقابل عملهم الذي تبلور في عدة وجوه، كالتعليم وتدريس الحديث أو الخطبة في أحد المساجد، أو أي عمل من هذا القبيل. ويمكن القول، أنه لو قدر لغيرهم من رجال العلوم الأخرى، كالفلسفة والعلوم التطبيقية، أن ينالوا هذه المكانة، أو يلقوا هذا التشجيع، لكانت النتيجة غير تلك التي انتهت إليها هذه الفترة من تاريخ العرب والاسلام في بلاد الشام. مثال ذلك أن كثيرا من الذين قطنوا الشام، كانوا يعرفون الكيمياء وغيرها من العلوم العقلية الأخرى، أذكر منهم ابن عربي المتصوف المشهور، الذي صرح في عدة مواضع، أنه يعرف الكيمياء[٣٩] لكنه لم يذكر أي نوع من الكيمياء يعرف. ويمكن تقسيم رجال هذه العلوم بحسب اختصاصاتهم المتعددة، التي شملت العلوم الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية والفلسفة والتصوف وغير ذلك.

١ — **رجال العلوم الدينية**. وقد كان نصيب الشام من هؤلاء كبيراً إلى حد ما، وذلك

---

٣٨ — الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٤١١.

٣٩ — سبط ابن الجوزي — مرآة الزمان في تاريخ الأعيان — القسم الثاني من الجزء الثامن ط ١ حيدر أباد الدكن ١٩٥٢ ص ٧٣٦ — شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٠٠.

بالمقارنة مع فئات العلوم الأخرى. فمنهم من برع في رواية الحديث، ومنهم من اشتهر بالقراءات، وآخرون أحاطوا بقسط من هذا العلم وذاك. وانطلاقاً من هذا التفاوت في درجة الثقافة، فلابد من تصنيفهم بحسب المواقع التي شغلوها في بلاد الشام، والتي كثيراً ما تأثرت بالأهلية والكفاءة العلمية والثقافية بشكل خاص.

المحدثون

تمثل المحدثون الأندلسيون في بلاد الشام بأعداد لابأس بها، وتوزعوا في مختلف المدن والمناطق الشامية، وإن كان من الملاحظ أن حلب ودمشق استأثرتا بالغالبية العظمى منهم. وقد تفاوت المحدثون الأندلسيون في مستوياتهم العلمية، فمنهم من علا شأنه في مضمار علم الحديث وروايته، بحيث غدا مرجعا يأخذ منه ويرجع إليه المهتمون بهذا العلم، ليس على صعيد الشام فحسب، إنما على صعيد البلدان الاسلامية، العربية منها وغير العربية، ومنهم من بقي في موقع وسط أو عادي، وقد أثر هذا التفاوت في المستوى العلمي على قضية توزيعهم بشكل خاص. فالكبار والحفاظ المشهورون منهم، اعُتمِدوا كمشايخ مدارس ومدرسين كباراً في مدارس كان لها شأن عظيم في حقل التدريس وتلقين العلم للدارسين والطلاب. وهناك ناحية هامة لابد من ذكرها قبل البدء بالتحدث عن هؤلاء المحدثين، تتجلى بأن الذين سأذكرهم ليسوا هم الذين عملوا في مضمار الحديث وشؤونه فحسب، إنما كان هناك عديدون، عرفوا جانبا من هذا العلم، لكنه لم يكن محور عملهم الرئيسي، كما هي الحال بالنسبة لهؤلاء الذين سيأتي ذكرهم في الصفحات التالية. ناحية أخرى فإن بعض هؤلاء المحدثين لم يكونوا مهيأين، أو بالأحرى لم يكن مصدر ثقافتهم من الأندلس، إنما حصلوا عليها من خلال رحلاتهم الطويلة وتنقلاتهم الكثيرة من بلد إلى آخر. وهم بذلك يشبهون إلى حد كبير سابقيهم من الأندلسيين الأول. لكن الجديد الآن أن هؤلاء الجدد، لم يعودوا إلى الأندلس، كما كان يفعل الرجال الأولون، إنما سكنوا الشام وغيرها من أقطار المشرق العربي يفيدون ويعطون حتى آخر لحظة من حياتهم. من هؤلاء المحدثين في هذه الفترة، علي ابن سليمان المعروف باسم الحسن المرادي القرطبي الفرغليطي نسبة لفرغليط من أعمال شقورة Segura، خرج من الأندلس بعد العشرين وخمسمائة، ولم يكن لديه أية معرفة بعلم الحديث، الأمر الذي جعله يرحل ويتنقل طويلاً في مراكز العلم بالعراق وايران، حيث استمرت رحلته في سبيل ذلك مدة عشرين عاماً كان آخرها سنة ٥٤٠ هـ ـــ ١١٤٦ م نزل

على أثرها مدينة دمشق، ففرح بقدومه ابن عساكر مؤرخ الشام وحافظها، لما كان معه من مسموعاته. وان دل فرح ابن عساكر هذا بقدوم هذا المحدث على شيء فإنما يدل على اعتباره ثقة في مضمار علم الحديث. وقد شهد له السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ ــ ١١٦٧ م بالصلاح وسمو الخلق حسب ما يرويه السبكي، صاحب كتاب طبقات الشافعية، قال السمعاني: «كنت آنس به كثيراً، وكان أحد عباد الله الصالحين، خرجنا جملة لسماع تفسير الثعلبي فلمحت منه أخلاقاً وأحوالاً قلما تجتمع في أحد من الورعين» وأقام مدة بمدينة دمشق عمل خلالها بالتدريس، إضافة إلى أنه كان يحدث بالصحيحين، ثم ندب للتدريس بمدينة حماة، وبعد ذلك انتقل إلى حلب، حيث بقي فيها حتى وافته المنية في ذي الحجة سنة ٥٤٤ هـ ــ ١١٥٠ م(٤٠) وهو بذلك أول محدث أندلسي في بلاد الشام. جاء بعده المحدث الأندلسي المالكي سابقاً والشافعي بعد رحيله إلى المشرق، محمد بن علي بن ياسر الأنصاري من مدينة جيان jaen بجنوب الأندلس، والمعروف بأبي بكر نزيل حلب. ولد المحدث المذكور سنة ٤٩٢ هـ ــ ١٠٩٩ م وهو يشبه المحدث السابق، بأنه لم يكن يعرف شيئاً في علم الحديث عندما غادر بلاده إلى المشرق، لذلك فقد رحل طويلاً في طلب معرفة هذا العلم. فبعد أن أدى الفريضة، توجه إلى دمشق، حيث وصلها سنة ٥١٨ هـ ــ ١١٢٤ م، فسكن في محلة قنطرة سنان مدة عامين، اشتغل خلالهما بتعليم القرآن، وسماع الحديث على بعض العلماء الشامين. وفي سنة ٥٢٠ هـ، توجه إلى بغداد بصحبة ابن عساكر، فسمع بها على هبة الله بن الحصين وغيره. ومن بغداد ذهب إلى خراسان، فسمع بها من حمزة الحسيني وأبي عبد الله الفراوي، وأبي القاسم الشمامي وغيرهم. ثم قصد بلخ وبها سمع أيضاً عن جماعة، منهم أبو محمد الحسن بن علي الحسيني، وأبو النجم مصباح بن محمد المالكي وغيرهما. ومن بلخ عاد مرة أخرى إلى العراق، فحل بمدينة الموصل مدة من الزمن، سمع فيها الحديث، وأسمعه لأول مرة في حياته. وانتهت رحلته الواسعة هذه بمدينة حلب، حيث استوطنها، وسلمت إليه خزانة الكتب النورية، وأجريت له جراية مقابل هذا العمل. وبالرغم من تضلعه ومعرفته بعلم الحديث بعد تلك الرحلة الطويلة، فقد كان عنده عسر في الرواية والاعارة على حد سواء. لكنه دلل من ناحية أخرى على مستواه الرفيع، أنه ترك بعض العوالي المخرجة بعلم الحديث، إضافة إلى ذلك فقد أصبح ممن يُروى عنهم، لكونه كان ثقة على

٤٠ ــ السبكي ــ طبقات الشافعية ــ ج ٤ ط ٢ بيروت دار المعرفة ص ٢٧٨.

ما يبدو ، فمن الذين رووا عنه على سبيل المثال ، كل من أبي حفص الميانشي وأبي منصور مظفر بن سوار اللخمي وغيرهما . ويؤثر عنه مساواته لبعض من شيوخه بالبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي . ويختلف عن سابقه من ناحية مهمة ، أنه وقف جميع كتبه التي يملكها على رجال الحديث والمهتمين به ، وفاء منه لهذا العلم . توفي بمدينة حلب سنة ٥٦٣ هـ ١١٦٨[٤١] . وقد اثنى عليه كل من ابن العماد الحنبلي صاحب كتاب (شذرات الذهب) ، والذهبي المؤرخ والمحدث ، ووصفاه بأنه ذو معرفة جيدة في ميدان علم الحديث[٤٢] وشهادة الذهبي في هذا المحدث لا تبدو عابرة أو سطحية ، انطلاقاً من معرفته هو الآخر بعلم الحديث ، بحيث اعتبر أحد أقطابه في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي .

ومن مدينة لبلة Niebla بجنوب غرب الأندلس ، وصل إلى دمشق محدث آخر ، لا يختلف عن الذين سبقوه ، إلا في ناحية واحدة ، هي أنه كان من وجوه لبلة ورجالها المعروفين ، وأن سنه كانت عالية لحظة حلوله بدمشق التي كانت آخر محطاته ، كما يُفهم من سياق حديث الذهبي عنه ، بعد رحلة طويلة في طلب الحديث ، ولم يغادر هذه المدينة منذ وصوله إليها ، حيث بقي يعمل في ميدان الحديث ، حتى توفي في سنة ٦٢٥ هـ ــ ١٢٢٨ م[٤٣] هذا المحدث هو أحمد بن تميم بن هشام الملقب بفخر الدين .

وأما عن نشاطه في مضمار التأليف ، وأماكن اشتغاله ، فلا أعرف عنها شيئاً ، لكن المرجح ، أنه لم يعمل في المدارس الكبيرة التي كانت عادة مجمعاً للدارسين والمحدثين الكبار ، أضف إلى ذلك أنه ربما لم يرق إلى مستوى يؤهله لأن يحتل مكانة أرفع .

أما محمد بن يوسف بن محمد البرزالي الاشبيلي زكي الدين ، فهو نموذج بارز ومميز في مجال علم الحديث ، سواء من حيث التحصيل والمستوى ، أو من حيث المراكز التي تسلمها . ولد المذكور في مدينة أشبيلية Sevilla سنة ٥٧٦ هـ ــ ١١٨٠ م ، إذا صح

---

٤١ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٣٥٦ ــ ٣٥٧ ــ طبقات الشافعية ــ ج ٤ ص ٨٨ الوافي بالوفيات ج ٤ ص ١٦٢ .

٤٢ ــ شذرات الذهب ج ٤ ص ٢١٠ العبر في خبر من غبر ــ ج ٤ ت صلاح الدين المنجد ط الكويت ١٩٦٣ ص ١٨٣ .

٤٣ ــ العبر في خبر من غَبر ج ٥ ص ١٠٢ .

قول الذهبي أن عمره ستون عاما حين وافته المنية ، وإذا كانت النماذج التي سبق ذكرها حتى الآن ، قد اهتم أصحابها بدراسة الحديث بعد رحيلهم عن الأندلس ، فإن البرزالي كان غير ذلك ، فمنذ صغره كانت له عناية بعلم الحديث ، وظل مستمرا بتنميتها حتى كانت سنة ٦٠٢ هـ ـــ ١٢٠٦ م عندما قرر مغادرة أشبيلية واضعاً أمامه واجب الاطلاع بقصد صقل معارفه ومعلوماته ، فزار عدة بلدان إسلامية ، فسمع بالحجاز ومصر والعراق وأصبهان وخراسان والجزيرة ودمشق . ولعل المستوى الرفيع الذي وصل إليه هذا المحدث ، جعل المسؤولون بدمشق حيث استقراره بصورة دائمة ، يكلفونه بمشيخة الحديث والمحدثين في مشهد ابن عروة في الجامع الأموي الكبير . إضافة إلى ذلك ، فقد أمضى سنين طويلة يدرس الحديث في جامع فلوس وغيره ، حيث عمل بكل جد وإخلاص ، فانتفع به كثيرون من المهتمين ، خلال المدة التي أمضاها بدمشق ، والتي انتهت سنة ٦٣٦ هـ ـــ ١٢٣٩ م بموته كما تقدم ذكره ، بينما كان عائداً من مدينة حلب إلى دمشق فدفن بمدينة حماه(٤٤) .

وأكثر ما يميزه عن الذين تقدم ذكرهم ، ذلك المستوى الذي بلغه في علم الحديث ، والذي يظهر من خلال كتابات الذين ترجموا له فهم يضيفون إلى اسمه لقب (الحافظ) وهذا اللقب لم يكن يطلق في تلك الفترة من الزمن على كل المحدثين ، انما اقتصر فقط على من يتعمق بحفظ ورواية الحديث ومعرفة اصوله وفروعه وصحيحه وضعيفه إلى غير ذلك . وبالرغم من مستواه المتميز ، فانه لم يشتهر عنه مؤلفات تذكر ، مع أن الفترة التي أمضاها بدمشق ، كانت طويلة جداً ، اضافة إلى أنها كانت مستقرة ومريحة بالنسبة له ، وذلك على ما يظهر من خلال تراجمه ، وخاصة منها التي كتبت على أيدي معاصرين له ، والذين كان منهم أبو شامة المقدسي صاحب الذيل على الروضتين . ولم يكن تواجد هؤلاء المحدثين يقتصر على المراكز الشامية الكبرى كدمشق وحلب على ما يبدو ، إنما شمل مدناً صغيرةً كغزة التي احتلت أهمية كبيرة على صعيد دخول الأندلسيين إلى الشام كممر رئيسي لهم في كثير من الأحيان ، حيث عمل فيها واحد من المحدثين الأندلسيين ، خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي . هذا المحدث هو زين الدين أبو زكريا المالقي ، نسبة إلى مدينة مالقة

٤٤ ـــ الذيل على الروضتين ص ١٦٨ ـــ البداية والنهاية . ج ١٣ ط ١ ـــ ١٩٦٦ ص ١٥٣ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ١٥١ ـــ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٨٦ ـــ ٨٧ ابن خطيب الناصرية ـــ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ نسخة مصورة عن نسخة الأحمدية بحلب رقمها ١٢١٤ موجودة في مكتبة الدكتور سهيل زكار ورقة ١٥٤ .

توفي بغزة سنة ٦٤٠ هـ ــ ١٢٤٣ م[٤٥] وفيما بعد هذه الفترة الزمنية، يلاحظ أن الأندلسيين الذين عملوا في مضمار علم الحديث في بلاد الشام، كانوا أفضل بكثير من رفاقهم، الذين أتيت على ذكرهم حتى الآن. وليس من الغرابة في شيء، إذا قلت أن محدثي الفترة التالية، كانوا سادة هذا العلم في كثير من الأحيان، فقد توصل بعضهم إلى ممارسة عدة مناصب إدارية وتدريسية، تخص علم الحديث في وقت واحد، بحيث كانت موزعة على عدة مدارس. وكل ذلك تمّ لهم وحصلوا عليه، على اعتبارهم متفوقين ومتضلعين أكثر من غيرهم بكثير، الأمر الذي جعلهم أكثر نفعاً وأعمق أثراً في الحياة الدينية بشكل عام، وعلوم الحديث بشكل خاص. من هؤلاء ابراهيم بن عبد العزيز بن حجي الرعيني الأندلسي المالكي. ولد في لورة بالأندلس سنة ٦١٤ هـ ــ ١٢١٧ م وقد ظهرت اهتماماته بعلم الحديث، منذ غادر الأندلس وزار الحجاز حيث أدى فريضة الحج، وسمع عن بعض العلماء هناك، ومنها انتقل إلى بلاد الشام حيث نزل مدينة دمشق، وفيها انكب على دراسة الحديث والفقه، إلى درجة يمكن القول عندها، أنه أول أندلسي، اقتصر على المصادر العامة في مضمار اختصاصه، وذلك إذا ما قورن بغيره من المحدثين السابقين، الذين حصلوا من العلم الشيء الكثير قبل قدومهم إلى الشام. وأول عمل رسمي قام به بمدينة دمشق، أن ناب في القضاء مدة من الزمن، لا أعرف إن كان على مذهب المالكية أم على غيره. ومما يدل بشكل واضح على تعمق هذا المحدث في ميدان اختصاصه الرئيسي علم الحديث، أنه اختير لتسلم مشيخة الحديث في المدرسة الظاهرية*. وهو أول من باشر مشيخة الحديث في هذه المدرسة من الأندلسيين والشاميين على حد سواء. بالإضافة إلى هذه المهمة الكبيرة فإنه كان يمارس التدريس في المدرسة المذكورة. وتميز عن غيره من مدرسي الحديث في طريقته الحسنة في التدريس وتلقين العلم للطلاب. وإذا كان قد تميز في هذه الناحية على رجال اختصاصه فإنه تميز عن الأندلسيين المغاربة بكرمه وسعه عطائه، فكان يقصده الكثير من أهل الأندلس فيخصهم بعطائه، ويقدم لهم المساعدات المختلفة، وذلك بما يشبه السفير في أيامنا هذه إلى حد ما. وربما ساعده في ذلك مركزه المرموق كشيخ لدار الحديث الظاهرية، على اعتبار أن

٤٥ ــ الذيل على الروضتين ص ١٧٢.

* الظاهرية ــ داخل باب الفراديس بجوار الجامع الأموي، شمال باب البريد، وشرقي العادلية الكبرى، بابهما متواجهان، يفصل بينهما الطريق. وكانت من قبل تعرف بدار العقيقي، اشتراها الملك الظاهر بيبرس وبناها مدرسة ودار حديث وتربة في حدود سنة ٦٧٠ هـ، وذلك للشافعية والحنفية (الدارس في تاريخ المدارس ١/٣٤٥ ــ ٣٤٨ ــ ٣٤٩) وهي اليوم مقر دار الكتب الوطنية بدمشق.

صاحب منصب كهذا في تلك الفترة من الزمن، لابد أنه كان موضع احترام وتقدير الحكام ورجال الدولة، خاصة أنه عاش في الفترة المملوكية، هذه الفترة التي شهدت رواج العلوم الدينية، بحيث وضعت في المقدمة، وفضلت على كل علم. الأمر الذي لا يستبعد معه أن هذا المحدث استغل هذه الميزة لصالح الأندلسيين في تدبير شؤونهم في مدينة دمشق.

ولكن وبالرغم من علو مرتبته، كمحدث ضليع، فانه لم يشتهر في ميدان التأليف، وذلك بالاعتماد على معلومات الذين ترجموا له، توفي بمدينة دمشق سنة ٦٨٧ هـ ــ ١٢٨٨ م(٤٦). وخلال القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، تعرَّفت مدينة دمشق على شخصية أندلسية، كان لصاحبها باع طويل في معرفة علم الحديث، وصاحب هذه الشخصية، هو المحدث الأندلسي أحمد بن فرح اللخمي الأشبيلي الشافعي الملقب بشهاب الدين. ولد المذكور في مدينة أشبيلية سنة ٦٢٤ هـ ــ ١٢٢٧ م، أسر من قبل الإفرنج سنة ٦٤٦ هـ ــ ١٢٤٩ م وبقي فترة طويلة في الأسر، حج على أثر انتهائها في أوائل الخمسينيات من القرن السابع الهجري. وهو لا يختلف كثيراً عن الذين سبقوه، إلا أنه يقف على قدم المساواة مع العباقرة منهم في هذا الشأن. فهو على سبيل المثال، شبيه بالأكثرية الساحقة، من ناحية السعي في تنمية المعرفة في علم الحديث الذي كان محور اهتمامه الرئيسي. فقد بدأ الرحلة في طلبه بزيارة مصر، حيث سمع فيها على أفاضل علمائها في تلك الفترة، أمثال عز الدين بن عبد السلام وشيخ الشيوخ شرف الدين الانصاري الحموي وغيرهما كثيرون. انتقل بعد ذلك إلى بلاد الشام، فنزل بدمشق، حيث تابع دراسته على بعض علمائها، حتى اختمرت معلوماته في تفاصيل ودقائق علم الحديث. ولعل أوضح رواية عكست المستوى الذي وصل إليه هذا المحدث، تلك التي نقلها المقري عن الصفدي ودونها في كتابه نفح الطيب بقوله: «وكان من كبار أئمة هذا الشأن، وممن يجرى فيه، وهو طلق اللسان»(٤٧). ويختلف عن سابقه مثلاً أنه لم يتصدر مكانة مرموقة لمشيخة حديث في مدرسة معروفة، رغم أنه لا يقل عنه معرفة على صعيد علم الحديث، وربما يعود سبب ذلك،

---

٤٦ ــ نفح الطيب ــ ج ٣ ص ٢٧٢ ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج ٤ ص ٢٠٤ ــ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٥٥.
ابن خطيب الناصرية ــ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ١ نسخة مصورة عن نسخة مدرسة الأحمدية بحلب رقم ١٢١٤ موجودة في مكتبة الدكتور سهيل زكار ــ ورقة ٣٨ ــ ٣٩.

٤٧ ــ نفح الطيب ج ٣ ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣.

أنه لم يكن من هواة المناصب العليا ومحبي الشهرة ، ودليل ذلك أنه رفض أن يكون شيخ دار الحديث النورية ، حيث طلب لذلك مرارا ، فالمدرسة النورية كما هو معروف تعتبر أول مركز علمي في بلاد الشام ، أقيم لتدريس علوم الحديث على المذهب الشافعي . وقضية العرض هذه يستدل منها بسهولة على مكانته كمحدث بارع يعول عليه . وقد تركز نشاطه أثناء اقامته بدمشق على تدريس حلقة بالجامع الأموي ، تتلمذ عليه جماعة من أهل وساكني هذه المدينة ، كان أشهرهم على الاطلاق الذهبي صاحب التواريخ المعروفة والمحدث المشهور ، فظل هكذا حتى توفي سنة ٦٩٩ هـ ـــ ١٣٠٠ م[٤٨] . ومما يوحي بشدة اهتمام هذا المحدث وتركيزه على علم الحديث للنفاذ إلى دقائقه والاحاطة بجميع فروعه ، أنه ألف قصيدة غزلية ضمنها ألقاب الحديث ، موضحاً من خلالها مراميه وأهدافه من وراء اقباله على هذا العلم ، والتي تتجلى بالوقوف على صحيحه والحسن منه منها قوله :

غراميْ صحيحٌ والرجاءُ فيكَ معضَلُ   وحزنيْ ودمعيْ مطلقٌ ومسلسَلُ
صبريَ عنكمْ يشهدُ العقلُ أنهُ   ضعيفٌ ومتروكٌ وذلّيَ أجملُ
ولا حَسَنٌ إلّا سماعُ حديثكمْ   مشافهةً يملىْ عليَّ فانقلُ[٤٩]

وهو يعتبر من المحدثين الكبار الذين عرفتهم الشام ، وليس أدل على ذلك من أن السيوطي صنفه وترجم له في طبقات الحفاظ كواحد منهم[٥٠] ولكن الذي يؤخذ عليه رغم سعة اطلاعه ، عدم اهتمامه بالتأليف كغيره من المحدثين البارزين الذين مر ذكر بعضهم . وفي أواخر القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، تستقبل مدينة دمشق محدثاً أندلسياً ، يعتبر نموذجاً متفوقاً عن جميع الذين ذكروا في كثير من النواحي ، إلى حد يمكن القول عنده ، أنه خير ما عرفته بلاد الشام من المحدثين على الاطلاق ، خلال فترة القرون الوسطى موضوع هذا البحث . ولسعة اطلاعه وغزارة محفوظاته أطلق عليه كل من ترجم له تسمية حافظ الشام ومحدثها ، الأمر الذي لم يشتهر بها أحد غيره . هذا المحدث هو القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الشافعي[٥١] فأول ما يتميز عن غيره ، أنه ولد سنة ٦٦٥ هـ ـــ ١٢٦٧ م ، وعاش في

٤٨ ـــ العبر في خبر من غبر ج٥ ص ٣٩٣ ـــ ٣٩٤ ـــ نفح الطيب ج٣ ص ٢٨٢ ـــ ٢٨٣ السيوطي طبقات الحفاظ ـــ ت علي محمد عمر ط القاهرة ١٩٧٣ ص ٥١٤ .

٤٩ ـــ نفح الطيب ج٣ ص ٢٨٣ .

٥٠ ـــ طبقات الحفاظ ـــ ص ٥١٤ .

٥١ ـــ هو حفيد زكي الدين البرزالي نزيل دمشق والمتوفى سنة ٦٣٦ هـ . وانظر ص ١٤٧ ـــ ١٤٨ من هذا البحث .

كنف عائلة، كان لها اهتمام بالعلم وخاصة والده الذي أورثه مجموعة من الكتب في أربع خزائن. وإذا كان جميع الذين ذكروا حتى الآن رحلوا في البلدان لطلب علم الحديث، فان البرزالي فعل الشيء نفسه لكنه تميز عنهم، بأنه سمع على شيوخ وعلماء لم يتوصل الجميع إلى العدد الذي سمع عليه لوحده، فقد زار عدة بلدان، كالحجاز ومصر ودمشق والقدس وحلب وحماه والاسكندرية، وسمع عن فضلائها، وبلغ عدد الشيوخ الذين سمع منهم، أكثر من ألفي شيخ، وآجازه أكثر من ألف. وعندما جاء إلى بلاد الشام نزل بمدينة حلب سنة ٦٨٥ هـ — ١٢٨٦ م، وأقام فيها حتى سنة ٦٨٨ هـ — ١٢٨٩ م، حج خلالها، ومن هناك توجه إلى دمشق فأقام فيها بصورة دائمة. ويعتبر البرزالي هذا أول أندلسي مغربي حصل على عدة مناصب تدريسية، فاستطاع في سنة ٧١٣ هـ — ١٣١٣ م، أن يتوصل إلى مشيخة الحديث في كل من المدرسة الظاهرية والمدرسة الأشرفية، وفيما بعد مشيخة الحديث في المدرستين النورية والنفيسية، وفي ذلك دلالة أكيدة على مستواه الرفيع الذي بلغه في ميدان علمه. وبينما كان يؤدي حجته الرابعة، وافته المنية في موضع بين مكة والمدينة سنة ٧٣٩ هـ — ١٣٣٩ م[٥٢] لتنتهي حياة هذا المحدث، التي حفلت بالجد والعمل والعطاء، وتوجت بالمجد العظيم.

أما المحدثون الذين جاؤا بعده، فلم يكونوا بمستواه ولم يصلوا إلى المراتب التي توصل إليها على صعيد التدريس، الأمر الذي جعله مميزاً على الذين سبقوه، والذين خلفوه وهؤلاء الأخيرون يشبهون إلى حد ما بعض النماذج التي ذكرت، سواء من حيث الاهتمام والتركيز على معرفة الحديث من خلال الرحلة بعد الخروج من الأندلس، أو من حيث المراكز التي تسلموها بعد أن استقروا في الشام، مع بعض الفوارق البسيطة. من هؤلاء المحدثين، نزيل مدينة دمشق محمد بن عثمان الغرناطي المكنى بأبي عمرو، ولد سنة ٦٨٠ هـ — ١٢٨٣ م في غرناطة GRANADA بجنوب الأندلس. ومنذ صغره اهتم بدراسة الحديث في بلده، فسمع

٥٢ — الذهبي — ذيل تذكرة الحفاظ — تأليف تلميذه الحسيني ص١٩ — ٢٠ — فوات الوفيات ج ٢ ص٢٦٣ — ٢٦٤ — الدرر الكامنة ج٣ ص ٣٢١ — طبقات الشافعية ج ١ ص٢٤٦ شذرات الذهب ج ٦ ص ١٢٢.
وفيات ابن رافع السلامي — تحقيق عبد الجبار زكار — طبع على الجستنتر — الترجمة رقم ١٦٩ — الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ١٢١ — تتمة المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٤٦١. النجوم الزاهرة ج ٩ ص٣١٩.
الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ ورقة ١٥٣ — ١٥٤.

من أبي جعفر بن الزبير وغيره، ليرحل إلى المشرق، حيث سمع في مصر وبيت المقدس، وانتهى به المطاف بمدينة دمشق، حيث نزل منطقة الربوة، واقتصر عمله فيها على تدريس علوم الحديث حتى كانت وفاته سنة ٧٥٢هـ ـ ١٣٥٢م وقد سمع منه كثير من أهل دمشق، لعل في مقدمتهم الحافظ المزي[٥٣] وفي غير مجال التدريس، فانه لم يشتهر في شيء يمكن أن يميز به عن غيره من رجال هذا الشأن. أما محمد بن يوسف بن صالح القفصي الملقب بشمس الدين من مواليد دمشق سنة ٧٠١هـ ـ ١٣٠٣م، فإنه يختلف عن الجميع بناحية واحدة، هي أنه اقتصر على مصدر واحد في تحصيل علمه، هو مدينة دمشق، الذي سمع فيها عن علماء أفذاذ في هذا الميدان أمثال شرف الدين البارزي قاضيها الشافعي. ويلتقي مع الآخرين، في أن ثقافته العلمية، كانت جيدة على مايبدو، الأمر الذي ساعده وأهله لأن يتسلم مشيخة الحديث في المدرسة السامرية[٥٤] أما النموذج الأخير في سلسلة هؤلاء المحدثين، هو محمد بن ابراهيم المرداوي السبتي، الذي يختلف عن الجميع، في أنه لم يعمل في مجال علمه الرئيسي علم الحديث، والذي لا يعرف أين اكتسبه وحصله، وإنما عمل إماماً في مسجد الجوزة محلة العقيبة بدمشق، بالاضافة إلى نسخ الكتب حتى كانت وفاته سنة ٨٢٧هـ ـ ١٤٢٤[٥٥] وربما تعود هذه الظاهرة، إلى أنه لم يكن متمكناً من هذا العلم، كالذين سبقوه، ودليل ذلك، انه لو توفرت له المعرفة التامة أو شبهها، لكان عمل في مجال التأليف بدلاً من نسخ الكتب وكتابتها. وإذا لم يصح ذلك، فإنه لجأ إلى هذه العملية في أغلب الظن، لكونها تدر أرباحاً أكثر من عملية التأليف، مستغلاً وجوده في بعض المساجد كإمام، يمكنه التعرف على أناس كثيرين، يهتمون باقتناء الكتب الدينية عن طريق النسخ والكتابة. وفيما بعد هذه الفترة وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، فإني لم أقف على تراجم الأندلسيين ومغاربة، اشتغلوا في هذا المضمار بشكل مستقل، كالذين ورد ذكرهم حتى الآن.

العاملون في المساجد

وهذه الفئة من الأندلسيين، لا يمكن مقارنتها بفئة المحدثين، الذين عملوا بكل

---

٥٣ ـ السيوطي ـ طبقات الحفاظ ـ ص ٢٥٦ ـ الدرر الكامنة ج ٤ ط ١ حيدر اباد الدكن ١٣٥٠هـ ص ٤٥.

٥٤ ـ السيوطي طبقات الحفاظ ص ٢٦٦.

٥٥ ـ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٣٤٧.

الوسائل والسبل من أجل التعمق في علم الحديث وروايته، الأمر الذي كلفهم وقتاً طويلاً، وجهوداً كبيرة ومضنية، حتى استطاعوا الحصول على نيل لقب (محدث). أما الذين عملوا في المساجد، كأئمة ومؤذنين وخطباء، فإنهم لم يكونوا بمستوى المحدثين من ناحية المعرفة والدراية والإلمام. إنما استطاعوا أن يلموا بطرف بسيط من كل علم من العلوم الدينية، الأمر الذي مكّنهم من أن يصبحوا أئمة مساجد أو مؤذنين في بعض المدارس أو غير ذلك.

وقد عرفت بلاد الشام خلال الفترة، التي هي موضوع هذا البحث، عدداً لابأس به منهم تفرقوا في مناطق مختلفة من بلاد الشام، بحيث كانوا أوسع انتشاراً من الفئة التي عمل رجالها في ميدان علم الحديث. ويظهر أن البعض منهم، لم يكن يرغب في مثل هذا العمل، ولكن لظروف صعبة تتعلق بتأمين وسائل العيش، أجبروا على الاشتغال في هذا الميدان، مثال ذلك، مثل محمد بن محرز بن محمد من مدينة وهران بالجزائر الحالية الملقب بركن الدين أو جمال الدين نزل مدينة دمشق، الذي قدم إليها عن طريق مصر أيام كان فيها صلاح الدين الأيوبي. وكانت رغبته الرئيسية العمل في ميدان الكتابة والانشاء، محور اختصاصه الرئيسي في بلاده، لكنه عدل عن ذلك، حينما رأى عماد الدين الأصفهاني الكاتب وعبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل. ولمس عن قرب علو مكانتهما في مضمار الكتابة، وبعد فترة أمضاها بالتجول في بلدان عديدة، قصد مدينة دمشق، واتخذها مقره الأخير حيث عمل خطيبا في بلدة داريا حتى توفي سنة ٥٧٥ هـ ـــ ١١٧٩ م[٥٦] وكانت أهم المساجد التي عمل فيها الأندلسيون في وقت مبكر من فترة هذا البحث بمدينة دمشق، كان الجامع الأموي الكبير الذي نزل به، أحمد بن أبي بكر بن عتيق الشهير بأبي جعفر الفنكي، بعد رحلة طويلة إلى حد ما، أمضى منها ست سنوات مجاورا في الأماكن المقدسة بالحجاز، كما سمع في بلدان أخرى، على علماء، كان آخرهم ابن عساكر المؤرخ الدمشقي. فغدا من المقرئين المجودين والمحدثين المسندين حسب قول الجزري في طبقات القراء، الأمر الذي ساعده على أن يكون أحد المتناوبين في قراءة التراويح برمضان[٥٧]. وعندما سيطر صلاح الدين الأيوبي على مدينة دمشق، أمر بتجديد عمارة مدرسة الكلاسة الملتصقة بالجامع الأموي من جهة الشمال، والتي كانت قد احترقت سنة ٥٧٠ هـ ـــ ١١٣٥ م، فتم تجديدها بعد خمس

---

٥٦ ـــ وفيات الأعيان ـــ ج ٤ ط بيروت ١٩٧١ ص ٣٨٥.

٥٧ ـــ طبقات القراء ج ٢ ص ٢٠٥ ـــ الذيل والتكملة سفره ص ١٧٥.

سنوات من تاريخ الحريق . وعلى اعتبار أن هذه المدرسة كانت مخصصة للمالكية ، فمن الطبيعي جداً أن يتولّى إمامتها رجل على المذهب المالكي ، وهذا ما حدث فعلاً ، فأول أمام صلى بها ، كان أبو جعفر الفنكي هذا ، لكونه يجمع ما بين القراءة والحديث وبعض العلوم الفقهية الأخرى ، وبقيت في يده مدة طويلة نسبياً ، كان آخرها سنة ٥٩٦ هـ ــ ١٢٠٠ م . وتوارث إمامتها من بعده أولاده ، حتى سنة ٦٤٣ هـ ــ ١٢٤٦ م حيث انقرضوا ولم يبق لهم عقب[٥٨] وأول من خلفه من أولاده ، البرهان أبو الحسن اسماعيل ، الذي عمل إماما بالمدرسة المذكورة حتى كانت وفاته سنة ٦٣١ هـ ــ ١٢٣٤ م[٥٩] وثانيهما التاج أبو الحسن محمد ، الذي ولد بدمشق سنة ٥٧٥ هـ ــ ١١٧٩ م ونشأ فيها ، حيث تلقى علومه عن العديد من علمائها ، وظل يعمل إماما بعد أخيه ، حتى توفي سنة ٦٤٣ هـ ــ ١٢٤٦ م[٦٠] ولم يكن تواجد هؤلاء مقتصراً على مدارس المالكية فحسب ، إنما وجدوا في كثير من الأحيان في مدارس أخرى متفرقة من أمثال ذلك المدرسة العادلية بدمشق ، حيث حل واحد منهم يعمل مؤذناً ، هو أبو الحسن علي المغربي المالقي ، حتى سنة ٦٢٦ هـ ــ ١٢٢٦ م تاريخ وفاته[٦١] . ومن المساجد التي تعلقت أسماء أندلسيين بالعمل بها قبة الصخرة في المسجد الأقصى بالذات . وعند تحرير بيت المقدس يصل أندلسي إلى إمامة مسجد الصخرة ويحتل بسلوكه مكانة رفيعة لدى جميع سكان المدينة . فقد التمس السلطان صلاح الدين الأيوبي إماما لقبة الصخرة ، يكون صاحب الصلاة والخطيب فيه ، فأجمع من حضر هناك من العلماء والأفاضل المشار إليهم ، كالعماد الكاتب الاصفهاني والقاضي الفاضل وغيرهما ، على أنه لا أحق من ابي الحسن علي بن محمد بن جميل المعافري ، الذي كان بالإضافة لتقاه وورعه ومتانة عقيدته ، حافظا للحديث عارفاً بالقراءات ، ففي رواية لصاحب كتاب الفتح القسي ، ينقلها المراكشي في الذيل والتكملة ، تتبين منها مرتبته العلمية التي أهلّته لمثل هذا المنصب الذي تقلده ، يقول : « ورتب السلطان في قبة الصخرة إماما من أحسن القراء تلاوة ، وأزينهم طلاوة ، وأنداهم صوتاً وأسماهم في الديانة صيتا ، وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر .. »

---

٥٨ ــ ابن شداد ــ الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ــ تاريخ مدينة دمشق ــ ت سامي الدهان ط دمشق ١٩٥٦ ص ٧٦ ــ العبر في خبر من غبر ج ٤ ص ١٧٩ .

٥٩ ــ الذيل على الروضتين ص ١٦٢ .

٦٠ ــ العبر في خبر من غبر ــ ج ٥ ص ١٧٩ .

٦١ ــ الذيل على الروضتين . ص ١٥٧ .

والذي يبدو أن الإمام المعافري هذا، مثل في مسلكه وعلاقاته سياسة سلطانه صلاح الدين، الذي اعتبر الصراع مع الصليبيين، في وجه من وجوهه على الأقل، صراعا وطنيا يجب أن يساهم فيه الجميع مسلمين كانوا أم غير مسلمين، فقرب إليه زعماء من الكنيسة الشرقية باعتبار أن الكنيسة المغربية وراء الغزاة الصليبيين، واستخدم يوسف بن بابيط مستشاراً له.

وقد عكست جنازة المعافري عند موته سنة ٦٠٥ هـ ــ ١٢٠٩ م، هذا التعاضد بين السادة الايوبيين وممثلي الكنيسة الشرقية. إذ تبع النصارى الذين كانوا في الكنيسة عند مرور جنازته موكب المشيعين وانضموا إليهم. وكانوا يرمون بثيابهم على الجنازة، ويتداولونها فيما بينهم، ويمسحون بها على وجوههم تبركاً به حسب قول ابن عبد الملك المراكشي (٦٢). وقد قام هذا الشيخ خلال حياته بتدريس الحديث، حيث سمع منه جماعة ذكرت كتب التراجم أسماء لبعض الأندلسيين منهم أخوه أبو زيد عبد الرحمن، وأندلسي آخر هو ابن خروف. وبذلك يكون الإمام المعافري الذي عرف بالقدس باسم الشيخ أو الحاج المالقي، قد أسهم في نقل العلم الذي أخذه عن شيوخ مالقة في جنوب الأندلس، في فترة شبابه إلى المشرق وأكمله فيما بعد ببيت المقدس كما ذكر (٦٣).

وعودة أخرى إلى مدينة دمشق، ترينا بوضوح أن الزاوية المالكية بالجامع الأموي الكبير، كانت إمامتها مقتصرة على الأندلسيين المغاربة، وذلك بالرغم من وجود بعض الاستثناءات، حيث أن كتب التراجم لا تساعد كثيراً على تتبع حركة هؤلاء بانتظام. مثال ذلك أنها أي كتب التراجم لم تذكر شيئاً عن الفترة الممتدة من سنة ٦٤٣ هـ ــ ١٢٤٦ وحتى سنة ٦٨٤ هـ ــ ١٢٨٥ م حيث وصل إلى دمشق أندلسي مغربي تسلم منصب الإمامة بالزاوية المالكية بالجامع الأموي، هذا الأندلسي هو محمد بن أحمد بن الحاج التجيبي القرطبي ثم الغرناطي المالكي. ولد محمد هذا في قرطبة بالأندلس سنة ٦٣٨ هـ ــ ١٢٤١ م ومات والده وجده في عام واحد هو عام ٦٤١ هـ ــ ١٢٤٢ م فنشأ يتيما في حجر أمه.

ومن مدينة قرطبة انتقل إلى شريش، ثم إلى غرناطة ومنها إلى تونس، حيث سكنها مدة خمس سنوات، توجه بعدها إلى دمشق، حيث تسلم لدى وصوله إليها إمام المالكية

---

٦٢ ــ الذيل والتكملة ــ سفره ق ١ ص ٣١٥ ــ ٣١٦.

٦٣ ــ المصدر السابق ص ٣١٥ ــ ٣١٦ ابن الزبير صلة الصلة ج ٧ ت ١ ــ ليفي بروفنسال ــ ط الجزائر ١٩٣٧ ص ١٠٤.

بزاويتهم ، حتى كانت وفاته ٧١٨ هـ ـــ ١٣١٨ م ويختلف هذا الشيخ عن الأئمة السابقين ، أنه امتلك ثروة كبيرة ، كان قد ورثها عن أبيه وجده . لذلك لا يستبعد أن يكون رفضه لمنصب قاضي قضاة المالكية بدمشق ، سببه عدم حاجته للمال والثروة ، لأنه لو كان بحاجة لمثل ذلك ، أو بالأحرى لو كان يشكو من فقر وعوز ، لكان قبل بهذا المنصب ، لكونه من المناصب العليا ، التي تدر على صاحبها مالاً كثيراً ، كما يستنتج أيضاً من طلبه للقضاء ، بشكل عفوي ومن غير توسط أو تزلف ، أنه كان ذا ثقافة دينية تؤهله لاستلام منصب كهذا ، اضافة إلى أنه كان يعرف اللغة والنحو إلى جانب الفقه والحديث ، على حد قول الذين ترجموا له(٦٤) ويبدو أن الامام في الزاوية المالكية بجامع دمشق الكبير ، كان باستطاعته ان يورث أولاده الإمامة من بعده دون حرج أو معارضة من أحد ، كما فعل أبو جعفر الفنكي(٦٥) من قبل ، حيث ورثه اثنان من أولاده ، لذلك فإن الصورة تتكرر بعد ثلاثة أرباع القرن ، عندما خلف الإمام التبجيبي المذكور آنفاً ، ولده عبد الله المدعو أبو محمد والملقب بفخر الدين ـــ ولد في غرناطة . بجنوب الأندلس سنة ٦٧٥ هـ ـــ ١٢٧٦ م ، وكان عمره تسع سنوات عندما نزل والده بدمشق ، وعندما تولى الإمامة عشية وفاة والده ، كانت ثقافته بمستوى يجعله أهلاً لمثل هذه المهمة ، وكان قد اكتسبها خلال وجوده بدمشق ، حيث تتلمذ على بعض علمائها ، أمثال التاج الفزاري ، والجمال بن الشريشي وغيرهما ، فقد كانت له معرفة بعلم الحديث والفقه ، وبعض علوم اللغة العربية ، كالنحو ، يضاف إلى ذلك أنه كان متعمقاً بالمذهب المالكي ، كما كان حال والده من قبل . وهكذا فقد ظل إماما للمالكية بدمشق فترة لابأس بها من الزمن انتهت بوفاته سنة ٧٤٣ هـ ـــ ١٣٢٣(٦٦) . وخارج الزاوية المالكية بدمشق ، توصل أحد الأندلسيين إلى إمامة جامع الرأس ، التي كلفته على مايبدو إلى التحول عن المالكية إلى الحنفية ، هذا الأندلسي هو الفقيه شهاب الدين أحمد بن العفيف الصقلي الدمشقي الحنفي ، الذي لا يعرف متى وصل الشام ، وإن كان من السهل معرفة ولادته ، التي كانت سنة ٦٣٦ هـ ـــ ١٢٣٩ م ، بالاعتماد على قول الذهبي أنه توفي سنة ٧٢٤ هـ وله ثمان وثمانون سنة . وكل ما يمكن قوله ، أنه جاء في فترة مبكرة ، لكونه كان يحدث عن أحد علماء دمشق السابقين ، الذي هو ابن الصلاح ، الذي اعتبره الذهبي آخر من

٦٤ ـــ الدرر الكامنة ـــ ج ٣ ص ٣٥٠ ـــ ٣٥١ ـــ الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١٤٤ .

٦٥ ـــ انظر ص ١٥٥ من هذا البحث .

٦٦ ـــ الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٨٦ ـــ وفيات ابن رافع ـــ الترجمة رقم ٣٢٢ .

حدث عن المذكور[٦٧] وقد شكل وجود بعض الأندلسيين أهمية أكبر في المناطق أو بعض المدن الصغيرة في بلاد الشام، على اعتبار أن مثل هذه المناطق، غالباً ما يكفي أهلها مسجداً واحداً على سبيل المثال لأداء الصلاة، وغير ذلك من الأمور الدينية الأخرى. لذلك فإن وجود بعض المشايخ أو رجال الدين البارزين، يمكن أن يقوم بمهمة الإمامة والخطبة في الجمع والمناسبات. وهذا ما حدث لبعض الأندلسيين في مدينة صفد ولفترة طويلة إلى حد ما، حيث نزلها بعضهم واستقروا فيها يعملون في مجال الخطابة بجامعها الرئيسي. من هؤلاء، حسن بن محمد القرطبي الأصل. الصفدي المنشأ والمعروف بنجم الدين. كان والده خطيبا بصفد خلال القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي على أغلب الظن، وأقول على أغلب الظن، لأني لم أعثر على ترجمة له، أستطيع من خلالها تحديد الفترة، التي شغلها كخطيب بهذه المدينة. وحسن بن محمد هذا، كان ينوب عن والده في حياته، الأمر الذي يستنتج منه، أن الأندلسيين، كانوا يجدون لأبنائهم وأقربائهم عملاً مناسباً يخولهم فيما بعد أن يحلوا محلهم بشكل طبيعي، وان كان الأمر نادر الوجود في المدارس لشروطها الصعبة في مثل هذه المسألة، بعكس المساجد حيث كان من الأمور التي كثيرا ما تحدث فيها، رغم أن كتب التراجم لا تذخر بذكر كثير لمثل هؤلاء. لكن الأمر لم يكن يمر بسهولة في بعض الأحيان، فبعد وفاة والد الخطيب حسن القرطبي المذكور، تعرض لمضايقات وضغوط أجبرته على الانتقال إلى مدينة دمشق، حيث عمل خطيبا في جامع جراح، وحظي بخدمة نائبها (كزاي) المملوكي. وخلال اقامته القصيرة بدمشق، تبين للنائب المذكور مقدرة هذا الخطيب وتمكنه في مجال عمله، إضافة إلى عفته وأمانته، مما حدا به إلى إرجاعه إلى صفد بموجب كتاب رسمي، ضمنه تكليفه بالعمل في الخطابة وديوان الإنشاء في وقت واحد. الأمر الذي يقود للقول، أن مثل هؤلاء، لم يكونوا يكتفون بالعمل في ميدان واحد، إذا ما توفرت لهم الفرص والمناسبات، كما حدث لبعض القضاة الأندلسيين، الذين عملوا في مجال التدريس إضافة إلى وظيفتهم الرئيسية كقاضٍ للقضاة، كما سيمر ذكره في بحث لاحق. وبعد عودة هذا الخطيب إلى صفد، اصطدم بمعارضة أحد المتنفذين المدعوزين حلاوات، فأخذ يضايقه حتى حُلَّ الأمر بينهما، بأن تسلم زين حلاوات وظيفة ديوان الإنشاء وحسن القرطبي مهمة الخطبة بالجامع، وبصورة مستمرة حتى توفي سنة ٧٢٣ هـ ـــ ١٣٢٣ م. ويعتبر هذا الخطيب

٦٧ ـــ الذهبي والحسيني ـــ ذيل العبر ـــ ت محمد رشاد عبد المطلب ط الكويت ص ١٣٩.

نموذجاً فريداً ومميزاً عن أمثاله ، من العاملين في هذا المضمار ، فقد كان على مذهب الشافعية اضافة إلى اتساع معارفه وذكائه الحاد ، الذي تجلى بأنه كان يرد جواب الاسئلة بأقصى سرعة . وقد كان مغرما بالمنطق ، فاشتدت عنايته بتزيل قواعد النحو على قواعد المنطق ، فخالف بذلك سمة من سمات الفكر الديني الذي ساد الأندلسيين وهو الابتعاد عن استخدام العقل في شؤون الدين . وقد يوحي مثل هذا التغيير في الطابع بالرغبة في جلب المنافع ، لكن الذي يجعل مثل هذا الايحاء غير صحيح ، انه امتاز بالكرم والسخاء المفرط ، بالرغم من فقره وقلة ما في يده الذي يظهر من احدى الحوادث التي جرت معه عندما لم يقبل هدية قيمتها مائتي دينار في وقت كان لا يجد فيه ثمن الزيت لقنديله[٦٨] . وخلفه في خطابة مسجد صفد ابنه محمد الملقب بكمال الدين ، ولد بدمشق ونشأ بصفد في كنف والده ، الذي علمه الخطابة وشجعه عليها ، حتى أنه كان يخطب عن والده في كثير من الأحيان ، وهو لا يزال في سن السابعة عشرة . وتتكرر معه مأساة والده نفسها بأن أزيح عن منصبه ولجأ إلى دمشق ، حيث أقام فيها فترة قصيرة من الزمن عاد على أثرها إلى صفد ، كما حدث لوالده من ذي قبل ، لكن ليس إلى الخطابة بالمسجد ، انما إلى ديوان الانشاء ، وكان ذلك سنة ٧٤٢ هـ ــ ١٣٤٢ م[٦٩] أما عن المدة التي أمضاها بعد هذا التاريخ بمدينة صفد وتاريخ وفاته ، فلا أعرف عنهما شيئاً . ويعتبر هذا الخطيب ووالده من النماذج الفريدة من مجموع الجالية الاندلسية التي حلّت بالشام ، والتي لقيت معارضة من الأهلين بشكل سافر ، الأمر الذي يوحي بأن وجود بعض الأندلسيين في المناطق الشامية الضيقة والقليلة الشواغر ، كان يشكل عبئاً ثقيلاً على بعض أهل البلاد الأصليين ، وبالتالي فهم مصدر قلق دائم لكونهم استأثروا بعناية واهتمام الحكام بشكل خاص . ولم يقتصر وجود الأندلسيين في الجامع الأموي الكبير على الزاوية المالكية فحسب ، إنما وجد بعضهم في أماكن أخرى منه ، لكن ليس بصفة إمام على سبيل المثال ، إنما بصفة مؤذن ، مثال ذلك عيسى بن علي البسطي الأندلسي المولود سنة ٦٦٢ هـ ــ ١٢٦٤ م حيث تصدى لمهمة الأذان بعد أن تعلم معرفة الوقت ، وتحديد زمن كل صلاة ، وربما كان ذلك في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي .

وقد كان آذانه محببا لفصاحته وحسن نغمته . توفي بدمشق سنة ٧٣٤ هـ على رأس

٦٨ ــ الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٤ ــ ٤٥ .

٦٩ ــ الوافي بالوفيات ــ ج ٢ ص ٣٦٦ ــ ٣٦٧ .

عمله هذا[٧٠] ومن الذين أموا في محراب المالكية بالجامع الأموي، أحمد بن محمد الاشبيلي المعروف بأبي عمرو المالكي. ولد بغرناطة سنة ٦٧٢ هـ ـ ١٢٧٣ م، قدم دمشق وفيها سمع عن بعض علمائها، وتصدى لمهمة الإمامة في سن متأخرة، ولم يمض فيها أكثر من سنتين توفي بعدها سنة ٧٤٥ هـ ـ ١٣٤٥ م. وقيل بأنه كان يعتبر واحداً من المفتين على المذهب المالكي[٧١] وقد عرفت مدينة طرابلس الشام واحداً من هؤلاء عمل لفترة كخطيب في إحدى مساجدها، هو عمر بن علي بن أبي بكر المغربي. ولد بعد سنة ٧٢٠ هـ ـ ١٣٢٠ م بقليل وتوفي بحماه سنة ٧٨٤ هـ ـ ١٣٨٢[٧٢]. وفي مدينة دمشق أيضاً، اشتغل محمد بن أحمد بن أبي الوليد القرطبي، ثم الغرناطي، إماما بالزاوية المالكية بالجامع الأموي، حتى وفاته في سنة ٧٩٣ هـ ـ ١٣٩١ م.

وقد اشتهر بفضله وحسن سيرته[٧٣] وخلال القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، استقبلت مدينة بيت المقدس، عدداً كبيراً من الأندلسيين المغاربة، عملوا في ميادين مختلفة، كان منها المساجد، ومن الطبيعي أن يتركز عمل الأئمة من هؤلاء في المسجد الأقصى، الذي خصص قسماً منه للمغاربة، كما كانت الحال بالنسبة لهم بالجامع الأموي بدمشق. منهم محمد بن محمد المغربي المالكي الشهير بابن خليفة، وهو من الجيل الأندلسي الذي ولد ببلاد الشام، وبالضبط في بيت المقدس سنة ٨٥١ هـ ـ ١٤٤٧ م وفيها تلقى معارفة، التي تنوعت كحفظ الحديث والقرآن وتجويده، إضافة إلى النحو والفقه. وعمل في إمامة المالكية بالجامع الأقصى حتى وافته المنية[٧٤]. أما في المسجد الأقصى ككل، فلم ينل الأندلسيون الذين احتوت كتب المتراجم سيرهم، أكثر من وظائف دنيا، كما كان حالهم في مسجد دمشق الكبير، حيث توصل بعضهم إلى مرتبة مؤذن. مثال هؤلاء، مثل أحمد بن محمد الرياحي المغربي، الذي اشتغل مؤذناً بالأقصى فترة غير قصيرة، وتوفي سنة ٨٧٥ هـ ـ ١٤٧٠ م[٧٥].

---

٧٠ ـ الدرر الكامنة ـ ج ٣ ص ٢٠.
٧١ ـ الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٤٧ ـ ذيول العبر ص ٢٤٦.
٧٢ ـ انباء الغمر ـ ج ١ ص ٢٦٨.
٧٣ ـ المصدر السابق ص ٤٢٨.
٧٤ ـ الضوء اللامع ج ٩ ص ١٠٥.
٧٥ ـ الأنس الجليل ج ٢ ص ٥٨٧.

ومن أئمة الزاوية المالكية بالأقصى، تذكر كتب التراجم واحداً منهم يشبه إلى حد كبير الإمام المذكور آنفاً ابن خليفة، فهو من مواليد بيت المقدس نفسها سنة ٨٠١ هـ ــ ١٣٩٩ م وفيها نشأ وتلقى علومه، التي لم تقتصر على فرع معين فحسب، إنما شملت مسائل فقهية وخاصة على المذهب المالكي، كما عني بالحديث، وأخذ عن بعض الصوفية، واستقر فيما بعد يؤم بالمالكية، وهو محمد بن خليفة بن مسعود المغربي الملقب بشمس الدين. وظل على رأس عمله حتى كانت سنة ٨٧٢ هـ ــ ١٤٦٨ م، حيث عزل عنها، لينكب على العبادة حتى وفاته سنة ٨٨٩ هـ ــ ١٤٨٤ م(٧٦). وكان آخر من وقفت على تراجمهم من هؤلاء، محمد بن عبد الرحمن المغربي الملقب بشمس الدين، الذي ولد سنة ٨٢٤ هـ ــ ١٤٢٠ م في بيت المقدس على أغلب الظن، انطلاقاً من أنه كان على المذهب الشافعي، وتحول إلى المذهب المالكي، وكانت له معرفة بالحديث، إضافة إلى أنه كان يحفظ القرآن. وبالرغم من تحوله عن المذهب الشافعي إلى المالكي، فإنه لم يتوصل إلى الاستقلال بالإمامة بزاويتهم المخصصة لهم بالأقصى، وبقي ينوب عن الإمام الرئيسي، حتى وافته المنية سنة ٨٩٢ هـ ــ ١٤٨٣(٧٧). ولعل أهم ما يمكن استنتاجه من خلال دراسة رجال هذه الفئة، أنهم يختلفون عن جميع الفئات الأندلسية الأخرى، إذا ما ضم إليهم رجال العلوم العقلية والأطباء، والقضاة المالكية بشكل خاص، وهم يختلفون في ناحية واحدة، تتجلى بأنهم لم يتحولوا عن مذهبهم الأصلي (المالكي) إلا في النادر، ويعود ذلك في غالب الأحيان، إلى أن معظمهم عمل في الزوايتين المالكيتين بالجامع الأموي بدمشق، وبالمسجد الأقصى ببيت المقدس(٧٨) حيث أن الإمام في هاتين الزاويتين كان مسؤولاً عن إقامة الصلاة والخطبة، وحل المشاكل التي تخص الجالية الأندلسية المالكية في كلا البلدين، وخاصة الفقهية منها، وذلك استناداً على أن الإمام أعرف من غيره بشؤون هذا المذهب، الأمر الذي جعله مفتياً وفقيهاً ومسؤولاً عن إقامة الصلوات إلى غير ذلك من الأمور الأخرى المتفرقة.

---

٧٦ ــ الأنس الجليل ج ٢ ص ٥٨٩.

٧٧ ــ المصدر السابق ص ٥٩٠.

٧٨ ــ الزاوية المالكية بالمسجد الأقصى، حديثة العهد، إذا ما قورنت بالزاوية المالكية بالجامع الأموي بدمشق، فهي تعود على وجه التقريب إلى السنين الأخيرة من النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي. وكان الذي سعى بإقرار الصلاة المنفردة للمالكية، هو الشيخ موسى المغربي المالكي المتوفى بمدينة الخليل العربية سنة ٨١٠ هـ (الأنس الجليل ٢/٥٨١).

المقرئون

وهؤلاء فئة قليلة من الأندلسيين اختصوا بفرع واحد من فروع العلوم الدينية، هو علم القراءات، التي تنحصر معرفته، بإتقان طرق تجويد القرآن الكريم، والتي وصلت عند بعضهم إلى سبع طرق، وإلى عشر عند بعضهم الآخر، والشيء الجدير بالذكر هنا، أن الأندلسيين اشتهروا في هذا المضمار إلى حد تميزوا فيه عن غيرهم، وخاصة في الفترة التي تلت نهاية القرن الرابع الهجري، فقبل هذه الفترة، كان الأندلسيون يعتمدون على الأسلوب المشرقي في القراءات: وتعود جذور تأسيس قواعد هذا العلم إلى مجاهد مولى العامريين، الذي اعتمده المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته، فكان سهمه في هذا وافراً، واختص مجاهد هذا بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنفقت به سوق القراءات لما كان هو من أئمتها[٧٩] كما ظهر في مدينة قرطبة واحد من كبار هذا الشأن هو أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ ـــ ١٠٤٦ م، الذي ألف عدة كتب هامة في القراءات أهمها كتاب (التبصرة)[٨٠]. وهكذا فقد تتالى ظهور المعتنين بالقراءات في الأندلس، وانكبوا على دراستها واتقانها بشكل ظاهر ومميز، وإلى حد يمكن القول معه بأن الأندلسيين كانوا أصحاب مدارس يعوّل عليها في هذا الميدان. لذلك فإن تلاميذ هذه المدارس وخاصة منهم، الذين عرفتهم الشام خلال فترة هذا البحث، لم يكن يقتصر نشاطهم على وجه واحد من وجوه هذه الصنعة، كممارسة القراءة في مسجد، أو محفل في مناسبة معينة فحسب، إنما شمل هذا النشاط أمورا أكثر أهمية وخلوداً، وذلك أنهم قاموا بوضع مؤلفات تختص بعلم القراءات وتدريسها للطلاب والمهتمين، كأي علم أو فن آخر. وبرهنوا على مقدرتهم الفائقة في هذا المضمار، كمعلمين متفوقين على غيرهم. وقد عرفت بلاد الشام، كما هي الحال بالنسبة للفئات الأخرى عدداً لابأس به من المقرئين، كان منهم أحمد بن محمد الأنصاري الذي ولد بشاطبة بالأندلس سنة ٤٥٤ هـ ـــ ١٠٦٢ م، وفيها تلقى علمه وقرأ على مختصين في هذا الشأن، أمثال علي الحسين بن موسى الدينوري وعلي الحسن بن محمد الصقلي وغيرهما. وكعادة الكثيرين من أهل الأندلس، رحل إلى المشرق فحلَّ بمدينة دمشق سنة ٥٠٤ هـ ـــ ١١١١ م في سن متأخرة وعمل فيها معلما لقراءة القرآن بعدة روايات وكان العمل الأهم بالنسبة له، أن قام بتأليف عدد من الكتب التي تختص

---

٧٩ ـــ تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٠٥ ـــ ٤٠٦.

٨٠ ـــ نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٩.

بالقراءات في أثناء فترة إقامته بدمشق . كان منها كتاب (المقنع في القراءات) وكتاب (قراءة أبي عمرو الداني) المتوفى سنة ٤٤٤ هـــ ١٠٥٣ م ، وهو شخصية مشهورة جداً في هذا العلم ، بلغ فيه الغاية ووقفت عليه معرفته وانتهت إلى روايته اسانيده وتعددت تآليفه فيه ، الأمر الذي جعلها من المصادر التي يعول عليها الناس من القراء[٨١] وكتاب آخر سماه (التنبيه على قراءة نافع) . وقد تتلمذ عليه كثيرون من أهل دمشق ، كان منهم والد أبي القاسم علي بن عساكر مؤرخ الشام ، وأجاز له جميع مصنفاته وكتب سماعاته ، سنة ٥٠٥ هـــ ١١١٢ م[٨٢] واحتضنت مدينة حلب قارئاً كبيراً ، هو عبد العزيز بن علي المعروف بابن الطحان . ولد بمدينة أشبيلية بالأندلس سنة ٤٩٨ هـــ ١١٠٥ م . وأول قطر مشرقي دخله ، كان الحجاز بقصد تأدية فريضة الحج . انتقل بعد ذلك إلى مصر ومن ثم إلى العراق ، وفي هذه الأخيرة ، بدأ باعطاء الدروس في مجال علم القراءات بمدينة واسط . الأمر الذي يدل بوضوح على أن رجال هذه الفئة من الأندلسيين يختلفون عن غيرهم من الفئات الأخرى ، أنهم لم يعتمدوا على مصادر الثقافة المشرقية في ميدان اختصاصهم الرئيسي . وبعد إقامة لم تطل مدتها بالعراق ، غادرها قاصداً مدينة حلب ، حيث اتخذها مقر استقراره الدائم طيلة حياته التي انتهت سنة ٥٥٩ هـــ ١١٦٤ م والحقيقة التي لا بد من قولها ، أن هذا المقرىء ، اعتبر كواحد من المقرئين الأندلسيين العظام ، الذين حلوا بالشام ، وعرفوا بالدقة والاتقان والاحاطة بجميع أنواع القراءات . وليس أدل على ذلك من قول بعضهم فيه : « وليس بالغرب أعلم بالقراءات من ابن الطحان » . وقد أهله مستواه الرفيع في هذا العلم ومعرفته الواسعة ، لأن يهتم بالتأليف ، والانتاج إلى جانب التدريس . فاشتهرت عنه عدة مؤلفات ، كان أهمها كتاب سماه (نظام الاداء في الوقف والابتداء) وآخر سماه (الدعاء) بالاضافة إلى مقدمتين ، إحداهما في (أصول القراءات) والثانية (في مخارج الحروف)[٨٣] . وبعد هذه الفترة بقليل حط واحد من هؤلاء رحاله في مدينة دمشق . وهو كالنموذجين السابقين من حيث الأهلية والمعرفة الأكيدة بهذا العلم ، الذي تلقاه واتقنه قبل المجيىء إلى المشرق . تمثل هذا النموذج بشخص أبي القاسم الشاطبي محمد بن فيرة الرعيني المولود بشاطبة سنة ٥٣٨ هـــ ١١٤٤ م . الذي وصل إلى مصر في الفترة التي توفي فيها ابن عساكر المؤرخ

---

٨١ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٥ ــ تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٠٦ .

٨٢ ــ التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ٢٧ ــ الذيل والتكملة سفرا ق ٢ ص ٤١٥ .

٨٣ ــ نفح الطيب ج ٣ ص ٣٨٩ ــ ٣٩٠ .

والمحدث الدمشقي، وبعد إقامة قصيرة، قصد مدينة دمشق، ليستقر فيها بصورة دائمة، ولا يعرف عن نشاطه فيها شيء يذكر، وخاصة في ميدان التدريس، وإن كان من المحتمل أنه مارسه وعمل في ميدانه جريا على عادة الأندلسيين، وذلك من أجل تأمين وسائل العيش وأسبابه، لكنه اشتهر في ميدان التأليف، حيث ترك أثراً ذي قيمة عالية. تجلى بأن قام بنظم القواعد الواردة في كتاب (التيسير) لأبي عمرو الداني، واختصرها في قصيدته المشهورة (الشاطبية)، فسهل على الناس استذكار قواعد القراءات وحفظها، وعدة هذه القصيدة ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، أبدع فيها كل الإبداع، ونظم قصيدة دالية أخرى في خمسمائة بيت، لخص فيها مضمون كتاب (التمهيد) لابن عبد البر في القراءات[٨٤] وقد عمت شهرة المؤلف الأول (الشاطبية) أو التي تعرف أيضاً (بحرز الأماني ووجه التهاني) فأصبحت من الكتب التي يركز عليها كل من يهتم بالقراءات في الشام وغيرها. وقد عبر عن ذلك ابن خلكان في رواية ينقلها المقري في نفح الطيب بقوله: «أنه أبدع في حرز الأماني (منظومة)، وهي عمدة قراء هذا الزمن في تعلمهم، فقل من يشتغل بالقراءات، إلا ويقدم حفظها ومعرفتها، مشتملة على رموز عجيبة، واشارات لطيفة، وما أظن أنه سبق إلى أسلوبها»[٨٥]. وفي أوائل القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، وصل إلى مدينة حلب نموذج آخر من هؤلاء المقرئين الأفذاذ، والذي وصفه تلميذه صاحب كتاب (برنامج شيوخ الرعيني) بأنه كان بارعاً في علم القراءات، لا يجاريه أحد في ذلك، هو أبو بكر بن الرماك من مدينة أشبيلية بالأندلس. فقد عرف عنه شدة اهتمامه واعتنائه الزائدين بقرّائه وتلامذته، ومبالغته في التركيز على إتقان الأداء في قراءة القرآن، فعلا صيته وتبلورت منزلته كقارىء معلم نادر الوجود في مدينة حلب، وان كان قد قصر عن الذين سبقوه في مضمار التأليف على هذا الصعيد[٨٦] وهناك مقرئون آخرون غير هؤلاء، الذين ورد ذكرهم حتى الآن، يمكن القول أنهم عاصروا المقرىء المذكور آنفاً، لكن بمدينة دمشق.

ويبدو أن الجامع الأموي الكبير بدمشق، كان أحد المراكز الهامة التي استقطبت مقرئين أندلسيين. وهذا الأمر لا يبدو غريباً، إذا ما أُخذتْ بعين الاعتبار مكانة هذا الجامع في تلك الفترة من الزمن، كأحد الجوامع الشهيرة في بلاد الشام بعد المسجد الأقصى. فكان

٨٤ ـــ تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٠٦.

٨٥ ـــ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٢٩.

٨٦ ـــ الرعيني الاشبيلي ـــ برنامج شيوخ الرعيني ـــ ت ابراهيم شبوح ط دمشق ١٩٦٢ ص ٩ ـــ ١٠.

من هؤلاء المقرئين، من اشتهر أمره بالمسجد الأموي كمقرىء من المقرئين المعتبرين، حيث كان يعقد حلقة للإقراء ضمن حلقة ابن طاوس، شرقي البرادة وقبالة حلقة جمال الاسلام الشهرزوري. هذا المقرىء هو ابراهيم بن يوسف المكنى بأبي الفرج والمعروف بالوجيه ابن البوني، الذي لا يعرف متى ولد ولا أين نشأ ولا متى وصل إلى دمشق، انطلاقا من أن أبا شامة الذي عاصره وعرفه أكثر من غيره، باعتباره كان أحد التلاميذ الذين قرأوا عليه جزءاً من القرآن الكريم لا يفصل في ذلك. وكل ما ذكره عنه أنه: «كان فاضلاً خيراً متواضعاً ساعياً في حوائج الناس. قرأت عليه الجزء الأول من القرآن ...» توفي سنة ٦١٢ هـ ــ ١٢١٦ م ودفن بجبل قاسيون، وكان يوم وفاته من الأيام المشهودة على حد قول أبي شامه[٨٧]. وخلف الوجيه ابن البوني هذا وفي الحلقة المذكورة نفسها التي في الجامع الأموي، خلفه إثنان من المقرئين الأندلسيين بالتتالي، لا يذكر أبو شامه عنهما سوى ألقابهما فقط، وهما الجمال الشاطبي نسبة إلى شاطبة بالأندلس وابن الفخر المالكي[٨٨] وفي دمشق أيضاً وبالمدرسة العادلية، كان لهؤلاء القراء وجود على ما يبدو. لكن الذي يظهر أن من توصل للعمل في هذه المدرسة، لم يبق على المذهب المالكي كسائر الغالبية العظمى من هؤلاء القراء. مثال ذلك المقرىء الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن الهادي الضرير من مدينة اشبيلية بالأندلس. كان قد غادر الأندلس سنة ٦٢١ هـ ــ ١٢٢٥ م فأسر من قبل الافرنج وهو في البحر بطريقه إلى المشرق. وبعد أن أفرج عنه، توجه إلى مصر، ومنها إلى الديار المقدسة لتأدية فريضة الحج، ومنها سافر إلى اليمن، الذي لا يستبعد أنه كان يود الاستقرار فيها، الأمر الذي لم يحصل له، حيث غادرها إلى مكة ومنها إلى بلاد الشام، فاستقر بدمشق يعمل في مجال إقراء القرآن الكريم فقط، بالرغم من معرفته الضليعة في علوم شتى، إضافة إلى حفظه التنبيه في المذهب الشافعي، بعد أن تحول إليه عشية وصوله إلى الشام. ورغم أنه كان يسكن ببيت ملاصق لباب السقاية بدمشق، فانه توفي بالمدرسة العادلية المذكورة سنة ٦٤٨ هـ ــ ١٢٥١ م ودفن في مقابر الصوفية[٨٩].

وهناك أسماء كثيرة من الأندلسيين المقرئين، لا يمكن تصنيفهم ودراستهم تحت عنوان (المقرئين). وذلك لسبب بسيط جداً، يتجسد بأنهم لم يكونوا قد اقتصروا على تدريس أو

٨٧ ــ الذيل على الروضتين ص ٩١.

٨٨ ــ المصدر السابق ص ٢٠٢.

٨٩ ــ المصدر السابق ص ١٨.

إقراء فرع من العلوم الدينية فحسب ، إنما وصل الأمر ببعضهم إلى حد تدريس العلوم الدينية واللغوية ، الشيء الذي أجبرني على إرجاء تصنيفهم ودراستهم إلى ما بعد الانتهاء من رجال العلوم الدينية واللغوية ، كفئة استطاع أفرادها الجمع بين هذين العلمين في كثير من الأحيان .

رجال الزهد والتصوف

احتضنت بلاد الشام عدداً لابأس به ، خلال فترة هذا البحث ، من الأندلسيين المغاربة ، الذين تنطبق عليهم هذه التسمية . وقد انقسم هؤلاء إلى قسمين متباينين ، انطلاقاً من فهمهم وتطبيقهم لأساليب الزهد والتصوف . فتمثل رجال القسم الأول بأولئك الذين عرفوا بزهدهم ومرابطتهم في أمكنة متعددة ، كالزوايا والخانقاهات ، وأحياناً بالمجاورة في المسجد الأقصى بالقدس الشريف ، وانحصر نشاطهم في العبادة والورع والدعوة إلى تمثل السلف الصالح في الحياة ، كالبساطة في العيش وقهر النفس ، وإن كان بعض هؤلاء ، قد انفرد بمزية إضافية ، تجلت بالدفاع عن ثغورهم التي رابطوا بها ، ضد الأخطار التي أحدقت بها من جراء الزحف الصليبي باتجاهها . وهذا ما سأترك أمر تفصيله إلى بحث لاحق . أما القسم الثاني فان التصوف عندهم ، كان غير ذلك ، بحيث يمكن تسميته تصوفاً فلسفياً خرج عن الحدود المعروفة لدى الفريق الأول إلى درجة توصل بعضهم إلى حد القول ، بأن التصوف والزهد ضرب من الذوق يستطيع صاحبه من خلاله ، أن يتعرف على كنه وحقيقة وجود الله عز وجل ، وبالتالي فليس بمقدور كل انسان عمله أو التوصل إليه بطريق الممارسة والتدريب . وهذا الفريق من المتصوفة ، لم يلاق أفراده القبول الشامل في بلاد الشام ، بالرغم من العبقرية التي اتصف بها بعض أفراده ، وكانت علامة فارقة بالنسبة لهم ، وذلك بعكس الفريق الأول ، الذي لاقى أفراده قبولاً شعبياً ورسمياً ، بالرغم من جهل أفراده على جميع المستويات تقريباً ، بحيث غدوا عالة وعبئا ثقيلاً على المجتمع ، وشكلوا بالتالي تياراً مغايراً لتعاليم الاسلام ، التي ترفض التواكل والدعة وعدم العمل . والسؤال المطروح هنا ، لماذا لم يلاق أفراد الفريق الثاني ذلك القبول الذي لاقاه أفراد الفريق الأول ؟ للجواب على هذا السؤال ، لا بد من القول إن ظاهرة عدم القبول ، كان مصدرها الفقهاء ، الذين عملوا بكل الوسائل والسبل لاثارة الحقد والكراهية لهذا النوع من المتصوفة ، الذين بلغ نفوذ بعضهم حداً طغى على نفوذ أهل البلاط ، وأخطر من هذا أنه زاد على نفوذ الفقهاء ، وتعرض لأساليبهم ، التي اتسمت بالتزلف والمراوغة ، من خلال التمسك بشكليات الدين الجامدة والمتحجرة وتفسيره بأسلوب شديد

التزمت، الأمر الذي يرفضه ويحاربه المتصوفة، الذين حملوا روح التمرد والثورة المستترة ضد كل سلطة دينية رسمية[٩٠] لذلك فليس غريباً أن يلقى ابن عربي معارضة شديدة من قبل الفقهاء، على اعتباره المسؤول الأول عن إشاعة واذكاء مثل هذه الآراء تجاه السلطة الدينية الرسمية المتمثلة بالفقهاء، الأمر الذي سيتوضح بالتفصيل من خلال الصفحات التالية. وقد تمثل وجود أفراد الفريق الأول في عدة مناطق شامية كدمشق وبيت المقدس، والمناطق القريبة منهما، وبعض المناطق الأخرى البعيدة. والشيء الذي لا بد من الاشارة إليه، أن تواجد هؤلاء لم يكن متساوياً في هذه المناطق التي ذكرت، انما اختلف من مدينة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر ففي مدينة بيت المقدس، من الطبيعي جدا أن يكون الزهاد والمتصوفون من أكثر الطوائف الأندلسية المغربية نظراً لصورتها ومكانتها العظيمة في أذهانهم، بالرغم من أن المصادر تضن بعض الشيء في التعرض لسيرهم وأخبارهم، وكان هؤلاء الزهاد والمتصوفون على قسمين، منهم ما كان يمارس التصوف بشكل افرادي، ومنهم ما كان من أتباع طرق صوفية معروفة. من هؤلاء الزهاد محمد بن أحمد ابراهيم أبو عبد الله القرشي الهاشمي، المولود بالأندلس سنة ٥٤٤ هـ ــ ١١٥٠ م، الذي سافر إلى مصر، حيث بقي فيها لمدة قصيرة غادرها متوجها إلى بيت المقدس، فسكنها حتى وافته المنية سنة ٥٩٩ هـ ــ ١٢٠٣ م وفيها دفن. ولا يُعرف عن نشاطه هناك شيء يذكر برغم اقامته الطويلة نسبياً، وان كان من المحتمل، أنه اقتصر على تقديم النصائح في مجال الحكمة والموعظة على عادة هؤلاء الصوفيين، فقد أثرت عنه أقوال رائعة في هذا المعنى مثال ذلك قوله: «من لم يراع حقوق الاخوان، ترك حقوقه، وحرم بركة الصحبة» وقال أيضاً: «من لم يدخل في الأمور بالأدب، لم يدرك مطلوبه منها». وكان من الزهاد المغاربة، الذين نالوا شيئاً كبيراً من التقديس لدى العامة، إذ أصبح قبره مزاراً يقصد للزيارة والتبرك ولفترة طويلة من الزمن، بدليل أن المقري صاحب كتاب نفح الطيب، يذكر ذلك بوضوح عندما زار بيت المقدس سنة ١٠٢٨ هـ ــ ١٦١٩[٩١]، ومنهم من جاء إلى بيت المقدس بهدف المجاورة في السنوات الأخيرة من حياته، كإسماعيل بن محمد أبي ابراهيم برهان الدين من مدينة أبذة بالأندلس، حيث استقر بالمسجد الأقصى كأحد المجاورين فيه، بعد أن زار مكة ودمشق، ووصف بالفضل والصلاح والعبادة. توفي

---

٩٠ ــ آسين بالاثيوس ــ ابن عربي ــ ترجمه عن الاسبانية عبد الرحمن بدوي ط القاهرة ١٩٦٥ ص ٧٠ ــ ٧٩.

٩١ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٢٢. العبر في خبر من غبر ج ٤ ص ٣٠٩.

سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م[٩٢] . وأيضاً علي بن أحمد بن حديدة الأندلسي ، الذي أخذ التصوف عن خطيب مالقة أبي عبد الله الساحلي ، وابن علي المرجاني في مدينة بجاية ، ثم توجه إلى المشرق وحج عدة مرات ، وقد عمل على وعظ الناس وإقامة الزوايا في أماكن عديدة تنقل بها . وقال كل من ترجموا له بأنه عرف عنه كثرة أتباعه ومريديه ، في الأماكن التي عمل بها في مجال الزهد والتصوف كالاسكندرية وبيت المقدس ، التي قضى فيها سنوات عمره الأخيرة ، حيث توفي سنة ٧١٩ هـ ـ ١٣١٩ م[٩٣] ، ومن عاش في القدس أيضاً من هؤلاء الزهاد واشتهر أمره في الزهد والعبادة ، محمد بن عبد الله المغربي ، الذي وصلها سنة ٧٩٠ هـ ـ ١٣٨٨ م ويعتبر بحق شخصية فريدة بين رجال هذه الفئة ، كونه بالغ في زهده إلى حد استنفاذ القوى من جراء القيام بمجهودات شاقة جداً ، منها أنه حج أكثر من ستين مرة ، أغلبها مشياً على الأقدام . وقد اشتهر أيضاً بمكاشفاته وكراماته إلى درجة حدث بالبعض أن يلقبه بـ (السيد الجليل) . وهذا اللقب إن دل على شيء ، انما يدل على الثقة ، التي تجسدت عنه في أذهان الآخرين . ممن عرفوه وسمعوا عنه . ووصل الأمر عند البعض من الذين كانت لهم معرفة به ، إلى حد أنه كان لا ينزل ولا يأكل إلا عنده ، لدى زيارته لبيت المقدس ، والذي من المحتمل أن يكون مثل هذا المسلك ، ناتجاً عن سبب رئيسي يتجلى بالحصول على البركة والتقرب منه . وقد توفي ببيت المقدس بعد عودته من حج سنة ٨٤٤ هـ ـ ١٤٤١ م ، عن عمر زاد على الثمانين عاماً[٩٤] كما أن مغاربة من اتباع الطرق أقاموا في القدس ، مثال ذلك في الفترة المتأخرة من هذا البحث ، حيث عرفت هذه المدينة واحداً من أعلام رجال الطرق المغاربة الأندلسيين ، هو الشيخ القدوة خليفة بن مسعود المغربي المالكي ، الذي ولد سنة ٧٤٩ هـ ـ ١٣٤٩ م ، وقدم إلى بيت المقدس سنة ٧٨٤ هـ ـ ١٣٨٢ م ، وظل فيها حتى توفي سنة ٨٣٣ هـ ـ ١٤٣٠ ، يعمل إماما للمالكية وشيخا للمغاربة ، الأمر الذي يدلل على مكانته العالية[٩٥] برغم أنه كان من الصوفية المتسامحين مع أصحاب الشطح من المتصوفين ، ولا يكفرون من يرتكب الأخطاء منهم ، وهو في حالة السكر عند الصوفية بدليل قوله الشهير : « الغلط لا يخرج الانسان عن الصلاح .. » وبالتالي لا يكفر ابن عربي ، مما

---

٩٢ ـ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

٩٣ ـ الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٢ .

٩٤ ـ الضوء اللامع ج ٨ ص ١٢١ .

٩٥ ـ الأنس الجليل ج ٢ ص ٥٨٣ ـ ٥٨٤ .

جعل خصومه يتهمونه بأنه من أتباعه، ولكن هذا لم يمنع من رفعته عند المغاربة وفي صفوف واسعة لدى العامة، لأنه دافع عن نفسه، بأن نفى أن يكون قد تبنى عقيدة ابن عربي في التصوف، وأوضح، أن كل ما كان يفعله، لم يتعد تفسير أقوال (ابن عربي) بشكل مغاير لحقيقتها. ودافع عنه أحد أئمة المالكية مدللا على مكانته من خلال كراماته ومكاشفاته، التي كان أشهرها أنه لما حج وزار النبي رآه في النوم فقال له: «سلم على حفيد ايليا إذا رجعت إليها، فقال ومن هو يا رسول الله؟ قال: خليفة»[٩٦]. أما الطريقة التي برز فيها فهي الشيبانية، والتي كان شيخها في بلاد الشام ابراهيم بن تقي الدين الشيباني الذي غادر القدس إلى دمشق وترك فيها خلفاء له، كان أحدهم خليفة بن مسعود المغربي هذا[٩٧] لذا فقد نال في القدس شيئاً من التقديس بعد موته، وكان قبره ظاهراً يزار في زمن صاحب «الأنس الجليل»، الذي توفي بعده بحوالي قرن من الزمن[٩٨]. كما عُرِفت طرقٌ أخرى من التصوف بالقدس الشريف قبل ذلك بكثير، مثال ذلك طريقة الصوفي الشهير أبي مدين، حيث عمل على نشرها أحد أحفاده، فأقام لها زاوية قرب باب السلسلة من الحرم القدسي الشريف ولا زالت قائمة. ووجدت زاوية لطريقة أخرى بالقدس أيضاً، نظمها أندلسي آخر هو أبو العباس أحمد المرسي الذي نشر طريقته المتميزة في مدينة الاسكندرية. ولم تكن مدينة القدس هي وحدها التي استقطبت مثل هؤلاء الصوفية. فقد برزت مدينة دمشق في هذا الميدان، التي احتوت عدة زوايا وخوانق خصصت لمثل هؤلاء، حيث كان يخصص لها الأموال والأوقاف التي تصرف على الموجودين فيها. من هؤلاء الصوفيين، من علت شهرته على صعيد الزهد والصلاح والعبادة، كعتيق بن أحمد بن عبد الباقي اللورقي نسبة إلى لورقة LORCA بجنوب شرق الأندلس، والمولود سنة ٥١٦ هـ ــ ١١٢٢ م. صحب جماعة من الزهاد. ولم يشتهر عنه شيئاً، سوى أنه كان حسن الأخلاق، كثير الأعضاء إلى غير ذلك من أوصاف الصوفية، بالرغم من أنه عاش طويلاً، بحيث بلغ من العمر مائة سنة عندما توفي بدمشق سنة ٦١٦ هـ ــ ١٢١٩ م ــ حيث دفن بمقابر الصوفية[٩٩]. ويبدو أن هذا المتصوف، كان معروفا على صعيد مدينة دمشق، الأمر الذي يتجلى بوضوح من خلال

---

٩٦ ــ الضوء اللامع ج ٣ ص ١٢١ ــ الأنس الجليل ج ٢ ص ٥٨٣ ــ ٥٨٤.

٩٧ ــ صلاح الدين بن خليل الشيباني ــ تراجم الأعيان في أنباء أبناء الشيباني الموصلي ص ٨٢.

٩٨ ــ الأنس الجليل ج ٢ ص ٥٨٣ ــ ٥٨٤.

٩٩ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٢٢.

حديث أبي شامة المعاصر له، والذي زاره مع أستاذ له، هو أبو الحسن السخاوي، الذي طلب منه الدعاء لأبي شامه، الذي طلب منه الدعاء لأبي شامه، الذي ذكر أنه حصد بركة هذا الدعاء، يقول: «وكان شيخا صالحاً مشهوراً زرته في مرضه مع شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله، وطلب لي منه الدعاء فدعا لي، ووجدت بركة دعائه، وكانت له عبادة جميلة». ويذكر أن وفاته كانت سنة ٦١٧ هـ ــ ١٢٢٠ م وليس سنة ٦١٦ هـ ــ ١٢١٩ م، كما ذكر المقري صاحب كتاب نفح الطيب، الأمر الذي يجعل من معلومات أبي شامة أقرب إلى الدقة والصحة(١٠٠) وقد كان بعض هؤلاء الصوفية يلجأ إلى الاقامة الطويلة في مقر نزوله، كما كان يفعل نزيل دمشق عبد الصمد المغربي، الذي كان يخرج في كل جمعة مرة واحدة لتأدية الصلاة، وهكذا حتى توفي سنة ٦٨٢ هـ ــ ١٢٨٣. وفيما عدا هذا الأمر فإنه لم يشتهر بشيء، وقد وصفه صاحب كتاب «تالي كتاب وفيات الأعيان»، بأنه كان من أكابر الصلحاء بدمشق(١٠١) وقد اشتهر صوفي آخر بدمشق على صعيد العبادة والاغراق في عذاب النفس والزهد، هو ابراهيم بن محمد بن أبي الفتح أبو إسحق الانصاري، المولود سنة ٦٧٥ هـ ــ ١٢٧٦ م، والذي لا يعرف متى دخل الشام، ولا متى توفي، وان كان من المحتمل، أنه عاش بدمشق خلال القرن الثامن الهجري وتوفي بها(١٠٢).

وقد عرفت حلب بعض هؤلاء المتصوفة، لكن ليس بالقدر الذي كان على صعيد بيت المقدس ودمشق، لكونها بعيدة بعض الشيء عن طريق دخولهم الرئيسية إلى الشام، وبالتالي فإنها لم تحتوِ على مراكز تجمع هؤلاء، كالزوايا والخوانق وغير ذلك، أضف إلى ذلك أنها لا تأتي بالمرتبة التي تحتلها كل من دمشق والقدس في نفوس الأندلسيين، من ناحية القدسية الدينية وبعض النواحي الأخرى، ولعل الصوفي الوحيد الذي عرفته، كان أحد الذين اشتهروا بمعرفة القراءات والحديث، إضافة إلى أنه كان من الموسرين الذين امتلكوا ثروة كبيرة بالمغرب، لكنه تركها وسلك طريق التصوف. وبعد أن أدى فريضة الحج، قدم إلى حلب ونزل بدار الضيافة بالقرب من قلعتها، حيث بقي فترة من الزمن ليغادرها متوجها إلى جبل لبنان حيث توفي. هذا المتصوف هو محمد بن حسان المغربي، الذي لا يعرف عنه غير

١٠٠ ــ الذيل على الروضتين ص ١٢١.
١٠١ ــ تالي كتاب وفيات الأعيان ص ١٠٦.
١٠٢ ــ الدرر الكامنة ج ١ ط ١ حيدر آباد الدكن ١٣٤٨ هـ ص ٦٦.

الزهد ، وبعض المآثر التي نسبت إليه في أثناء إقامته بحلب ، والتي تتعلق بموقفه الرافض من استمرار وجود الجرس المعلق في الكنيسة العظمى بحلب . فقد ذكر ابن الشحنة في تاريخ حلب ، أنه وبينما كان الزاهد المذكور مارا تحت قلعة حلب ، سمع صوت الجرس فالتفت إلى من معه ، وقال ، ما هذا الذي سمعته من المنكر في بلدكم ، هذا شعار الفَرنْج ، فرد عليه ، هذه عادة البلد من قديم الزمان ، فكان أن زاده ذلك إنكاراً وتشبثاً في هذا الإنكار ، حتى لجأ إلى وضع إضبعيه في أذنيه وجلس على الأرض ، فكانت هذه الحادثة سبب إزالة الجرس ، ولفترة طويلة إلى حد ما . وكانت هذه الحادثة في سنة ٥٨٧ هـ ـــ ١١٩١ م(١٠٣) . وهذا يدل على أن المالكية ، كانوا من التشدد والتمسك بمذهبهم بشكل لا يقبل التطور أو التسامح في أدنى القضايا . ولعل الذي زادهم في ذلك وخاصة في مثل هذه الأمور ، التي يمكن أن تعتبر حادثة جرس الكنيسة السابقة الذكر واحدة منها ، لعل الذي زادهم في ذلك ، أنهم أبناء بيئة لم تعرف سوى عدواً واحداً هو الافرنج ، الذين حاربوه على كل المستويات وفي شتى المجالات .

واشتهر أمر متزهد آخر في مدينة أو بالأخرى بلدة دير سمعان ، هو أبو زكريا المغربي ، الذي زاره صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٤ هـ ـــ ١١٨٨ م عندما كان بطريقه من حلب إلى دمشق ، حينما عرج على دير سمعان لزيارة قبر عمر بن عبد العزيز الأموي(١٠٤) ولا أعرف إذا كان السبب الذي جعل صلاح الدين يزور هذا الصوفي بعد أن سمع بوجوده هناك ، يعود إلى مكانته الدينية وعلو مرتبته على صعيد التصوف ، أو إلى ناحية أخرى ، تتجلى بالاحترام الذي أبداه تجاه المغاربة ككل عربون وفاء منه لما قدموه من خدمات جليلة أثناء حروبه مع الافرنج . أو إلى الأمرين معا ، وهو الأرجح على أغلب الظن . ولم يتوقف أمر هؤلاء المتصوفة على الزهد والعبادة والكرامات ، بلد تعدى بعضهم ذلك واشتهروا في مجال آخر ، لا يبتعد كثيراً عن طبيعة الصوفية ، ففي النصف الأول من القرن السابع الهجري ، عرفت مدينة الكرك متصوفاً أندلسياً يعتبر نموذجاً فريداً من بين هؤلاء الزهاد ، على اعتبار أنه كان يشتغل بالتنجيم ، لكونه من « العارفين بالغيب » على حد قول ابن واصل صاحب كتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) الذي حضر واطلع بنفسه على احدى الحوادث من هذا القبيل بحضور الملك الناصر صلاح الدين داوود بن الملك المعظم صاحب الكرك في أوائل سنة

١٠٣ ـــ ابن الشحنة ـــ الدر المنتخب في تاريخ حلب ـــ وقف على طبعه يوسف اليان سركيس ط بيروت ١٩٠٩ ص ٧٨ .

١٠٤ ـــ تتمة المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٥١ .

٦٢٩ هـ ــ ١٢٣٢ م هذا المتصوف هو جمال الدين المغربي ، الذي كان من خواص الملك المذكور ومنجمه الخاص ، يقول ابن واصل في هذا الصدد : « ... سافرت مع والدي ووصلنا سنة ٦٢٩ هـ ــ ١٢٣٢ م أوائلها ، فوجدنا في خدمته جمال الدين عبد الحق المغربي .. وهو رجل زاهد ، وكان الله تعالى قد أيده في علم الرمل لا يخطيء في استخراج الخبيء وينص عليه باسمه وصفته ، حتى كان يعتقد جماعة فيه ان ما يقوله هو من جهة كشوف لصلاحه وانما كان تيسر بالرمل ... وأراد الملك الناصر أن يطلع والدي على معرفة عبد الحق باستخراج الخبية ، فسأله أن يكشف له عن خبية اتفق والدي والسلطان على إضمارها ، فاتفقنا على إضمار مسواك ، وطلبنا منه أن يظهر لهما ما أضمراه ، فضرب بيده في الدقيق واستخرج أشكال الرمل ، فقال اضمرتما شيئاً من نبات الأرض ، ثم قال هو مستطيل ، ثم قال هو مما يوضع في الفم ثم قال هو مسواك ، فصرح باسمه بعد ذكر صفاته ، كما أن السلطان نفسه حكى لنا عن أشياء وقعت له مع القاضي من هذا القبيل »(١٠٥) وهذه الحادثة ان دلت على شيء ، فإنما تدل على أن التصوف كثيراً ما كان يؤدي إلى الاختلاط بالتنجيم والاشتغال فيه .

ومسألة اختلاط التصوف بالتنجيم ، لاتبدو من المسائل الغريبة أو من الأمور الجديدة بالنسبة للأندلسيين ، وذلك لعدة أسباب ، يأتي في مقدمتها ، أن التنجيم ، كان من الأمور المنتشرة والمعروفة بالأندلس ، كحرفة لها جذورها وطرقها الخاصة بها ، مثلها في ذلك مثل أي علم آخر . وان كان الأمر لم يصل إلى الحد الذي يمكن معه ، مقارنتها أو وضعها على قدم المساواة مع بعض فروع العلم الأخرى . فقد عرف التنجيم في الأندلس منذ فترة مبكرة ، ووضعت فيه مؤلفات حول طرقه ورموزه وكيفية اتقانه ، كما فعل ابن زيد الأسقف القرطبي ، الذي كان مختصاً بالحكم المستنصر المرواني ، والذي ألف له كتاباً في هذا الشأن سماه (تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان) يذكر فيه منازل القمر وما يتعلق بذلك ، ويبدو أن الاهتمام بهذا الفن ظل مستمراً إلى فترة متأخرة عم عمر الدولة العربية بالأندلس ، بدليل أنه في القرن السابع الهجري ، ظهر أندلسي اشتهر بهذا المضمار ، وصنف به ، هو مطرف الاشبيلي ، التي لا تذكر المصادر أسماء مؤلفاته لسبب يتعلق به نفسه ، تجلى بأنه كان يخشى أن يظهر مصنفاته ، لكونه اتهم بالزندقة من جراء ذلك(١٠٦) . يضاف إلى ذلك ، أن التصوف ، الذي نشأ عند الأندلسيين بشكل كبير ، كردة فعل قوية على الكوارث المؤلمة ، التي أصابت بلادهم ، شجع على اتباع

١٠٥ ــ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ٤ ص ٣٣٠ ــ ٣٣١ .
١٠٦ ــ نفح الطيب ج٣ ص ١٨٦ .

هذه الطريقة، التي زهد أصحابها بكل شيء في الحياة الدنيا. وما دام صاحب الطريقة الصوفية، يعرف في أمور الغيب أكثر من غيره، على حد تعبير المتصوفين أنفسهم فان أمر التنجيم، الذي يشكل محوره الرئيسي التنبؤ بأحوال المستقبل وما ستكون الحال عليه، لا يعود من الظواهر العجيبة التي تثير الاستغراب، هذا إذا ما أخذ بعين الاعتبار، التهافت على المنجمين المغاربة في المشرق، من قبل الحكام والطبقات الشعبية على حد سواء، والايمان بكل ما يقولونه على أنه حقائق مؤكدة الحدوث، مثال ذلك جمال الدين المغربي السابق الذكر. واشتهر المغاربة وطارت سمعتهم في بلاد الشام على صعيد التنجيم والتنبؤ بالمستقبل، ليس في القرون الوسطى فحسب، إنما امتدت هذه السمعة وانتشرت في العصور الحديثة، وما زالت آثارها باقية حتى يومنا هذا.

فكثيراً ما يبحث بعض الناس عن منجم ما لاستجلاء أمورهم. وإذا حدث أن وجد منجمان، وكان واحد منهما مغربياً، فانه يفضل على الآخر، الأمر الذي يدل بوضوح وثقة، على مدى الشهرة الواسعة، التي اكتسبها الأندلسيون كجماعة عارفة بالتنجيم وشؤون المستقبل. أما أفراد الفريق الثاني من المتصوفة، فإنهم نادرون جداً، لكن تأثيرهم كان أشد مضاء وخلوداً، بحيث غدا مصدر ومثار نقاش طويل، أخذ حيزاً كبيراً من أوقات كثير من علماء الشام. ومن هؤلاء الصوفي الشهير محمد بن علي أبو عبد الله الطائي الأندلسي المعروف بـ(محيي الدين ابن عربي). ولد بمرسية بشرق الأندلس سنة ٥٦٠ هـ ـ ١١٦٥ م لأسرة غنية ميسورة، لها باع عريض في الحسب والتقى. نقله أهله وهو طفل إلى مدينة اشبيلية في سنة ٥٦٨ هـ ـ ١١٧٣ م وبقي فيها فترة لابأس بها، قرأ خلالها القرآن على أبي بكر بن خلف، ودرس الحديث على عدة علماء لهم معرفة أكيدة في هذا العلم[١٠٧] وأيضاً وخلال فترة إقامته باشبيلية تزوج بمريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن الباجي. ومنذ ذلك الحين، بدأ مجرى حياته يتغير. وكان سبب هذا التغير ما كان يسمعه من مواعظ زوجه، التي ضربت له المثل الصالح في الزهد والورع. إضافة إلى ذلك، فقد أصابه مرض ألزمه الفراش مدة من الزمن تراءت له في أثنائها منامات، تمثل له فيها عذاب جهنم، كما توفي والده الذي كان قد أخبره بيوم وفاته قبل خمسة عشر يوماً. كل هذه العوامل تجمعت لتدفعه إلى سلك طريق الزهد والتصوف، وبالتالي جعله ينكب على دراسة كتب المتصوفة وملازمتهم. مثال

١٠٧ ـ نفح الطيب ج ٢ ص ٣٦١ ـ شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠.

ذلك الصوفي موسى بن عمران الميرتلي ، الذي علمه كيف يتلقى الالهام الإلهي ، وأبو الحجاج الشبرتلي ، وأبو عبد الله بن المجاهد ، وأبو عبد الله بن قسوم ، الذين علموه (محاسبة النفس) وكيف تكون . وقد قرن السماع على هؤلاء بالاعتكاف الطويل بين القبور يناجي أرواح الأموات(١٠٨) وفي سنة ٥٩٨ هـ ــ ١٢٠٢ م غادر اشبيلية والأندلس إلى غير رجعة ، فقصد مصر على عادة الكثيرين من أهل الأندلس ، فتوقف فترة قصيرة بمدينة القاهرة ، تألب عليه الفقهاء خلالها واتهموه بالخروج على الدين ، لكنه لم يتأثر بهم ، ولم يعرهم أدنى انتباه . ومن مصر سافر إلى بلاد الروم ، فنزل بقونية ، حيث لقي فيها ترحيبا ، لم يعهده في مصر الاسلامية . ومن هناك سافر إلى بغداد ، حيث التقى بالصوفي الكبير شهاب الدين السهر وردي ، كما تتلمذ عليه نفر من المريدين . وفي سنة ٦١٠ هـ ــ ١٢١٤ م ، ترك بغداد قاصداً مكة المكرمة ، وبقي فيها فترة قصيرة من الزمن ، عاد بعدها إلى قونية ، حتى كانت سنة ٦١٣ هـ ــ ١٢١٧ م ، تركها وقصد مدينة حلب ، حيث لقي فيها قبولاً وحفاوة لا مثيل لهما من حاكمها الملك الظاهر غازي الأيوبي ، بالرغم من الحملة القاسية ، التي قادها الفقهاء ضده جريا على عادتهم الرخيصة عندما يجدون عالماً أفضل منهم في الفهم والانتاج ، وخاصة عندما يكون هذا العالم مجدداً ومبتكراً . وبقي ابن عربي بمدينة حلب حتى سنة ٦٢٠ هـ ــ ١٢٢٣ م ، انتقل بعدها إلى دمشق ، حيث أقام فيها بصورة دائمة ضيفاً على قاضيها ابن الزكي حتى وفاته سنة ٦٣٨ هـ ــ ١٢٤١ م(١٠٩) . ولابن عربي مؤلفات عديدة وكثيرة ، تختلف في مضامينها وأغراضها ، بدأ بكتابتها منذ أن خرج من الأندلس إلى المشرق ، فأول ما ألفه ، كتابي (مشاهد الاسرار) و (رسالة الأنوار) صنفهما خلال فترة اقامته بقونية من أرض الروم(١١٠) وصنف في مدينة مكة أكبر كتبه وأوسعها وهو (الفتوحات المكية ، الذي يقول عنه الصفدي صاحب كتاب (الوافي بالوفيات) : « كتاب في عشرين مجلداً بخطه ، فرأيت أثناءه دقائق وغرائب وعجائب ، ليست توجد في كلام غيره ، وكأن المنقول

١٠٨ ــ تاريخ الفكر الأندلسي ــ ص ٣٧١ ــ ٣٧٢ .

١٠٩ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٣٦١ وما بعدها . تاريخ الفكر الأندلسي ص ٣٧١ وما بعدها البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٥٦ ــ طبقات الشعراني ج ١ ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ــ القسم الثاني من الجزء الثامن ص ٧٣٦ .
ابن الملقن ــ طبقات الأولياء تحقيق نور الدين شريبه ط القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٧٩ ــ ٤٧٠ .

١١٠ ــ تاريخ الفكر الأندلسي ص ٣٧٦ .

والمعقول ممثلان بين عينية في صورة محصورة ، يشاهدها متى أراد بالحديث أو الأمر ، ونزله على ما يريده .

وهذه قدرة ونهاية اطلاع وتوقد ذهن وغاية حفظ وذكر . ومن وقف على هذا الكتاب ، علم قدره ، وهو من أجلّ مصنفاته ... »[111] وكان أهم ما ألفه بدمشق كتابه المعروف بـ(فصوص الحكم) ، الذي كان مصدر وسبب الحملة القاسية التي شنها عليه كثير من رجال الدين وعلمائه . وفي هذا الكتاب يبرز بوضوح مذهبه المعروف في وحدة الوجود ، الذي سأذكره في فقرة تالية . ومن مؤلفاته أيضاً (الجمع والتفصيل في حقائق التنزيل) و (الجذوة المقتبسة والخطرة المختلسة) وكتاب (الأسرا إلى المقام الأسري) وكتاب (كشف المعنى في تفسير الأسماء الحسنى) وكتاب (المعارف الالهية) وكتاب (مواقع النجوم ومطابع أهل أسرار العلوم) وكتاب (عنقاء مغرب في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب[112] . ومن كتبه (ذخائر الأعلاق) وهو شرح على ديوانه (ترجمان الأشواق)[113] وكتاب (الأعلام بإشارات أهل الالهام) وكتاب (العبادات والخلوة) و (أسرار الخلوة) و (عقيدة أهل السنة) و (التجليات ومفاتيح الغيب) وغيرها[114] ، وقد طبع قسم كبير من هذه المؤلفات ، وبعضها الآخر ما زال موجودا على شكل مخطوطات ، لم تلق بعد شيئاً من اهتمام المحققين ونشاطهم ، كي يظهروها إلى الوجود . وهي كما تدل عليها اسماؤهـا ، تختلف من حيث المضامين والمواضيع . فقد جمعت بين التصوف وعلم الفلك والعلوم الدينية . واشتهر من هذه الكتب بشكل مميز ، كتابه الموسوم بـ(فصوص الحكم) الذي يعكس ابن عربي من خلاله مذهبه الذي يشكل قوام رأيه في حقيقة الله والوجود ، والذي يتلخص بالقول ، بأنه نوع من التصوف مبني على أساس ، أنه لا وجود إلا وجود الله ، وما ذلك التعدد المرئي في المخلوقات في العالم ، إلا ضرب من الوهم في حقيقته ، تقر فيه العقول البشرية ، التي عجزت عن امتلاك القدرة على تمثل هذه الحقيقة ، التي هي سر الوجود الواحد . ويشرح ابن عربي مذهبه هذا بشيء من التفصيل في كتابيه (الفتوحات المكية) و (فصوص الحكم) . ففي الجزء الثاني من الكتاب الأول (الفتوحات المكية) يلجأ إلى الاشارة إلى مذهبه بشكل مختصر عندما

---

١١١ ـــ الوافي بالوفيات ج ٤ ص ١٧٣ ـــ ١٧٤ .
١١٢ ـــ نفح الطيب ج ٢ ص ٣٧٤ .
١١٣ ـــ تاريخ الفكر الأندلسي ص ٣٧٦ .
١١٤ ـــ الوافي بالوفيات ج ٢ ص ٣٧٤ .

يقول: «سبحان من خلق الأشياء وهو عينها» ويؤمن ابن عربي في الوجود بالفيض، الذي يقصد أن الله سبحانه وتعالى أبرز الأشياء من وجود علمي إلى وجود عيني. ويفسر وجود المخلوقات «بالتجلي الالهي الدائم، الذي لم يزل ولا يزال وظهور الحق في كل آن، فيما لا يحصى عدده من الصور»[115] وهذا التعدد في الصور والأشياء، لا يعدو كونه وهمياً لا حقيقة له يقول: «ثم السر الذي فوق هذا في هذه المسألة، أن الممكنات على أصلها من العدم، وليس وجود الحق بصور ما هي عليه من الممكنات في أنفسها واعيانها»[117] إذن وجود الممكنات في رأي ابن عربي هو عين وجود الله. وما ذلك التعدد إلا وليد الحواس والعقل الانساني القاصر، الذي يقف عاجزاً عن ادراك الوحدة الذاتية للاشياء، التي إذا نظر إليها من حيث ذاتها، قيل هي الحق، وإذا نظر إليها من حيث صفاتها قيل هي الخلق[118].

ولابن عربي رأيه الخاص في الانسان الكامل، الذي هو عنده الكون الجامع، ويفسر ذلك بأنه عندما أراد الله، أن يرى عينه في كون جامع يحصر الأمر كله، لكونه متصفاً بالوجود، ويظهر به سره إليه[119] ويفرق ابن عربي في الانسان الكامل بين ناحيتين: أولهما خاصة به، باعتباره إنساناً حادثاً. وثانيهما خاصة به باعتباره أزليا أبديا بقوله في هذا الصدد: «هو الانسان الحادث الازلي، والنشيء الدائم الأبدي»[120] وقد أدى به القول بوحدة الوجود إلى القول بوحدة الأديان. فهو لا يفرق بين سماويها وغير سماويها، إذ أن الجميع يعبدون الاله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات، فالغاية من عبادة العبد لربه في رأيه، هي التحقق من وحدته الذاتية معه والباطل من العبادة، أن يقصر العبد ربه على مجلى واحد دون غيره ويسميه إلهاً[121] وقد أثارت مؤلفاته في مجال التصوف جدلاً، لم يتوقف على مدى القرون الطويلة والسنين التي مرت، منذ أن حل بالشام، وحتى وقتنا الحاضر. وقد وقف العلماء منه موقفين متباينين. فمنهم من أيده وأثنى عليه ومنهم من وصفه بالزندقة والكفر والإلحاد إلى غير ذلك. وينقسم الذين أيدوه بدورهم إلى عدة فئات من حيث القرب والبعد. فأولى هذه

---

١١٥ — ابن عربي — الفتوحات المكية ج ٢ ط القاهرة ١٢٩٣ هـ ص ٦٠٤.

١١٦ — ابن عربي — فصوص الحكم ج ١ ط دار الكاتب العربي بيروت — مقدمة المحقق ص ٢٨.

١١٧ — فصوص الحكم ج ١ ص ٩٦.

١١٨ — مقدمة فصوص الحكم ج ١ ص ٢٤.

١١٩ — فصوص الحكم ج ١ ص ٤٨.

١٢٠ — المصدر السابق ص ٥٠.

١٢١ — دائرة المعارف الاسلامية — الترجمة العربية ج ١، ص ٢٣٣.

الفئات تمثلت بالحكام، الذين قابلهم بعد أن ترك أرض الأندلس، فوقفوا منه موقف المؤيد المشجع، وأنزلوه أرفع المنازل في وقت كانت أراؤه وأفكاره غير مقبولة على الصعيد العام، وخاصة بين الفقهاء المقربين من رجال الحكم، الذين أعموا بصائرهم من الوشايات المضادة لابن عربي، التي لم يكترث بها البتة. ففي مصر التي كانت أول محطاته المشرقية، اشتغل في مجال التصوف، وكانت له حلقة من الصوفيين في حارة (القناديل) بالقاهرة، ساعده على ذلك السلطان العادل الايوبي، الذي قدم له كل التسهيلات والتأييد والتسامح(١٢٢) وخلال اقامته في قونية ببلاد الروم، كان موضع احترام وتقدير لا مثيل لهما، حتى أن حاكمها كان يقول: «هذا تذل له الأسود». ولم تكن مكانته في حلب أقل من ذلك. فقد قدمه الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الايوبي على جميع حاشيته من الفقهاء ورجال الدين، الذين كان يبغضهم ابن عربي أشد البغض. وكذلك الحال بمدينة دمشق التي نزلها خلال فترة حياته الأخيرة، حيث لقي ترحيباً بالغاً من الملك الأشرف الأيوبي، وبعض وزرائها من آل الزكي، الذي أنزله عنده حتى وفاته. كما أن قاضي قضاة الشافعية شمس الدين أحمد الخولي، كان يخدمه خدمة العبيد تقديراً له. كما أن قاضي القضاة المالكية، التمس الشرف بتزويجه بنته، وبلغ به الأمر أنه ترك منصب القضاء على أثر ملاحظة وقعت عليه من ابن عربي(١٢٣) أما الفئة الثانية التي أيدته، فتنحصر في تلامذته الذين عاصروه، والذين لم يعاصروه. فمن الذين عاصروه، يمكن أن أذكر الملك الأشرف الأيوبي بن الملك العادل، الذي كان يحضر دروسه، والذي تلقى الإجازة من يده لروايه جميع كتبه قبل وفاته بثلاث سنوات(١٢٤) واسماعيل بن سودكين المعروف بأبي الطاهر النوري الحنفي، الذي ألف كتاب (نقش الفصوص) كاضافة على كتاب شيخه ابن عربي(١٢٥) وسعد الدين محمد بن المؤيد ابن عبد الله الجويني الصوفي، الذي يصفه الذهبي في العبر «أنه كان صاحب رياضات وأحوال صوفية وله أصحاب ومريدون» سكن دمشق فترة من الزمن في قاسيون، ثم عاد إلى خراسان حيث توفي سنة ٦٥٠ هـ(١٢٦) ويحيى بن محمد أبو الفضل محيي الدين مولده بدمشق سنة ٥٩٦ هـ ــ ١٢٠٠ م وقد كان من أشد المعجبين بابن عربي، صحبه فترة من الزمن بدمشق

١٢٢ ــ تاريخ الفكر الأندلسي ص ٣٧٦.
١٢٣ ــ آسين بالاثيوس ــ ص ٩٣ ــ تاريخ الفكر الأندلسي ص ٣٧٦.
١٢٤ ــ آسين بالاثيوس ص ٩٣.
١٢٥ ــ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ١٨٨ ــ الوافي بالوفيات ج ٤ ص ١٧٥.
١٢٦ ــ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ٢٠٦.

وأخذ عنه. وعرف عنه شدة تصديقه كل ما يحكي عن الفقراء والمتزهدين، وشغل منصب قاضي قضاة الشافعية بدمشق مرتين، لكنه توفي بمصر ودفن بسفح المقطم[١٢٧] ومنهم الشيخ الصوفي صدر الدين محمد القونوي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ــ ١٢٧٤ م، الذي يعتبر من أكبر تلامذة ابن عربي تأييداً له. فقد عمل كثيراً من أجل نشر عقيدته بين الناس، وبلغ به ذلك حداً جعله يترك وصية مفادها، بأن يدفن إلى جواره ــ بدمشق، مما جعله موضع احتقار وازدراء من قبل الكثيرين[١٢٨] ولعل أشهر أقواله، التي دونها بحق أستاذه ابن عربي ما ينقله ابن العماد الحنبلي في كتابه (شذرات الذهب) بقوله: «كان شيخنا ابن عربي متمكنا من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء الماضين على ثلاثة أنحاء، انشاء الله استنزل روحانيته في هذا العالم، وأدركه متجسدا في صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية العصرية، التي كانت له في حياته الدنيا، وانشاء الله أحضره في نومه، وانشاء الله انسلخ عن هيكله واجتمع به...»[١٢٩] وقد قضى صدر الدين هذا معظم حياته مع ابن عربي، حتى أنه كان معه في الأيام الأخيرة قبل وفاته، كما أمضى جزءاً كبيراً من حياته أيضاً في شرح مؤلفات أستاذه ككتاب الفصوص، الذي شرحه في حياة ابن عربي[١٣٠]، وقد وجد بمدينة دمشق من الأندلسيين المغاربة عدداً لابأس به، اعتنقوا مذهب ابن عربي في وحدة الوجود عاصره قسم منهم وألفوا شبه عصبة في هذه المدينة خلال القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي. منهم تلميذه المغربي عفيف الدين سليمان التلمساني المتوفى سنة ٦٩٠ هـ ــ ١٢٩١ م الذي التقى بالقاهرة بأبر تلامذة ابن عربي القونوي السالف الذكر. وقد تتلمذ التلماني على ابن عربي بعد أن وصل إلى دمشق، ويبدو أنه كان من المتعمقين بمذهب أستاذه بدليل أنه شرح عدة مؤلفات له، اضافة إلى ذلك فقد كان من الشخصيات المعروفة بدمشق على هذا الصعيد، إلى درجة أن المؤرخ الذهبي وصفه في كتابه العبر أنه أحد زنادقة الصوفية[١٣١]. ولم يكن ابنه محمد بن عفيف الدين التلمساني الملقب بشمس

---

١٢٧ ــ ذيل مرآة الزمان مجلد ٢ ط حيدر آباد الدكن ١٩٥٥ ص ٤٢٠ ــ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ٢٨٩.

١٢٨ ــ طبقات الشعراني ج ١ ص ٢٠٣ ــ طبقات الأولياء ص ٤٦٧ ــ ٤٦٨.

١٢٩ ــ شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٦.

١٣٠ ــ Encyclopedia of Islam vol 3- Ed- london 1971- p.708.

١٣١ ــ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ٣٦٧ ــ الدرر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ١ ورقة ٤٧٥ ــ ٤٧٦ ــ ٤٧٩.

الدين والمعروف بالشاب الظريف، لم يكن ليخرج عن طريقة والده في كل شيء تقريبا، كالتصوف والشعر والعمل في الادارة، وكانه صورة طبق الأصل عنه، وان كان لم يصل إلى مستوى والده في التبحر في مذهب ابن عربي، عندما وافته المنية وهو ابن ثلاثين عاماً، ودليل ذلك أنه لم يوصف بالأوصاف التي وصف بها والده كالزندقة وغير ذلك(١٣٢).

أما المغربي الآخر، الذي لا يعرف ان كان قد تتلمذ على ابن عربي كما هو حال التلمساني، هو الأمير بدر الدين حسن بن علي بن يوسف بن هود، المتحدر من عائلة بني هود المشهورة في سرقسطة بشرق الأندلس، الذي اعتنق مذهب ابن عربي وتبحر فيه على ما يبدو إلى درجة جعلت الذهبي ينعته بأنه اتحادي ضال(١٣٣) اضافة إلى هؤلاء الذين ذُكِروا، فيمكن أن أضع في خاتمتهم وخاصة في مدينة دمشق آل الذكي، وان كانت لا توجد اشارة مباشرة تدل على أنهم أخذوا بمذهب ابن عربي، لكنهم من ناحية أخرى، لا يكونون قد ابتعدوا عن هذا المذهب والأخذ به بشكل ضمني ومستتر، أو على الأقل الموافقة على خطوطه الكبرى، وهذا ما تدل عليه المعاملة الطيبة التي عاملوا بها ابن عربي صاحب هذا المذهب، خلال حياته وبعد مماته، في وقت كان مثل هذا المذهب غير مقبول على صعيد الدمشقيين الذين عرفوا بسلفيتهم الدينية، التي أججتها، في ذلك الوقت، أقوال وفتاوى الفقهاء، الذين إذا ذكرت أسماؤهم، ألفوا قائمة طويلة جداً، وبالتالي فان تلك الفترة من تاريخ العرب والاسلام، تعتبر من الفترات التي طغى عليها التزمت والتقوقع الديني، أما الذين دافعوا وشجعوا عقيدة ابن عربي ولم يعاصروه، فهم كثيرون جداً، لم يظهروا في فترة معينة فحسب، انما ظهروا على فترات متعاقبة من القرون الوسطى موضوع هذا البحث، وتطور الأمر حتى شمل العصور الحديثة، الأمر الذي يدل على الأثر الكبير الخالد، الذي تركه ابن عربي هذا. وكان معظم هؤلاء المدافعين من العلماء الكبار المعروفين بمؤلفاتهم وانتاجهم، بالاضافة إلى بعض رجال الصوفية. وقد انقسم هؤلاء إلى قسمين، القسم الأول ايده بصراحة ووضوح ودون تحفظ، أما القسم الثاني فقد وقف رجاله على الحياد، وان كان يعني حيادهم هذا، الميل والتأييد الضمني. منهم علي ابن اسماعيل بن يوسف القونوي المولود سنة ٦٦٨ هـ ـ ١٢٧٠ م كان قد حل بدمشق سنة ٦٩٣ هـ ـ ١٢٩٤ م، وهو من الصوفية

---

١٣٢ ـ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ٣٥٩.

١٣٣ ـ المصدر السابق ص ٣٩٧.

المشهورين. ولي قضاء دمشق على المذهب الشافعي سنة ٧٢٣ هـ ــ ١٣٢٣ م عرف بميله إلى ابن عربي، بالرغم من أنه ألف وكتب ردا على أصحاب مذهب وحدة الوجود[١٣٤] ودافع نزيل دمشق الشيخ نصر المنبجي في القرن الثامن الهجري عن ابن عربي وعقيدته، وبلغ به الأمر إلى مناصبة العداء الشديد لابن تيمية، المعهود له بالعداء والكراهية السافرة لابن عربي والصوفية بشكل عام.

وتجلى عداؤه أي (المنبجي) بأن جعل يحط عليه ويشكيه إلى الحاكم المملوكي بيبرس الجاشنكير، الذي عرف عنه محبة الشيخ نصر وتقريبه له[١٣٥] أما عبد الله بن أسعد بن علي المعروف باليافعي المكي صاحب كتاب (مرآة الجنان وعبرة اليقظان) والمتوفى سنة ٧٦٨ هـ ــ ١٣٦٧ م فقد نفى عنه الكفر، الذي الصقه به كثيرون من العامة والعلماء على حد سواء بقوله: «ان كل من اختلف في تكفيره، فمذهبي فيه التوقف، ووكول أمره إلى الله تعالى» وكان يعظمه كثيراً[١٣٦] ومن الصوفيين الذين اشتغلوا في مؤلفات ابن عربي، وعلموها لتلاميذتهم، محمد بن عبد الله بهاء الدين الكازروني المتوفى سنة ٧٧٣ هـ ــ ١٣٧٢ م الذي عرف بتبحره في علوم الصوفية، وكثرة التلاميذ والمريدين الذين سمعوا عنه[١٣٧] أما الصوفي محمد بن أحمد ولي الدين الديباج المعروف بالمنفلوطي، فكان يحفظ الكثير من أقوال ابن عربي، الذي لم يستطع أن يظهر شيئاً منها، انما اقتصر على التلميح بها يقول عنه ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة: «وكان يميل إلى مقالة ابن العربي، ويدندن حولها في تواليفها، ويحمحم ولا يكاد يفصح...»[١٣٨] ومن مشاهير العلماء الذين دافعوا عن ابن عربي واعجبوا به الفيروز آبادي، الذي قال عنه وهو في صدد الرد على سؤال حوله ومفاده: ما هو رأي العلماء بابن عربي؟ وهل تحل قراءة كتبه كالفتوحات والفصوص؟ وهل يحل تدريسها للطلبة؟ قال: «انه شيخ الطريقة حالاً وعلماً، وأمام الحقيقة حقيقة ورسما، ومحيي رسوم المعارف فعلاً واسماً. عباب لا تكدره الدلاء، وسحاب تتقاصر عنه الأنواء، فتملأ الآفاق، واني أصفه وهو يقيناً فوق ما وصفته، وغالب

---

١٣٤ ــ الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٤ وبما بعدها.
١٣٥ ــ الدرر الكامنة ج ١ ط حيدر آباد الدكن ١٣٤٨ هـ ص ١٤٧.
١٣٦ ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج ٤ ص ١٠٠ ــ ١٠١.
١٣٧ ــ الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٨٨.
١٣٨ ــ الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٠٧.

ظني أني ما أنصفته »[139] وقام كمال الدين الزملكاني بشرح كتاب (فصوص الحكم) فنفى من خلال شرحه لهذا الكتاب ، وصمة الكفر التي لصقها بعضهم بصاحبه ابن عربي[140] ويقول الزملكاني أيضاً عن ابن عربي بأنه « .. البحر الزاخر في المعارف الالهية » ويذكر من كلامه جملاً كثيرة ، ثم يستدرك قائلاً : « انما نقلت كلامه وكلام من جرى مجراه من أهل الطريق ، لأنهم أعرف بحقائق هذه المقامات ، وأبصر بها لدخولهم فيها ، وتحققهم بها ذوقاً ، والمخبر عن الشيء ذوقاً ، مخبر عن عين اليقين »[141] وقد أطلع الصفدي صاحب كتاب (الوافي بالوفيات) على كتاب ابن عربي (فصوص الحكم) فلم ير فيه ما يدعو إلى اتهام صاحبه بالكذب والكفر والبهتان ، أو غير ذلك من عبارات التجني ، التي غدت من الأسلحة التي يشهرها كل المعارضين في وجه من يؤيده أو يسلك مسلكه . وأوجز الصفدي رأيه في الكتاب المذكور بقوله شعراً :

ليسَ في هذهِ العقيـــــدةِ شيءٌ   يقتضيـــهِ التكـــذيبُ والبهتـــانُ
لا ولا ماقـــدْ خالـــفَ العقـــلَ   والنقـلَ الـذيْ قدْ أتى بهِ القـرآنُ
وعلى ما ادعـاهُ يتجـهُ البـــحثُ   ويـــأتي الدليـــلُ والبرهــــانُ
بخلافِ الشنـاعِ عنـــهُ ولكــــنْ   ليس يخلو من حاسدٍ انسانُ[142]

ودافع عنه ابن شاكر الكتبي صاحب كتاب (فوات الوفيات) الذي قال عنه : « وعلى الجملة فكان رجلاً صالحاً عظيماً . والذي نفهمه من كلامه حسن ، والمشكل علينا ، نكل أمره إلى الله ، وما كلفنا اتباعه ، والعمل بما قاله »[143] وقد بلغ الأمر ببعض المدافعين عنه حداً أوسع وأكبر من كل ما تقدم حتى الآن ، فابن كمال باشا ، الذي نقل قوله ابن العماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب ، يقرن دفاعه عنه ، بمخاطبة الحكام ، ودعوتهم لمحاربة كل المتنكرين لابن عربي بكل الجد والاخلاص ، انطلاقاً من أنهم (الحكام) لم يوجدوا إلا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول : « ... فمن أنكره فقد أخطأ ، وان أصر في انكاره فقد ضل . يجب على السلطان تأديبه ، وعن هذا الاعتقاد تحويله إذ السلطان مامور بالأمر

---

١٣٩ ــ العدوي ــ الزيارات بدمشق ت صلاح الدين المنجد ط دمشق ١٩٥٦ ص ٣١ ــ ٣٢ .
١٤٠ ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج ٤ ص ١٠١ .
١٤١ ــ الوافي بالوفيات ج ٤ ص ١٧٧ .
١٤٢ ــ المصدر السابق ص ١٧٥ .
١٤٣ ــ فوات الوفيات ج ٢ ص ٤٨٠ .

بالمعروف والنهي عن المنكر ... »(١٤٤) وقد روج عقيدته أيضاً في ملطية جلال الدين الرومي ، لتصبح عقيدته الصوفية هناك هي العقيدة الصوفية الرسمية ، وذلك اعتباراً من القرن الثامن الهجري(١٤٥) وقام عبد الكريم الجيلي المتوفى سنة ٨٣٢ هـ ـــ ١٤٩٢ م ، بتفسير كتاب (الفتوحات المكية) وسمى هذا الشرح بـ (الانسان الكامل)(١٤٦) وقد قام مؤلفون آخرون من أنصار ابن عربي بتأليف كتب خصصت للدفاع عنه ، مثال هؤلاء ، مثل عبد الله ابن ميمون الادريسي المتوفى سنة ٩١٧ هـ ـــ ١٥١٢ م الذي كتب عدة دفاعات كان منها (الرد في منكر الشيخ الأكبر) وفيما بعد هذه الفترة كتب الشعراني كتاب (القول المبين في الرد عن محيي الدين) بالاضافة إلى أنه كان قد قام باختصار تفسير الفتوحات المكية ، الذي تصدى له عبد الكريم الجيلي الآنف الذكر ، والذي سماه بـ (الانسان الكامل) وسمى الشعراني هذا المختصر لواقح الأنوار القدسية) وعاد فاختصره إلى حجم أصغر في كتاب سماه : (الكبريت الأحمر)(١٤٧) وكذلك فعل جلال الدين السيوطي ، حيث ألف كتاباً ضمنه الرد على كل الذين اتهموا ابن عربي بالكفر ، وسماه (تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي)(١٤٨) وهناك كثيرون آخرون غير الذين ذكروا حتى الآن ، عرفوا بتأييدهم لابن عربي وعدم الحط عليه ، وغلب عليهم الاعتراف له بالفضل والمقدرة الفائقة ، أمثال سراج الدين المخزومي ، الذي ألف كتاباً سماه (كشف الغطاء عن أسرار محي الدين) وقطب الدين الحموي ، وشهاب الدين عمر السهروردي ومؤيد الدين الخجندي وكمال الدين الكاش ، وفخر الدين الرازي ، ومحمد المغربي استاذ الجلال السيوطي ، وعبد الرزاق القاشاني ، وغيرهم(١٤٩) . وبالمقابل فان الذين ناصبوه العداء ، وحاربوه بكل الوسائل والطرق ، كانوا كثيرين أيضاً وبالتالي فان بعضهم من الأئمة والعلماء ، الذين احتلوا مراكز كبيرة ومرموقة على الصعيد الديني . أشهرهم على الاطلاق ابن تيمية فقيه الشام في القرن الثامن الهجري ، الذي يذكره في كتابه (المنقذ من الضلال) . ويصف به ان كل كلمة في كتاب (فصوص الحكم) كفر لا محالة . وحاربه فيما

---

١٤٤ ـــ شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٥ .

١٤٥ ـــ Encyclopedia of Islan vol 3- p. 711.

١٤٦ ـــ آسين بالاثيوس ص ٩١ Encyclopedia of Islam vol 3 p. 708

١٤٧ ـــ آسين بالاثيوس ص ٩١ Encycloledia of Islam vol 3 p. 710

١٤٨ ـــ شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩١ .

١٤٩ ـــ دائرة المعارف الاسلامية مجلد ١ الترجمة العربية ص ٢٣١ ـــ ٢٣٢ .

بعد بدر الدين جمعة المتوفى سنة ٧٦٧ هـ ــ ١٣٦٦ م[١٥٠] . ومن هؤلاء من تأرجح موقفه من ابن عربي وخاصة في كتابه (الفتوحات المكية) ، حيث وقف مؤيداً لبعض مضمونه ومتنكراً للبعض الآخر ، مثل ابن كثير الدمشقي المؤرخ . والذي يقول عن (فصوص الحكم) : « فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح »[١٥١] . ومن أعدائه والناقمين عليه ، المحدث والمؤرخ الدمشقي الذهبي الذي يقول عنه : « وقد اتهم بأمر عظيم »[١٥٢] وفي قوله هذا إشارة إلى كفره والحاده والطعن به ، وان كان مبطناً بعض الشيء . وفي عداد الأعداء لابن عربي ، كان ابن الوردي صاحب كتاب (تتمة المختصر في أخبار البشر) . الذي ذكر في حوادث سنة ٧٤٢ هـ ــ ١٣٤٢ م أن مجموعة من الفقهاء ورجال الدين ، اجتمعوا بالمدرسة العصرونية بحلب ، وتدارسوا فيما بينهم خطورة كتاب ابن عربي (فصوص الحكم) ، وقرروا في نهاية الاجتماع ، وضع الكتاب المذكور في الماء ، كي تتخرب كتابته ، فيمنع الناس من قراءته وتداوله . وقد جاء ابن الوردي على ذكر هذه الحادثة الحاقدة بالتفصيل لانه على ما يبدو ، كان يعتبرها من مآثر الفقهاء ورجال الدين العظيمة ، والذي كان هو أحد أبطالها . وهذه الحادثة ان دلت على شيء ، فانما تدل على جهل هؤلاء الفقهاء المطبق ، وحسدهم الذي تفجر حقداً وضغينة على انتاج ان لم يكن رائعاً ، فهو انتاج فكري جديد ، تجب مناقشته بهدوء وموضوعية بدلاً من اللجوء إلى حرقه أو وضعه بالماء كما فعل هؤلاء الجهلة : قال عن هذا الكتاب شعراً :

هذي فصوصٌ لمْ تكــنْ ... بنفسيــة في نفسهـــا
أنــا قدْ قرأتُ نفوسهــا ... فصوابها في عكسهـا[١٥٣]

وهناك غير هؤلاء ، لم يأتوا على ذكر ابن عربي إلا وتعرضوا إلى اتهامه بالزندقة والكفر والخروج على الدين الاسلامي ، منهم ، ابراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ ــ ١٤٨٠ م ، الذي يعتبر أشد اعداء ابن عربي ، بدليل أنه وضع كتابا في تكفيره سماه (تنبيه الغبي في تكفير ابن عربي) ، ناقش فيه عدداً كبيراً من فقرات كتاب فصوص الحكم ، ودحضها بدلائل من القرآن الكريم والحديث والسنة ، بحسب فهمه لهذه

١٥٠ ــ Encyclopedia of Islam vol 3 - p.711

١٥١ ــ البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٥٦ .

١٥٢ ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج ٤ ص ١٠٠ .

١٥٣ ــ تتمة المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٤٧٨ .

الفقرات[١٥٤] يضاف إلى ذلك، فان البقاعي لجأ إلى تدعيم دحضه لأفكار ابن عربي في كتاب الفصوص، أنه أقدم على جمع وتدوين أقوال الأعداء الآخرين، مثل عز الدين عبد السلام، الذي قال بابن عربي: «هو شيخ سوء كذاب»[١٥٥]، وأبو حيان الأندلسي وتقي الدين السبكي الذي قال: «من كان من هؤلاء الصوفية المتأخرين كابن عربي وغيره، فهم ضلال جهال خارجون عن طريقة الاسلام فضلاً عن العلماء»[١٥٦]، والقاضي شرف الدين عيسى بن مسعود الزواوي، الذي قال بصدد كتاب الفصوص «وأما ما تضمنه هذا التصنيف من الهذيان والكفر والبهتان، فهو كله تلبيس وضلال وتحريف وتبديل، فمن صدق بذلك أو اعتقد صحته، كان كافراً ملحداً صاداً عن سبيل الله...»[١٥٧]، وغير هؤلاء كثيرون[١٥٨]. ومنهم أيضاً ابن الخياط وابن اياس صاحب تاريخ مصر، وعلي القارىء والامام جمال الدين محمد بن نور الدين، الذي ذكره في كتابه (كشف الظلمة عن هذه الغمة)[١٥٩] ولكن كل آراء هؤلاء الاعداء، الذين ذكروا، لم تلق الأذن الصاغية، أو بالأحرى، لم تؤد إلى النتيجة، التي طالما حلموا بها، والتي تتجلى بترك عقيدة ابن عربي في وحدة الوجود. انما انعكس الأمر بصورة مميزة، فأدى إلى امتداد وانتشار هذه العقيدة على الصعيد الزمني، فتجاوزت القرون الوسطى إلى القرون الحديثة والمعاصرة. ففي مدينة دمشق، وخلال الفترة الأولى من حكم العثمانيين في القرن السادس عشر الميلادي، اعتقد السلطان سليم العثماني أن شفاعة وبركة ابن عربي هي التي أدت إلى انتصارهم على البيزنطيين وفتح القسطنطينية، لأن ابن عربي نفسه، كان قد تنبأ بهذا الفتح. وهذا ماحدا بالسلطان سليم المذكور، أن يأمر ببناء مسجد ومدرسة حول تربة ابن عربي ورتب الأوقاف عليهما. وفي منتصف القرن التاسع عشر، كانت ذكراه لا تزال حية بين المسلمين الاتقياء بدمشق، فكانوا يزورون ضريحة كل يوم جمعة للتبرك[١٦٠] وما زالت مشاعر الاحترام والتقدير لهذا الصوفي ماثلة في نفوس الدمشقيين حتى يومنا هذا، أضف إلى ذلك أن الحي الذي يرقد فيه

---

١٥٤ — تنبيه الغبي في تكفير ابن عربي ص ٢٢.

١٥٥ — المصدر السابق ص ١٥١.

١٥٦ — المصدر السابق ص ١٥٦ — ١٥٧.

١٥٧ — المصدر السابق ص ١٥٧ — ١٥٨.

١٥٨ — انظر عنهم نفس المصدر ص ١٥٩ وما بعدها.

١٥٩ — دائرة المعارف الاسلامية مجلد ١ ص ٢٣٢ الترجمة العربية.

١٦٠ — آسين بالاثيوس ص ٩٥ — ٩٦.

ابن عربي في منتصف القسم الشمالي من دمشق الحالية، ما زال يعرف باسمه وهو حي (الشيخ محي الدين). وقد انتشرت عقيدته خارج بلاد الشام، فوصلت إلى الهند، وخاصة شرح كتاب الفصوص. ووصلت أيضاً إلى فارس، حيث عرف هناك بشكل خاص كتاب (نقش الفصوص)[١٦١] وابعد من ذلك كله، فان هذه العقيدة وصلت حتى بلغت وسط أوروبا وكان أثرها بالغاً، حيث أدت إلى انتاج خالد وعظيم، تمثل بكتاب (الكوميديا الالهية) لدانتي، الذي استفاد من أوصاف ابن عربي للدار الأخرة فاستوحى منها هذه الكوميديا، وخاصة من كتاب (الفتوحات المكية)، الذي تخيل فيها رحلة مليئة بالأسرار إلى الدار الاخرة، وبالتالي وجد فيها المستويات الهندسية لبناء الجحيم والفردوس واللمحات العامة والتي تزين هذه الدار، إضافة إلى التصوير العيني المجسم لحياة الابرار السعيدة[١٦٢]. وإذا ما تركت هذه القضايا الآن، وانتقلت إلى جانب آخر من جوانب حياة ابن عربي الشخصية، والذي يتجلى بحياته العائلية وما خلفه من أولاد، فان من الممكن القول، أنه لم يترك أولاداً كثيرين، كما تذكر المصادر. فالمعروفين من أولاده ثلاثة، اثنان منهم ذكور، وذلك بالرغم من أنه تزوج عدة مرات. لكن وقبل ذكر اسماء هؤلاء، فمن الجدير قوله هنا، أنهم لم يكونوا بمكانة والدهم على كل الصعد والمجالات التي اشتهر بها. أضف إلى ذلك أن المصادر لا تذكر أن هؤلاء الأولاد انجبوا أطفالاً، بحيث يمكن تتبع أحفاد ابن عربي في مدينة دمشق. أول أولاد ابن عربي سعد الدين محمد المولود بملطية سنه ٦١٨ هـ ــ ١٢٢٢م وتوفى بدمشق سنة ٦٥٦ هـ ــ ١٢٥٨.

وقد وصفه ابو شامة، بأنه كان من العقلاء والفضلاء، وكانت له به معرفة طيبة على ما يبدو حيث يذكر في الذيل على الروضتين أن سعد المذكور طلب منه كتاب الروضتين بصيغة شعرية. لكنه لا يذكر إن كان قد سلك طريقة والده في التصوف والزهد. مع أن البعض يعتبره من الشعراء الصوفيين الكبار الذين عاشوا بدمشق في القرن السابع الهجري، وقد توفي شابا حيث دفن بجانب والده[١٦٣]. أما الولد الثاني فهو عماد الدين أبو عبد الله المتوفى بدمشق سنة ٦٦٧ هـ ــ ١٢٦٩م والذي دفن أيضاً بجوار والده بالصالحية[١٦٤]

١٦١ ــ Encyclopedia of Islam vol 3- p. 711.

١٦٢ ــ آسين بالاثيوس ص ٩٩.

١٦٣ ــ الذيل على الروضتين ص ٢٠٠ ــ آسين بالاثيوس ص ٩٤.

١٦٤ ــ آسين بالاثيوس ص ٩٤ Encyclopedia of Islam-Vol 3- p.708

وكانت له بنت اسمها زينب ، أكد ابن عربي نفسه ، أنها كانت منذ طفولتها تتلقى الهاما علويا[١٦٥] لكن من غير المعروف أن هذه البنت ، عاشت بعد والدها أو ماتت في حياته ، حيث لا تذكر المصادر عنها شيئاً ، يمكن الاعتماد عليه في هذا الصدد . ومن هذه السير المقتضبة عن أولاد ابن عربي يمكن القول بشيء من المجازفة ، أنهم لم يقتفوا سيرة والدهم وخاصة في مجال التصوف ، بالقدر الذي كان على أيدي المريدين والتلاميذ ، وبالتالي فإن هؤلاء الأولاد لم يخلفوا على ما يبدو أطفالاً اشتهروا فيما بعد . ومهما يكن من أمر فإني لست بالمنزلة التي تؤهلني لأن أعطي حكماً على مذهب ابن عربي ورأيه في مسألة وحدة الوجود ، أضف إلى ذلك أني غير معني بالبحث حول مشكلة كهذه . إنما الشيء الذي يمكنني ذكره في هذا الشأن ، أن ابن عربي ، لم يكن عنصراً هداماً للعقيدة الاسلامية كما نعته البعض ، بحيث كان مصدراً للالحاد والكفر . بل كان على عكس ذلك تماماً ، مسلماً قوى العقيدة راسخ العلم لا غبار عليه من هذه الناحية . والذين وقفوا إلى جانبه سواء من تلامذته أو من أتباعه ، كانوا أكثر حظاً وأعمق نظرة من غيرهم ، من حيث الاحترام والتقدير لأنفسهم كعلماء ورجال دين من جهة ، وللعلم الذي يكون الإبداع محوره الرئيسي وسر خلوده واستمراره من جهة أخرى . أما المجموعة التي حاربته وناصبته العداء السافر ، بأن اتهمته بالكفر والبعد عن حقيقة الاسلام ، بحيث لم يترك أفرادها كلمة سيئة إلا ونعتوه فيها . فليس أسهل من القول في حقهم ، أنهم فئة أو مجموعة جانبت الحقيقة ، ربما لا يجد قبولاً كافياً إذا ما طبق عليه المنطق التاريخي ، بحيث أنه سيخطر على بال البعض ، أن يقول ، أنهم معذورون في موقفهم هذا ، على اعتبار أنهم أبناء بيئة ومرحلة زمنية ، من أحلك فترات التاريخ الاسلامي ، وأشدها تزمتاً وظلمة ، وبالتالي أكثرها فقراً بفهم طبيعة الاسلام ، هذه الطبيعة التي تؤمن بالخلق والابداع والعمل الدؤوب من أجل كل جديد ونافع ، وأغناها تمسكاً بالقشور والعمل على ترسيخها من دون طائل أو فائدة ترجى ، وذلك تحت اسم براق مخادع ، يتجلى بالحرص على التمسك بالسنة والشريعة الاسلامية التي لم تكن في يوم من الأيام داعية للجمود والتقوقع . وقول كهذا لا يجوز الشك في صحته على الأقل للوهلة الأولى ، لأن هؤلاء لم يكن بمقدورهم ، إلا أن يكونوا المرآة التي تعكس حقيقة سادتهم وحكامهم من المماليك ، الذين لا يمكن لأحد أن يصفهم . أو بالأحرى يعتبرهم عباقرة عارفين بكنه وحقيقة الاسلام

---

١٦٥ ـــ آسين بالاثيوس ص ٩٤ .

الصحيح المتطور . لكن وبالرغم من ضحالة معرفتهم بالاسلام ، فان بعضهم يستحق وقفة تقدير وإعجاب ، أكثر من علمائنا الذين حاربوا ابن عربي العريق في أصله العربي ودينه الاسلامي . ففي الوقت الذي كان فيه ابن تيمية يشن ويقود أبشع وأقسى حملة ضد ابن عربي ، فإن بيبرس الجاشنكير ، كان يحتضن الشيخ نصر المنبجي ، الذي أعلن خصومته الصريحة لأبن تيمية رداً على موقفه من ابن عربي ، وان كان الأمر لا يخلو من عداوة وحقد بين الحاكم المملوكي وابن تيمية هذا الفقيه الحائر(١٦٦) وهكذا فقد برهن أعداؤه على قصور مزمن في تفكيرهم ونظرتهم ، فاتخذوا من هذا الموقف ، الذي لم يكن القصد منه الحفاظ على السنة التي رسمها الرسول العربي الكريم (ص) بقدر ما كان في سبيل الحصول على مكانة دنيوية حقيرة في المجتمع تؤهلهم للسيطرة والظهور بشكل مميز على صعيد العامة والحكام . وما يدين هؤلاء ويؤكد ما قلته أنهم من ذوي النظرة الضيقة المحدودة ، وبالتالي من العلماء الذين يعرفون ولا يعترفون ، أنهم لم يكونوا أكثر اطلاعاً ولا أشد تعلقا بالاسلام أو حرصاً عليه من أولئك الذين انصفوا ابن عربي بأقوال موضوعية ، برهنت على صدق وسلامة حسهم العلمي ووفائهم للإسلام . لكن على كل حال ، فإنهم لم يكونوا الفئة الوحيدة ، التي حاربت الأفكار الجديدة عبر مراحل التاريخ العربي الاسلامي الطويلة . فقد سبقهم كثير من الفقهاء ، الذين وقفوا في وجه أصحاب ملكات العبقرية والعلم ، والتي أدت نتائجها إلى حد القتل والتصفية ، كما حدث للسهروردي القتيل صاحب (حكمة الأشراق) في الربع الأخير من القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي . ناحية أخرى ، تدين هؤلاء تتجلى بأن ابن عربي ، كان قد مكث على فترات متفاوتة في كل من مصر وقونية والعراق وحلب ودمشق . وخلال إقامته في هذه البلدان ، لم يلق إلا الترحيب والتأييد من الحكام ، بالرغم من وشي الوشاة ، الذي كان مصدره رجال الدين والفقهاء المتزمتين . فلو فرض جدلاً أن ابن عربي (كافر وزنديق) جسد كفره وزندقته في كتابه (فصوص الحكم) ، فإن من الحق القول بتكفير كل من شجعه من الحكام على اعتباره معروفاً لديهم . وكان أجدر بالفقهاء أن يحاربوا هؤلاء الحكام أنفسهم ، لكونهم قربوا زنديقاً معادياً للاسلام على حد قولهم ، لأن من يخلص للاسلام بحق ، يجب أن يدافع عنه بالحق عند الجميع دون تفريق ولا خوف ، الأمر الذي لم يحدث على صعيد أعداء ابن عربي ، لأنهم لم يكونوا يريدون من حربه تحقيق الأهداف العامة ، بقدر ما يرمون إلى تحقيق

١٦٦ — انظر ص ١٨٠ من هذا البحث .

أهدافهم الخاصة. وهكذا فإن من السذاجة المطلقة، القول أن ابن عربي كافر وزنديق، انطلاقاً من كتبه التي ألفها في بلاد الشام أو غيرها. والتي تحتوي على مذهبه في وحدة الوجود، هذا المذهب الجديد في الاسلام، لم يكن يمثل إلا رأي صاحبه، والذي لم يجبر أحداً على الأخذ به أو اعتناقه. وقد عبر عن شخصيته المتزنة، وعمق نظرته، بأن قابل الأذى بالتسامح والحسنة والدعاء، للذين حاربوه بأن يهديهم سواء السبيل(١٦٧) وقد حل في بلاد الشام صوفي آندلسي من نمط ابن عربي على صعيد العلم والمذهب الصوفي، هو أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي، الذي عاصر ابن عربي وترك الدنيا في الوقت نفسه الذي تركها فيه ابن عربي. فعلى الصعيد العلمي حصل من العلوم الشيء الكثير وخاصة في الفقه والحديث والمعقولات كالمنطق والطبيعيات والالهيات وغير ذلك، بحيث يمكن وصفه بأنه ذو ثقافة موسوعية(١٦٨) وأما علم التصوف فقد اعتبر فيه إماما من حيث المعرفة العملية فيه، والتي تجلت في عدة مؤلفات، لا يذكر منها شيئاً أولئك الذين ترجموا له، ومن حيث الممارسة الشخصية، التي تتجسد بعذاب النفس ومقاومة متطلباتها يقول: «أقمت عازما في جهاد النفس مدة سبعة أعوام حتى استوى عندي من يعطيني ديناراً أو يذرني»(١٦٩). وقد كان انطلاقه إلى المشرق من مراكش، في وقت غير معروف على وجه التحديد، وإن كان من المحتمل أنه كان في أواخر سني عمره، فحل بمدينة حماة، وتزوج من إحدى نسائها، وكان ينزل عند قاضيها الشهير بالبارزي، حيث توفي سنة ٦٣٨ هـ ــ ١٢٤١ م(١٧٠). وبالرغم من أنه معاصر لابن عربي، فلا تذكر المصادر أنه اتصل به أو التقاه، في المشرق أو في المغرب، مع أنه اتهم من قبل كثيرين بأنه من أصحاب مذهب الحلول الذي طوره ابن عربي في المشرق، وكان في مقدمة هؤلاء الذين اتهموه وتعرضوا له ابن خلدون والذهبي، اللذان وضعاه بمصاف ابن الفارض وعفيف الدين التلمساني وابن سبعين وغيرهم. ومع ذلك فانه لم يصل إلى الدرجة التي وصل إليها ابن عربي من حيث التأثير والانتاج العلمي، بالرغم من اقبال أهل حماة على الأخذ منه، وتعظيم البعض له في غير حماة، كالمجد التونسي شيخ الذهبي

---

١٦٧ ــ شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٦.

١٦٨ ــ الغبريني ــ عنوان الدراية ــ ت رابح بونار ط الجزائر ١٩٧٠ ص ١٤٦ ــ ١٤٧. العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ١٥٧.

١٦٩ ــ عنوان الدراية ص ١٤٨ ــ ١٤٩.

١٧٠ ــ المصدر السابق ص ١٤٥ ــ ١٥٥.

بمدينة دمشق وغيره[١٧١] وهذا ما يؤكد القول السابق، أنه قدم الشام في الفترة المتأخرة من حياته.

علوم اللغة العربية

ويقصد بهذه العلوم كل ما يتعلق أو يمت بصلة إلى اللغة العربية، من نحو وصرف وشعر وأدب. والتي لقيت اهتماماً بالغاً وجاداً من قبل كثيرين من رجال الجالية الأندلسية المغربية في بلاد الشام، وذلك خلال فترة طويلة من القرون الوسطى موضوع هذا البحث. وسيظهر جلياً واضحاً من خلال دراسة رجال هذا الشأن، أن معظمهم اختص في ميدان علم النحو والصرف، فغدوا فيه أقطاباً، علا شأنهم، واحتلوا مراكز مرموقة بين علماء الشام خلال هذه الفترة. وهذا لا يعني أنهم كانوا جاهلين في بقية الفروع الأخرى، كالأدب وقرض الشعر، انما الشيء الذي حدث، أنهم ركزوا جلّ اهتمامهم على المسائل النحوية، إلى درجة لقبوا بها وعرفوا كنحاة محترفين. والجدير بالذكر، أن علم النحو كان من العلوم المزدهرة المتطورة في الأندلس، نال منذ وقت مبكر اهتماماً بالغاً من العلماء في الأندلس، وصل إلى درجة عالية من النضوج، يمكن أن يضاهي فيها ما أنتجه علماء المشرق على حد سواء. فقد ألف فيه اسماعيل بن القاسم كتاب (البارع) وكتاب/ المقصور والممدود) وألف ابن القوطية كتاب (الأفعال)، هذا عدا عن الكتب التي ألفها أحمد بن أبان بن سعيد المعروف بالعالم، والتي بلغت حوالي مائة سفر في النحو والأدب. وألف غير هؤلاء كأبي علي الشلوبين، الذي وضع كتاب (التوطئة) على الجزولية وغيرهم كثيرون[١٧٢] لذلك فليس من الغريب في شيء أن يتفوق الأندلسيون في هذا المضمار، بالشكل الذي سيرى في الصفحات التالية. أما الأدباء منهم فقد مالوا إلى قول الشعر وشرح قصائد ومؤلفات غيرهم. وبشكل عام فإن كلا من الفريقين، استطاع أن يجيد فن وعلم الآخر، مثال ذلك، أن النحويين، كان باستطاعتهم قول الشعر والوقوف على معانيه بالرغم من تخصصهم في مضمار النحو وكذلك الأمر بالنسبة للأدباء، فانهم أشد الناس حاجة إلى معرفة القواعد النحوية. وسأدرس فيما يلي هذين الفريقين، بالاعتماد على هذا التصنيف.

---

١٧١ — عنوان الدراية ص ١٤٥.

١٧٢ — نفح الطيب ج ٣ ص ١٧١ — ١٧٢ — ١٨٤.

النحويون : ان الذين استحقوا أن يطلق عليهم تسمية (نحويين) ، لم يشكلوا ذلك العدد الكبير ، إذا ما قيسوا بغيرهم من رجال الفئات الأخرى . وبالرغم من هذه الظاهرة ، فانهم توزعوا في مناطق شامية عديدة ، وتوصل بعضهم إلى تسلم أعلى المناصب التدريسية في ميدان النحو ، كشيخ النحاة في العديد من المدارس ، التي كان لها شأو عظيم في مجال تعليم النحو والصرف . ومن هؤلاء علي بن القاسم أبو الحسن المعروف بابن الدقاق النحوي الاشبيلي ، الذي نزل أول قدومه إلى الشام في بلدة رأس العين في الشمال الشرقي من « سوريا » ، الأمر الذي يدل على أنه لم يتلق أية دروس في الشام ، كبعض الأندلسيين ، الذين لم يكونوا مهيئين أثناء حلولهم بالوطن الجديد . لكن إقامة النحوي المذكور لم تطل في رأس العين ، حيث غادرها قاصداً مدينة دمشق ، التي بقي فيها طيلة حياته ، التي كان آخرها سنة ٦٠٥ هـ ـ ١٢٠٩ م أما عن نشاطه العلمي ، أو المراكز التي درس بها ، فلا أعرف عنها شيئاً . وكل ما عرف عنه أنه ألف كتاباً سماه (شرح الجمل)[١٧٣] ، وعاصره في مدينة حلب نحوي آخر من أشبيلية أيضاً ، كان قد تلقى علومه في الأندلس قبل مجيئه إلى الشام ، فكان بذلك جاهزاً للتدريس عشية وصوله إليها . هذا النحوي هو علي بن محمد أبو الحسن المعروف بابن خروف . وقد وصف بأنه من الأئمة الرواد في علم النحو ، ومن المحققين المدققين فيه . وقد نزل مدينة حلب وعمل فيها بتدريس هذه المادة فترة من الزمن . لكن بالرغم من فضله وعلمه ، فانه لم يسكن في البيوت والمنازل العادية ، إنما جعل سكنه الرئيسي الخانات ، وساعده على ذلك ، أنه لم يتزوج طيلة حياته . وفي الفترة الأخيرة من عمره ، اختل عقله وصار يمشي عريانا بادي العورة . وقد ظهرت مقدرته في علم النحو من خلال بعض المؤلفات ، التي لم تتعد شروحاً لكتب نحوية سابقة ، ككتاب (شرح سيبويه) وكتاب (شرح الجمل) . وتوفي بحلب سنة ٦٠٩ هـ ـ ١٢١٣ م لكن تاريخ الوفاة هذا مختلف عليه ، فبعضهم يجعله قبل ذلك بقليل ، والبعض الآخر بعد هذه السنة المذكورة بقليل أيضاً[١٧٤] .
وخلال القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، قدّر لمدينة دمشق أن تحتضن نحوياً أندلسياً ، اشتهر بمعرفته المكينة بعلم النحو ، هو القاسم ابن أحمد بن الموفق ، الذي يعود أصل والديه إلى مدينة مرسية بشرق الأندلس ، أما من ناحية ولادته ونشأته فكانت في لورقة LORCA ، التي تتبع لمرسية نفسها ، ويكنى بأبي محمد وهو من النحويين الأندلسيين

١٧٣ ـ السيوطي ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٣٤٦ .
١٧٤ ـ المصدر السابق ص ٣٥٤ .

المغاربة، الذين جمعوا ما بين الثقافة المغربية والمشرقية، فمنذ بداية حياته، ركز على طلب العلم، فأجهد نفسه كثيراً من أجل ذلك، داخل بلاده، حيث درس على علماء كثيرين كابن الحصار وغيره، وخارجها على علماء في مصر وبغداد ودمشق. إضافة إلى النحو مجال اختصاصه الرئيسي، فقد كان له حظ وافر من علوم أخرى متفرقة، كالقرآن والمنطق والفلسفة. ويعتبر أول أندلسي مغربي في ميدان النحو، استطاع أن يتوصل إلى مرتبة تدريسية وادارية عالية، خلال فترة وجوده بدمشق، هذه المرتبة هي مشيخة علم النحو، التي كلف بالتصدي لها بالمدرسة العادلية* بالإضافة إلى حلقة من التلاميذ، عهد إليه مهمة تدريسها في المدرسة المذكورة، كما عهد إليه تدريس مادة النحو بالنيابة في المدرسة العزيزية** ولم تكن هذه المناصب، لتشغله عن الاهتمام بالتأليف والكتابة، فقد عرفت له عدة مؤلفات نحوية، لم تكن مبتكرة، إنما اقتصرت على شروح وتوضيح مؤلفات كان قد وضعها نحاة سابقون عليه، مثال هذه المؤلفات، أنه قام بوضع كتاب سماه (شرح المفصل في النحو)، وكتابين آخرين ضمّ الأول (شرح الجزولية)*** وضم الثاني (شرح الشاطبية). وهو أول أندلسي على ما أعرف، قام بشرح هذين الكتابين، من الأندلسيين نزلاء الشام وخاصة الكتاب الأول. ولا يستبعد أن يكون أيضاً هو الذي نقلها معه إلى الشام، وان كان هذا التخمين لا يصل إلى درجة الثقة، لأن من المحتمل أيضاً أن يكون آخرون قد سبقوه في نقلها، سواء من الأندلسيين أو غيرهم. توفي بمدينة دمشق سنة ٦٦١ هـ ـ ١٢٦٣ م، بعد حياة حفلت بالعطاء والانتاج، ودفن في مقابر باب توما بالقرب من قبر الشيخ رسلان[(١٧٥)] وخلال هذه الفترة

* المدرسة العادلية، وتعرف بالعادلية الكبرى، وهي من مدارس الشافعية بدمشق، تقع إلى الشمال من الجامع الأموي، تجاه المدرسة الظاهرية، يفصل بينهما الطريق، أول من أنشاها نور الدين محمود زنكي، توفي ولم يتممها، ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين الايوبي، وتوفي أيضاً ولم تتم، فأكملها ولده المعظم سنة ٦١٩ هـ (الدارس في تاريخ الدارس ٣٥٩/١) وهي الآن مقر مجمع اللغة العربية.

** المدرسة العزيزية. هي مدرسة للحنفية بدمشق، بجانب المدرسة المعظمية بالصالحية بناها الملك العزيز عثمان بن الملك العادل الايوبي، وقد درست ولم يبق منها سوى عقد ايوانها وبعض جدرانها (الدارس في تاريخ المدارس ٣٨٢/١).

*** الجزولية: نسبة إلى أبي موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي، كان أماماً في علم النحو، كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه، صنف فيه المقدمة التي سماها القانون أتى فيها بالعجائب وهي مع الايجاز مشتملة على كثير من النحو، حتى قيل أنه لم يسبق إلى مثلها وهي عبارة عن اشارات ورموز يصعب فهمها وادراكها (مرآة الجنان وعبرة اليقظان ٤).

١٧٥ ـ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ـ الذيل على الروضتين ص ٢٢٧.

تقريباً، تستقبل بلاد الشام أعظم نحوي أندلسي، وطأ أرضها طيلة فترة القرون الوسطى، سواء من حيث المستوى العلمي، أو من حيث المرتبة التدريسية والإدارية التي أهله مستواه للوصول إليها.

يضاف إلى ذلك الآثار الخالدة، التي خلفها في ميدان علم النحو، والتي أصبحت شاغلة للنحويين في الفترة التي تلت وفاته. هذا النحوي، هو محمد بن عبد الله بن عبد الله الملقب بجمال الدين، والمكنى بأبي عبد الله، الشهير بابن مالك النحوي، ولد بجيان سنة ٦٠٠ هـ ــ ١٢٠٤ م أو سنة ٦٠١ هـ ــ ١٢٠٥ م ويختلف عن كل النحاة الأندلسيين نزلاء الشام في عدة نواحٍ، من حيث طريقة تلقيه العلم والتزود به، ومن حيث أسلوبه في التعليم، إضافة إلى تعدد وتنوع مؤلفاته من ناحية الكيف والكم. وهذا ما يظهر من خلال ترجمته. فكانت أول محطة شامية بالنسبة لابن مالك، كانت مدينة حلب التي مكث فيها فترة لابأس بها من الزمن، انتقل بعدها إلى مدينة حماة، التي لم تطل إقامته فيها أيضاً، ليتوجه إلى مدينة دمشق، حيث استقر بصورة دائمة. أما ثقافته فقد أخذها عن طريقين، أولهما السماع عن بعض العلماء في كل من الأندلس وحلب وحماة، والذين سمع عليهم كانوا قلة قليلة، لم يستفد منهم كثيراً. وثانيهما الجهد والمثابرة الشخصية، لأن ابن مالك يمتاز عن غيره، بأنه لم يسمع ولم يأخذ عن أساتذة وعلماء، بقدر ما أخذ وحصل بجهده ومطالعته الشخصية. وكما فعل الكثيرون من أهل الأندلس، الذين وفدوا إلى الشام، فإن ابن مالك، بادر منذ وصوله إلى الشام، إلى التحول عن المذهب المالكي، إلى المذهب الشافعي. ويمكن القول، أن ابن مالك النحوي هذا، وفي الفترة التي وصل فيها إلى دمشق، كانت ثقافته قد اكتملت ونضجت وخاصة في مجال النحو، أضف إلى ذلك، أنه اكتسب خبرة لابأس بها في ميدان التدريس، الذي لا يستبعد أن يكون قد مارسه واشتغل فيه في كل من حلب وحماة، خلال فترة وجوده فيها. الأمر الذي ساعده بالاضافة إلى ثقافته العالية، لأن يصبح شيخ المدرسة العادلية الكبرى، ليس كشيخ للنحو فيها فحسب، انما أصبح المدير المسؤول عن إدارة ومعالجة شؤون المدرسة المذكورة آنفاً بشكل عام[١٧٦] وكان ابن مالك موضع حيرة ومصدر تساؤل بالنسبة للعلماء، وذلك من خلال الميزة التي انفرد بها عن الكثيرين منهم، والتي

---

١٧٦ ــ الوافي بالوفيات ج ٣ ص ٣٥٩ طبقات القراء ج ٢ ص ١٨٠ ــ الفيروز آبادي ت محمد المصري ط دمشق ١٩٧٢ ص ٢٢٩ تتمة المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٣١٨ ذيل مرآة الزمان ج ٣ ص ٧٦ نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢١ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦٧ ــ السيوطي ــ بغية الوعاة ص ٥٣.

تجلت في الطريقة التي اتبعها، كوسيلة لتعليم النحو، والتي تعتبر من الوسائل المبتكرة. فأثناء إعطائه الدرس، كان يستشهد بأمثلة من أشعار العرب، فان لم يجد، يلجأ إلى الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم، وان تعذر عليه الوصول إلى أمثلة من القرآن للتدليل على ما يعالجه، كان يلجأ إلى الحديث[177] وقبل بدء الدرس، كان يجلس بالمدرسة العادلية، فان لم يجد أحداً من الطلاب يذهب إلى النافذة المطلة على الطريق من الجهة الشرقية على أغلب الظن، انطلاقاً من أن المدرسة العادلية، لا يوجد فيها نوافذ إلا من هذه الجهة، والتي منها المدخل الرئيسي. ولدى وصوله إلى النافذة، كان ينادي ويقول: «القراءات، العربية، ثم يدعو ويذهب، ويقول، أنا لا أرى، أن ذمتي تبرأ إلا بهذا، فانه قد لا يعلم أني جالس في هذا المكان لذلك»[178] أما عن مؤلفاته، فهي كثيرة جداً، بحيث لا يمكن مقارنته بالانطلاق منها بغيره من النحويين الأندلسيين ضيوف الشام في هذا المضمار. منها ما ألفه في مدينة حلب، ومنها بمدينة حماة وأخرى بدمشق. وقد تعددت هذه المؤلفات وتنوعت مضامينها، حتى وصلت إلى أكثر من عشرين مؤلفاً. وقبل البدء بذكر هذه المؤلفات بشكل مفصل، فانه يؤخذ على ابن مالك، كما يقول البعض، أن هذه المؤلفات في بعض الأحيان، كانت تعوزها السهولة والوضوح، وخاصة منها المصنفات التعليمية[179] أذكر من هذه المؤلفات على سبيل المثال (الخلاصة) وهو الكتاب الذي عرف (بالألفية) ويحتوي على خلاصة منتقاة، يبين فيها المقاصد والأهداف من علم النحو. وقد عبر عن ذلك شعراً في بداية هذا الكتاب بقوله:

أستعين الله في ألفيه   مقاصد النحو بها محوية

ويختمه بالقول:

حوى من الكافية الخلاصة   كما اقتضى رضا بلا خصاصه[180]

وهذا المؤلف (الخلاصة) كان قد صنفه خلال فترة وجوده بمدينة حماة، واشتغل فيه

---

١٧٧ ــ الوافي بالوفيات ج ٣ ص ٣٥٩ ــ فوات الوفيات ج ٢ ص ٤٥٢ ــ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ ورقة ٢٥٩.

١٧٨ ــ طبقات القراء ج ٢ ط ١٩٣٣ ص ١٨١.

١٧٩ ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ الترجمة العربية ــ مجلد ١ ط ١٩٣٣ ص ٢٧٣.

١٨٠ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢٣ حاشية المحقق.

قاضي القضاة شرف الدين هبة الله البارزي[١٨١] وبهذا يكون هذا الكتاب، بالانطلاق من البيت الشعري الأخير، والمذكور في الصفحة السابقة، قد ضم أيضاً مختصراً لكتاب آخر، كان قد ألفه في مدينة حلب، هو المسمى بـ(الكافية الشافية)[١٨٢] ومن مؤلفاته أيضاً كتاب (الموصل في نظم المفصل)، قام بشرحه فيما بعد بمؤلف آخر سماه (سبك المنظوم وفك المختوم)[١٨٣] ومنها كتاب (اكمال الاعلام بمثلث الكلام)، و(لامية الأفعال) و(فعل وأفعل) و(المقدمة الأسدية) وضعها باسم ولده الأسد و(عدة الملافظ وعمدة الحافظ) و(النظم الأوجز فيما يهمز) و(والاعتضاد في الظاء والضاد) و(اعراب مشكل البخاري) و(تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) وهو كتاب جامع لمسائل النحو، بحيث لا يفوت ذكر مسألة من مسائله وقواعده. ومعظم هذه المؤلفات، صنفها خلال وجوده بمدينة دمشق[١٨٤] وله كتاب آخر سماه (نظم الفوائد) وهو عبارة عن مجموعة فوائد وضوابط نحوية مختلفة، صاغها بقالب شعري مختلف الروي. وله بعض المجاميع، التي تحتوي على ملاحظات وقواعد وفتاوٍ جوازية لم يكن هو الذي جمعها وأعدها، إنما الذي جمعها عنه، مجموعة من تلاميذه، وربما حدث ذلك من خلال المحاضرات والدروس التي كان يلقيها فيهم بالمدرسة العادلية[١٨٥] وقد انتفع به وتخرج عليه عدد كبير من الطلاب، وصل بعضهم إلى تولي مناصب إدارية عالية في مجال القضاء والعلم، سأذكرهم بالتفصيل في بحث لاحق. وقد توفي ابن مالك النحوي الفذ بدمشق سنة ٦٧٢ هـ — ١٢٧٤ م، حيث دفن بسفح قاسيون بعد حياة غزيرة بالعطاء وماضية التأثير[١٨٦] ويعتبر ابن مالك هذا من النحويين الكبار الذين كادوا ينازعوا سيبويه شهرته، فقد قدم من خلال مصنفاته النحوية التي ذكرت خدمة حقيقية لدراسة النحو، وذلك بربط قواعده وبسطها[١٨٧] كما يعتبر صاحب مدرسة كبيرة في ميدان

---

١٨١ — تتمة المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٣١٨.

١٨٢ — طبقات القراء ج ٢ ص ١٨١ نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢٣.

١٨٣ — نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢٣.

١٨٤ — حاجي خليفة — كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. مجلد ١ صححه وطبعه محمد شرف الدين ورفعت بيلكه الكليسي — بعناية وكالة المعارف الجليلة ١٩٤١ ص ٤٠٥. نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢٣. الوافي بالوفيات ج ٣ ص ٣٦٠.

١٨٥ — بغية الوعاة ص ٥٤.

١٨٦ — انظر عن وفاته جميع المصادر السابقة.

١٨٧ — دائرة المعارف الاسلامية — مجلد ١ ص ٢٧٢ — ٢٧٣.

النحو ، كان لها أهميته العظيمة في الفترة التي تلت وفاته ، ووصل تأثيرها إلى درجة أن كبار المهتمين بالنحو وشؤونه، اشتغلوا بشرح مؤلفاته ، وكأنها وضعت حداً للابداع والتجديد ، بحيث أن الذين شرحوها وألفوا حولها ، لم يجدوا أن باستطاعتهم عمل شيء أكثر من تفسيرها بصورة مبسطة وسهلة . أذكر من هؤلاء الشارحين على سبيل المثال ، الشهاب الشاغوري ، الذي شرح كتاب (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) ووصل فيه إلى باب مصادر الفعل وأكمله صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، وشرحه العلامة أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ هـ ــ ١٣٤٥ م ، وشرحه العلامة جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام النحوي المتوفى سنة ٧٦٢ هـ ــ ١٣٦١ م ، في عدة مجلدات سماه (التحصيل والتفصيل لكتاب التذييل والتكميل) إضافة إلى عدة حواش عليه . وشرحه العلامة بدر الدين محمد بن محمد الدماميني ، بعد أن نقله معه إلى الهند ، حيث طلب منه شرحه ، لأنه كان من الكتب المجهولة هناك . وشرحه كثيرون جداً غير هؤلاء(١٨٨) وأيضاً بالنسبة لكتابه (الكافية الشافية) ، الذي شرحه عديدون منهم محمد بن علي النقاش المصري المتوفي سنة ٧٦٣ هـ ــ ١٣٦٢ م وذيل عليه محمود بن محمد الحموي بخمسمائة بيت سماها (وسيلة الإصابة) نظمها في سنة ٨٠٥ هـ ــ ١٤٠٣ م ثم قام بشرحها(١٨٩) .

وقد خلفه بمدينة دمشق من الأندلسيين ، ابنه محمد المعروف ببدر الدين أبو عبد الله الذي لم يكن سر أبيه في ميدان النحو ، وان كان قد استطاع ، أن يقف على بعض الأخطاء التي وقع فيها الوالد . وهو من النحويين الأندلسيين ، الذين نشأوا وتلقوا علومهم في الشام . فقد تتلمذ على والده فترة طويلة من الزمن، هيأته لأن يكون من عداد النحويين المعروفين(١٩٠) وكان قد اختلف مع والده قبل وفاته بزمن قصير ، غادر على أثرها مدينة دمشق ، والتجأ إلى بعلبك ، حيث أقام فيها يدرس النحو ، إلى أن أخبر بوفاة والده فعاد مباشرة إلى دمشق ، وحل محله في المدرسة العادلية كمدرس للنحو ومسؤول عن مشيخته فيها ، في حين كان والده رئيساً للمدرسة ككل . يضاف إلى ذلك ، أنه كان يدرس* في المدرسة

---

١٨٨ ــ كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون ــ مجلد ١ ص ٤٠٥ وما بعدها .

١٨٩ ــ كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون ــ مجلد ٢ ط استانبول ١٩٤٣ ص ١٣٦٩ .

١٩٠ ــ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ ورقة ٢٥٩ .

* المعيد هو الاستاذ الثاني للطالب ، وقد يكون أعلم من المدرس ، ولكن لم يسعفه الحظ لأن يكون مدرساً ، وكثيراً ما يرقى المعيد إلى التدريس ، وعمله أن يعيد للطلبة الدرس ويفهمهم ما قرره لهم الاستاذ ، كما عليه أن يحضر درس

الأمينية* بدمشق. لكن محمداً هذا لم يقتف سيرة والده أو يقتدي به، في مجال الجد والاجتهاد بالرغم من مواهبه الفريدة وذكائه الحاد. فمال إلى حياة اللهو واللعب في أكثر الأحيان(١٩١) وبالرغم من حياته اللاهية هذه، فقد عرف عنه بعض المؤلفات الهامة في النحو، منها شرح ألفية والده المعروفة (بالخلاصة). فقد أجاد شرحها، بأن نقحها وفصلها بشكل يسهل فهمها والأفادة منها، وأشار إلى بعض الأخطاء، التي وقع بها والده من قبله. يقول الصفدي صاحب كتاب (الوافي بالوفيات) عن هذا الشرح: «ولم تشرح الخلاصة بأحسن ولا أسد ولا أجزال على شروحها». ومن مؤلفاته الأخرى كتاب (المصباح) وهو مؤلف يحتوي ويتضمن مفاتيح ومبادىء علم النحو. وطوره في مؤلف أوسع وأشمل سماه (روضة الأذهان).

ومن مؤلفاته في العربية، غير النحوية، مؤلفه المعروف باسم (مقدمة في العروض) وامتاز عن أمثاله من النحويين الأندلسيين، اضافة لذلك، أنه ألف في ضرب آخر، يخرج عن نطاق علوم اللغة العربية كلية، هذا الضرب، هو الفلسفة وعلم الكلام، ولعله الوحيد بين الأندلسيين المتضلعين بهذا المضمار، والذي ترجموا معارفهم بكتب أو مؤلفات. وكتابه الوحيد هذا، هو الكتاب الذي أطلق عليه تسمية (مقدمة في المنطق) وتوفي بدمشق سنة ٦٨٦ هـ ـــ ١٢٨٧ م متأثراً بمرض القولنج، ودفن بمقابر الباب الصغير(١٩٢). وتستقبل مدينة دمشق في أوائل القرن الثامن الهجري، نحوياً أندلسياً، طارت شهرته في ميدان النحو والقراءات، هو محمد بن القاسم مجد الدين أبو بكر، الذي يعود أصل عائلته إلى مدينة مرسية بالأندلس وولادته في تونس سنة ٦٥٦ هـ ـــ ١٢٥٩ م، حيث تلقى علومه الأولى، ليرحل إلى مصر، حيث نزل بالقاهرة فترة من الزمن، انتقل بعدها إلى دمشق، التي اتخذها

الأستاذ، لذلك يكون تقريره الثاني الدرس موافقاً لتقرير الأستاذ السابق، وقد يقرر المعيد الدرس أولاً ثم يقرره الأستاذ ثانياً (ابن طولون الصالحي ـــ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ت محمد أحمد دهمان ط دمشق ١٩٤٩ ص ١٤.

المدرسة الأمينية، وهي إحدى المدارس الشافعية تقع إلى الجنوب من باب الزيادة، أحد أبواب الجامع الأموي، والمسمى قديماً بباب الساعات. بناها أمين الدولة ربيع الاسلام سنة ٥٣١ هـ (الدارس في تاريخ المدارس ١/١٧٧ ـــ ١٧٨).

١٩١ ـــ الوافي بالوفيات ج ١ ص ٢٠٤ ـــ ٢٠٥ ـــ ذيل مرآة الزمان ج ٤ ط حيدر اباد الدكن ١٩٦١ ص ٣٢٩ ـــ ٣٣٠. مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج ٤ ص ٢٠٣.

١٩٢ ـــ الوافي بالوفيات ج١ ص ٢٠٥.

مستقرة الأخير، ويبدو أن مستواه العلمي حين وصلها، لم يكن متبلوراً وخاصة في ميدان النحو، ودليل ذلك أنه أمضى عدة سنين يدرس ويدرس، فشاعت فضائله واشتهر أمره، حتى أصبح من المقصودين للاستفادة منه في مجال القراءات والنحو(١٩٣) ويظهر مستواه العلمي الرفيع، من خلال أقوال بعض العلماء بدمشق، عندما سئل أحدهم وهو شمس الدين الأيكي: أيهما أذكى ابن الوكيل أو الزملكاني؟ وكلاهما كان له حظ وافر من العلم والاطلاع فقال: «هنا شاب مغربي أذكى منهما وأشار إليها»(١٤٩) وقد أهله مستواه الناضج إلى تولي عدة مناصب هامة في مجال التدريس خلال الفترة التي أمضاها بدمشق. كان في مقدمتها تدريس مادة النحو بالمدرسة الناصرية* بكل جدارة، حتى إن البعض وصفه بأنه سيد عصره في مضمار النحو على مستوى دمشق. إضافة إلى عمله الذي اشتهر به أكثر كنحوي مرموق، فإنه تولى مشيخة الاقراء بتربة أم الصالح** وهو أول من تسلم منصباً في غير اختصاصه من هذه الفئة، وأيضاً تسلم الاقراء بالتربة الأشرفية***... وبالرغم من شهرته هذه، فانه لم يعرف في مجال الكتابة والتأليف، وربما يعود سبب ذلك إلى أن وقته كان ضيقاً، بحيث لم يسمح له بالتأليف. وقد توفي بدمشق على أثر موجة قاسية من القتل والتعذيب، على أيدي نائب الشام سيف الدين كزاي المملوكي سنة ٧١٨ هـ ـ ١٣١٨ م لأنه سمع عنه أنه ألقى المصحف أرضاً(١٩٥). وعاصره بمدينة حلب نحوي آخر، لم يكن بمستواه العلمي، وبالتالي لم يشتهر أمره، هو أحمد بن عبد الله بن مهاجر من وادي آش بالأندلس، الملقب

---

١٩٣ ــ الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٦١ بغية الوعاة ص ٢٠٦ الوافي بالوفيات ج ٤ ص ٣٥١ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٢٩٦.

١٩٤ ــ الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٦١ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٢٩٧.

* المدرسة الناصرية، وهي من مدارس الشافعية، تعرف بدار الحديث الناصرية بمحلة الفواخير بسفح قاسيون جنوب جامع الافرم، أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر عزيز الدين غازي بن صلاح الدين يوسف بن ايوب (الدارس في تاريخ المدارس ١/١١٥).

** تربة أم الصالح، أنشأها الصالح أبو الجيوش، اسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر وفيها المدرسة الصالحية، وكلاهما للشافعية بدمشق بحيى الصالحية (الدارس ١/٣١٦).

*** التربة الاشرفية، جوار باب القلعة الشرقي غربي العصرونية، كانت داراً لصارخ الدين قايماز بن عبد الله النجمي المتوفى سنة ٥٩٦ هـ، فاشتراها الملك الأشرف الايوبي، وبناها دار حديث. بدأ بعمارتها سنة ٦٢٨ هـ وانتهى منها سنة ٦٣٠ هـ (الدارس ١/١٩).

١٩٥ ــ الوافي بالوفيات ج ٤ ص ٣٥٢ الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٦٢ بغية الوعاة ص ٢٠٦ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٢٩٧.

شهاب الدين الحنفي ، سكن فترة وجيزة بطرابلس الشام ، ثم انتقل إلى حلب ، فأقام بها يدّرس النحو والعروض ، وفيها تعرف على قاضيها الحنفي ناصر الدين ابن العديم ، الذي شجعه للتحول عن المالكية إلى الحنفية(١٩٦) أما عن وفاته فلا أعرف عنها شيئاً محدداً . وخلال القرن الثامن الهجري أيضاً ، وصل إلى مدينة دمشق النحوي محمد بن الحسن بن محمد ، الذي يعود أصل أسرته إلى مدينة مالقة بجنوب الأندلس .

وقد أهلته معرفته الطيبة في مضمار النحو والصرف ، لأن يتولى مشيخة الخانقاة النجيبية* ، وظل فيها حتى وفاته سنة ٧٧١ هـ ــ ١٣٧٠ م ، ودفن بمقابر الصوفية التي كانت موقوفة على ما يبدو ، على الرجال العظام من الصوفية ، وكان هذا من العاملين في أحد خوانقهم كرئيس لها ، وأهم المؤلفات التي نسبت إليه في النحو (شرح التسهيل) لابن مالك النحوي . وقد جاء هذا الشرح مختصراً ومقتضباً بشكل يسهل معه فهمه ، واستيعابه ، والذي ساعده في ذلك ، أن هذا الكتاب ، كان أحد الكتب الرئيسية التي يقوم بتدريسها(١٩٧) وفي دمشق أيضاً اشتهر أمر نحوي آخر إلى درجة لقب بشيخ النحاة) لمعرفته العميقة في علم النحو ، هو أحمد بن محمد شهاب الدين أبي محمد العنابي(١٩٨) نسبة إلى عنابة في القطر الجزائري ، الذي ولد سنة ٧١٦ هـ ــ ١٣١٧ م فدرس قليلا في بلاده قبل أن يتوجه إلى المشرق ، التي كانت مصر أول محطاته فيه ، وفي مصر انكب على دراسة النحو وتعمق فيها على أثير الدين أبي حيان** لينتقل بعدها إلى دمشق . فكان أول تصرف قام به في هذه المدينة ، أن

---

١٩٦ ــ نفح الطيب ج٣ ص ٤٠٨ ــ بغية الوعاة ص ١٣٧ . الوافي بالوفيات ج٧ ت أحمد بن الطيب بن خلف + أحمد بن شراعة باعتناء احسان عباس ط بيروت ص ١٣٧ .

* الخانقاه النجيبية ، تقع داخل المدرسة المعروفة بالنجيبية ، وهي ملاصقة للمدرسة النورية وضريح نور الدين الشهيد من جهة الشمال ، بناها جمال الدين آقوش الصالحي النجمي في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، وهي إحدى المدارس الشافعية (الدارس ٤٦٩/١) .

١٩٧ ــ ابن قاضي شهبة ــ طبقات النحاة واللغويين ــ مخطوطة الظاهرية رقمها ٣٤٦٨ ورقة ٣٦ ص٣٧ بغية الوعاة ص ٣٥ كتاب وفيات ابن رافع الترجمة رقم ٤١٦ .

١٩٨ ــ الدرر الكامنة ج ١ ص٢٩٨ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص٤٦٦ ــ ٤٦٧ .

** ابن حيان ، هو أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي المالكي ثم الشافعي ، ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ قرأ كثيراً بالأندلس والمغرب والاسكندرية والحجاز والقاهرة ، وبرع في علم النحو والصرف ، حتى غدا مرجعاً فيهما ، إضافة إلى اهتمامه بشؤون الحديث والتاريخ . وهو الذي شجع الطلاب والتلاميذ على دراسة آثار ابن مالك النحوي . وكان يدرسها ويشرح غوامضها لمن تتلمذ عليه (النجوم الزاهرة ١١١/١٠ ــ ١١٢) .

تحوّل عن المذهب المالكي إلى المذهب الشافعي . حيث كان مثل هذا الاجراء ضرورياً لمن يريد العمل في المدارس الشافعية ، حيث لا تقبل أي شخص إذا كان على غير هذا المذهب ، لذلك فقد مارس العنابي بعد هذا الإجراء مهنة تعليم النحو كمدرس معتمد في مدرستين معروفتين في هذا المضمار ، هما المدرقس الناصرية الجوانية* والخانقاه الأندلسية** التي كانت مقر سكنه واقامته . أما في مجال التأليف ، فلم يكن باعه طويلاً ، وكل ما قام به ، أنه قام (بشرح التسهيل) لابن مالك النحوي ، كما فعل سابقه . وقد تخرج عليه تلامذة كان لهم فيما بعد مكانة مرموقة ، في عدة ميادين ، مثال هؤلاء الفقيه والمحدث النحوي بدر الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن مكتوم المتوفى سنة ٧٩٧ هـ ، فقد عمل معيداً في المدرسة العادلية الصغرى ، والناصرية والجامع الأموي ، مدة خمس عشرة سنة ، كان مسؤولاً خلالها عن مشيخة النحو بالناصرية المذكورة(١٩٩) وتوفي العنابي بدمشق سنة ٧٧٦ هـ ـــ ١٣٧٤ م . وتوفي بعده بسنوات قليلة ، بمدينة حلب النحوي محمد بن أحمد بن جابر المالكي ، المعروف بأبي عبد الله الأعمى . ولد بالمرية بجنوب الأندلس سنة ٦٩٨ هـ ـــ ١٢٩٩ م وفي بداية رحلته درس لفترة قصيرة في مدينة رندة RONDA بجنوب الأندلس على أبي عبد الله الزواوي ، ثم تابع حتى وصل إلى مصر ، فدرس النحو على أكبر علمائها في تلك الفترة ، وهو أثير الدين بن حيان . ثم قصد مدينة حلب ، فسكنها بصورة دائمة ، يعمل في ميدان النحو مباشرة ، بعد أن كان قد توقف فترة وجيزة بدمشق ، سمع خلالها عن المزي والجزري وغيرهما . وكان نزوله بحلب سنة ٧٥٠ هـ ـــ ١٣٥٠ م فظل فيها مدة ثلاثين عاماً متواصله يشتغل بالتدريس والتأليف فقد اشتهر عنه كتب عديدة ، كان أهمها (شرح الألفية) لابن مالك . وقد نهج في هذا الشرح طريقة مبتكرة ، تجلت بأنه قام بشرح أبيات الألفية واعرابها . ويعتبر من الكتب الجيدة ، التي لا بد منها للمبتدئين بدراسة النحو . وهذه الشروح لمؤلفات لابن مالك النحوي ، والتي لم أذكرها في ترجمته السابقة ، تدل أيضاً وبصورة أكيدة ، على مدى الأهمية البالغة لانتاجه الذي كان يتسم بالابداع

---

* الناصرية الجوانية ، تقع إلى الشمال من الجامع الأموي داخل باب الفراديس ، أنشأها الملك الناصر يوسف بن صلاح الدين يوسف بن ايوب ، وكانت قبل ذلك تعرف بدار (الزكي المعظم) وقد فرغ من عمارتها في أواخر سنة ٦٥٣ هـ (الدارس ٤٥٩/١) .

** الخانقاة الأندلسية . بناها محمد بن أحمد بن يوسف الأندلسي ، داخل مدرستهم المعروفة بالكلاسة بالجامع الأموي ، تجاورها المدرسة الجقمقية (مختصر تنبيه الطالب للعلموي ص ١٤٠) .

١٩٩ ـــ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٧١ ـــ ٣٧٢ .

والجدة ، بحيث شغل هؤلاء النحاة ، واقتصرت أهم تآليفهم على شرح ما ألفه . وربما تعود هذه الظاهرة ، إلى الأسلوب ، الذي اتبعه ابن مالك ، بحيث غدا صعب الفهم والادراك على الطلاب والمبتدئين ، اضافة إلى سعة وتنوع المعلومات التي تضمنتها هذه المؤلفات من المسائل النحوية المعقدة ، الأمر الذي يجعل الفائدة منها نادرة ، إذا ما أرغم الطلاب على دراستها كما وضعها ، لذلك فليس غريباً أن يكون اقبال الكثيرين على شرحها منطلقين من هذا الواقع ، وبالتالي فقد انحصر ابداعهم في هذا المجال ، كونهم وجدوا من الصعوبة محاراتها أو وضع ما يماثلها على ما يبدو : أضف إلى ذلك أنهم لم يتمكنوا من التركيز على دراسة النحو وفهم تفاصيله ، كما حدث لابن مالك نفسه . هذا بالإضافة إلى أنهم وجدوا في عصر لا يقيم للعلم وزناً إذا ما اشتثني علم الحديث والفقه ، هذا العصر ، هو ما يسمى بالعصر المملوكي ، الذي أصابت الحركة العلمية خلاله ضربة قاسية ، بحيث يمكن اعتباره بداية أفول كثير من العلوم العربية .

وقد ترافق ذلك مع وجود هجمات خارجية ، كانت تهدد بلاد الشام بين الفينة والأخرى ، وتوجت بغزوة تيمورلنك لمدينة دمشق في السنين الأولى من القرن التاسع الهجري ، والتي اتسمت بالتخريب والدمار على كل صعيد ، وبشكل خاص على الصعيد العلمي ، حيث قتل الكثيرون من علمائها ، فتعطلت المدارس وتوقفت الحركة العلمية لفترة طويلة ، مثال ذلك المدرسة العادلية الكبرى ، التي احتلت أهمية كبيرة على صعيد التعليم ، فقد توقفت عن استقبال الطلاب من سنة ٨٠٣هـ ـ ١٤٠١م وحتى سنة ٨٣٨هـ ـ ١٤٣٥م ، ففي رواية لابن قاضي شهبه في الذيل ، ينقلها النعيمي في كتابه الدارس يبين هذا الواقع بوضوح : « ... في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة وفي يوم الأربعاء خامسه ، حضر قاضي القضاة سراج الدين الحمصي الدرس بالغزالية ودرس في قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ .. ثم ذهب إلى العادلية الكبرى ، فدرس بها في أول المنهاج ، ومن تمرلنك إلى الآن لم يدرس بها أحداً وكذلك لم يدرس بها المذكور غير هذا الدرس »(٢٠٠) .

ولابن جابر الأعمى عدة مؤلفات أخرى ، ككتاب (نظم الفصيح) و (كفاية

---

٢٠٠ ـ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٦٧ .

المتحفظ) و (الحلة السيرا في مدح أهل الورى) وهي بديعية استخدم فيها ألواناً من البديع . وبذلك يعتبر أول نحوي أندلسي جمع بين النحو والبديع . توفي ببلدة البيرة* ، بالقرب من مدينة حلب ٧٨٠ هـ ـــ ١٣٧٨ م[٢٠١] ، وهو خاتمة الأندلسيين ، الذين اشتغلوا في مضمار علم النحو واشتهروا به ، على اعتباره الاختصاص الرئيسي ، الذي أخذته مقياساً . وأساساً لتصنيفهم ودراستهم . على أن ذلك لا يعني عدم وجود مشتغلين في هذا العلم ، انما وجد كثيرون ، كان لهم حظ لابأس به من هذا العلم ، لكنه لم يشكل محور نشاطهم الرئيسي ، كهؤلاء الذين ذكروا من النحاة ، الأمر الذي أشرت إليه في البداية .

الأدباء

تعني كلمة أديب على وجه التحديد ، أن صاحبها ، أما يجيد الكتابة النثرية في مواضيع شتى ومتفرقة ، وأما يجيد قول الشعر وقرضه في مناسبات متنوعة أيضاً . وانطلاقاً من هذا التعريف المحدد لكلمة (أديب) وإذا ما طبق بشكل دقيق على الأندلسيين ، الذين وفدوا إلى الشام في أوقات مختلفة من فترة هذا البحث ، فانه يظهر واضحاً ، أن الذين عملوا في ميدان الكتابة النثرية ، كتصنيف الكتب الأدبية ، أو أي شيء من هذا القبيل ، كانوا قليلين جداً ، وإذا وجد أثر لبعضهم ، فان مجال انتاجهم وكتابتهم تجسد في مجال الخطابة ، أو القيام بشرح وتبيان معنى قصيدة من القصائد الشعرية ، أو غير ذلك . أما الذين عملوا في الضرب الثاني ، أي قول الشعر ونظم القصائد ، فهم كثيرون جداً ، بمعنى أن جميع الأندلسيين على مختلف فئاتهم العلمية ، كانوا يقرضون الشعر تقريباً في مناسبات متعددة . ولم تكن هذه السمة مقتصرة عليهم فحسب ، انما كانت سمة عامة ، تميز بها العلماء العرب المسلمون في العصور الوسطى موضوع هذا البحث ، لذلك ، واستناداً إلى هذا الواقع ، فاني سأقتصر هنا على دراسة من اتخذ من قول الشعر حرفته الرئيسية ، كمصدر للكسب والحصول على المال ، من أجل تأمين العيش ومتطلبات الحياة ، بالإضافة إلى الذين اشتهروا كشعراء ، ولم يتخذوا من الشعر وسيلة للتكسب ، والجدير بالذكر ، أن الذين اتخذوا من الشعر وسيلة للكسب ، كانوا

---

* البيرة ، هي بلدة تقع بين حلب والثغور التي كان يطلق عليها حينذاك الثغور الرومية (معجم البلدان ٥٢٦/١) .

٢٠١ ـــ الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١٥٦ بغية الوعاة ص ٤ ـــ المقريزي ـــ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٣ ق ١ ت سعيد عبد الفتاح عاشور ط القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٥٠ .

قليلي العدد. وكتبوا في ميدان المدح والوصف واستدرار عطف الحكام وشرح قصائد غيرهم. وكان أشهرهم في هذا الميدان الشاعر علي بن محمد أبو الحسن المعروف بابن خروف القرطبي، الذي ولد في حصن (قبذاق) من أعمال قرطبة، والذي نشأ ودرس في قرطبة نفسها. وقد برع ابن خروف في حقل الشعر إلى حد جعل البعض يضعه ويصنفه في قائمة الشعراء المشاهير في المغرب والمشرق على حد سواء، وقد انحصر شعره في أغلب الأحيان في المدح والوصف، وفي ذلك عذر طبيعي له على اعتبار أنه جعل من الشعر مصدر عيشه الرئيسي، ودليل ذلك أنه قام بمدح الكثيرين من الحكام في أثناء وجوده في المغرب العربي، كحاكم سبتة الموحدي إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن في قصيدة طويلة، جمعت بين الوصف للمدينة المذكورة من جهة وبين المديح لحاكمها وإطرائه من ناحية أخرى(٢٠٢) وكان آخر من مدحه في المغرب، أبو عبد الله محمد بن عياش كاتب الحضرة بمراكش لدى يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، ثم ابنه من بعده وحدث أن اعطاه قدراً من المال لم يعجبه، فاغتاظ ورده إليه، وعلى أثر هذه الحادثة، نظم قصيدة، تدلل مرة أخرى على أن الشعر كان حرفته الرئيسية، التي غدت في المغرب على ما يبدو من الحرف التي لا تكفي لإعالة صاحبها على حد تعبير الشاعر المذكور في الأبيات التالية:

مدحتُ ابنَ عياش فجددَ ليْ الذي
حبانيْ به ما قدْ تناسيتُ منْ كربي
رددتُ إليهِ عظمةُ لأسرهُ
وأقبلتُ أمحوْ كلَ ما كانَ في قلبيْ
وأصبحتُ أسمْو للمشارقِ طالعاً
لأني رأيتُ الشمسَ تنحطُ في الغرب(٢٠٤)

ومنذ ذلك الحين يمم وجهه إلى المشرق، فأقام بمصر مدة قصيرة، ثم توجه إلى مدينة حلب، حيث سكنها بقية سني حياته. واشتهر ذكره بهذه المدينة كشاعر قدير يكيل المدائح

٢٠٢ ــ انظر عن هذه القصيدة ــ ابن سعيد المغرب في حلى المغرب ج ١ ت شوقي ضيف ط ٢ ١٩٦٤ ص ١٣٦.

٢٠٣ ــ المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ١٣٩.

للحكام ويشيد بهم. ويبدو أن الحياة أعجبته وراقت له بمدينة حلب، أكثر من كل المدن والبلدان التي زارها بما فيها المغرب والأندلس وقد عبر عن ذلك أروع تعبير بقوله :

حلبتُ الدهــرَ أشطــرهُ وفي حلبَ صفا حلبــي

وقد نظم عدة قصائد في أثناء وجوده بحلب، تنوعت أغراضها ومضامينها، وكان منها القصيدة التي قالها في غلام حكم عليه بالسجن، فبين فيها أن الحكم الذي اتخذ بحقه لم يكن عادلاً، لكونه طفلاً يافعاً، لم يبلغ بعد سن الرشد، فانحى باللائمة على القاضي الذي أصدر هذا الحكم بقوله :

أقاضيْ المسلمينَ حكمتَ حكماً غدا وجــهُ الزمــانِ به عبــوساً
حبستَ على الدراهـــم ذاْ جمالٍ ولمْ تسجنهُ إذْ سلبَ النفوسا[٢٠٤]

وكانت أهم قصيدة قالها خلال هذه الفترة، تلك التي جاء بها إلى بلاط الملك الظاهر ابن صلاح الدين الأيوبي في إحدى ليالي رمضان سنة ٦٠٤ هـ ــ ١٢٠٨ م والتي أشاد من خلالها بالحكام الأيوبيين، مبينا مناقبهم وحسن سيرهم في ميدان الحكم والرياسة، لكن الموت لم ينتظره، حتى يلقيها في حضرة الملك الظاهر. وقد عثر عليها في جيبه، فأمر الظاهر بأن تصرف جائزته عليها، بالصدقة عنه وتجهيز جنازته، ودفنه. منها هذه الأبيات.

شمسُ الهدايةِ في أبنــاءِ أيــوبِ أختُ النبوةِ في أبنــاءِ يعقــوبِ
همُ الملائكُ في الملــوكِ وهــــمْ أسدُ الحروبِ واقطابُ بالمحاريب[٢٠٥]

وقد توفي ابن خروف القرطبي هذا سنة ٦٠٤ هـ ــ ١٢٠٨ م، على حد قول بعضهم، وفي سنة ٦٠٥ هـ ــ ١٢٠٩ م أو التي بعدها على حد قول بعضهم الآخر[٢٠٦]

ويعتبر الوحيد من بين الشعراء الذين اعتمدوا على التكسب من الشعر من الأندلسيين

---

٢٠٤ ــ نفح الطيب ج ٣ ص ٣٩٥ ــ ٣٩٦.
٢٠٥ ــ المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ١٣٨ ــ ١٣٩.
٢٠٦ ــ نفح الطيب ج ٣ ص ٣٩٦ ــ المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ١٣٩.

نزلاء الشام في هذه الفترة موضوع هذا البحث، وذلك بالانطلاق من معطيات المصادر. ويمكن أن أصنف واحداً من الأدباء الأندلسيين تحت هذا العنوان، بالرغم من أنه عرف في مجال الطب منذ بداية حياته، وظل يعمل فيه حتى توفي، وهو عبد المنعم الجلياني الحكيم الأندلسي، الذي استطاع أن يحوز على المعرفة بعدة علوم غير الطب، وفنون كان رأسها الشعر وعلوم اللغة العربية الأخرى. ويعتبر بين الأدباء نموذجاً نادراً، بحيث استطاع أن يجمع بين النظم والنثر وألوان البديع، الأمر الذي جعل فئة من الذين درسوه وكتبوا عن مسار حياته، يضعونه في المراتب الأولى بين الأدباء، وأكدوا من ناحية أخرى، على تميزه بالقدرة على مزج الشعر بالحكم وغيرها، وأيضاً بالجمع بين الشيء وضده في كثير من مؤلفاته[٢٠٧] والحق أني لم أر أحداً من الأندلسيين الذين وقفت على سيرهم وأخبارهم في هذا البحث، يشبهه في هذه المزايا، بحيث يمكنني مقارنته به. ومن مؤلفاته التي تنضوي تحت هذا المفهوم، كتابه المسمى بـ(سر البلاغة وصنائع البديع في فصل الخطاب). وهذا المؤلَّف يدل دلالة واضحة على مدى تمكن الجلياني في ميدان علوم اللغة العربية. وله ديوان سماه (المشوقات إلى الملأ الأعلى) وهو شعر بكامله. وكان له في الغزل حظ وافر، جسده في مؤلف دعاه ديوان (الغزل)، ويتضمن قصائد زجلية وموشحات. وهذا المؤلف يجعل الجلياني وحيداً بين أقرانه من الأندلسيين، لأنه لم يعرف عن أحدهم، مؤلف في الغزل والزجل والموشحات. كما ألف ديواناً آخر احتوى على الغاز ورموز وأحاجٍ وأوصاف وأغراض كثيرة متنوعة، صاغه بقالب شعري[٢٠٨] وربما هو المؤلف الذي يؤكد قدرته على المزج بين عدة ضروب كما تقدم ذكره. لكن وبالرغم من كل المزايا التي انفرد بها، وتميز من خلالها عن الشعراء والأدباء الأندلسيين، فان شعره لم يرق إلى القمة، من حيث قوة تراكيبه وجزالتها، وربما يعود ذلك إلى صعوبة تصوير وسبك المواضيع والقضايا التي عالجها، بحيث تصعب صياغتها على أقدر الشعراء وأشهرهم في ميدان النظم. وقد أدت هذه الظاهرة ببعض الذين اطلعوا على شعره للقول بأن الجلياني مملوء بالسخف والمجون. كان على رأس هؤلاء ابن سعيد المغربي صاحب كتاب (المغرب في حلى المغرب)، الذي يكاد يكون الوحيد من بين الذين ترجموا له في هذا المجال. وفي الوقت الذي وصف شعره بالضعف والسخف، أشاد به

---

٢٠٧ ــ انظر ص ١٣٤ ومابعدها من هذا البحث.

٢٠٨ ــ عيون الانباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٦١ ــ فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٦.

كطبيب بارع وقدير . ويستشهد على ضعف شعره بأبيات كان قد قالها في بعض أصحابه بمدينة دمشق ، والملقب بأبي الوحش يقول :

إذا جاءني يوماً نعيْ أبي الـوحش	أبصرتُـه فوقَ الـرؤوسِ على النـعشِ
وقد جعلوا من نهر قلوطَ غسلـهُ	وكفَـــن في كرشٍ وألحدَ في حشِ
وظـلَّ لما يلقـاهُ منْ هو منكـرٌ	وشدّه ضيـقُ القبـرِ يضرطُ كالجحشِ
بذلتُ لصحبـي زقَ خمرٍ وقينـةٍ	وزخـرفتُ داري بالنمارقِ والفـرشِ
فانْ قيـلَ ليْ ماذا التكرمُ والسخا	أقلْ لهمْ ماتَ الوضيعُ أبو الوحشِ[٢٠٩]

ويبدو أن ابن سعيد المغربي ، لم يطلع على جميع مؤلفاته في ميدان الشعر والأدب ، ومن المرجح أنه اقتصر على دراسة الديوان الشعري الأخير ، الذي يحتوي على قصائد متعددة المواضيع ، ومعظم مؤلفات الجلياني التي أتيت على ذكرها ، مفقودة لا وجود لها في بلادنا على ما أعرف . وإذا ما قورن الجلياني بالشاعر ابن خروف القرطبي ، فانهما يلتقيان على صعيد واحد ، هو ملكة قول الشعر ونظمه ، ويختلفان من حيث الهدف أو المقصد من نظم القصائد الشعرية ، التي غدت عند ابن خروف وسيلة للكسب الدائم ، بينما اقتربت لأن تكون عند الجلياني ، استجابة لهواية شخصية محضة . ودليل ذلك أنه لم يتلق جائزة أو مكافأة علي اية من القصائد التي قالها ، كما فعل ابن خروف.أما النموذج الثالث من هؤلاء الأدباء ، فلم يشتهر أمره على صعيد الأدب أو الشعر بالمقارنة مع الشاعرين السابقين ، لأنه على ما يبدو ، لم يكن يتخذ من الشعر وسيلة للكسب المادي .

وهو يلتقي في هذه الناحية ، مع الجلياني . هذا الأديب هو الأمير بدر الدين بن الحسن المغربي الميورقي نسبة إلى ميورقة احدى جزر الباليار ، لا يعرف متى وصل دمشق ، وان كان من المحتمل أنه جاء مع الأسرى الذين أتى بهم الافرنج بعد احتلال جزيرتهم (ميورقة) في سنة ٦٢٧ ــ ١٢٣٠ م ، وان لم يكن ذلك فقد وصلها بعد فترة قصيرة من التاريخ المذكور[٢١٠] أيضاً لا يعرف أين اشتغل ، وما هو النشاط الذي مارسه ، لأن أبا شامه الذي

---

٢٠٩ ــ المغرب في حلى المغرب ج٢ ص١٠٦ ــ معجم البلدان ــ مجلد ٢ ص ١٥٧ . نفح الطيب ج٣ ص٣٩٢ .

٢١٠ ــ الذيل على الروضتين ص١٥٩ . يذكر أبو شامة أنه جيىء بعدد من الأسرى إلى عكا واستفك عدد منهم والتحقوا بدمشق ، حيث حدثوا بما جرى لهم .

عاصره وعرفه عن قرب، لا يذكر شيئاً عن ذلك، إضافة إلى أنه أغفل ناحية أخرى هامة، تجلت بأنه تناسى ذكر أي شيء عن اهتمامه بالأدب والشعر[٢١١] ولكن الصورة كانت أوضح عند مؤلف آخر هو ابن تغري بردي صاحب كتاب النجوم الزاهرة، الذي وصفه بالقول: «كان فاضلاً أديباً شاعراً» وذكر من شعره بعض الأبيات، يبدو أنها من قصيدة قالها في وصف مدينة دمشق، وتصوير محاسنها وغير ذلك يقول:

القضبُ راقصةٌ والطيرُ صادحةٌ	والسترُ مرتفعٌ والماءُ منحدرُ
وقدْ تجلتْ منْ اللذاتِ أوجهها	لكنها بظلالِ الدوحِ تستترُ
فكلُ وادٍ به موسى يفجرهُ	وكلُ روضٍ على حافاتهِ الخضر[٢١٢]

وقد توفي الميورقي في سنة ٦٥٥ هـ ـ ١٢٥٧م ودفن بسفح قاسيون بمقبرة ابن يغمور، وهي المقبرة التي أعدت لفقراء المغاربة على أغلب الظن، كما يستنتج من اشارات جاءت على لسان أبي شامة في الذيل على الروضتين فهي تقع كما يقول: «... شمالي مقبرة عبد الصمد الدكالي في مغارة الدم، وتعرف تلك المقبرة بفقراء المغاربة»[٢١٣] وعرفت دمشق أيضاً شاعراً صوفياً هو الابن الأكبر لابن عربي، المدعو سعد الدين المتوفى بدمشق سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨م، والذي لم يتخذ من الشعر أيضاً حرفة للكسب. ولعل القصيدة الوحيدة التي عثرت عليها، هي تلك التي دونها أبو شامة في الذيل على الروضتين، وموضوعها طلب استعارة كتاب الروضتين لابي شامة[٢١٤] ومثل هؤلاء، الشاعران المغربيان عفيف الدين التلمساني وابنه الشاب الظريف بمدينة دمشق. فقد وصف الذهبي شعرهما بقوله عن عفيف الدين: «وأما شعره ففي الذروة العليا من حيث البلاغة والبيان لا من حيث الايجاد»[٢١٥] وقال عن ابنه الشاب الظريف: «... وشعره في غاية الحسن»[٢١٦] وقد أعطى الصقاعي الأحكام نفسها تقريباً على هذين الشاعرين، فوصف عفيف الدين بأن شعره رقيق، وذكر بعض الأبيات التي قالها في شاب من بصرى.

---

٢١١ ـ المصدر السابق ص ١٩٥.
٢١٢ ـ النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٩.
٢١٣ ـ الذيل على الروضتين ص ١٧٣.
٢١٤ ـ انظر هذه القصيدة ـ الذيل على الروضتين ص ٢٠٠ وما بعدها.
٢١٥ ـ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ٣٦٧.
٢١٦ ـ المصدر السابق ص ٣٥٩.

اقــول له ببصرى وهــو ظبــيّ   يصيدُ الآسدَ صيـدا، أي صيـدِ
بلادكَ أيـنَ؟ قالَ منْ السويــدا   فقـلـتُ لصاحبيْ هذا سويــدي

ووصف ابنه بالفضل والذكاء، وأن شعره معبر وقوي، وذكر منه قوله في طباخ وبعض المناسبات الأخرى، التي لا يمكن استعراضها هنا، لكثرتها وبالتالي، فاني لست بصدد الحديث عنهم من الناحية النقدية(٢١٧) وكان آخر الأدباء الأندلسيين، في هذه الفترة الشاعر علي بن أحمد بن يوسف الرعيني المكنى بأبي جعفر. الذي ولد بغرناطة بجنوب الأندلس سنة ٧٠٠ هـ ــ ١٣٠١ م، وتشاء الأقدار أن يلتقي بالنحوي محمد بن جابر الأعمى(٢١٨) وكانا اتفقا على الرحيل إلى المشرق، فزارا كلا من مصر ودمشق وسمعا بهما، قبل أن يسافرا إلى حلب، حيث استقرا في بلدة البيرة القريبة منها(٢١٩) ومع أنه ترجم في قائمة الشعراء، وصنف كواحد منهم، فانه لم يشتهر بهذا المجال كغيره من الشعراء، بحيث لم يعرف له أثر من قصيدة تنسب إليه، ولا حتى على ذكر لقصيدة قالها في مناسبة معينة، وذلك بالرغم من كثرة الذين ترجموا له وعنوا به.

وتعود شهرته بالدرجة الأولى إلى المؤلفات التي تركها، والتي كان منها شرحه البديعية التي وضعها رفيقه في الرحلة، محمد ابن جابر الأعمى النحوي. وقد توفي هذا الأديب سنة ٧٧٩ هـ ــ ١٣٧٨ م(٢٢٠).

المدرسون

يمكن القول باديء ذي بدء، أن الذين اشتغلوا في مجال التدريس في بلاد الشام، خلال فترة هذا البحث، التي شهدت تركيزاً كبيراً على صعيد تشييد المدارس، وتشجيع الحركة العلمية، لم يكونوا متساوين من حيث المراتب التي احتلوها في شتى المدارس وأمكنة

---

٢١٧ ــ انظر عن هذين الشاعرين اضافة إلى المصدر السابق ــ تالي كتاب وفيات الأعيان ص ٨٢ وما بعدها.

٢١٨ ــ انظر عنه ص ٢٠٢ من هذا البحث.

٢١٩ ــ انظر عنها ص ٢٠١ الهامش من هذا البحث.

٢٢٠ ــ انباء الغمر بأبناء العمر ج ١ ت حسن حبشي ط القاهرة ١٩٦٩ ص١٥٩ ــ ١٦ الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٤٠ ــ طبقات القراء ج ١ ص ١٥١ ــ شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٦٠ ــ بغية الوعاة ص ١٤ ــ النجوم الزاهرة ج ١١ ص١٨٩ ــ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ ورقة ١٩٣ ــ ١٩٤ ــ ١٩٥/ ابن الأحمر الغرناطي ــ أعلام المغرب والأندلس وهو كتاب نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان تحقيق محمد رضوان الداية ط ١ بيروت ١٩٧٦ ص ٢٠٠.

ودور العلم، فقد تباينوا وتفاوتت مراتبهم في كثير من الأحيان، وربما يعود ذلك على وجه التأكيد إلى التفاوت في درجة الثقافة والأهلية العلمية، التي لا بد منها لكل من يريد العمل في هذا الميدان الصعب، سواء أكان مختصاً في فرع معين من علم ما أو في عدة فروع. فكانت أعلى مراتب هؤلاء تلك التي أطلق عليها تسمية (المشيخة) والتي تنقسم بدورها إلى قسمين، الأول مشيخة المدرسة ككل، ويكون صاحبها مسؤولاً عاماً عن المدرسة التي يعين فيها، والثاني مشيخة أحد العلوم التي تدرس في المدرسة، مثال ذلك مشيخة الحديث أو مشيخة النحو أو مشيخة الإقراء إلى غير ذلك. وصاحب هذه المرتبة يكون مسؤولاً عن كل ما يتعلق بتدريس اختصاصه من شؤون وغالباً ماكان أصحاب هاتين المرتبتين يمارسون التدريس بأنفسهم. يلي ذلك مرتبة المدرس والذي كان صاحبها يمارس تدريس مادة معينة أو أكثر، يساعده في مهمته هذه شخص مؤهل يطلق عليه تسمية (معيد) يعيد درس المدرس، ويتولى تدريس المادة المقررة في حال غيابه، لسفر أو مرض أو غير ذلك من أمور، ولم يكن الوصول إلى هذه المراتب يقتصر على تحصيل الثقافة والمعرفة العلمية المناسبة فحسب، انما كان يحتاج إلى موافقة حاكم أو نائب البلد التي يقم بها المدرس، لأن تعيين المدرسين، كان من اختصاص النائب، ولا يحتاج إلى قرار السلطان كما كان حال كثير من الوظائف الأخرى، كالقضاة على سبيل المثال[٢٢١] وكما اختلفت مراتب المدرسين، فإن المناهج والمواد التي كانت تدرس، تنوعت هي الأخرى، فمنها ما كان يتعلق بالحديث والفقه والتفسير والقراءات، ومنها مايختص بتدريس علوم اللغة العربية، من نحو وصرف وبلاغة وأدب وغير ذلك، وكثيراً ما كانت بعض المدارس تجمع مابين تدريس هذه العلوم. وبعضها الآخر يقتصر على فرع معين منها، الأمر الذي يمكن الوقوف عليه بدقة ووضوح من خلال الاطلاع على مجموع المدارس ودور العلم في الشام في هذه الفترة، حيث من المتعذر التفصيل فيها هنا، لكونها خارجة عن نطاق هذا البحث، إضافة إلى كثرتها وتعددها. وكثيراً ماتحكي لنا المصادر أمثلة حية حول الدروس التي كانت تعطى من قبل المدرسين، الذين كانوا يملكون حق اختيار دروسهم ومحاضراتهم على ما يبدو، دون تقيد ببرنامج معين أو خطة ما. من هذه الأمثلة الكثيرة، التي تعطي فكرة واضحة عن أسلوب ومناهج التدريس في فترة هذا البحث، ما يذكره النعيمي صاحب كتاب «الدارس في تاريخ المدارس» عن درس في علم الحديث

---

٢٢١ ـــ القلقشندي. صبح الأعشى ج١٢ ـــ النسخة المصورة عن الطبعة الاميرية ـــ وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر. ص٦.

يقول: «في سنة اثنتين وستين وستمائة، وفي جمادى الآخرة منها، درس الشيخ شهاب الدين أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي بدار الحديث الاشرفية بعد وفاة القاضي عماد الدين بن الحرستاني الخزرجي، وحضر عنده القاضي شمس الدين بن خلكان وجماعة من الفضلاء والاعيان، وذكر خطبة المبعث* واورد الحديث بسنده ومتنه، وذكر فوائد كثيرة مستحسنة»(٢٢٢). مثال آخر عن مادة التفسير التي كانت أحد الفروع الرئيسية التي ركز على تدريسها، حيث أن الدرس الواحد، كان يقتصر على تفسير آية أو أكثر من آيات القرآن الكريم. ففي رواية ينقلها النعيمي عن ابن قاضي شهبة في كتاب الدارس في تاريخ المدارس يقول: «وفي شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة، وفي يوم الاربعاء خامسه حضر قاضي القضاء سراج الدين الحمصي الدرس بالغزالية ودرس قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا اله إلا هو ﴾ ...»(٢٢٣).

ولم يكن الأمر مختلفا في ميادين الفروع العلمية الأخرى كالقراءات والعلوم اللغوية وغيرها. وهكذا فان الأندلسيين، الذين عملوا في هذا الشأن، كانوا صورة حية عبرت عن هذا الواقع سواء كان من حيث تنوع مراتبهم التدريسية، أو المواد المختلفة التي تصدوا لتدريسها. وقبل البدء باستعراض نماذجهم، فإن من الأمور التي لابد من الاشارة إليها، أنهم فئة من الجالية الأندلسية المغربية، استطاع رجالها أن يجمعوا بين عدة علوم، وخاصة منها العلوم الدينية واللغوية، إضافة إلى بعض الفروع الأخرى، بمعنى أنه لم يعرف عن أحد منهم، أنه انفرد أو اختص في فرع معين، كما كانت حال من سبقهم من العلماء. وقد أثر هذا الوضع على نشاطهم بشكل ملموس، سيظهر في الصفحات التالية، بحيث وصل الأمر عند بعضهم إلى تدريس عدة مواد في وقت واحد: وكذا الحال بالنسبة للتأليف، فقد تنوع انتاجهم وعرفت عن بعضهم مؤلفات دينية وأخرى في علوم اللغة العربية. ومختصر القول فان رجال هذه الفئة، نوعوا من معارفهم إلى حد مكنهم من العمل في كل مكان استطاعوا الوصول إليه، وعهد إليهم بالجدارة والكفاءة والنجاح. وبالاستناد إلى كل ماتقدم، فقد رأيت أن أصنفهم كفئة منفصلة عن بقية الفئات الأخرى لسهولة البحث. وهم كالفئات

* المقصود فيه شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى، ذكره أبو شامه بين مؤلفاته في ذيل الروضتين في الصفحة ٣٩.

٢٢٢ ــ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٢٣.

٢٢٣ ــ المصدر السابق ص ٣٦٧.

الأخرى من الأندلسيين سكان الشام، إذ أن كثيراً منهم تحول إلى مذهب الشافعية والحنفية بعد أن كانوا مالكيين.

وسيذكرون بحسب المراتب التي توصلوا إليها، والتي كان في مقدمتها كما ذكرت مشيخة مدرسة ما من المدارس. فقد حل في مدينة حلب واحد من هؤلاء، خلال القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، هو محمد بن حسن الفاسي المكنى بأبي عبد الله، الذي تسلم فيها مشيخة الإقراء والتدريس، في أهم مدارسها(٢٢٤) الأمر الذي يمكن القول معه، أن الوصول لمثل هذا المنصب في مدينة حلب، كان أسهل وأيسر بكثير من الوصول إليه في مدينة دمشق، لكثرة العلماء في هذه الأخيرة وندرتهم في حلب، حيث كانت الفرص أكثر. لكن هذا لا يعني أن الذين تسلموا مثل هذه المراتب في مدينة حلب، كانوا أقل علماً ومعرفة من الذين حلوا بمدينة دمشق. فقد كان محمد الفاسي هذا من الذين تعبوا كثيراً في طلب العلم، فقد ولد في مدينة فاس بالمغرب العربي سنة ٥٨٠ هـ ـــ ١١٨٥ م، وزار لفترة قصيرة بعض مدن مصر قبل وصوله إلى الشام، سمع خلالها على عدة علماء، وتوجه على أثرها إلى مدينة حلب، حيث استقر فيها بشكل نهائي. ودرس فيها حتى تبلورت شخصيته العلمية، فكان من أساتذته الرئيسيين القاضي يوسف بن رافع بن شداد. كما أنه تحول إلى مذهب الحنفية وتفقه فيه. وباختصار فإنه كالكثيرين من رجال هذه الفئة، من ناحية أنه جمع بين العلوم الدينية وبعض علوم اللغة العربية، فبرع وعلت مكانته، مما جعله يتسلم رئاسة التدريس في حلب كما ذكرت. وقد تخرج عليه تلامذة، كان لهم شأن عظيم فيما بعد(٢٢٥) وفي الفترة نفسها أيضاً تحظى مدينة دمشق بأندلسي آخر هو محمد بن أحمد ابن الموفق من مرسية بشرق الأندلس من حيث أصل عائلته، ومن لورقة من حيث نشأته، ولد سنة ٥٧٥ هـ ـــ ١١٨٠ م وهو ذو ثقافة مغربية ومشرقية، درس في كل من مرسية ومصر وبغداد وحلب على مشاهير العلماء في هذه البلدان. فاستطاع أن يجمع بين العلوم الدينية واللغوية، فأجاد وبرع فيهما. وأهلته ثقافته العالية واطلاعه الواسع، لأن يصل بسهولة وجدارة إلى مشيخة المدرسة العادلية بدمشق، في وقت كان فيه أبو شامة يعمل فيها. وهو صاحب الحكم الفصل بين أبي الفتح احد علماء دمشق، وأبي شامة، في صدد خلاف نشأ بينهما

٢٢٤ ـــ لم أتمكن من معرفة هذه المدرسة وتحديدها، ومن المحتمل أنه لم ينزل في مدرسة، وقصد بالمدرسة هنا الجامع الأموي بحلب.

٢٢٥ ـــ طبقات القراء ج ٢ ص ١٢٢ ـــ ١٢٣ ـــ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ٢٣٥.

حول أحقية تولي رئاسة التربة الصالحية، الذي تبلور حكمه فيها بتفضيل أبي الفتح وترجيح كفته على أبي شامة بقوله عن أبي الفتح المذكور: «هذا يدري القراءات» وعن أبي شامة يقول: «وهذا أمام، فوقعت العناية بأبي الفتح» وتدلل هذه الحادثة بصورة أكيدة وراسخة على معرفته ومكانته من الناحية العلمية في تلك الفترة من الزمن. والحق أنه يختلف عن كثير من رجال هذه الفئة، في أنه استطاع أن يقرن فترة حياته بالانتاج، الذي كان منه كتاب في شرح (المفصل) وآخر في شرح مقدمة (الجزولية) وثالث شرح فيه القصيدة المعروفة بـ(الشاطبية). توفي بدمشق سنة ٦٦١ هـ ــ ١٢٦٢ م، ودفن بمقابر باب توما(٢٢٦) ولم يكن حظ دمشق أفضل من غيره على صعيد أنها احتوت عدداً أكبر من هؤلاء الأندلسيين فحسب، انما كان أفضل في ناحية أخرى بدت أكثر أهمية وأعمق أثراً، في انها استقطبت خيرة الكوادر العلمية الرفيعة المستوى والأهلية العالية، والتي تميز بها أكثر نزلائها من المغاربة الأندلسيين. فها هي تستقبل وخلال القرن السابع الهجري أيضاً، شخصية أندلسية عالية الثقافة والمستوى، الذي يعتبر صاحبها نموذجاً فريداً ومتميزاً بين الذين جاؤا قبله، أو الذين خلفوه بعد وفاته. هو محمد بن أحمد أبو بكر جمال الدين الوائلي البكري الشافعي. ولد بشريش بالأندلس سنة ٦٠١ هـ ــ ١٢٠٥ م، وتلقى علومه في كل من مصر والشام واربل وبغداد، فأحاط بعلوم شتى، كما هي الحال بالنسبة للغالبية العظمي من رجال هذه الفئة. لكنه امتاز عنهم بالتفوق في كل فرع درسه. ففي مجال علم النحو، استطاع ان يتقن فنونه جميعها. وتبحر في المذهب المالكي، إلى درجة اعتبر فيها أحد العارفين البارزين بهذا المذهب. ومن جهة أخرى، فقد كان متضلعا في معرفة الأدب ومعانيه وبديعه ومضامينه. وكان له باع طويل في معرفة علم الحديث، يحفظ رجاله وأحكامه، ويتكلم على صحيحه وحسنه وضعيفه. وهكذا فقد أجمع رجال وعلماء عصره على الاعتراف له بالفضل في مجال علوم عديدة. وهذا ما حدا بالملك الناصر يوسف بن أيوب، لأن يعتمده رئيساً وشيخاً للرباط الناصري* بالصالحية منذ سنة ٦٥٦ هـ ــ ١٢٥٨ م، وكان يحترمه ويجله كثيرا حتى لم يتمكن

---

٢٢٦ ــ الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١٠٢ ــ ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٢٢١.

* الرباط الناصري، هو رباط داخل المدرسة المعروفة بالمدرسة الناصرية البرانية، التي تعتبر احدى مدارس الشافعية بدمشق وتقع في محلة الفواخير بسفح قاسيون إلى الجنوب من جامع الفواخير أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر عزيز الدين غازي ابن صلاح الدين يوسف بن أيوب (الدارس في تاريخ المدارس ١/١١٥).

معه من اخفاء مشاعر الاجلال والاحترام التي يكنها له . ودليل ذلك أنه كان يزوره بصورة مستمرة في مقره بالرباط المذكور ، وكان يقول : «وما جعلناه شيخاً في هذا المكان إلا لنخدمه ، لاليخدمنا» . ولم يقتصر في هذا المكان فحسب ، انما كان له وجود في أماكن أخرى مشهورة على صعيد العلم . فقد مارس عملية التدريس في كل من المدرسة النورية ، وبالحلقة التي بالجامع الأموي الكبير ، وتربة أم الصالح . فهو بذلك واحد من قلائل من رجال هذه الفئة حازوا هذه المكانة . وقد انتفع به عدد من الطلاب ورجال العلم خلال الفترة التي أمضاها بدمشق ، والتي انتهت بوفاته سنة ٦٨٥ هـ ـــ ١٢٨٦ م ودفن بسفح قاسيون(٢٢٧) . وخلال القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي ، توصل واحد من الأندلسيين إلى تسلم مشيخة الخانقاه السامرية* هو سعيد بن محمد بن سعيد الملياطي المغربي المالكي .

اشتهر بمعرفته بعلوم العربية والفقه على المذهب المالكي ، وصل إلى مصر سنة ٧٢٠ هـ ـــ ١٣٢٠ م قادما من المغرب . وقد اشتهر عنه إلى جانب مشيخة الخانقاة المذكورة تدريس اللغةالعربية ، الذي بقي يزاوله حتى وافاه الأجل سنة ٧٧١ هـ ـــ ١٣٧٠ م(٢٢٨) أما المرتبة الثانية فهي مشيخة تدريس فرع من الفروع الدينية واللغوية ، كان يتسلمها صاحبها ويعتبر مسؤولاً عن شؤون التدريس فيها ، وكثيراً ما كانت ضمن مدرسة من المدارس ، لذلك فإن شيخ المدرسة العام يكون هو المسؤول عن صاحب هذه المشيخة . وتطالعنا المصادر على شخصية من هذا النموذج ، وصل صاحبها إلى أعلى وأهم مشيخة للإقراء في الشام . وذلك بعد أن وصل إلى دمشق في أوائل القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي . فقد تسلم مشيخة الإقراء بتربة أم الصالح ولمدة طويلة إلى حد ما ، استمرت قرابة اثنتين وعشرين سنة دون انقطاع ، الأمر الذي يدل بوضوح على مدى المستوى الرفيع الذي بلغه في ميدان

---

٢٢٧ ـــ ذيل مرآة الزمان مجلد ٤ ص٢٩٢ ـــ ٢٩٣ ـــ ٢٩٤ ـــ ٢٩٩ ـــ ٣٠٠ الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١٣٢ ـــ نفح الطيب ج ٢ ص ٣٣٢ ـــ بغية الوعاة ص ١٨ الدرر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ ورقة ٢٠٣ .

* الخانقاة السامرية ، داخل دار الحديث السامرية بدمشق ، الموقوفة على الشافعية ، أوقفها صدر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن جعفر البغدادي السامري وتقع بجانب الكروسية إلى الغرب من مئذنة الشحم (الدارس في تاريخ المدارس ٧٢/١) .

٢٢٨ ـــ الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٣٦ .

اختصاصه ، هذا المدرس هو عبد السلام بن علي المالكي الزواوي ، الذي حل بدمشق لأول مرة سنة ٦١٧ هـ ـــ ١٢٢٠ م(٢٢٩) .

وخلال القرن الثامن الهجري عرفت مدينة دمشق واحداً من هؤلاء ، توصل إلى تسلم مشيخة التدريس بالمدرسة النجيبية* هو محمد بن الحسن بن محمد المالكي من مدينة مالقة بجنوب الأندلس ، وهو يشبه متقدمة إلى حد ما ، من حيث احاطته بعلوم اللغة العربية ، والدينية ، وخاصة على المذهب المالكي ، الذي اعتبر أحد أئمته المعولّ عليهم . وقد ظل في هذا المنصب حتى توفي في سنة ٧٧١ هـ ـــ ١٣٧٠ م(٢٣٠) . أما المرتبة الثالثة التي توصل إليها أصحاب هذا الشأن ، فقد تجلت باعتمادهم مدرسين أساسيين في عدة مدارس شامية ، وهم أكثر عدداً من الذين سبق ذكرهم ، وأوسع انتشارا في المدن العربية الشامية . وأول هؤلاء المدرسين كان علي بن قاسم المعروف بابن الزقاق من مدينة اشبيلية ، الذي يعتبر نموذجاً حياً لكثير من زملائه الذين كانوا يلجأون إلى التنقل بين عدة مدن شامية ، حتى تستقر أمورهم في واحدة منها في النهاية . فبالرغم من معرفته بعلم القراءات التي درسها على والده ، والنحو الذي أخذه عن عدة شيوخ وعلماء في بلده ، بحيث كان جاهزاً للتدريس وممارسة عمله بعكس كثير من الأندلسيين ، بالرغم من ذلك ، فإنه تنقل كثيراً في الشام ، فقد نزل في بلدة رأس العين عشية وصوله إلى الشام ، ثم انتقل إلى مدينة دمشق ، التي لم يبق فيها طويلاً ، لعدم وجود العمل المناسب على مايبدو ، فقصد مدينة حلب ، فاستوطنها بشكل دائم . ويعتبر أول أندلسي عبر عن الازدواجية في التدريس من هذه الفئة ، حيث جمع بين تدريس النحو واقراء القرآن بالجامع الكبير بحلب ، حتى كانت وفاته سنة ٦٠٥ هـ ـــ ١٢٠٩ م . وتميز هذا المدرس أيضاً في ميدان التأليف بشكل ظاهر ، فألف كتاباً في علم القراءات سماه (المفردات في القراءات) أما في مجال النحو ، فقد اقتصر انتاجه على (شرح كتاب الجمل للزجاجي) في أربعة مجلدات كبيرة(٢٣١) . وفي دمشق حل واحد منهم بعد هذه الفترة ،

---

٢٢٩ ـــ ذيل مرآة الزمان ج ٤ ص١٧٣ ـــ ١٧٤ طبقات القراء ح ١ ص ٣٨٦ ـــ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص٣٣٦ .

* المدرسة النجيبية ، مدرسة بمدينة دمشق بجانب المدرسة النورية وضريح نور الدين من جهة الشمال ، بناها النجيبي جمال الدين آقوش الصالحي استاذ دار الملك الصالح ايوب بن محمد بن العادل سنة ٦٦٧ هـ (الدارس في تاريخ المدارس ٤٦٨/١) .

٢٣٠ ـــ الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٢٤ .

٢٣١ ـــ انباه الرواة على أنباه النحاة ج ١ ص ٣٠٤ ـــ ٣٠٥ .

حيث اختص بتدريس فرع واحد هو قراءة القرآن . هذا المدرس هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن الهادي المعروف بالضرير ، الذي يعود أصله إلى مدينة أشبيلية ، والذي نسب إليه معرفة عدة علوم ، ربما لم تتعد نطاق العلوم الدينية واللغوية . كان قد غادر الأندلس سنة ٦٢١ هـ ــ ١٢٢٤ م ، وفي الطريق تعرض لمحاولة أسر من قبل الافرنج ، نجا منها بأعجوبة . وتجول في عدة بلدان قبل أن يتوجه إلى دمشق ، التي اتخذها مقر سكنه الدائم في بيت قريب من المدرسة العادلية مكان عمله الوحيد ، فزار كل من مصر والحجاز واليمن ، الذي لايستبعد ، أنه سمع فيها من علمائها. فظل في دمشق حتى كانت وفاته سنة ٦٤٨ هـ ــ ١٢٥١ م[٢٣٢] وفي مدينة طبرية حل واحد من هؤلاء ، تصدى لتدريس عدة مواد فيها ، وهو علي بن محمد النجيبي القرطبي ، الذي تلقى علومه في مدينة قرطبة قبل رحيله إلى الشام ، أما عن المدة التي أمضاها في طبرية وتاريخ وفاته ، فلا يعرف عنهما شيء ، وان كان من المحتمل أن وفاته كانت في السنين الأولى من القرن السابع الهجري على وجه التقريب[٢٣٣] وفي دمشق حل أندلسي آخر ، بقي في مرتبة مدرس طيلة حياته ، هو محمد بن سعيد أبو الوليد فخر الدين الكناني ، المولود بشاطبة بالأندلس سنة ٦١٥ هـ ــ ١٢١٩ م ولا يعرف متى وصل إلى الشام . لكن الشيء الثابت ، أنه أتقن عدة علوم ، درسها في بلاده وفي مدينة حلب . فقد تتلمذ في هذه الأخيرة على الصاحب كمال الدين ابن العديم ، الأمر الذي تطور إلى مرافقته خلال فترة حياته ، ومن بعده أولاده . وكان لآل العديم هؤلاء الأثر الأكبر في تحوله إلى المذهب الحنفي . ولأمور غامضة ، ترك مدينة حلب سنة ٦٦٤ هـ ــ ١٢٦٦ م وقصد مدينة دمشق ، حيث اعتمد مدرساً بالمدرسة الاقبالية* بصورة مستمرة حتى توفي سنة ٦٧٤ هـ ــ ١٢٧٦ م ودفن في سفح قاسيون[٢٣٤] . ومن هؤلاء عبد الله بن علي بن سليمان من مدينة غرناطة بجنوب الأندلس ، يلقب بكمال الدين . وهو واحد من المدرسين الذين تجولوا في كبرى المدن الشامية كحلب ودمشق وبيت المقدس ، يعمل في حقل

---

٢٣٢ ــ الذيل على الروضتين ص ١٨٦ .

٢٣٣ ــ الذيل والتكملة سفره ق ١ ص ٤٠٣ .

* المدرسة الاقبالية ، هي إحدى المدارس الشافعية بدمشق ، إلى الشمال من الجامع الأموي والظاهرية الجوانية ، داخل باب الفرج وباب الفراديس ، أنشأها جمال الدين بن جمال الدولة اقبال سنة ٦٠٣ ــ وتقسم إلى قسمين ، واحد للشافعية وآخر للحنفية (الدارس في تاريخ المدارس ١/١٥٨ ــ ١٥٩) .

٢٣٤ ــ ذيل مرآة الزمان ج ٣ ط حيدر آباد الدكن ١٩٦٠ ص ١٩٧ ــ ٢٠٢ ــ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٤٧٤ .

التدريس في الفترة الزمنية الممتدة من الربع الأخير من القرن السابع الهجري، وحتى بعد العقد الأول من القرن الثامن الهجري بقليل. وباعتباره من مدينة غرناطة، المدينة الأندلسية، التي بقيت صامدة في وجه المد الاسباني حتى أواخر القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، باعتباره من هذه المدينة، فقد تلقى علومه فيها، حيث الحركة العلمية كانت ما تزال نشطة ومزدهرة. لذلك بدأ التدريس، منذ أن وصل إلى الشام بعد أن أدى فريضة الحج، فحل بدمشق فترة قصيرة من الزمن، عاد بعدها إلى غرناطة، لكن على مايبدو أن الحياة لم تعد تعجبه هناك، فتركها لآخر مرة وعاد إلى بلاد الشام، فقصد مدينة حلب، وأقام بها يدرس مدة عشر سنوات متتالية. انتقل بعدها إلى بيت المقدس، فاستوطنها حتى وافته المنية سنة ٧١١ هـ ــ ١٣١٢ م ومن أشهر تلاميذه الشاميين، القاضي تقي الدين السبكي[٢٣٥] وفي مدينة بيت المقدس أيضاً، حل واحد من رجال هذه الفئة، استطاع كغيره، أن يحصل معارف متنوعة، ويتقنها كالنحو والحديث.

وامتاز عن الجميع تقريباً بمعرفة الفقه واتقانه على المذاهب الأربعة، بالإضافة إلى الصحابة والتابعين، هو محمد بن إبراهيم أبو عبد الله المعروف بابن غصن الأشبيلي ولد باشبيلية سنة ٦٣١ هـ ــ ١٢٣٤ م، ولا يُعْرَف عن نشاطه في حقل التدريس شيء يستحق الذكر، وان كان من المحتمل، أنه لم يخرج عن نطاق العمل في هذا المضمار. وله من المؤلفات الدينية، كتاب في علم القراءات سماه (مختصر الكافي) وآخر سماه (معجزات النبي)، ألفهما خلال فترة إقامته ببيت المقدس، التي توفي فيها سنة ٧٢٣ هـ ــ ١٣٢٧ م[٢٣٦]. وبالرغم من أن محور ثقافة هؤلاء المدرسين، كان يدور حول العلوم الدينية واللغوية، فقد وجد من بينهم من زاد على ذلك بأن اطلع على بعض العلوم العقلية كالطب مثلاً، وبالتالي فقد عمل أصحابه في مجاله، إضافة إلى العلوم النظرية الأخرى. مثال ذلك، نزيل دمشق محمد بن محمد أبو عبد الله المعروف بابن القويع المالكي، فإنه إضافة إلى معرفته الأكيدة بعلوم اللغة العربية وعلوم الدين، فقد عكف على دراسة الطب، الذي امتاز به على جميع أضرابه. ولد بتونس سنة ٦٦٤ هـ ــ ١٢٦٦ م وفيها تلقى علومه على نخبة من رجال العلم، وفي سنة ٦٩٠ هـ ــ ١٢٩١ م، غادرها إلى مدينة دمشق،

---

٢٣٥ ــ طبقات القراء ج ١ ص ٤٣٥ ــ الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٧٤.

٢٣٦ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٤٠٦.

فجعلها مقره الأخير . وكان أول عمل قام به فيها ، أنه درس وسمع عن بعض علمائها في تلك الفترة من الزمن ، حتى صقل معلوماته ، لينتقل إلى التدريس ، الذي مارسه في عدة مدارس ، كالمنكوتمرية والناصرية والبيمارستان . وهو يشبه إلى حد كبير أولئك الذين تسلموا مشيخة الإقراء والتدريس ، من حيث التوزع على المدارس ، ومن ثم سعة المعرفة والمقدرة العلمية الفائقة . فقد وصف على أنه من المدرسين العارفين القادرين على العطاء ، فكان إذا تكلم في فرع من الفروع العلمية ، يخاله السامع أنه مختص فيه دون غيره .

وليس أدل على ذلك من قول السبكي فيه : « ما أعرف أحداً مثله » . ولكن بالرغم من المستوى الرفيع الذي بلغه ، فإنه لم يشتهر في ميدان التأليف خلال الفترة الطويلة ، التي أمضاها بمدينة دمشق ، والتي كان آخرها ٧٣٨ هـ ــ ١٣٣٨ م تاريخ وفاته(٢٣٧) وربما تعود هذه الناحية إلى انهماكه المستمر بقضايا التدريس ومشاكله ، حيث افتقر الى الوقت المناسب لذلك ، على اعتباره يشغل عدة اماكن تدريسية ، كما ذكرت . أما معاصره أحمد بن عبد الله الملقب بشهاب الدين من وادي آش Guadix في الزاوية الجنوبية الشرقية من الأندلس ، فقد كان يجمع بين المعرفة بالنحو والصرف وبين الفقه ، قبل أن يقصد الشام . فبعد أن أدى فريضة الحج ، قصد مدينة طرابلس الشام ، حيث بقي فيها فترة قصيرة من الزمن ، ليقصد مدينة حلب ، وفيها تقرب من القاضي الحنفي ناصر الدين بن العديم ، الذي يعود إليه سبب تحوله إلى مذهب الحنفية ، وهو الذي ساعده على العمل في مجال التدريس ، في العديد من مدارس حلب ، حتى وفاته في سنة ٧٣٩ هـ ــ ١٣٣٩ م(٢٣٨) ومثله من حيث الثقافة الأندلسية والمغربية ، الغرناطي محمد بن علي الأنصاري المكنى بأبي عبد الله الذي تلقى علومه بغرناطة بجنوب الأندلس ، وفيما بعد بتونس ، التي قدم منها إلى بيت المقدس سنة ٧١٨ هـ ــ ١٣١٨ م ، وهو بحالة تؤهله للتدريس ، الذي مارسه فيها طيلة حياته ، التي انتهت بموته سنة ٧٤٦ هـ ــ ١٣٤٦ م(٢٣٩) وقد عاصره بدمشق تقريباً شخصية وصف صاحبها بالمقدرة الفائقة في علمي القراءات والعربية ، فكان فيهما علّامة لا يجارى ، هو أحمد بن سعد بن محمد الاندقوني الأندلسي ضياء الدين أبو العباس نزيل مدينة دمشق حتى وفاته سنة ٧٥١ هـ ــ ١٣٥١ م والمولود سنة ٧٠٠ هـ ــ ١٣٠١ م فأول بلد مشرقي زاره ، كان

٢٣٧ ــ الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٨١ وما بعدها .

٢٣٨ ــ الدرر الكامنة ج ١ ص ١٨٢ ــ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ١ ورقة ١٠٦ ــ ١٠٧ .

٢٣٩ ــ طبقات القراء ج ٢ ص ٢٠٧ .

مصر ، التي لم تطل اقامته فيها ، ثم غادرها قاصداً دمشق ، التي لم ير صعوبة في الحصول على عمل فيها ، كونه يتمتع بثقافة ناضجة ، أهلته للعمل كمدرس في المدرسة السميساطية* ، وكدليل على مقدرته العلمية ، وتمكنه ، فإنه صنف عدة كتب دينية خلال فترة وجوده بدمشق ، كان أهمها (تفسير القرآن)(٢٤٠) وفي الفترة نفسها تقريباً حل بدمشق واحد منهم ، يختلف عن الجميع في ناحية واحدة تجلت بأنه لم يأت بمحض اختياره وارادته ، انما جاء بعد أن طُرِدَ بأمر من الحاكم ، وذل لحدَّة طبعه وصعوبة مزاجه . ولد سنة ٧٠١ هـ ــ ١٣٠٢ م وغادر مراكش وهو ابن ست وثلاثين عاماً ، أي في سنة ٧٣٧ هـ ــ ١٣٣٧ م . ويظهر أنه لم يكن في مستوى علمي يؤهله للتدريس عشية طرده من مراكش ، الأمر الذي جعله ينكب على دراسة العلوم الدينية العربية في مصر ، حتى برع فيهما . وغادرها بعد ذلك متوجهاً إلى دمشق ، التي استقر فيها فترة يدرس بالمدرسة المسرورية** ، وفي آواخر أيامه ترك التدريس ، وانقطع قبل سنة من وفاته في دار الحديث الأشرفية ، ملازماً للقراءة والكتابة ، ممتنعاً عن تناول الطعام حتى توفي سنة ٧٥٢ هـ ــ ١٣٥٢ م(٢٤١) ، ويستمر تتالي ظهور المدرسين الأندلسيين في بلاد الشام مع مرور الزمن ، ففي القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي ، يصل إلى مدينة حماة مدرس أندلسي ذو ثقافة موسوعية ، جمعت بين العلوم النقلية النظرية وبين العلوم العقلية ، إضافة إلى أنه كان يتقن فن الكتابة والانشاء ، التي تلقاها في بلده تونس ، وفي مصر فيما بعد . وهو شعيب بن محمد بن جعفر التونسي الملقب بأبي مدين ، ولد بتونس سنة ٧٢٧ هـ ــ ١٣٢٧ م . ويقول عنه ابن حجر العسقلاني واصفاً أهليته العلمية : «وكان علَّامه في الفقه والنحو واللغة والفرائض والحساب والمنطق .. » . ومن مصر انتقل إلى بلاد الشام ، فنزل بمدينة حماة ، وهو في أوج نضجه العلمي ، حيث بقي يدرس فيها ويفيد الطلاب المهتمين بالشؤون العلمية حتى توفي سنة ٧٧٠ هـ ــ ١٣٧٠ م(٢٤٢) ولعل أهم

* الخانقاة السميساطية ، تقع إلى الشمال الشرقي من الجامع الأموي ، أسسها أبو القاسم علي بن محمد بن يحيى السلمي المعروف بالجحيش السميساطي المتوفى سنة ٤٥٣ هـ (خطط الشام ٦/١٣٥) .

٢٤٠ ــ طبقات القراء ج ١ ص ٥٥ ــ ٥٦ .

** المسرورية ، هي إحدى مدارس الشافعية في باب البريد ، أنشأها الطواشي شمس الدين الخواص مسرور ، وكان من خدام الخلفاء المصريين ، وهو صاحب خان مسرور بالقاهرة ، ومن شرط مدرسها أن يكون عارفاً بالخلاف بين المذاهب (الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٥٥/ الدرر الكامنة ٣/٣٠٠) .

٢٤١ ــ الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٠٠ ــ الدارس في تاريخ المدارس ص ٤٥٧ ــ ٤٥٨ .

٢٤٢ ــ الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٩٢ .

مدرس عرفته مدينة حلب خلال القرن الثامن الهجري، كان محمد بن أحمد بن علي المعروف بشمس الدين الضرير المالكي، ولد بالمرية بجنوب الأندلس سنة ٧١٠ هـ ـــ ١٣١١ م ونسب إليه معرفة كثير من العلوم، وخاصة المتعلقة باللغة العربية، والتي اشتغل في مجالها ببلدة البيرة من أعمال حلب، حتى كانت وفاته في سنة ٧٨٠ هـ ـــ ١٣٧٩ م وتميز بشكل خاص بمؤلفاته التي كان أهمها كتابان أولهما كتابه المعروف بـ (بديعية العميان) وثانيهما (شرح ألفية ابن مالك)(٢٤٣) أما المرتبة الرابعة التي توصل إليها هؤلاء الرجال، كانت مرتبة المعيد، الذي يعمل مساعداً أو نائباً عن المدرس الرئيسي لأي مادة من المواد. ولا يعني أن من تسلم هذا المنصب، هو أقل ثقافة أو معرفة من المدرسين السابقين. بل على العكس تماماً فإن بعض المعيدين، كثيراً ما كانوا أفضل من المدرسين ومتفوقين عليهم، من حيث الثقافة العالية والأهلية العلمية الرفيعة، مثال هؤلاء، مثل اسحق ابن أحمد المغربي الملقب بكمال الدين، الذين يختلف عن الكثيرين من رجال هذه الفئة، في أنه حصل علمه ومعارفه في مدينة دمشق على الشيخ فخر الدين بن عساكر وعلي ابن الصلاح وغيرهما. وبرز بشكل خاص في ميدان الافتاء والفقه على المذهب الشافعي، وعلاصيته، حتى اعتبر أحد المشايخ الشافعية المرموقين، فلقبوه بـ (الامام العلامة). اشتغل معيداً ينوب عن استاذه ابن الصلاح فترة عشرين عاماً، بالمدرسة الرواحية*. وقد تخرج عليه جماعة من الطلاب، اشتهر منهم الشيخ محي الدين النواوي، الذي ذكره في مؤلفه (تهذيب الاسماء واللغات) بالقول: «بأن أول شيوخي الامامُ المتفق على علمه وزهده وورعه وكثرة عبادته وعظيم فضله، وتميزه على ذلك في اشكاله..». توفي بالمدرسة المذكورة سنة ٦٥٠ هـ ـــ ١٢٥٣ م. ولا أدل على قيمته وعظمته العلمية من أنه دفن إلى جانب أستاذه ابن الصلاح في مقابر الصوفية بدمشق، التي كانت على ما يظهر مخصصة لأهل العلم، والفضل البارزين(٢٤٤). أما النموذج الثاني من المعيدين، فقد كان من رجال القرن التاسع الهجري، حل بمدينة دمشق معيداً لاتذكر المصادر في أي مدرسة عمل. هو عبد النبي بن محمد بن عبد النبي المغربي المالكي، الذي

---

٢٤٣ ـــ نفح الطيب ج٣ ص٤١٨ ـــ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج٢ ورقة ١٩٣ ـــ ١٩٤ ـــ ١٩٥.

* المدرسة الرواحية نسبة إلى بانيها زكي الدين أبو القاسم التاجر المعروف بابن رواحة، وتقع إلى الشرق من مسجد ابن عروة لصيق الجامع الأموي من جهة الشرق، شمال باب جيرون، وغربي المدرسة الدولعية/ الدارس في تاريخ المدارس ١/٢٦٥).

٢٤٤ ـــ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٢٧٤ ـــ ٢٧٥.

أحاط بقسط لابأس به من العلوم النظرية والعقلية ، من خلال دراسته التي تلقاها على علماء في كل من مكة والقاهرة ، قبل أن ينتقل إلى دمشق ، التي بقي فيها طيلة حياته ، ولم يترفع فيها عن هذه المرتبة[٢٤٥] وهو خاتمة الأندلسيين من فئة المدرسين ككل .

وهناك عدد من المدرسين لم يعرف عن أحد منهم ، أنه اشتغل في مدرسة معروفة أو أية دار تعليمية ، جعلهم أدنى من السابقين من حيث الشهرة والمكانة التي عرفوا بهما . وأغلب الظن أن أمثال هؤلاء ، ما دامت المصادر لم تذكر شيئاً عن أماكن عملهم ، يكونون قد عملوا في حلقات تدريسية صغيرة ، كالتي كانت في المساجد وبعض الخوانق وغير ذلك . وهذا الوضع لا يعني ، أنهم غير مؤهلين للعمل في الأماكن التي عمل فيها رفاقهم ، فقد تمتعوا بسوية علمية ناضجة ، كانت كافية لايصالهم إلى أحسن المدارس في الشام. لكن الذي حدث ، أنهم لم يوفقوا في هذا المضمار ، مما جعلهم يبقون في مراكز مغمورة طيلة الفترة التي عاشوها ببلاد الشام . مثال هؤلاء ، مثل محمد بن أحمد الأشبيلي المكنى بأبي عبد الله ، درس في بلاده ، وبعض الأقطار المشرقية ، فحلّق كثيراً في ميدان العلوم الدينية ، وخاصة في علوم القرآن ، إضافة إلى علوم اللغة العربية ، حيث برز في ميدان الأدب . وقد اشتغل بمدينة دمشق في مجال هذه العلوم حتى وفاته سنة ٦٩٩ هـ ـــ ١٣٠٠ م[٢٤٦] . ومثله أيضاً نزيل دمشق أحمد بن محمد من مدينة عنابة الجزائرية ، المكنى بأبي العباس ، الذي أتقن بشكل خاص النحو ، وعلم القراءات ، واشتغل بتدريسهما بدمشق طيلة الفترة التي عاشها فيها ، والتي انتهت بموته سنة ٧٧٦ هـ ـــ ١٣٧٥ م[٢٤٧] .

رجال التاريخ

كما كان الحال بالنسبة لكثير من العلوم ، كالفلسفة على سبيل المثال ، فان الذين اهتموا بالتصنيف التاريخي كانوا قلة نادرة جداً . وان وجد بعض منهم ، فان التاريخ لم يكن محور صناعتهم الرئيسية . وإذا ما سمحت لنفسي بتعليل أسباب هذه المشكلة ، فإن من الحق أن أقول ، بأن كل كلمة تقال عن سبب ذلك ، ربما ستكون موضع نقاش وتساؤل ، لا أملك جواباً شافياً عليهما بشكل نهائي . وكل ما يمكنني ذكره أو بالأحرى قوله في هذا الصدد ، أن

---

٢٤٥ ـــ الضوء اللامع ج ٥ ص ٩٠ ـــ ٩١ .

٢٤٦ ـــ نفح الطيب ج ٢ ص ٤١٩ .

٢٤٧ ـــ طبقات القراء ج ١ ص ١٢٨ .

الأندلسيين أنفسهم خاصة منهم الذين برعوا في مجالات شتى كعلم الحديث أو غيره، اكتفوا في مجال عملهم سواء بالاشتغال أو التأليف، أو أنهم كانوا يعلمون بوجود مؤرخين شاميين كبار، استطاعوا أن يغطوا جميع الأحداث التي عاصروها، أو تلك التي لم يعاصروها. يضاف إلى ذلك، أن الشاميين كانوا أعرف وأوثق اتصالاً بالأحداث، أو في معرفة الحكام أكثر من الأندلسيين. وربما كان الأمر غير ذلك، بحيث اتخذ شكلاً واقعياً، تجلى بأن الأندلسيين المغاربة هم أحوج إلى العمل، الذي يعطي ثمراً بأقصر فترة ممكنة، وذلك انطلاقاً من حاجاتهم الملحة، التي غدت ضرورات لا بد منها من أجل الحياة. فالعمل في مجال التأليف التاريخي، يستلزم من صاحبه وقتاً طويلاً جداً، إضافة إلى أن نتائجه المادية غير مأمونة في كثير من الأحيان. وخلاصة القول، أن الذين اشتغلوا في هذا المضمار من الأندلسيين، كانوا من الميسورين المعروفين بصناعات أخرى، اشتهروا بها أكثر من شهرتهم بعلم التاريخ، وبذلك غدت الصناعة الأخيرة بالنسبة لهم، هواية أكثر منها حرفة من أجل العيش. مثال ذلك، الطبيب الأندلسي عبد المنعم الجلياني، الذي قام بتصنيف بعض المؤلفات عن سيرة صلاح الدين الأيوبي، وربما ساعده على ذلك مرافقته. وأهم هذه المؤلفات كتابه روضه المآثر والمفاخر من خصائص الملك الناصر صلاح الدين) ويختصر بـ (المدبجات)[٢٤٨] ولعل اشهر من ظهر في هذا الميدان بشكل بارز، كان القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي علم الدين أبو محمد الاشبيلي[٢٤٩] الذي لم يعرف بالتاريخ كما عرف بالحديث، الذي غدا عمله الرئيسي، وربما هو الذي ساعده، على أن يكون من عداد المؤرخين.

وأهم ما ألفه في مجال التاريخ كتابه الموسوم بـ (تاريخ مصر ودمشق) أو كتاب (الوفيات، وهو تتمة لتاريخ مدينة دمشق، الذي وضعه أبو شامة مؤرخ الشام المتوفى سنة ٦٦٥ هـ ــ ١٢٦٧ م. ويتحدث البرزالي في كتابه المذكور حتى سنة ٧٢٨ هـ ــ ١٣٢٨ م. وقد أتم هذا الكتاب من بعده، تلميذه محمد بن الرافعي. فكتب تاريخاً موجزاً للسنوات (٦٠١ ــ ٧٣٦) ضمنه تعليقات موجزه عن الحوادث السياسية والأحداث المشهورة سماه (مختصر المائة السابعة)[٢٥٠] وقد ألف كتاب آخر سماه (المعجم

---

٢٤٨ ــ عيون الانباء في طبقات الأطباء ــ ج ٢ ص ١٦١.

٢٤٩ ــ انظر ص ١٥١ من هذا البحث.

٢٥٠ ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ مجلد ٣ ــ الترجمة العربية ص ٥٣٤ ــ فوات الوفيات ج ٣ ص ١٩٦ ــ النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣١٩ ــ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ١٢١.

الكبير) أرخ فيه لشيوخ عصره ، وقد حوت اجزاؤه تراجم لثلاثة آلاف شيخ مما أخذ عنهم بالاجازة أو السماع[٢٥١] وفيما عدا البرزالي ، فان بلاد الشام لم تعرف أندلسياً ، اشتغل في هذا الشأن ، بحيث يمكن وضعه بمصاف المؤرخين ، خلال هذه الفترة موضوع هذا البحث .

الفلسفة وعلم الكلام

لم تعرف بلاد الشام في فترة هذا البحث ، أن اندلسياً من الذين اتخذوها دار سكن واستقرار ، اشتغل في الفلسفة وعلم الكلام ، وذلك بالرغم من وجود البعض منهم في فترات مختلفة . وان كانت قد ظهرت مؤلفات في المنطق ، فإنها لم تكن ذات أهمية يعول عليها كثيراً . وهذه الظاهرة السلبية ، إذا مافكر الانسان بأسبابها ، أو بالأحرى بالعقبات التي أدت إلى تأخر علم الفلسفة وعدم ظهوره في هذه الفترة من تاريخ العرب والإسلام في بلاد الشام ، فإن أول ما يمكن ذكره في هذا الصدد ، اعتماداً على مفاهيم حكام هذه الفترة عن هذا العلم ، فقد اعتبروه من العلوم الهدامة التي يجب محاربتها واستئصال جذورها من الأساس ، لكون هذا العلم يقوم على الجدل والمناقشة ، الأمر الذي ينعكس سلبياً على الوحدة المذهبية ، والسياسية ، وبالتالي فإنه يؤدي إلى حالة من الضعف والانهيار أمام الغزاة . لذلك فليس غريباً أن يتصدى نور الدين زنكي الشهيد لهذا العلم ، وهو الذي حارب علماً أقل ضرراً وتأثيراً منه ، هو علم الكيمياء . وتابع مسيرته خلفه صلاح الدين الايوبي ، الذي لم يكن أقل تشددا في هذا المجال ، ان لم يكن أكثر . حيث لم يحظ رجال هذا العلم (الفلسفة) بأدنى احترام أوتشجيع فانعدم ورخصت سوقه[٢٥٢] وتوج كرهه وعدم اهتمامه بالفلسفة ورجالها بأنه أقدم على قتل الفيلسوف العظيم السهروردي ، صاحب كتاب (حكمة الاشراق) وغيره . فعبر بذلك عن رأيه بالفلاسفة . ويعتبر عمله هذا بمثابة انذار غير مسجل ولا معلن ، أراد من خلاله ، افهام كل من يريد السير في هذا الطريق ، أن جزاءه سيكون الموت المحتم . وإذا كان خلفاؤه من الايوبيين ، قد اتسموا ببعض التسامح في هذا المجال ، فان الفلاسفة لم يظهروا في عهدهم أيضاً . لأن هذا التسامح لم يقابله تسامح أو انفتاح من قبل رجال الدين والفقهاء ،

---

٢٥١ ــ المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٤١٩ ــ شذرات الذهب ج ٦ ص ٩٧ .

٢٥٢ ــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٠ .

الذين كانوا مصدر كل بادرة مضادة للفلاسفة، وكثيراً ما حلوا محل الحكام في محاربة الفلسفة ورجالها. مثال ذلك ما يذكرها النعيمي صاحب كتاب الدارس في تاريخ المدارس عن تقي الدين بن الصلاح أنه «كان لا يمكن أحداً في دمشق من قراءة المنطق والفلسفة، والملوك تطيعه في ذلك»[٢٥٣] ولم يتغير الأمر في الفترة التي تلت حكم الأيوبيين، وهي فترة حكم المماليك، وبقي أمر الفلسفة من الأمور المحظرة على اعتبارها مكمن خطر وضرر في نظر الجميع تقريباً. مثال ذلك أن ابن عربي الذي لم يكن فيلسوفاً بالمعنى الدقيق، فان مؤلفاته حوربت بشكل أو بآخر، فكيف لو كانت بالفلسفة البحتة؟. وكان لمحاربة الفلاسفة وعلماء الكلام في العصرين الايوبي والمملوكي أثر بالغ الضرر على حركة الابداع، والخلق والابتكار بوجه عام. فعندما كان الاشتداد في ارهاق رجال هذا العلم العظيم في قمة نشاطه واوجه، كان الجميع يشتدون في التهافت على اجترار العلوم الدينية والاقبال عليها بشكل لا مثيل له[٢٥٤] كل ذلك كان على صعيد بلاد الشام. فماذا عن الجانب الآخر المتمثل بالأندلسيين أنفسهم؟ واقع الحال أن الأندلسيين الذين سكنوا الشام خلال فترة هذا البحث، لم يكونوا أفضل من أخوتهم الشاميين في حب الفلسفة والاعتناء بها. فهم أبناء بيئة لم تعرف معنى التسامح مع الفلاسفة، كونهم متمذهبين بمذهب مالك، الذي يشدد على رفض الجدل على حساب السنة والشرع. ففي رواية لابن سعيد ينقلها المقري في نفح الطيب، يظهر من خلالها هذا الواقع المحزن يقول: «وأما الفلسفة، وهو علم ممقوت بالأندلس، لا يستطيع صاحبه اظهاره، فلذلك تخفى تصانيفه»[٢٥٥] من خلال نظرة موضوعية على موقف الحكام من هذا العلم ورجاله، يمكن الاستنتاج بسهولة، أن العلة لم تكن متجسدة بالحكام، بقدر ما كانت متجسدة بالفقهاء، الذين عملوا بكل ما أوتوا من قوة وتأثير، على تحريض الحكام باسم الدين والوحدة المذهبية والسياسية، لمنع رجال الفلسفة من تطوير علمهم، من أجل أن يظلوا محافظين على مكانتهم لدى الحكام من جهة والشعب من جهة أخرى. وكل من يقول أنهم انطلقوا من الغيرة على الصالح العام، يكون قد جانب الحقيقة وابتعد عن الواقع. دليل ذلك، أنه ليس في تاريخ الاسلام ما يدل على أن الفلاسفة، وقفوا ضد الدين، أو بالأحرى أرادوا من خلال كتاباتهم ذر بذور الفرقة والشقاق بين فئات الشعب، أو وقفوا إلى جانب

---

٢٥٣ — الدارس في تاريخ المدارس — ج ١ ص ٢٠ — ٢١.

٢٥٤ — كرد علي — خطط الشام — ج ٤ ط دمشق ١٩٢٦ ص ٥٥.

٢٥٥ — نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٦.

الغزاة والاعداء. لكن الذي حدث هو أن الفقهاء أنفسهم وجدوا بالفلاسفة أداة تهدد مصالحهم الدنيوية الرخيصة، كونهم لا يستطيعون مجاراة رجال الفلسفة في مجال الخلق والابداع، لما اتصفوا به من جمود فكري وتقوقع دائم في زوايا الظلام فاستغلوا بذلك جهل الحكام بالاسلام كدين يؤمن بالتطور والتقدم، فصوروا لهم الفلاسفة على أنهم دعاة فرقة وشتات، وبالتالي فهم أخطر على البلاد من الاعداء.

فلذلك وحتى لا يظلم الحكام وخاصة منهم الزنكيين والايوبيين، فليس أحق من القول، أنهم قصدوا من وراء محاربة الفلسفة فعلاً، المحافظة على الوحدة السياسية المذهبية من أجل الوقوف في وجه الاعداء الصليبيين، لكن الفقهاء الذين اشعلوا نار الحرب على الفلاسفة، لم يكونوا حريصين على ذلك بقدر ما كانوا حريصين على مصالحهم الخاصة. وأي كانت صورة الواقع وحقيقته، فقد اتفقت آراء الفريقين الشامي والأندلسي، على تكوين موقف حاسم ومعاد للتيارات الفلسفية، الأمر الذي حال دون ظهور فلاسفة أندلسيين في الشام، يمكن تصنيفهم بشكل مستقل، كما هي الحال بالنسبة لرجال العلوم الأخرى. ويمكن أن أذكر بعضاً ممن كان له اهتمام، أو عنده قابلية للاشتغال في هذا المضمار، ولم يستطع عمل شيء خوفاً من العاقبة. مثال ذلك، محمد بن مالك المعروف بأبي عبد الله بدر الدين النحوي، الذي عرف عنه التضلع بالعلوم الفلسفية فصنف كتاباً في هذا الميدان سماه (مقدمة في المنطق)[٢٥٦] وأيضاً شعيب بن محمد ابن جعفر رضي الدين أبو مدين التونسي المتوفى بحماة سنة ٧٧٠ هـ — ١٣٦٩ م اشتهر بمعرفته في المنطق، إلى جانب علوم عقلية ونقلية أخرى، لكنه لم يتميز به، كما كان حال غيره[٢٥٧]. وهناك شخصيات أخرى، لا مجال لذكرها، لأن أصحابها لم يتخطوا في مجال معرفتهم بالأمور الفلسفية نطاق هذين اللذين ذكرتهما.

الاداريون

لقد قدر لفئة كبيرة من الأندلسيين المغاربة، أن تعمل وتشتغل في مجال الادارة ببلاد الشام، وعلى مدى الفترة، التي هي موضوع هذا البحث، مثلهم في ذلك، مثل غيرهم من الفئات العلمية، التي أتيت على ذكرها ودراستها بكل ما أمكنني من التفصيل. وإذا كانت

٢٥٦ — الوافي بالوفيات — ج ١ ص ٢٠٥.

٢٥٧ — الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٩٢.

الفئات العلمية هذه، قد اختلف أفرادها من حيث الأهلية العلمية والمناصب التي تقلدوها، والمهام التي أسندت إليهم، فإن الاداريين أيضاً تباينوا واختلفوا من هذه النواحي. ولعل أهم ما توصل إليه الأندلسيون في مجال الإدارة، لم يتعد منصب قاضي القضاة على المذهبين المالكي والشافعي. وقد تذبذب عددهم بالاعتماد على فرزهم إلى شافعية ومالكية.

فالقضاة المالكيون، كانوا أكثر من القضاة الشافعية، كما سيظهر بوضوح خلال الفقرات التالية:

١ ــ **القضاة على المذهب المالكي**. لم يكن منصب القضاة على المذهب المالكي، قد عرف في وقت مبكر في بلاد الشام، كما كان الحال بالنسبة لبعض المذاهب الأخرى. ولعل مرد ذلك يعود إلى ندرة العاملين في هذا المذهب في الشام. وقد ظهر هذا المنصب، بعد أن بدأ الأندلسيون، يفدون إلى الأرض الجديدة (بلاد الشام) بقصد الاستقرار والاستيطان، وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء على المذهب المالكي للوهلة الأولى من وصولهم. لكن الشيء الملاحظ والأكيد أن اعتماد قاض مالكي، لم يؤخذ بصورة رسمية إلا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي. وأول ما بوشر باعتماد هذا المنصب، كان في مدينة دمشق سنة ٦٦٤ هـ ـــ ١٢٦٦ م. ففي هذه السنة جعل بدمشق أربعة قضاة لأول مرة في تاريخها هم القاضي الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي[٢٥٨]. وهكذا فقد بدأت هذه العادة بالانتشار تباعا في بقية المدن الشامية الأخرى. ففي مدينة حلب، أول ما اعتُمِد فيها قاض مالكي، كان في سنة ٧٤٧ هـ ـــ ١٣٤٧ م حيث عين لهذا المنصب، المدعو شهاب الدين بن أحمد الرياحي[٢٥٩] أما بقية المدن الأخرى، فسآتي على ذكر سنة استحداث هذا المنصب فيها، ضمن الحديث عن القضاة. لكن وقبل البدء في ترجمة الأندلسيين المغاربة، الذين شغلوا منصب قاضي القضاة في بلاد الشام، فإن من الجدير التنويه ببعض الملاحظات الهامة في هذا المجال. تتجلى إحداها، بأنه خلال فترة حكم الزنكيين والأيوبيين، لم يكن هناك ما يسمى بالقاضي المالكي، كما ذكرت آنفاً، ولا يستبعد أن يكون سبب ذلك يعود إلى أن الجالية الأندلسية، كانت ما تزال قليلة العدد، وبالتالي لم يشتهر أمرهم، وذلك إذا ما قورنوا

---

٢٥٨ ــ البداية والنهاية ج١٣ ص٢٤٦ ــ تالي كتاب وفيات الأعيان ص١٠٦ ــ الذيل على الروضتين ص٢٣٥.

٢٥٩ ــ تاريخ أبي الفدا ج ٤ ص١٤٧.

بالفترة التي تلت، وهي فترة حكم المماليك، التي شهدت هجرة أندلسية كثيفة إلى بلاد الشام. بفعل الأحداث والكوارث المؤثرة، التي أحدقت بالعرب في الجناح الغربي من الدولة العربية الاسلامية. ويمكن طرح سؤال مفاده، كيف كان الأندلسيون يحلون مشاكلهم الخاصة والعامة؟ فالقول بأنهم كانوا يلجؤون إلى قضاة المذاهب الأخرى، قول لا يخلو من الصحة أبداً، باعتبارهم مسلمين.

لكن ربما كان ذلك عند حدوث مشاكل تمس الحياة العامة، بحيث لا يمكن لأحد الفصل فيها الا القاضي. أما في المسائل العادية، كالفتوى والأمور الفقهية الأخرى، فربما كان الأندلسيون يلجؤون إلى حلها عن طريق الأكابر منهم والمعهود لهم بالعلم والمعرفة، وخاصة الذين تسموا بـ(شيخ المالكية) على سبيل المثال. الملاحظة الأخرى التي يمكن الاشارة إليها حول هذا الموضوع، تتلخص بالقول، أن الذين تولوا هذا المنصب الهام، لم يكونوا متساوين في الكفاءة والأهلية، إنما حدث في كثير من الأوقات أن تسلمه كثيرون منهم، بالرغم من أنهم يفتقرون إلى أدنى الشروط التي يجب توفرها، بمن يتصدى لهذه المهمة الصعبة. وقد لعب الحكام دوراً رئيسياً في هذا المجال تمشياً مع الظروف السائدة، فكانوا يصيبون أحياناً ويخفقون أحياناً أخرى. ومهما يكن من أمر، فانه لم يكن هناك قواعد ثابتة أو بالأحرى شروط معروفة ومتبعة يجب أن تتوفر بالمرشح لهذا المنصب، وان كان من الملاحظ، أنه من الواجب توفر المعرفة المعمقة الواسعة بالشريعة الاسلامية، وبمذهبه بشكل خاص، الأمر الذي لم يتوفر بكل الذين تسلموا القضاء في الشام فتباينوا من حيث الأهلية العلمية والسلوكية الاخلاقية. وانقسموا من هذه الناحية إلى فريقين. الفريق الأول، توفرت برجاله جميع الشروط الواجب توفرها بالقاضي من علم وأخلاق، وان كان الأمر لا يخلو من بعض حالات شاذة. فكان أفراده أمثلة صالحة، عملوا من خلال مناصبهم القضائية على تحري الأحكام العادلة المنصفة وتطبيقها دون خوف ولا حرج. كما برهنوا من جهة أخرى، على احترام منصب القضاء وجعله مستقلاً عن ارادة الحاكم ومشيئته، يحدوهم في ذلك، معرفتهم الشرعية العالية في المذهب المالكي، وتشاء الظروف ان يكون أول قاض مالكي في بلاد الشام من هذه الفئة، والذي تمثل بشخص محمد عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي المالكي الملقب بزين الدين، المولود بمدينة بجاية سنة ٥٨٩ هـ ــ ١١٩٣م أو في التي قبلها، قدم مصر سنة ٦١٥ هـ ــ ١٢١٩ م، وكان نزوله بمدينة الاسكندرية، حيث درس علم القراءات وغيرها، ومن مدينة الاسكندرية، انتقل إلى الشام، فاستقر بمدينة دمشق سنة ٦١٦ هـ ــ ١٢٢٠ م

وتصدر مشيخة التدريس بتربة أم الصالح[٢٦٠] وبالجامع الأموي الكبير . وعندما استحدثت مناصب القضاة الأربعة بدمشق ، أجبر على تسلم قاضي قضاة المالكية ، وظل يمارس هذه الوظيفة على كره منه فترة تسع سنوات متتالية ، بدءاً من سنة ٦٦٤ هـ ــ ١٢٦٦ م . عاد بعدها إلى مهنة التدريس ، حتى وافته المنية سنة ٦٨١ هـ ــ ١٢٨٣ م[٢٦١] ودفن في مقابر الباب الصغير ، وكانت جنازته حافلة ، شارك في تشييعه نائب الشام بنفسه . ويقول ابن قاضي شهبة ، أن قبره مقصود بالزيارة ، وهذا دليل ثقة الناس به لمكانته الكبيرة[٢٦٢] . ويعتبر الزواوي هذا من الشخصيات النادرة والفريدة تقريباً بين من تسلم قضاء الشام من المالكية ، لرفضه تناول أي راتب لقاء عمله كقاضي القضاة المالكية[٢٦٣] . وإذا كان عبد السلام هذا قد رفض تسلم منصب قاضي القضاة في البداية ، فان ابن عمه يوسف بن عبد الله ابن عمر أبو يعقوب جمال الدين الزواوي ، كان على العكس تماماً . فقد بذل جهداً كبيراً على أثر ترك عبد السلام لمنصبه ، كي يحل محله ، وهو الذي كان يعمل نائباً له في القضاء . وتحققت إرادة جمال الدين هذا ، بأن أسفرت جهوده عن الفوز بقاضي قضاة مدينة دمشق على المذهب المالكي ، حتى وافته المنية وهو بطريق الحج سنة ٦٨٤ هـ ــ ١٢٨٦ م[٢٦٤] . وتتالت الشخصيات القضائية من آل الزواوي بمدينة دمشق ، حيث خلف القاضي المذكور ، قاض آخر هو محمد بن سليمان الملقب بجمال الدين أيضاً . ولد سنة ٦٣٠ هـ ــ ١٢٣٣ م . قدم الاسكندرية ودرس على بعض علمائها ، لينتقل بعد ذلك ما بين القاهرة ومدينتي الشرقية والغربية ، يعمل نائباً لقاضي المالكية ، حتى عين قاضي قضاة القاهرة فترة لابأس بها . ولظروف غير معروفة على وجه التحديد ، غادر مصر قاصداً مدينة دمشق ، وفيها تسلم منصب قاضي قضاتها منذ سنة ٦٨٧ هـ ــ ١٢٨٨ م . وقد ضرب رقماً قياسياً في الفترة الزمنية التي أمضاها في القضاء ، فوصلت إلى حوالي ثلاثين سنة ، قضاها دون كلل ولا ملل . وقد عرف بصراحته وصلابته ، لا يتراجع عن قراراته وأحكامه .

---

٢٦٠ ــ انظر ما جاء عنها ص ١٩٧ من هذا البحث في الحاشية .

٢٦١ ــ ذيل مرآة الزمان ج ٤ ١٧٣ ــ ١٧٤ ــ تالي كتاب وفيات الأعيان ص ١٠٥ ــ ١٠٦ ــ طبقات القراء ج ١ ص ٣٨٦ ــ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ٣٣٦ الذيل على الروضتين ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦ .

٢٦٢ ــ طبقات النحاة واللغويين ــ مخطوطة الظاهرية ص ٣٧٠ ــ طبقات القراء ج ١ ص ٣٨٧ .

٢٦٣ ــ تالي كتاب وفيات الأعيان ص ١٠٦ .

٢٦٤ ــ ذيل مرآة الزمان ج ٤ ص ٢٣٩ .

وفي أواخر أيامه اعتراه مرض أقعده الفراش، ومنعه عن الكلام، فقام بعزل نفسه قبل وفاته بأيام قليلة من سنة ٧١٧ هـ ـ ١٣١٨ م بدمشق. ودفن بمقابر الباب الصغير، وكانت جنازته حافلة شارك فيها العامة والخاصة[٢٦٥] ولا أدل على مكانته المرموقة، من أن جميع الذين ترجموا له تقريباً، وصفوه بالاستقامة والعدل. وانفرد عن كل أفراد هذه الفئة، بأن أقدم على تجديد عمارة مدرستين في مدينة دمشق، هما المدرسة الصمصامية* والمدرسة النورية[٢٦٦]. وكما ذكرت في بداية هذا البحث أنه بعد استحداث منصب قاضي المالكية بدمشق سنة ٦٦٤ هـ ـ ١٢٦٦ م فإن هذه العادة، بدأت تتبع في المدن الشامية الأخرى، وكانت مدينة حلب هي أول المدن الشامية بعد دمشق، التي استحدث فيها هذا المنصب، وكان ذلك في سنة ٧٤٧ هـ ـ ١٣٤٧ م[٢٦٧]. فكان أول قاض مالكي في مدينة حلب من الذين امتثلوا الاستقامة والعفة، وتحلوا بحسن الاخلاق ولين العريكة ونشدان الحق في جميع احكامه، هو أحمد بن عبد الظاهر بن محمد الدميري المالكي الملقب بصدر الدين. ولي القضاء بحلب بعد عزل شهاب الدين الرياحي فترة من الزمن سنة ٦٦٣ هـ ـ ١٢٦٥ م وقبل وصوله إلى حلب كان يعمل نائباً للقاضي المالكي بمصر، وظل في قضاء المالكية بحلب سبع سنوات متتالية من سنة ٧٦٣ هـ ـ ١٣٦٢ م حتى نهاية ٧٦٩ هـ ـ ١٣٦٨ م[٢٦٨]

أما النموذج الرابع من هؤلاء القضاة، فقد تمثل بشخص ابراهيم بن عبد الله بن عمر الصنهاجي المالكي. وهو يختلف عن الذين مر ذكرهم حتى الآن، بأنه من مواليد مدينة دمشق سنة ٧١٧ هـ ـ ١٣١٨ م أو ٧١٨ هـ ـ ١٣١٩ م، وفيها نشأ وتلقى علومه على علماء معظمهم من الأندلسيين. وكان من الحافظين لموطأ مالك. ويبدو أنه كان من الشخصيات المالكية المعروفة بدمشق، ودليل ذلك أنه كلف بتوقيع رسمي سنة ٧٨٣ هـ ـ ١٣٨٢ م لأن يتسلم منصب قاضي قضاة دمشق على المذهب المالكي فلم

---

٢٦٥ ـ البداية والنهاية ج ١٤ ص ٨٤ ـ ٨٥ ـ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ١٢ ـ ١٣.

* الصمصامية، هي من مدارس المالكية بدمشق، محلة حجر الذهب، عمرها القاضي المالكي محمد بن سليمان الملقب بجمال الدين الزواوي في الربع الأخير من القرن السابع الهجري (الدارس في تاريخ المدارس ٢/٨ البداية والنهاية ١٤/٨٤) وكان قد وقف عليها من قبل الزواوي الصاحب شمس الدين غبريال الاسلمي (خطط الشام ٦/٩٨).

٢٦٦ ـ البداية والنهاية ج ١٤ ص ٨٤ ـ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٨٤.

٢٦٧ ـ النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ١٩٠.

٢٦٨ ـ الدرر الكامنة ج ١ ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

يقبل. وحدث أن تكرر تكليفه في سنة ٧٨٨ هـ ـ ١٣٨٦ م فامتنع أيضاً. وبالرغم من حالة الرفض هذه، فقد بقي الحكام يلحون عليه، حتى وافق بتسلم قاضي قضاة المالكية بدمشق لمدة ثلاث سنوات. توفي بمدينة دمشق على حين غرة سنة ٧٩٦ هـ ـ ١٣٩٤ م حيث دفن بالمزة(٢٦٩). ومن هؤلاء القضاة من تنقل في أكثر من مدينة شامية، كقاض للقضاة المالكية، وكنائب له كان منهم القاضي ابراهيم بن محمد بن علي التادلي المدعو أبو سالم، الذي تنقل بين دمشق وحلب. ويختلف عن القضاة السابقي الذكر أنه تكرر عزله واعادته بشكل ملفت للنظر. فقد ولي قضاء حلب أول مرة سنة ٧٧١ هـ ـ ١٣٧٠ م كقاضي قضاة، علماً بأنه كان ينوب عن القاضي فيها قبل هذه السنة.

ويتكرر عزله واعادته خلال الفترة التي تلت هذا التاريخ. ففي سنة ٧٧٧ هـ ـ ١٣٧٦ م استقر في قضاء حلب عوضاً عن ناصر الدين أبو عبد الله محمد بن سرى الدين المعروف بابن هانيء الأندلسي(٢٧٠) انتقل في السنة التي تلت إلى مدينة دمشق، وتسلم قضاؤها عوضاً عن زين الدين أبي بكر المازوني، لكنه لم يستقر سوى فترة قصيرة عزل بعدها عن القضاء، وحل محله علم الدين أبو عبد الله محمد بن ناصر الدين القفصي، الذي بقي حتى سنة ٧٨٠ هـ ـ ١٣٧٩ م، ثم عزل وأعيد مرات عديدة. وهكذا فإن الفترة التي أمضاها في القضاء في كل من حلب ودمشق بلغت بمجموعها حوالي ثلاثة عشر عاما ونصف العام. وكان خلال هذه الفترة نموذجاً للقاضي، الذي توفرت فيه القوة والتصميم والجد في العمل، إضافة إلى الشجاعة والجرأة في إصدار الأحكام، وامتثال العدالة والمساواة بين الناس. ويظهر هذا بشكل مؤكد من خلال قصيدة أرسلها إليه أحد أعيان حلب المعروف بالبدر أبي محمد بن حبيب عندما كان يستعد لمغادرة حلب إلى دمشق. يقول مخاطباً القاضي المذكور:

سِرْ إلى جنــــةِ الشام دمشقَ حاكمـــاً عادلاً رفيــعُ المقـــامِ
رامتْ القـربَ منكَ فَادخـلْ إليها يا أبـــا سالم بأذكـــــى سلامِ

توفي بدمشق سنة ٨٠٣ هـ ـ ١٤٠١ م وهو قاضي(٢٧١)

---

٢٦٩ ـ شذرات الذهب ج٦ ص٣٤٥ ـ الدرر الكامنة ج١ ص ٣٠ ـ تاريخ ابن قاضي شهبة ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥ إنباء الغمر ج ١ ص ٤٨٧ ـ ابن القاضي ـ ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال ج ١ ت محمد الأحمدي أبو النور ط القاهرة ١٩٧٠ ص ١٨٩.

٢٧٠ ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٣ ق ١ ت سعيد عبد الفتاح عاشور ط القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٥٧.

وأيضاً وفي مدينة دمشق يمكن أن يضع قاضيين اثنين ضمن هذه الفئة، تباينت فترات استلامهم لمنصب القضاء، هما القاضي يحيى المعروف بمحيي الدين المغربي المتوفى سنة ٨٤٢هـ ــ ١٤٣٩م[٢٧٢] والقاضي يعقوب بن يوسف المعروف بالشرف القرشي المغربي، الذي بقي يعزل ويعاد إلى القضاء منذ سنة ٨٤٢هـ ــ ١٤٣٩م وحتى وفاته في سنة ٨٥٧هـ ــ ١٤٥٤م وقد ذكر السخاوي في كتابه (الضوء اللامع) أنه كان يعرفه جيداً، وأطلع على بعض أحكامه في سنة ٨٥٦هـ ــ ١٤٥٣م[٢٧٣] وبالرغم من أهمية بيت المقدس العربية، فإن منصب قاضي المالكية، ظل دون استحداث إلى فترة متأخرة إلى حد ما. ومن المحتمل أنه استحدث في السنين الأخيرة من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وذلك بالاعتماد على بعض القضاة، الذين شغلوا هذا المنصب فيها في الفترة الأولى، والذين سأذكرهم في سياق الحديث عن الفئة الثانية من القضاة. أما الذين برهنوا على أهليتهم وصلاحيتهم للقضاء ببيت المقدس، فانهم كانوا قلائل جداً إذا ما قيسوا بالذين لم يرعوا للقضاء حرمة. ففي سنة ٨٤٧هـ ــ ١٤٤٤م قيض الله لمدينة بيت المقدس قاضياً مالكياً، لم تعرف مثيلاً له، منذ أن استحدث فيها هذا المنصب، هو عيسى بن محمد المغربي الشحمني الملقب بشرف الدين أبي الروح، الذي بقي على رأس منصبه بصورة مستمرة، حتى سنة ٨٥٤هـ ــ ١٤٥١م، ومارس الحكم خلال هذه الفترة، بكل إخلاص وعفة واستقامة، لا يحابي أحداً، ولا يخاف في الله لومة لائم. يَدعمه في ذلك قوة شخصيته وصلابة مواقفه، وعدم التراجع عنها، إضافة إلى علمه ومعرفته بشؤون المذهب المالكي والشريعة الاسلامية. ومن مواقفه الرائعة ما حدث له مع نائب القدس مبارك شاه، كان هذا الأخير قد قرر قتل أربعة من الفلاحين، وكلفه بشنقهم بتهمة السرقة واللصوصية، فسأله القاضي المذكور، عما إذا كانت السرقة قد ثبتت عليهم بطريقة شرعية؟ فأجابه النائب نحن لا نحتاج إلى إثبات شرعي. فأجابه لا يمكن تنفيذ ما أمرت، إلا بعد أن تثبت الإدانة، لكن النائب شدد من تصلبه وألح على قتلهم، فأجابه القاضي بقوله: «والله لو قتلتهم بحضوري، لكنت أقتلك بيدي، وأعلقك إلى جانبهم كما أنت بخلعة السلطان» فتراجع النائب عن إصراره[٢٧٤]

---

٢٧١ ــ الضوء اللامع ج ١ ص ١٥٥ ــ ١٥٦ ــ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٣ ق ١ ص ٢٩٤ ــ ٣٢٥.

٢٧٢ ــ الضوء اللامع ج ١ ص ٣٠٧.

٢٧٣ ــ الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٨٧.

٢٧٤ ــ الأنس الجليل ج ٢ ص ٥٨٥.

ويبدو أن عدد الجالية الأندلسية المغربية تكاثرت في مدن فلسطين الكبرى إلى حد نشوء منصب القضاء فيها، وهكذا ظهر في الرملة أواسط القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وتولاه محمد بن سعيد المغراوي المالكي الملقب بشمس الدين.. ولد سنة ٨٠٧هـ ـ ١٤٠٥م حفظ القرآن الكريم، واستطاع أن يتوصل إلى مرتبة قاضي القضاة في هذه المدينة، وبقي فيها فترة طويلة من الزمن انتقل بعدها إلى مدينة بيت المقدس في سنة ٨٥٤هـ ـ ١٤٥١م وتسلم قضاءها، بعد وفاة قاضيها النزيه عيسى بن محمد المغربي الشحمني الانف الذكر. ومنذ ذلك الحين استقر بالقدس الشريف، يتولى قضاءها حيناً ويعزل حيناً آخر، حتى وافته المنية سنة ٨٧٣هـ ـ ١٤٦٩م وهو قاضيها[٢٧٥]. ومن هؤلاء القضاة من تنقل بين كل من دمشق وبيت المقدس. كسالم بن ابراهيم المغربي الصنهاجي الملقب بأمين الدين المالكي، ولد بعد سنة ٧٧٠هـ ـ ١٣٦٩، ودرس الفقه وعلم الدين في بلاده، ووصف بأنه من أهل العلم والفضل. وقد أسر سنة ٨٣٤هـ ـ ١٤٣١م عندما كان في طريقه إلى بلاد الشام، وظل في الأسر مدة طويلة، قصد بعدها مدينة دمشق، ليتحول بعد قليل إلى مدينة القدس الشريف، حيث شغل منصب قاضي القضاة بسنة ٨٤٥هـ ـ ١٤٤٢م. وبعد فترة قصيرة، أعيد إلى دمشق مرة أخرى، وتسلم قضاءها، لكن المدة التي أمضاها في هذا المنصب غير معروفة على وجه التحديد وان كان من الثابت، أنه لم يغادر دمشق بعد ذلك، وتوفي سنة ٨٧٣هـ ـ ١٤٦٩م وقد برهن خلال ممارسته القضاء، على عفة نفسه واستقامة أحكامه ونزاهتها[٢٧٦] وبعد ظهور هذا المنصب بمدينة الخليل، وأول من تسلمه فيها القاضي حميد الدين محمد بدر الدين المعروف بابن المغربي، وقد اشتهر بأنه كان من حفاظ القرآن الكريم، وعارفاً بالروايات الأمر الذي ساعده، لأن يتولى قضاء عدة مدن شامية اضافة إلى الخليل، الذي تسلمه فيها لأول مرة سنة ٨٧٤هـ ـ ١٤٧٠م نقل خلالها إلى قضاء مدينة بيت المقدس، دون أن يتخلى عن قضاء الخليل، وهو أول قاضي من الأندلسيين المغاربة، جمع بين قضاء مدينتين في وقت واحد. لكن مدته لم تدم وقتاً طويلاً في هاتين المدينتين، فقد عزل في أواخر السنة المذكورة عن قضائهما نهائياً، وتوجه إلى القاهرة، ومنها أرسل إلى طرابلس الشام، حيث ولي قضاءها.

---

٢٧٥ ـ المصدر السابق ص ٥٨٦.

٢٧٦ ـ الأنس الجليل ج ٢ ص ٥٨٤.

توفي سنة ٨٧٨ هـ ــ ١٤٧٤ م[٢٧٧] وربما كان آخر القضاة الأندلسيين في مدينة بيت المقدس، العلامة الغرناطي شمس الدين محمد بن علي الأزرق المغربي الأندلسي المالكي . الذي اختلف عن جميع القضاة الأندلسيين في الشام في ناحية واحدة، تجلت بأنه كان قاضياً للجماعة في كل من مالقة وغرناطة بجنوب الأندلس، قبل أن يأتي إلى الشام .

وقد اشتهر عنه التبحر في العلم وحسن المنظر ووقار الهيئة . خرج من غرناطة على أثر سقوطها بيد فرناندووايسابيلا، خرج منها يستنفر ملوك المسلمين، فتوجه إلى المغرب، وطلب من ملوكها نجدة بلاده، لكن محاولته هذه باءت بالفشل، فتوجه إلى المغرب، وطلب من ملوكها نجدة بلاده، لكن محاولته هذه باءت بالفشل، فتوجه إلى مصر، حيث التقى بالسلطان الأشرف قايتباى، وكان منشغلا بمحادثة الأتراك، فحج وجاور ريثما انتهى، وطلب منه نصرة المسلمين في غرناطة، لكن الثابت أيضاً أن هذا الطلب لم يسفر عن نتيجة إيجابية كما حصل في المغرب . عند ذلك آثر البقاء في الشرق وطلب من السلطان المذكور تأمين عمل له، فولاه قضاء المالكية ببيت المقدس بدلاً من القاضي محمد بن مازن الغزي . وباشر عمله في السادس من شوال سنة ٨٩٦ هـ ــ ١٤٩١ م وظل فيه حتى السابع عشر من ذي الحجة من السنة نفسها . وبذلك تكون ولايته، أقصر ولاية أمضاها أندلسي مغربي في منصب القضاء، بحيث لم تتجاوز واحداً وستين يوماً توفي بعدها متأثراً بمرض مفاجيء ألمَّ به، ودفن بماملا ببيت المقدس . وقد كان مثال العفة والنزاهة[٢٧٨] .

ولم يكن كل هؤلاء القضاة بالمستوى نفسه من العلم والمعرفة في شؤون الدين، وخاصة على المذهب المالكي، فقد حدث أن توصل بعضهم إلى هذا المنصب، بالرغم من قلة علمه ومعرفته، التي غطت عليهما سمعته الطيبه وسلوكه القويم . مثال هؤلاء، مثل القاضي المالكي أحمد بن محمد المريني المغربي، الذي حل بدمشق في الفترة التي تلت سنة ٨٦٠ هـ ــ ١٤٥٦ م، واشتغل باديء الأمر في البيمارستان النوري كإداري على أغلب الظن، فظهرت أمانته وشدة تعلقه بالدين، الأمر الذي حدا بالمسؤولين لانتدابه للعمل كنائب لقاضي قضاة المالكية شهاب الدين التلمساني منذ سنة ٨٧٩ هـ ــ ١٤٧٥ م . واستمر حتى سنة ٨٨٥ هـ ــ ١٤٨٠ م ثم عزل . وفي سنة ٨٩٠ هـ ــ ١٤٨٥ م ولي قاضي

---

٢٧٧ ــ المصدر السابق ص ٥٨٨ .

٢٧٨ ــ المصدر السابق ص ٥٩١ ــ ٥٩٢ .

قضاة المالكية بدمشق، وبقي بشكل مستمر دون عزل حتى وافته المنية سنة ٨٩٧ هـ ـ ١٤٩٢ م ودفن بمقبرة الباب الصغير بدمشق(٢٧٩) . أما الفريق الثاني من هؤلاء القضاة ، فكان على النقيض تماماً من الفريق الأول . فقد افتقر أفراده في كثير من الأحيان إلى الأهلية الشرعية والسلوكية الأخلاقية على حد سواء . فعمل بعضهم أو بالأحرى معظمهم بتأثير مصالحهم الشخصية البحتة ، فأساؤا لهذا المنصب الجليل ، بالتهافت على الرشاوي والتلاعب في الأحكام ، دون وازع من ضمير ولا رادع من شرع أو دين . والشيء الذي يظهر بوضوح ، أن هذا الفريق من القضاة ، كان أكثر ، من حيث العدد ، من الفريق الأول . وهذا أمر طبيعي جداً يتجلى أثره من خلال سيرة القضاة المذكورين آنفاً ، حيث أن الأقطاب منهم ، لم يتسلموا القضاء إلا بالقسر والاجبار ، لأنهم يعرفون أكثر من غيرهم حساسية هذا المنصب وخطورته ، وهو الذي يجب على صاحبه أن يكون من المتحرين للعدالة والانصاف في كل أحكامه وتصرفاته القضائية ، وبالتالي يوجب الابتعاد عن كل ما يسيء لهذا المنصب من تقبل الاغراءات والرشاوي وغير ذلك من أوجه استغلاله للصالح الشخصي المحض . الأمر الذي ظهر واضحاً عند الكثيرين من أفراد الفريق الثاني ، الذي سآتي على ذكرهم تباعاً . فأول هؤلاء من القضاة المقيمين كان عمر بن سعيد التلمساني ، الذي خلف القاضي أحمد ابن ياسين بن محمد الرياحي بمدينة حلب ، والذي بقي فترة أربع سنوات متتالية ابتداء من سنة ٨٥٢ هـ ـ ١٤٤٩ م وهو مثال للقاضي الجاهل في أمور الشريعة والدين والقضاء ، مما أثار تعجب وحيرة أهل حلب ، عندما أصبح قاضياً ، بعد سعي طويل لدى السلطان في مصر(٢٨٠) .

ومن سجلماسة بالمغرب العربي ، وصل إلى حلب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الحفيد المالكي . ولد سنة ٧١٢ هـ ـ ١٣١٣ م قدم من بلاده ، فأدى فريضة الحج ، وتابع إلى مصر ، فحل بالقاهرة مدة ، تابع بعدها إلى بلاد الشام ، فدخل مدينة حلب ، حيث اشتغل بالتجارة ، التي أجبرته على التنقل بين بغداد والقاهرة ومكث فترة من الزمن . ليعود مرة أخرى إلى حلب ، حيث استطاع أن يصل إلى منصب قاضي القضاة المالكية لفترة لابأس بها ، كان آخرها سنة ٧٨٧ هـ ـ ١٣٨٥ م حيث عزل وحل محله ،

---

٢٧٩ ـ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ص ٦٥ ـ ١٤٥ .

الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٢٣ ـ الضوء اللامع ج ٢ ص ٢١٨ .

٢٨٠ ـ الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٦٧ ـ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ ورقة ١٢٢ ـ ١٢٣ .

القاضي جمال الدين النحريري. وهو نموذج للقاضي الجاهل غير العارف، وهذا ما حدا البعض لأن يقول عنه: «أن كلامه أكثر من علمه» وقد امتزجت قلة العلم عنده وضحالته بما هو أقسى من حدة الخلق وعدم اللين والروية واحتقاره للناس، حيث كان لا يقيم قدراً لأحد[٢٨١] بينما وصفه البعض الآخر، بأنه كان راوية للحديث، وله معرفة ضليعة بمذهب مالك، أصوله وفروعه، إضافة إلى معرفة جيدة ببعض العلوم الأخرى[٢٨٢] وبعد عزله عن قضاء المالكية بحلب سنة ٧٨٧ هـ ـ ١٣٨٥ م توجه إلى دمشق، ومنها إلى غزة، ثم إلى بيت المقدس، حيث توفي سنة ٧٨٩ هـ ـ ١٣٨٧ م[٢٨٣]. أما القاضي المالكي محمد بن يحيى ابن سليمان المغربي، الملقب بجمال الدين، فإنه لم يعرف الاستقرار، فقد تنقل بين كل من حماة وطرابلس ودمشق، وعُرِف بتضلعه ببعض العلوم العقلية، وعدم معرفته بالعلوم الشرعية، وخاصة على مذهب المالكية، وبالرغم من ذلك، فانه استطاع أن يتسلم قاضي القضاة المالكية، في مدينة حماة لفترة قصيرة عزل بعدها، فتوجه إلى دمشق واتصل بحاكمها طالباً منه، أن يوليه قضاءها، فأجيب طلبه هذا، وتصدر لقضاء المالكية، لكن طريقته لم تكن مقبولة، حيث تصدى لإيذاء الناس وإطلاق لسانه في الأكابر والأعيان. يضاف إلى ذلك، أنه برهن في مناسبات عديدة على عدم اتزانه العقلي، وفجوره وفسقه وقلة دينه، الأمر الذي يتنافى بشدة مع مركز القضاء، فحكم عليه بالعزل من منصبه كقاضٍ غير صالح، فذهب إلى مصر، وتوسط لدى السلطان، لكنه لم ينجح، ونفاه إلى الشام سنة ٧٩٤ هـ ـ ١٣٩٢ م فتوفي بالرملة في السنة التالية[٢٨٤]. وقد تمثلت صورة الجهل المطبق وعدم السلوكية الأخلاقية في قاضٍ آخر هو محمد بن محمد الدمشقي المالكي، الملقب بعلم الدين القفصي، وهكذا فإنه يعتبر من النماذج غير الصالحة لمنصب القضاء. ويختلف عن رفاقه السابقين الذين هم من فئته، بأنه من مواليد مدينة دمشق، كان جده والد أبيه، يسكن بدمشق منذ سنة ٧١٩ هـ ـ ١٣١٩ م. وخلال فترة وجوده فيها عمل نائباً في القضاء. أما والد قاضينا علم الدين القفصي، فقد كان جندياً في الجيش المماليكي، وكذلك الأمر بالنسبة له، فإنه انخرط في صفوف الجيش لفترة غير قصيرة على مايبدو،

---

٢٨١ ـ الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٤٣ ـ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ١ ورقة ٦٢٧ ـ ٦٢٨.

٢٨٢ ـ تاريخ ابن قاضي شهبة مجلد ١ ص ٢٣٠ ـ النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣١٣.

٢٨٣ ـ الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٤٣ ـ تاريخ ابن قاضي شهبة مجلد ١ ص ٢٣٠.

٢٨٤ ـ ابناء الغمر ج ١ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ـ تاريخ ابن قاضي شهبة ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

انطلاقاً من كونه ، لم يركز على الدراسة والتحصيل ، إلا بعد أن أصبح في سن عالية ، بعكس معظم الذين سبقوه من القضاة . وبالرغم مما عرف عنه من الجهل وعدم الاتزان العقلي وسوء الأخلاق والسيرة ، فقد استطاع أن يتوصل إلى منصب قاضي القضاة في ثلاث مدن شامية ، هي حلب وحماة ودمشق ، وأمضى فترة خمس وعشرين سنة من عمره ، يعمل في القضاء بالمدن المذكورة ، بين معزول عن القضاء وشاغل له . مثال ذلك ، أنه ولي قضاء دمشق إحدى عشرة مرة ، وكذلك في حماة وحلب عدة مرات . توفي وهو قاضٍ بدمشق سنة ٨٠٥ هـ ـــ ١٤٠٣ م(٢٨٥) . وفيما يلي نموذج آخر من القضاة المالكيين ، الذين عرف عنهم الجهل وعدم الاستقامة ، وهو القاضي محمد بن اسماعيل بن هانيء اللخمي الغرناطي المالكي ، ولد بمدينة حماة سنة ٧٤٠ هـ ـــ ١٣٤٠ م . أو بعدها بقليل . وقد كان صورة عكسية لوالده ، الذي اشتهر بالاستقامة وعدالة الأحكام والمعرفة الشرعية الواسعة . اشتغل نائباً عن والده(٢٨٦) في قضاء حماة فترة توليه هذا المنصب .

فبينما كان والده مثالاً للقاضي العادل العارف إلى حد جعل بعض من كتب عنه يصنفه في مقدمة القضاة المالكيين ، الذين عملوا في هذا المجال في مختلف مدن الشام . كان هو سيىء السيرة غير محمود ، ضيق الأفق قليل المعرفة إلى درجة أساءَ لوالده الشيء الكثير . تنقل بين عدة مدن شامية ، يعمل قاضياً لقضاء المالكية . ففي مدينة حماة أصبح قاضي القضاء على أثر وفاة والده ، حتى كان سنة ٧٧٦ هـ ـــ ١٣٧٥ م حيث نقل إلى قضاء مدينة حلب ، وحل محل القاضي التادلي . ومنذ ذلك الحين ، ظل يتنقل بين كل من حلب وحماة وطرابلس ، حتى كان سنة ٨١٦ هـ ـــ ١٤١٤ م نقل خلالها إلى دمشق وتسلم قضاءها . ولسوء سيرته بشكل ظاهر أقصي عن قضاء مالكية دمشق ، وأرسل إلى مدينة طرابلس في سنة ٨١٧ هـ ـــ ١٤١٥ م ، حيث بقي فيها يمارس القضاء عدة سنين ، وفيها كانت وفاته سنة ٨٢٨ هـ ـــ ١٤٢٥ م(٢٨٧) . ولم يكن جميع أفراد هذه الفئة من القضاة ، يفتقرون إلى الأهلية العلمية والمعرفة بشؤون القضاء ، بل حدث أن وجد بعض منهم ، لا يقلون من هذه الناحية

---

٢٨٥ ـــ شذرات الذهب ـــ ج٧ ص٥٣ ـــ انباء الغمر ج٢ ص ٢٥٢ ـــ تاريخ ابن قاضي شهبة مجلد ١ ص٥٩ ـــ ١٨٢ ـــ ٢٦٨ ـــ الضوء اللامع ج ١٠ ص١٣ ـــ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ ورقة ٣٤٥ .

٢٨٦ ـــ انظر ص ٢٢٨ من هذا البحث عن والده .

٢٨٧ ـــ الضوء اللامع ج ٧ ص ١٤٢ ـــ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ ورقة ٢١٧ ـــ ٢١٨ .

عن قضاة الفئه الأولى، لكنهم خالفوهم في أنهم لم يسيروا على منهجهم في تطبيق معرفتهم على صعيد القضاء، كان على رأس هؤلاء القاضي أحمد بن سليمان بن عمر بن عبد الرحمن المعروف بابن عوجان، فقد تسلم هذا القاضي مهمته في بيت المقدس، لأول مرة سنة ٨٠٥هـ ـ ١٤٠٣م فكان ثاني قاضٍ مالكي فيها[٢٨٨] وقد عرف عنه الفضل والتعمق في العلوم الشرعية على المذهب المالكي، وإتقانه لصناعة القضاء على أتم وجه. وهو مثال للقاضي الذي يعرف خطر مهمته وجسامتها وتأثيرها على الناس، ولا يعمل لتحقيقها وتنفيذها. بحيث افتقر إلى السلوكية الأخلاقية التي تعتبر من الشروط الواجب توافرها، بمن يتصدى لهذه المهمة الصعبة. فقد عرف عنه حبه وتهافته على استلام الرشاوي، الأمر الذي أضفى على أحكامه صفة الظلم والباطل، مما أدى إلى عزله عن القضاء فترة من الزمن، لا يعرف إن كانت طويلة أم قصيرة. لكن الشيء المؤكد، أنه أعيد في سنة ٨٣٨هـ ـ ١٤٣٥م ليخلفه بعد فترة قصيرة أحد أبنائه، الذي لم يكن بأفضل منه، بل زاد عليه سوءاً بأنه كان يعتقد بأن الشمس تستحق أن يعبدها البشر[٢٨٩] وربما استمر في منصبه هذا برغم سوء سيرته حتى سنة ٨٤٧هـ ـ ١٤٤٤م. وقد عرفت مدينة دمشق واحداً من هؤلاء، كان يحل محل القاضي يعقوب بن يوسف المعروف بالشرف القرشي المغربي[٢٩٠] في أثناء عزله عن منصب القضاء وهو شهاب الدين التلمساني، الذي كان يتولى قضاء دمشق سنة ٨٥٢هـ ـ ١٤٤٩م، والذي عزل بالسنة نفسها وعين بدلاً عنه القاضي أبو عبد الله البيدمري المغربي المعروف بالبريكي[٢٩١]. وإذا كان القضاة المالكيون الذين عرفتهم الشام خلال فترة هذا البحث قد ألفوا فريقين متباينين من حيث الأهلية العلمية والثقافية من جهة، والسلوكية الأخلاقية من جهة أخرى، فإنهم التقوا في عدة نواحٍ إدارية محضة لا يمكن الخروج عنها، وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الحالات الشاذة. فبالنسبة لتعيين القضاة، كان يأتي بتوقيع رسمي على ما يبدو من السلطان المقيم في مصر، انطلاقاً من أهمية وجلالة هذا المنصب. ولكن تعيينات القضاة، لم تكن كلها طبيعية، فكثيراً ما لعبت

---

٢٨٨ ـ لقد أمضيت وقتاً طويلاً في البحث عن أول قاض مالكي ببيت المقدس، فلم أوفق في الحصول عليه حتى في ألصق المصادر التي تؤرخ لمدينة بيت المقدس، وهو (الأنس الجليل لابن الحنبلي).

٢٨٩ ـ الضوء اللامع ج ١ ص ٣٠٧.

٢٩٠ ـ انظر ص ٢٢٩ من هذا البحث.

٢٩١ ـ السخاوي ـ التبر المسبوك في ذيل الملوك ط بولاق مصر ١٨٩٦ ص ٢١٠.

الوساطات والمصالح السياسية، وبذل الرشاوى من قبل القضاة الطامعين في الحكم، لعبت دوراً فعالاً في هذا المجال. حيث أن الحكام كثيراً ما تأثروا إلى حد كبير بمواقف وآراء المقربين منهم، فكانوا يتوسطون لدى السلطان ويستميلونه بالرشاوى المالية، فيصدر أمراً بتعيين قاضٍ عوضاً عن قاضٍ آخر، وذلك دون النظر إلى أخلاقه وعلمه، أو صلاحيته للقضاء، كما أنه لم ينظر أو بالأحرى لم يحسب حساباً للنتائج التي ستتمخض عن مثل هذا التعيين. والأمثلة كثيرة في هذا المضمار، منها ما أشار إليه صاحب كتاب النجوم الزاهرة، عندما كان في صدد الحديث عن القاضي جمال الدين يوسف بن موسى بن محمد الملطي، الذي خلف القاضي الحنفي شمس الدين أبا عبد الله محمد بن أحمد محمد بن أحمد بن أبي بكر الطرابلسي المتوفى سنة ٧٩٧ هـ ـــ ١٣٩٥ م، فقد ذكر أن السلطان هو الذي طلب القاضي الملطي ببريد رسمي، وعلق على ذلك بالقول: «هكذا تكون ولاية قضاة الشرع الشريف بعزة وطلب واحترام، لا كمن يسعى فيها من بيت المال، والأمير الكبير إلى بيت والي القاهرة، حتى تلبى بالمال والبذل من غير تستر في ذلك، حتى أنه يعرف ولايته بالبرطيل كل أحد من المسلمين حتى النصارى واليهود، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»(٢٩٢) ويؤكد على ذلك صاحب «الدارس في تاريخ المدارس» بصورة أوضح إلى درجة أنه يذكر مقدار المبلغ الذي دفعه أحد القضاة، وهو شهاب الدين التلمساني من أجل أن يعود إلى منصب القضاء في مدينة دمشق سنة ٨٥٩ هـ ـــ ١٤٥٥ م بدلاً من القاضي زين الدين عبد الرحمن بن محمد السويدي المغربي المالكي. وقد وصل مقدار المبلغ الذي دفعه إلى خمسمائة دينار(٢٩٣) أما بخصوص الراتب الذي كان يتقاضاه صاحب هذا المنصب ونوابه فلا يعرف عنه شيئاً فلم أتمكن من العثور على إشارة، تتعلق بهذا الشأن، في جميع المصادر والمراجع التي اعتمدتها في هذا البحث، وكل ما يمكن قوله في هذا الصدد، أن الراتب كان متساوياً لجميع القضاة دون تمييز بين قاضي مدينة أو أخرى، يضاف إلى ذلك أن هذا الراتب كان مغرياً إلى حد كبير، ودليل ذلك، أن كثيراً ممن توصل إلى تسلم هذا المنصب في بلاد الشام، خلال فترة هذا البحث، عرفوا بسعيهم الحثيث والمتلاحق من أجل الوصول إليه والاستئثار به، فكان من هؤلاء من عمل بالتجارة، فتركها وعمل في مجال القضاء. أما من ناحية تسمية كبير القضاة، فان الأمر اختلف في بلاد الشام عما كان عليه بالأندلس، وان كان المضمون

---

٢٩٢ ـــ النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٥٧ ـــ ١٥٨.

٢٩٣ ـــ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٢١ ـــ ٢٢.

واحداً . ففي الوقت الذي أطلق على كبير القضاة بالأندلس تسمية (قاضي الجماعة)، فقد أطلق عليه في الشام تسمية (قاضي القضاة). وكان يساعده عدد من الأشخاص على المذهب المالكي، لم يكن عددهم محدداً في أغلب الأحيان، أطلق على كل واحد منهم تسمية (نائب القاضي المالكي). والجدير بالذكر أيضاً، أن الذين تسلموا منصب قاضي القضاة المالكية في بلاد الشام في فترة هذا البحث، لم يكونوا جميعاً من أصل أندلسي مغربي، إنما حدث في كثير من الأحيان، أن عين لهذا المنصب، قضاةٌ مالكيون من أصل شامي أو مصري أو غير ذلك. فعلى سبيل المثال لا الحصر، يمكن أن أذكر واحداً من هؤلاء، هو القاضي المالكي بدمشق محمد بن أبي بكر الهمداني، الملقب بشرف الدين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ ـــ ١٣٤٧ م(٢٩٤) . لكن هذا الأمر، لم يكن مقبولاً أو مرغوباً فيه على ما يبدو من قبل الأندلسيين المغاربة نزلاء بلاد الشام، فكثيراً ما وقفوا موقف المعارض لهذه التصرفات. مثال ذلك ما حدث سنة ٨٧٠ هـ ـــ ١٤٦٦ م بمدينة بيت المقدس العربية، عندما عين محمد بن أحمد بن شداد المعروف بشمس الدين لقضاء المالكية فيها. حيث لم يبق سوى فترة قصيرة جداً، عزل بتأثير تعصب ومعارضة الجالية الأندلسية المغربية عليه(٢٩٥) . وقد انفرد القضاة المالكيون بكل فئاتهم عن قضاة المذاهب الأخرى، بأنهم اعطوا الحق والصلاحية التامة لمساعدة والاحسان إلى كل من لديهم من غرباء أهل مذهبهم، وبصورة خاصة أولئك الذين جاؤا من الأندلس والمغرب(٢٩٦) لكنهم غابوا من جهة أخرى عن قضاء العسكر الذي اقتصر على قاضيين، واحد من الشافعية وآخر من الحنفية(٢٩٧) . وإذا كان هؤلاء القضاة قد تساووا على صعيد الصلاحية في إصدار الأحكام، وعلى صعيد الراتب وغير ذلك من الأمور المهمة الأخرى، فإنهم اختلفوا بعض الشيء من الناحية المعنوية بحيث كان أرفعهم مكانة في نظر الحكام والشعب، قضاة مدينة دمشق، الذين اعتبروا بالمرتبة الأولى، من حيث دلالة الألفاظ التي يخاطب بها عندما توجه إليه المكاتبات مثال ذلك كان يكتب إليه: «المقر الشريف العالي المولوي القضائي الكبيري الامامي، العالمي، العلامي ...» بينما كان يكتب لقاضي حلب وغيرها من المدن الشامية الأخرى: «المقر الكريم العالي المولوي القاضوي

---

٢٩٤ ـــ تاريخ أبي الفداء ج ٤ ص ١٤٧ ـــ تتمة المختصر في أخبار البشر ص ٤٩٠ .

٢٩٥ ـــ الأنس الجليل ج ٢ ص ٥٨٦ .

٢٩٦ ـــ صبح الأعشى ج ١١ ص ٩٥ .

٢٩٧ ـــ صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩٢ .

الكبير العالمي القدوي المفيدي...»[٢٩٨]. ومن ناحية أخرى، فقد التقى القضاة الأندلسيون جميعاً على صعيد قضية هامة جداً، تجلت بأنهم كانوا مصدر كل حكم تقريباً على الذين كانوا يتركون دينهم ويتحولون إلى دين آخر، أو أولئك الذين كانوا يتعرضون للرسول (ص) والأنبياء والصحابة بالشتم والسب وغير ذلك. فقد حدث في كثير من الأحيان، ومنذ أن اعتمد منصب قضاء المالكية في بلاد الشام، أن القضاة على المذاهب الأخرى، كانوا لايبتون في قضايا الخروج على الدين، انما كانوا يحولون المارقين إلى القاضي المالكي، لينظر في قضاياهم ويصدر بحقهم الأحكام المناسبة، انطلاقاً من أن المذهب المالكي يعتبر من المذاهب الوحيدة تقريباً، التي لا ترى غير حكم القتل والموت لكل من يخرج عن الدين الاسلامي، والذي يسمى في هذا المذهب بالزنديق. ومثل هذا الأمر الهام لا بد من دراسته بشكل موسع ومستفيض، سأرجىء الخوض فيه إلى الفصل الخاص بدور الأندلسيين والمغاربة في بلاد الشام خلال فترة هذا البحث، لكونه الأمَر الأعمق لهؤلاء القضاة على الاطلاق.

القضاة على المذهب الشافعي

لم يعمل الأندلسيون والمغاربة في القضاء على المذهب المالكي فحسب، انما تحول بعضهم من مذهب المالكية إلى مذهب الشافعية، وعملوا قضاة على هذا المذهب، كما كان حال الكثيرين من الأندلسيين الذين عملوا في مجالات متعددة في الشام. لكن الشيء الملفت للنظر، أن القضاة الشافعية من الأندلسيين المغاربة، كانوا قليلي العدد إذا ما قورنوا بالقضاة من المالكية. وربما يعود سبب ذلك بكل بساطة، إلى أن العلماء الشافعية، أو بالأحرى أصحاب المذهب الشافعي، شكلوا الاكثرية الساحقة لسكان بلاد الشام، الأمر الذي جعل فرصة الوصول بالنسبة للأندلسيين المغاربة إلى منصب القضاة من الفرص الصعبة المنال في كثير من الأحيان. وان كان قد وصل بعضهم إلى تسلم هذا المنصب الهام، فإن ذلك لم يحدث إلا في مدن صغيرة مع بعض استثناءات لا قيمة لها. والذين اشتهروا بالقضاء على هذا المذهب، كانوا من الذين ولدوا بالشام ونشأوا فيها، بحيث تتلمذوا ودرسوا الفقه الشافعي منذ سن مبكرة. مثال ذلك، مثل القاضي الشافعي سليمان بن عمر بن سالم، الذي ولد بأزرع من أعمال مدينة درعا سنة ٦٤٥ هـ ــ ١٢٤٨ م، وقدم إلى مدينة دمشق في سن الشباب،

---

٢٩٨ ــ صبح الأعشى ج ١٢ ص ٢٩٠ ــ ٢٩١.

وفيها انكب على الدراسة والتحصيل. فكان أهم العلوم التي ركز عليها بشكل خاص، علم الحديث، الذي سمعه عن جلة من علماء دمشق، أمثال أحمد بن عبد الدائم، والكمال أحمد ابن نعمة، ويحيى بن الصيرفي والبرزالي وغيرهم.

ويظهر أن هذا القاضي، حاز على ثقافة عالية المستوى، الأمر الذي ساعده لأن يتوصل إلى منصب القضاء في عدة مدن شامية، كازرع وشيزر ودمشق. فكان أول تعيين له في هذا المنصب بمدينة دمشق سنة ٧١٠ هـ — ١٣١١ م وهو في سن عالية نسبياً، وذلك على أثر عزل القاضي الشافعي ابن جماعة. وتنقل بعد ذلك إلى تسلم قضاء شيزر وازرع. وأمضى في كل مدينة فترة تختلف عن الأخرى، فالشيء الثابت عنه، أنه أمضى فترة طويلة في القضاء، فقد بلغ عدد سني هذه الفترة عشرين سنة ونيفاً، سبع سنوات منها في دمشق، وثلاث عشرة سنة في إزرع، والباقي، وهي فترة وجيزة في شيزر. وكانت هذه السنون الطويلة كافية لتقويمه من الناحية السلوكية، التي اتبعها خلال ممارسة عمله كقاضي قضاة الشافعية. فقد وصف بالعفة والترفع عن قبول الرشاوى وبالحزم والصرامة في تطبيق الأحكام بحسب تعاليم مذهبه، التي كان يعرفها جيداً. توفي سنة ٧٥٨ هـ — ١٣٥٧ م، بعد عمر دام أكثر من قرن من الزمان(٢٩٩).

أما النموذج الآخر، التي احتوته كتب التراجم، فلم يكن في مستواه الثقافي على المذهب الشافعي، الذي تفقه عليه بعد وصوله إلى الشام، كما أنه لم يتوصل إلى قضاء عدة مدن كسابقه. هذا القاضي هو محمد بن أحمد الفرياني نسبة إلى فريانة التي تقع، بين قفصة وبيشة بتونس، عرف في بلاد الشام (بالمغربي). وصل الشام وهو على المذهب المالكي، الذي تحول عنه إلى المذهب الشافعي، أملاً بالوصول إلى مرتبة مناسبة تكون مصدر رزقه وعيشه على ما يبدو، فكان له ذلك، بأن توصل إلى قضاء نابلس لفترة من الزمن، لا تعرف على وجه التحديد. والنقطة التي التقى بها مع القاضي السابق، تمثلت بمسلكه الشخصي على صعيد القضاء، فكان عفيفاً، توخى في أحكامه العدل والمساواة بحسب ما يقتضيه الشرع. ولد سنة ٧٨٠ هـ — ١٣٧٩ م، أما وفاته فمختلف فيها، بعضهم يجعلها سنة ٨٥٩ هـ — ١٤٥٥ م. وبعضهم يجعلها في سنة ٨٦٢ هـ — ١٤٥٨ م، وآخرون في سنة ٨٦٩ هـ — ١٤٦٥ م وغيرهم في سنة ٨٥٤ هـ(٣٠٠) وفيما عدا هذين القاضيين، فلم يعثر

---

٢٩٩ — الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٥٩ وما بعدها.

٣٠٠ — ابناء الغمر ج ٣ ص ٥١٧.

على ترجمة لأندلسي مغربي، عمل في هذا المجال. وبهذا لا يمكن الاعتماد عليهما، من أجل المقارنة بين قضاة المالكية، وقضاة الشافعية من الأندلسيين المغاربة في بلاد الشام. سواء أكان ذلك من حيث السلوكية العامة، أو من حيث الصلاحيات الأخرى.

الاداريون من غير القضاة

إذا ما استثني منصب القضاء، الذي شارك فيه الأندلسيون المغاربة بشكل فعال، وخاصة على المذهب المالكي، فان الذين شغلوا مناصب إدارية أخرى، كانوا قليلي العدد إلى حد ما. وهذا ما يدعو للقول، أن نزلاء بلاد الشام من عرب الأندلس والمغرب، لم يوفقوا في هذا الميدان، كما كان الأمر بالنسبة للمجالات والميادين الأخرى، وذلك بالرغم من مكانتهم الرفيعة لدى الحكام والعامة على حد سواء، وبالرغم مما عرف عنهم من جد واخلاص في العمل، اضافة إلى ذلك الامانة والقناعة والوفاء، التي تميزوا بها. ويمكن القول أن هذا الأمر، لا يرجع إلى عدم قدرتهم وأهليتهم للقيام بأعباء مثل هذه الأعمال، بقدر ما يعود إلى عدم اهتمامهم بالبحث عن مثل هذه المناصب، ايمانا منهم بأحقية أهل البلاد الأصليين بتسلم المراكز الادارية العالية. وان كان بعضهم قد اشتغل في مجال الادارة بالشام، فان المراكز التي شغلوها، لم تكن ذات شأن كبير، إذا ما قيست بتلك التي شغلها أهل البلاد والمقربين من الحكام وقد كان هذا الأمر طبيعياً جداً في تلك الفترة من الزمن، بحيث كانت جميع المراكز الهامة كالوزارة والنيابة وغير ذلك، توزع على حاشية الحكام والمقربين، على اعتبارهم طبقة مميزة عن عامة الشعب، يجب ان تبقى في المراكز القيادية العليا كما حدث في الفترة التي حكم فيها المماليك بشكل خاص. فهؤلاء كما هو معروف، ظلوا سادة البلاد وحكامها، وبالتالي مصدر كل أمر فيها. إذن والحالة هذه، فان من غير المستغرب أبداً، أن يكون الأندلسيون قد ظلوا بعيدين عن المناصب العليا، مثلهم في ذلك، مثل أخوانهم عرب الشام، الذين غطوا في ثبات عميق طالت مدته تحت الراية المملوكية يحدوهم في ذلك، أن ممثلي هذه الراية، كانوا يمثلون الراية الكبرى والأهم بالنسبة لهم في ذلك الوقت وهي راية الاسلام. وبالرغم من ذلك فقد توصل بعض المغاربة إلى شغل مناصب إدارية تلي في الترتيب الوزارة والقضاء. فكان حظ دمشق جيداً إلى حد ما، من ناحية أنها احتوت جزءاً لابأس به منهم.

كان في مقدمتهم الفقيه جامع المغربي، الذي حل بدمشق في الثلث الأخير من القرن

السادس الهجري والسنوات الأولى من القرن السابع الهجري، حيث درس في بداية وصوله إليها على الحافظ الكبير أبي القاسم بن عساكر وغيره. وكان عمله الرئيسي في ميدان الإدارة بدمشق، مسؤولاً عن عقود الأنكحة وإبرامها وكتابتها وكل ما يتعلق بها، بما يشبه العاملين في دائرة كاتب العدل في أيامنا هذه. ويفهم من حديث أبي شامه عنه، والذي كان معاصراً له، أنه كان من الأندلسيين المعروفين على صعيد مدينة دمشق، ليس فقط لأنه مسؤول عن عقود الأنكحة، إنما لنواح أخرى، تتعلق بأخلاقه وسلوكه القويم في ميدان عمله. ودليل ذلك أن أبا شامه نفسه، والذي عاش بعد وفاة المغربي ثلاثاً وستين سنة، يذكر بأن تربته مشهورة في جبل قاسيون، علماً أنه توفي سنة ٦٠٢ هـ ــ ١٢٠٦ م(٣٠١). وعلى صعيد آخر، فقد توصل واحد منهم إلى منصب هام جداً يمكن اعتباره أعلى منصب توصل إليه وشغله الأندلسيون في مدينة دمشق، بحسب المعلومات المتوفرة في كتب التراجم وغيرها. وتجلى هذا المنصب في ناظر الدواوين والمسؤول عنها بمدينة دمشق، الأمر الذي يدل على مكانة هذا المغربي، الذي يلقب بعلاء الدين، واسمه علي بن محمد بن علي البكري المراكشي الكاتب، الذي لا أعرف متى دخل الشام، وان كان من المحتمل أنه عاش فيها سنين طويلة، حيث شغل منصب ناظر المرستان، قبل أن يترفع إلى نظر الدواوين، الذي ظل يشغله حتى توفي في سنة ٦٨٤ هـ ــ ١٢٨٦ م(٣٠٢) ولعله أحد الجدود القدماء لعائلة البكري، التي ما تزال تنتشر في عدة مدن شامية وبشكل خاص بمدينة دمشق. وأقل من هذا المنصب بالطبع، كان منصب مدير السجن بدمشق، الذي توصل إلى أمانته مغربي آخر، هو علي بن عثمان ابن يحيى الصنهاجي الذي كان يعمل شواء للحمة، كما يفهم من نعت الذهبي له، قبل أن يعهد إليه بهذا المنصب. لكن يجب أن لا يفهم من ذلك أنه كان جاهلاً، لأنه كان من المهتمين بالناحية العلمية، فقد سمع بدمشق على طائفة كبيرة من علمائها، أمثال الزبيدي وابن غسان، ومولده يكون في سنة ٦٢٢ هـ ــ ١٢٢٥ م بالاعتماد على قول الذهبي أنه توفي سنة ٦٩٣ هـ ــ ١٢٩٢ م، عن عمر يناهز السبعين عاماً بقليل(٣٠٣)، وفي الفترة التي تلت عرفت دمشق أيضاً مغربياً تسلم فيها أحد المناصب الإدارية الهامة جداً، وهو وكالة بيت المال، التي يصنفها القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى»، على أنها من الوظائف الإدارية

---

٣٠١ ــ الذيل على الروضتين ص ٥٥.

٣٠٢ ــ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ٣٤٨.

٣٠٣ ــ المصدر السابق ص ٣٨٣.

الرفيعة القدر والعظيمة الشأن، تلي مباشرة من حيث أهميتها وظيفة قاضي القضاة، وقضاء العسكر، وافتاء دار العدل، وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض ونحو ذلك، ولا يتسلمها إلا أهل العلم والفضل والاستقامة(٣٠٤) هذا المغربي هو كمال الدين أحمد بن الشريشي الشافعي نزيل دمشق، الذي ولد سنة ٦٥٣ هـ ـــ ١٢٥٦ م وتوفي سنة ٧١٩ هـ ـــ ١٣١٩ م. ويبدو أنه كان من الشخصيات المغربية المعروفة، حتى توصل إلى هذا المنصب، بدليل أن الصقاعي وصفه أنه من الرؤساء الأكابر(٣٠٥). وقد عمل البعض منهم كإداريين عاديين في الدواوين وغير ذلك من هذا القبيل، بما يشبه إلى حد كبير الموظفين العاديين في أيامنا هذه، بالرغم من أهليتهم وقدرتهم للعمل في مناصب أهم وأكبر مثال هؤلاء بمدينة دمشق، مثل شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني المعروف بالشام الظريف. الذي اشتغل بعدة أماكن شامية، لا يعرف عنها شيء، إلى أن استقر بدمشق في الفترة الأخيرة من حياته، يعمل كاتباً صغيراً في خزانة بيت المال، حتى وافاه الأجل سنة ٦٨٨ هـ ـــ ١٢٨٩ م(٣٠٦). ولم تكن مدينة دمشق وحدها هي التي احتوت مثل هؤلاء الاداريين، بل وجد منهم وبمراتب كبيرة وصغيرة في العديد من المدن والحواضر الشامية، حتى إن البعض منهم عمل في أكثر من مدينة كما الحال في عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني المتوفى سنة ٦٩٠ هـ ـــ ١٢٩١ م الذي اقتصر عمله على الكتابة العادية كموظف في الدواوين. ولا تذكر المصادر أسماء المدن التي عمل بها كلها بل تذكر فقط بلدة بصرى الشام، التي كانت آخر محطاته في مجال عمله الوظيفي(٣٠٧) وقد كان لهؤلاء وجود في مدينة الكرك الأردنية، حيث توصل واحد منهم لتسلم وكالة بيت المال فيها عن جدارة واستحقاق، لأنه كما مر قبل قليل، أن مثل هذه الوظيفة تحتاج إلى شخص كفء من الناحية العلمية والسلوكية الأخلاقية، اللتين توفرتا بالمغربي الأندلسي علي بن محمد الباجي الملقب بعلاء الدين الشافعي، الذي ولد بباجة بالأندلس سنة ٦٣١ هـ ـــ ١٢٣٤ م ورحل إلى المشرق في سن الشباب، فاستقر بدمشق، حيث درس وتلقى علومه واشتهر ذكره، فعمل فترة في التدرس والافتاء، فحمدت سيرته فيهما، الأمر الذي ساعده لأن يرشح لتسلم وكالة

---

٣٠٤ ـــ صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ ـــ ٣٧.
٣٠٥ ـــ تالي كتاب وفيات الأعيان ص ١٨٤.
٣٠٦ ـــ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ٣٥٩ ـــ تالي كتاب وفيات الأعيان ص ٨٢.
٣٠٧ ـــ تالي كتاب وفيات الأعيان ص ٨٢.

بيت المال بالكرك المذكورة بصورة مستمرة حتى وافته المنية سنة ٧١٤ هـ ــ ١٣١٧ م(٣٠٨) وقد اشتهر من الاداريين الأندلسيين اثنان فيما بعد بمدينة صفد العربية، لكن ليس بصورة متميزة أو بالأحرى في وظائف عالية المرتبة، كما هو الحال بالنسبة للباجي الآنف الذكر. انما اشتهروا ككتاب عاديين في ديوان الانشاء، وهما حسن بن محمد القرطبي الملقب بنجم الدين. كان والده خطيباً لقلعة صفد، وخلفه في هذا المهمة، لكنه تعرض لمضايقات اجبرته على الانتقال إلى دمشق، حيث عمل بخدمة نائبها كزاي المملوكي، فقدمه على جميع ما عنده، بعد أن لمس عن قرب خيره وفضله. وبعد فترة قصيرة أعاده إلى صفد ككاتب معتمد في ديوان الانشاء وخطيب للمسجد فيها. ومع ذلك فان الأمر لم يستقر على هذا المنوال، بل اضطر مجبراً لترك ديوان الانشاء والاشتغال بأمور الخطابة بالمسجد، حتى وافاه الأجل سنة ٧٢٣ هـ ــ ١٣٢٣ م(٣٠٩). وقد حدث نفس الشيء بالنسبة لابنه محمد الملقب بكمال الدين، الذي ولد بدمشق، ونشأ بصفد مستقر والده. وعندما توفي الوالد، وجد نفسه بدون عمل، فانكب على المطالعة والاشتغال وصقل ثقافته. وفي سنة ٧٤٢ هـ ــ ١٣٤٢ م حضر إلى دمشق واستطاع أن يحصل على موافقة حاكمها باعتماده كاتباً في ديوان الانشاء بصفد. ويذكر الصفدي صاحب كتاب (الوافي بالوفيات) أنه هو الذي قام بنسخ كتاب التكليف بنفسه(٣١٠). أما عن الفترة التي أمضاها الأندلسي المذكور بهذا العمل، فهي غير معروفة على وجه التحديد. وفيما بعد هذه الفترة الزمنية، فإنه لم يظهر من الأندلسيين أحداً اشتغل في ميدان الإدارة، وذلك بالاعتماد على ما تعطيه المصادر، وإن كان الأمر لا يخلو من حالات كثيرة لم يقدر لأصحابها أن يذكروا، وخاصة في كتب التراجم، التي لم يول أصحابها اهتماماً لأحد ما لم تكن له معرفة بأحد العلوم الدينية أو غير ذلك، الأمر الذي يمكن معه القول، أن وجود الأندلسيين في مضمار الوظائف الادارية، ظل مستمراً خلال الفترة التي تلت منتصف القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، وبالمراتب نفسها، التي تسلمها هؤلاء الذين ذكروا حتى الآن.

---

٣٠٨ ــ الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٠١ وما بعدها.

٣٠٩ ــ الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٤ ــ ٤٥.

٣١٠ ــ الوافي بالوفيات ج ٢ ص ٣٦٦ ــ ٣٦٧.

العاملون في المجالات الاقتصادية

وكما اختلف العاملون في مجالات العلوم والادارة من الأندلسيين والمغاربة، من حيث طبيعة عملهم، واختصاصهم، فان العاملين في مجالات الاقتصاد، يختلفون أيضاً، بحيث يمكن تصنيفهم إلى عدة فئات تكمل بعضها بعضاً. ولكن قبل البدء بعملية التصنيف هذه، فان من الأمور التي تستحق أن يشار إليها، أنه ومن خلال مقارنة بسيطة بين رجال العلم والادارة، وبين رجال الاقتصاد الأندلسيين، يظهر مدى التباين في اهتمام المؤرخين بين هؤلاء وأولئك. فالعاملون في المجالات الاقتصادية لم يلقوا أدنى اهتمام من المؤرخين والكتاب، وذلك بالقياس على العلماء من مختلف الفئات والدرجات، بالرغم من أن عددهم كان كبيراً جداً، كما سيظهر من خلال الصفحات التالية. وعدم الاهتمام هذا، سيشكل عقبة صعبة الاجتياز أمام كل من يبحث في هذه الأمور، الأمر الذي يجعل من الاستنتاج أداة رئيسية للخروج من هذا المأزق الحرج والصعب. لكن هذا الاستنتاج غير مبني على تصورات خيالية بشكل كلي، انما هو استنتاج يعتمد بالدرجة الأولى على أشياء لا تبتعد عن الواقع والحقيقة كثيراً.

وهكذا فإن من الممكن القول أن الأندلسيين والمغاربة أسهموا بالعمل في كل الشؤون الاقتصادية العامة، كالزراعة والصناعة والتجارة، والخدمة في المنشآت التي تتبع كل واحدة منها. ففي ميدان الزراعة والفلاحة، يمكن القول بثقة واطمئنان، أن الأندلسيين لم يكونوا بعيدين عنه، وذلك اعتماداً على واقع بلاد الشام في تلك الفترة من الزمن. فالعمل بالزراعة والفلاحة، كان متوفراً فيها وبسهولة أكثر من غيره. على اعتبار أن هذه الحرفة، كانت تشكل عماد أساس الاقتصاد الوطني في هذه البلاد، وأيضاً بالنسبة للأندلسيين أنفسهم، يمكن القول، أنهم أبناء بيئة زراعية مزدهرة، خبروا شؤونها وعملوا بها في كل المناطق التي وجدوا بها على الأرض الأندلسية العربية. لذلك وانطلاقاً من هذا الواقع الحي فليس من الغريب في شيء، أن يكون قسماً منهم عمل في ميدان الزراعة، وخاصة أولئك الذين لا يمتلكون شروط العمل في ميادين أخرى كالتعليم أو الإدارة أو الصناعة، أو غير ذلك من الاختصاصات. وإن كانت تعوزني الأمثلة المباشرة، لتجسيد هذا الواقع، حيث خلت منها كل المصادر المعنية، فإن هناك دلائل تقترب وتشير بصورة أو بأخرى إلى امتهان الأندلسيين حرفة الزراعة، التي لا تحتاج إلى خبرة كثيرة أو لتعليم طويل، كما هو الحال في بقية المجالات

الأخرى. فقد اشتهر عن الأندلسيين عملهم في حراسة البساتين والعمل فيها، إذا ما أقفلت الأبواب في وجوههم في ميادين أخرى. مثال ذلك ما عبر عنه الطرطوشي صاحب كتاب (سراج الملوك) عندما هم بالرحيل إلى المشرق(٣١١).

وقد يكون الأندلسيون هم الذين عملوا على زراعة واستثمار البساتين والأراضي، التي خصصها لهم نور الدين زنكي في مدينة دمشق، خاصة وأن المسؤول الأول عن ادارتها كان منهم، وهو أبو الحسن علي بن سردال المعروف بالمرادي. وقد ذكر هذه الأراضي ابن جبير في أثناء رحلته إلى الشام، بأنها مؤلفة من سبعة بساتين، وأرض أخرى بيضاء غير مشجرة(٣١٢). وهناك أمثلة أخرى، يستشف منها بشكل غير مباشر اهتمام الأندلسيين بالزراعة في أثناء فترة وجودهم بالشام، مثال ذلك، أن كثيرين منهم استطاعوا بطريقة أو بأخرى، أن يمتلكوا أراضي زراعية واسعة، كما حدث للشيخ رجب الدين الرجيحي التونسي المتوفى بدمشق سنة ٧٠٦ هـ ــ ١٣٠٧ م، والذي أُقطِعَ خلال حياته بدمشق قريةً كاملة من قرى الغوطة(٣١٣) أما في ميدان الصناعة فإن الأمر أكثر وضوحاً، وذلك بسبب توفر بعض الأمثلة الحية المباشرة، والتي عرف عن أصحابها تضلعهم ببعض الصناعات والاشتغال في مجالها كحرفة رئيسية لمصدر رزقهم. ومن الجدير بالذكر هنا في هذا الصدد، أنه ليس غريباً أبداً، أن يكون رجال الصناعة ومعلميها من الأندلسيين المغاربة، قد شكلوا عدداً كبيراً في بلاد الشام على اعتبار أن هذه الأخيرة تشتهر بعراقتها وازدهارها في ميدان الصناعة، الأمر الذي يشجع على استقرار الصناعيين المهاجرين من الأندلس، وبالمقابل فإن الأندلسيين أنفسهم، ليسوا غرباء عن هذا الميدان، فهم أبناء بيئة صناعية راقية ومتقدمة، استطاعت دور صناعاتهم أن تلبي في كثير من الأحيان حاجة الاستهلاك المحلي ومتطلباته. إضافة إلى التصدير من مختلف الأنواع. ولديّ دليل من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، يؤكد على اشتغال الأندلسيين ببعض فروع الصناعة. ويتمثل هذا الدليل بشخص محمد السبتي المتوفى بدمشق سنة ٦٢٦ هـ ــ ١٢٢٩ م واشتهر بعمله على صعيد النجارة، الذي

---

٣١١ ــ الطرطوشي ــ سراج الملك ط مصر ١٢٨٩ هـ ص ٢٩٣.

٣١٢ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٥٧.

٣١٣ ــ الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٠٨ ــ ومثله أيضاً شمس الدين محمد بن يوسف القفصي المالكي، حيث يذكر ابن رافع السلامي أنه توفي ببستان له بظاهر دمشق سنة ٧٧٤ هـ/١٣٧٣ م (وفيات ابن رافع ــ الترجمة رقم ٩٤٦).

يظهر من خلال رواية أبي شامة في الذيل على الروضتين عنه، أن حرفته هذه، لاقت تبولاً عظيماً، مما جعله يجمع ثروة كبيرة، ساعدته على تقديم المعونات للكثيرين من الغرباء في مدينة دمشق، والذي من المحتمل أن يكون أهل الأندلس، قد شكلوا الغالبية العظمى، ممن خصهم بالمساعدة كونهم، شكلوا نسبة كبيرة من بين الغرباء، اضافة إلى حاجتهم الملحة(٣١٤). وقد اشتغلوا في مجالات أخرى من فروع الصناعة، فاعتبرت بعض أعمالهم جديدة ومبتكرة. مما دعم بعض الصناعات، وأضفى عليها صفة الاشتهار أكثر. ولديّ دليل من القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، يتجلى بشخص عيسى الأندلسيّ، الذي حل نزيلاً بمدينة دمشق في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، الذي عرف عنه تضلعه ومهارته في صباغة الحرير وتلوينه، الأمر الذي جعله مصدراً لتعليم هذه الحرفة الصناعية وانتشارها(٣١٥) ويبدو أمر نقل هذه الحرفة إلى الشام، من الأمور العادية جداً، على اعتبار أن الأندلس عرفت بها بشكل كبير. فقد كانت هناك عدة دور لهذه الصناعة في أهم المدن الأندلسية واشهرها. فمنذ وقت مبكر نسبياً انتشرت هذه الصناعة في سرقسطة الثغر الأعلى، وفي مدينة اشبيلية، وتوسعت بشكل كثيف في مدينة المرية البحرية في جنوب الأندلس، بعد اتمام عملية تشييدها في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، فكانت صناعة الحرير أهم الصناعات التي راجت في هذه المدينة، إلى حد بلغ عدد الأنواع المصنعة فيها حوالي ٨٠٠ نوع وطراز على حد قول الكثيرين ممن كتبوا عن مدينة المرية هذه، كالادريسي وابن حوقل وغيرهما كثيرين(٣١٦) وهكذا فإن من المحتمل، أن تكون بعض الصناعات الأخرى، قد نقلت إلى الشام عن طريق الأندلسيين، الذين نزلوها بشكل دائم. وإن كانت المصادر تضن بالمعلومات حول ذلك، فإنه حتى يومنا هذا، ما زالت بعض المصنوعات الخزفية وخاصة منها التي تستخدم كأوانٍ للطعام، ما زالت تعرف باسمها الأندلسي في شتى مدن وبلدان الشام، من هذه الأواني تلك الصحون والأواني الأخرى التي تدعى (بالمالقي) نسبة إلى مالقة في جنوب الأندلس، التي عرفت الشام هذه الصناعة عن طريق أبنائها الذين حلوا فيها خلال فترة هذا البحث. أما في ميدان التجارة فلم

٣١٤ — الذيل على الروضتين ص ١٥٧.

٣١٥ — الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٠٦.

٣١٦ — الادريسي — المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٩٧ — صورة الأرض ق ١ ص ١١٤ — الروض المعطار ص ٥٣٨ — صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٧.

يكن الأمر مختلفاً كثيراً عن المجالين السابقين، سواء من حيث اهتمام المؤرخين برجال هذه الحرفة، أو من حيث ممارسة الأندلسيين والمغاربة أنفسهم لها واشتهارهم بها. وساعدهم على ذلك ملاءمة البيئة الشامية في جميع المدن والحواضر. فبلاد الشام تعتبر من البلدان المعروفة على صعيد التجارة منذ أقدم العصور. لذلك وانطلاقاً من هذا الواقع الايجابي المساعد، فقد وجد اندلسيون امتهنوا حرفة التجارة منذ الوهلة الأولى من وصولهم إلى الشام. فمنهم من تجاوزوا في تجارتهم حدود بلاد الشام، فوصلوا إلى فارس وغيرها من البلدان، ومنهم من اقتصر في تجارتهم حدود بلاد الشام، فوصلوا إلى فارس وغيرهما من البلدان، ومنهم من اقتصر في تجارته على مدينة شامية واحدة. ومهما يكن الأمر، فان الأمثلة التالية، ستكون بمثابة أدلة، تشير بوضوح إلى مدى اهتمام الأندلسيين بالتجارة، وعلى مدى الفترة الزمنية، التي تشكل محور هذا البحث. ولعل أهم مثال على هذا النوع من التجار الذي تجاوز حدود هذه البلاد، كان يوسف بن يحيى بن اسحق السبتي المغربي الطبيب، الذي اشتغل بالتجارة في الفترة الأولى من وصوله إلى الشام في أوائل القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، فوصل بتجارته إلى العراق وفارس والهند، وحصل ثروة كبيرة، صرف قسماً منها على شراء أرض بمدينة حلب، ابتنى عليها داراً لتعليم الطب ومداواة الناس(٣١٧) وأما النوع الثاني من هؤلاء التجار، فقد تركز عمل أفراده داخل المدن الشامية، بعد أن امتلكوا الحوانيت والمحلات التجارية. مثال هؤلاء مثل الشيخ علي الفحام المغربي المتوفى بدمشق سنة ٨٨٦ هـ ــ ١٤٨١م. الذي امتلك دكاناً في محلة باب الفراديس تجاه جامع الرأس بمدينة دمشق، أعده لبيع الحطب والفحم، اللذين كانا أدوات التدفئة الرئيسية وأعمال الطبخ والاغتسال وما شاكل ذلك، في تلك الفترة من الزمن(٣١٨). وهناك أمثلة أخرى متعددة، لا تخرج في مضمونها ومدلولاتها عن هذه التي ذكرت. وهناك فئة أخرى من الأندلسيين والمغاربة أكثر عدداً وأوسع انتشاراً، عمل رجالها في مجالات اقتصادية متفرقة، منها ماهو صناعي ومنها ما هو زراعي وآخر تجاري. وان كانت لا تعتبر من الفئات الكبيرة الانتاج للوهلة الأولى، فإن من الممكن القول أن رجالها شكلوا قاعدة اقتصادية هامة، من حيث الأعمال التي عرفوا بها ومارسوها في أثناء وجودهم على الأرض العربية الشامية. وهم لا يقلون عن العاملين في المجالات الأخرى السابقة الذكر، من حيث النتيجة. وهي ما سأدرسها تحت عنوان رجال الخدمة.

٣١٧ ـــ أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٥٧.

٣١٨ ـــ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ق ١ ص ٣٥.

رجال الخدمة

وهؤلاء مجموعة من الأندلسيين المغاربة الفقراء، الذين يختلفون عن المجموعات الأخرى، من حيث طبيعة الأعمال التي مارسوها واشتغلوا فيها والتي اعتبرت من أدنى الأعمال، بالقياس على مردودها وقيمتها بالنسبة للعاملين فيها فقط. وقد تمثلت هذه الأعمال في ميادين ومجالات متنوعة، مثال ذلك، العمل في حراسة طاحونة ما، أو بستان أو حمام أو مطبخ إلى آخر ما هنالك من هذا القبيل. وربما الذي دفع هؤلاء للعمل في هذه المجالات، أن ظروفهم العامة، لم تكن تساعدهم أو تؤهلهم لشغل مناصب على مستوى أرفع وأفضل مردوداً كالعمل في حقل التدريس أو بالتجارة، أو في أي مجال آخر غير مجال الخدمة على سبيل المثال. وخير من أشار إلى هؤلاء، وفنَّد الأعمال التي امتهنوها، الرحالة الأندلسي ابن جبير، عندما تحدث عن الجالية الأندلسية بالشام. يقول بعد أن انتهى من الحديث عن المهتمين بشؤون العلم وما يلقونه من حفاوة وتكريم: «فالغريب المحتاج هنا، إذا كان على طريقة الخير، وصون محفوظ غير مريق ماء الوجه. وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحالة، ممن عهد الخدمة أو المهنة، يُسبَّبُ له أيضاً أسباب غريبة من الخدمة، إما بستان يكون ناطوراً فيه، أو حمام يكون عيناً على خدمته، وحافظاً لأثواب داخلية، أو طاحونة يكون أميناً عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم، ويصرفهم إلى منازلهم، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة. وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء، لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الأمانة وطار لهم فيها ذكر»(٣١٩) ويظهر أن مهنة حراسة البساتين، كانت تقليدية لدى فقراء المغاربة الوافدين على المشرق، بدليل قول الطرطوشي، الذي أقام بمصر في فترتنا هذه يقول في كتابه (سراج الملوك): «أما أنا فلما هممت بالرحيل من بلدي إلى المشرق في طلب العلم، كنت لا أعرف التجارة، ولا لي حرفة أرجع إليها، فجزعت من الخروج وكنت أقول: إذا ذهبت نفقتي فماذا أفعل؟ وكانت أقوى الآمال في نفسي أن احفظ البساتين بالأجر، أدرس العلم بالليل، ثم استخرت الله فرحلت ...»(٣٢٠) وفي هذا الميدان ينقل الوهراني الذي رحل إلى المشرق، قول أحد المشارقة، وهو المسمى ابن العميد فيه: «ضيعتم الوقت في حديث الوهراني. والله أن ملك المغرب نحس، ما جاءنا قط منهم إلا حارس كرم، أو ناطور

---

٣١٩ ــ رحلة ابن جبير ــ ص ٢٥٠ ــ ٢٥١.

٣٢٠ ــ سراج الملوك ص ٢٩٣.

بستان »[٣٢١] ومع أن هذا القول من جانب واحد، حيث لا يصح، بأن أهل الأندلس والمغرب، الذين وفدوا إلى الشام، كانوا كلهم حراس ونواطير بساتين، فانه يدلل على اقبالهم واشتهارهم بالعمل في هذا المجال. وبالرغم من وجود فرص شتى للعمل في هذه المجالات للفقراء من عرب الأندلس، وبالرغم أيضاً من كثرة عددهم، فان من المؤسف حقاً، أن المصادر والمراجع، التي بحث أصحابها في تاريخ هذه الفترة الزمنية، لم يعيروا أفراد هذه الطبقة أدنى عناية أو اهتمام. وإذا كان ابن جبير وغيره: أشاروا إلى المهن التي مارسها هؤلاء في معظم الأحيان، فانه يستفاد من روايات أخرى، أن عدد أفراد هذه الطبقة، كان كبيراً جداً إلى حد فاق وبعدة أضعاف أفراد جميع الطبقات الأخرى مجتمعة. ولعل أهم وأغنى إشارة على الاطلاق، تدلل على عدد هؤلاء، الذي وصل إلى عدة آلاف، جاءت على لسان المقريزي في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك)، فقد تحدث عن وجود أكثر من ألف حمام برفقة صلاح الدين الايوبي، خلال الفترة الطويلة، التي أمضاها من أجل تحرير مدينة بيت المقدس والمدن العربية الفلسطينية الساحلية وغيرها من المدن، التي كانت ترزح تحت وطأة الاحتلال الصليبي. وكان أكثر الذين قاموا بمهمة تجهيز وتحضير الحمامات، انما كانوا من الأندلسيين المغاربة الفقراء يقول: «... وكان في المعسكر أكثر من ألف حمام وكان أكثر ما يتولاها المغاربة، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة، ويحفرون ذراعين، فيطلع الماء ويأخذون الطين، فيعملون منه حوضاً وحائطاً، يسترونه بخطب وحصير، ويقطعون حطباً من البساتين التي حولهم، ويحمون الماء في قدر، وصار حماماً يغسل الرجل رأسه بدرهم أو أكثر». ولا يستبعد أن تكون أعداد كبيرة منهم، قد شاركت إلى جانب هذا العمل في أعمال أخرى كالطبخ وتجهيز الطعام للجيش[٣٢٢] ولم تكن هذه الأعمال لفترة محددة فحسب، انما ظلت معروفة، ويمارسها الأندلسيون طيلة فترة هذا البحث في بلاد الشام. ويوجد دليل يصلح لأن يكون شاهداً حياً على استمرار فقراء المغاربة والأندلس بالعمل في هذه المجالات من وجوه الخدمة ويتمثل هذا الدليل في شخص عمر بن سعيد التلمساني أبو حفص من أهل القرن الثامن الهجري والذي تسلم أميناً لطاحونة أشنان بدمشق ولفترة طويلة من الزمن، كان آخرها سنة ٧٥٢ هـ ــ ١٣٥٢ م تقلد بعدها منصب قاضي قضاة المالكية بحلب، حيث بقي فيه حتى

---

٣٢١ ــ منامات الوهراني ص ١٦٨.

٣٢٢ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ٩٤.

وافاه الأجل سنة ٧٥٦هـ ــ ١٣٥٦م[٣٢٣]. وهذا يعني أن بعض هؤلاء، كان ينتهز الفرصة للتخلص من هذه الأعمال، في سبيل تحسين أحوالهم المادية والمعنوية، كما يعني من ناحية أخرى، أن الذي أجبرهم على العمل في مجال الخدمة، لم يكن لأنهم جاهلون فحسب، انما لعدم مساعدة الظروف للكثيرين منهم في غالب الأحيان، ويفهم هذا الأمر بوضوح من قول واحد منهم هو الشاعر الأندلسي نزيل دمشق (الشاب الظريف)، الذي قال في أحد الأندلسيين الذين امتهنوا حرفة الطبخ على الرغم منه بفعل الحاجة المادية:

ربَّ طبـــاخٍ مليـــحٍ فاتر الطرفِ غريـــرِ
مالكيٍّ أصبحَ لكـــنْ شغلوه بالقــدورِ[٣٢٤]

ومن كل ماتقدم، فان من الممكن القول، أن العاملينَ في المجالات الاقتصادية من الوافدين الأندلسيين المغاربة، شكلوا جالية كبيرة العدد، وخاصة في الفترة، التي تلت منتصف القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، وأواخر القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، تاريخ سقوط غرناطة آخر المعاقل العربية في الأندلس.

وتنوعت خدماتهم في كل المناطق الشامية، وانعكست بشكل ايجابي على الحياة العامة في بلاد الشام، بحيث لم تقتصر أعمالهم على الحرف السابقة فحسب، انما وجد منهم من عمل في حرف أخرى غير مشهورة على الصعيد العام. لكنها على مايبدو شكلت مصدر دخل كبير لأصحابها، بشكل يمكن وضعهم أحياناً في مصاف من امتهن التجارة والصناعة، مثل هؤلاء، مثل الشرف يحيى بن المغربي نزيل مدينة دمشق والمتوفى سنة ٦٦١هـ ــ ١٢٦٣م الذي عمل طيلة حياته في مجال قشر القمح ودقه وتجهيزه بالشكل الذي يكون فيه صالحاً للاستخدام في أنواع مختلفة من أعمال الطبخ والطعام. ويظهر أن هذه الحرفة، كانت من الحرف الهامة، التي تدر على صاحبها دخلاً وفيراً، مما جعل صاحب الترجمة المذكور، يعرض على أبي شامة المقدسي، أنه يريد وقف أملاكه على زاوية المغاربة بدمشق، الأمر الذي يستنتج منه أن هذه الاملاك، كانت كبيرة إلى حد ما. لكنه توفي قبل أن يتم عملية الوقف هذه[٣٢٥] والذي يدلل على أن هذه الحرفة كانت مصدر دخل كبير،

---

٣٢٣ ــ الدرر الكامنة ج٣ ص ١٦٧ ــ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ ورقة ١٢٢ ــ ١٢٣.

٤٢٤ ــ تالي كتاب وفيات الأعيان ص ٨٣.

٣٢٥ ــ الذيل على الروضتين ص ٢٢٧.

يمكن أن يظهر بوضوح من خلال تتبع الوسائل المستخدمة في تلك الفترة من الزمن. حيث أن معظم تلك الوسائل كانت يدوية تحتاج إلى جهد كبير، وخاصة في ميدان هذه الحرفة، التي ظلت معروفة ومستخدمة إلى فترة قصيرة من عصرنا، في كل أنحاء بلاد الشام، حيث اختفت الآن بعد أن ظهرت المطاحن الآلية، التي تمتاز بالسرعة والاتقان وتوفير الجهد. ومثله وفي ميدان آخر عمل المغربي المدعو علي بن عثمان ابن يحيى الصنهاجي، عمل شواء للحمة في مدينة دمشق في القرن السابع الهجري وذلك قبل أن يتوصل إلى تسلم أمانه السجن فيها(٣٢٦). لذلك ومن كل ما تقدم من أمثلة، يمكن الاستنتاج بسهولة أن الأندلسيين المغاربة نزلاء الشام، لم يغيبوا عن مجال من المجالات الاقتصادية العامة والخاصة، مثلهم في ذلك مثل بقية الطبقات التي تشكل قوام سكان الشام، الأمر الذي يدل على أن اعدادهم كانت كبيرة جداً.

رجال الفنون

لم يعرف من رجال هذه الفئة أحد اختص في فرع من فروع الفن بشكل مستقل، كالموسيقى والغناء، أو ما يسمى في أيامنا هذه بالفنون التشكيلية، من عمارة ونقش أو نحت أو تصوير، وان كان قد وجد بعض من الأندلسيين ضيوف الشام، ممن كان له اهتمام بفن من هذه الفنون، فانه لم يكن يعتمد عليه كمصدر للكسب، أو بالأحرى لم يتخذه مهنة رئيسية بقدر ما كان من أجل التسلية في أوقات الراحة والفراغ. لذلك فان تلك المواهب التي وجدت عند بعض الأندلسيين، لم يكتب لها أن تتطور، أو تخرج عن اطار صاحبها أو بعض معارفه، لذلك كثيراً ما اختفت هذه المواهب بموت صاحبها. وقد انحصرت معرفة بعض الأندلسيين في مجال الفنون على ضرب واحد تقريباً، تجلى بالعزف والضرب على بعض آلات الطرب وتصميمها، بالرغم من أن علم الموسيقى، كان من العلوم المتقدمة إلى حد كبير في الأندلس، بشكل يمكن القول عنده، أنه وقف في كثير من الأحيان على قدم المساواة، مع انتاج ومعرفة أهل المشرق، فقد اشتهر في الفترة الأولى من حكم العرب في الأندلس، كتاب في الموسيقى لابي بكر بن باجه الغرناطي، الذي يوازي كتاباً وضعه في المشرق أبو نصر الفارابي. ودليل عمق وأهمية كتاب ابن باجه، أنه كان الكتاب المعول عليه في معرفة الكثير من الألحان المطربة بالأندلس، والتي عليها الاعتماد. كما عرف كتاب آخر، اشتهر أمره في

---

٣٢٦ ـــ انظر ص ٢٤٧ من هذا البحث.

القرن السابع الهجري ، هو كتاب (الأغاني الأندلسية) على شاكلة كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني ، ألفه يحيى بن ابراهيم الاصبحي الحكيم الأندلسي[٣٢٧] إذن والحالة هذه ، فان الأندلسيين لم يكونوا غرباء عن علم الموسيقى ، الأمر الذي ظهر بوضوح عند بعضهم من نزلاء الشام منذ أن حطت رحالهم فيها ، لأنه لا يعرف عن أحد منهم ، أنه درس هذا العلم خلال فترة وجوده بالمشرق ككل . ويمكن أن أذكر من المهتمين بهذا الشأن ، أبو الحكم عبيد الله ابن المظفر بن عبد الله الحكيم من أهل المرية بجنوب الأندلس ، ونزيل مدينة دمشق في القرن السادس الهجري . فإلى جانب شهرته الواسعة بعلم الطب بالدرجة الأولى ، فانه كان يعرف الموسيقى ويضرب على آلة العود[٣٢٨] . وقد تطور الأمر عند أندلسي آخر إلى حد صناعة بعض الآلات الموسيقية ، هو الطبيب أبو زكريا يحيى بن اسماعيل البياسي ، نزيل دمشق ، فإلى جانب معرفته بالضرب على العود ، فانه قام بصنع آلة تسمى (الأرغن) ، وهي آلة تشبه إلى حد ما الآلة التي يطلق عليها تسمية (المزوج) المؤلفة من اسطوانتين من القصب متساويتين في الطول ومضمومتين إلى بعضهما بربائط وفي رأس كل منهما عقدة قصب رفيعة لأجل الصفير يسمونها بالصلوب . وفي كل واحدة منهما ثقب بقدر ما يلزم للانغام التي يتألف منها اللحن . والفرق بين هذه الآلة والأرغن ، أن هذه الآلة الأخيرة ، تحتوي إحدى أسطواناتها ثقوباً ، أما الأسطوانة الثانية فتكون بدون ثقوب إضافة إلى أنها أطول من المثقوبة بمقدار كاف ليصير صوتها قراراً لصوت تلك[٣٢٩] وعلاوة على أنه صنع هذه الالة ، فقد نسب إليه ، اقراء وتدريس علم الموسيقى[٣٣٠] وفيما عدا هذين الموسيقيين ، فلم أعثر على أثر لاندلسي عرف عنه الاشتغال بالموسيقى طيلة فترة الأربعة قرون ، التي هي موضوع هذا البحث . ومثل هذه الظاهرة ، يجب أن لا ينظر إليها على أنها جديدة أو غريبة في المجتمع الشامي ، بقدر ما يجب أن ينظر إليها على أنها من الظواهر العادية جداً ، قياساً على مفاهيم وعقائد مسلمي هذه الفترة ، التي لا تؤمن بتطوير أو إشاعة مثل هذه الفنون ، انطلاقاً من أنها كانت تعتبر ضد الدين ، وبالتالي يجب وأدها حيثما وجدت . وتعتبر فترة بحثي هذا وياللأسف ، من أحلك وأظلم فترات التاريخ العربي الإسلامي بالنسبة للفنون وغيرها من العلوم كالفلسفة ،

---

٣٢٧ ــ نفح الطيب ج٣ ص ١٨٥ .

٣٢٨ ــ نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣٣ وما بعدها .

٣٢٩ ــ حسين علي محفوظ ــ معجم الموسيقى العربية ج ٢ ط بغداد ١٩٦٤ ص٢٧ ــ ٤٩ .

٣٣٠ ــ عيون الانباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٦٣ .

فقد وقف الحكام والفقهاء والغالبية العظمى من الطبقات الشعبية في الخندق المعادي لرجال الفن ومبدعيه، فكانوا بحق سيفاً قاطعاً سلط على رقاب هؤلاء، وكانت النتيجة مُرَّة إلى حد الموت، بحيث لم نسمع عن بادرة إبداع أوخلق في هذا الميدان.

لذلك وانطلاقاً من هذا الواقع السلبي المتشح بالتعصب الأعمى ضد الفن ورجاله، فليس غريباً أن نرى أيضاً ظاهرة الفقر والعدم تنتشر بين صفوف الأندلسيين نزلاء الشام، وبالتالي عدم اهتمامهم بهذه البضاعة، التي لم يجد لها أصحابها سوقاً تشجع على رواجها. وقد يسأل البعض عن السبب الذي وقف حائلاً في سبيل الحكام، وجعلهم لا يأتون بأية بادرة تكبح جماع الموسيقيين الأندلسيين المذكورين، على اعتبار أن الموسيقى من الفنون غير المرغوبة أو المستحبة في تلك الأيام. وللجواب على ذلك، يجب أن يعلم أن هذين الموسيقيين، عاصرا صلاح الدين الايوبي، الذي لم يكن في حقيقته أكثر انفتاحاً وتسامحاً من سلفه نور الدين زنكي، أو من الذين جاؤا بعده من حكام المماليك، لكن الذي جعله يغض الطرف عنهما، ولم يلتفت إلى أعمالهما في الموسيقى، يمكن أن يرجع إلى أنهما كانا من أشهر الأطباء في عصره، حتى إن واحداً منهما كان مرافقاً له في حروبه التي خاضها ضد الصليبيين، اضف إلى ذلك أنهما وجدا في مرحلة حساسة جداً يحتاج مجتمع صلاح الدين لخدماتهما الطبية أكثر من أي وقت مضى. لذلك يمكن القول إن تسامح صلاح الدين، لم يكن منبثقاً عن قناعة بتطوير أعمال كالموسيقى، بقدر ما كان منبثقاً من أجل الاستفادة من خدماتهما في ميدان الطب. أما على صعيد الفنون الأخرى، كالعمارة والنحت والنقش والتصوير، فلم يشتهر أحد من الأندلسيين المغاربة على ما أعرف، بالرغم من أن هذه الفنون، لم تلق أية معارضة في أي وقت من الأوقات، هذا بالاضافة إلى أنها كانت من الفنون التي اتسمت بالحيوية والنشاط والاستمرار، خلال فترة هذا البحث بصورة عامة، ومجال العمل فيها، كان مفتوحاً للجميع على حد سواء. ودليل عدم اشتغال الأندلسيين المغاربة بهذا الميدان، يتجلى بأنه لم يعرف عنهم أي أثر أو تأثير في مضمار العمارة ببلاد الشام، مثال ذلك، أن يكونوا قد نقلوا طرازاً معمارياً أندلسياً معيناً أو أي شيء من هذا القبيل.

ب ــ المؤقتون

وهم مجموعة من الأندلسيين المغاربة، قدم أفرادها إلى الشام في فترات من العصور الوسطى، ولكن أحوالهم لم تستقر فيها، كما كان عليه الحال بالنسبة للمجموعة المقيمة

بصورة دائمة. وبمقارنة بسيطة بين هاتين المجموعتين، يظهر بوضوح أن رجال المجموعة المؤقتة كانوا قليلي العدد بالقياس على عدد رجال المجموعة الدائمة.

وإذا كان لا بد من تحديد أسباب معينة لحركة هؤلاء المؤقتين باتجاه الشام في فترات زمنية متلاحقة، فليس أقرب إلى الواقع من القول، أن الأسباب بمجملها لا تختلف كثيراً عن تلك الأسباب، التي جعلت الأندلسيين ككل يفدون إلى الشام. فمن هؤلاء من جاء بقصد الاستقرار والاستيطان، ولأمور لا تبدو واضحة بحيث يمكن اعتمادها كحقائق ثابتة، كانوا يتركونها، فإما أن يعودوا إلى المغرب أو إلى غرناطة، وإما أن يتوجهوا إلى أقطار مشرقية أخرى كمصر وغيرها. ومنهم من كانت أهدافهم الرئيسية الحج إلى الأماكن المقدسة، وبعد إتمام تأدية الفريضة، يعرجون على بعض أقطار الشام، فيستقون من ثقافتها ويلتقون بعلمائها. وبعضهم أهتم بأمور الرحلة بقصد الاطلاع، وتزويد سكان بلدانهم بمعلومات متنوعة عن الشام وغيرها، على اعتبار أن الرحلة، هي عادة درج الأندلسيون على القيام بها إلى الشام، منذ أن افتتح العرب الأندلس في القرن الأول الهجري، السابع الميلادي. وبعضهم الآخر كان يأتي إلى الشام بقصد التجارة، التي احترفها الأندلسيون واشتهروا بها مع أقطار المشرق العربي. وبالرغم من أن الفترة التي أمضوها بالشام كانت قصيرة، فإنهم تركوا علامات بارزة وأعمالاً خالدة يذكرون من خلالها بالفضل والخير. وهكذا فإني ساصنفهم على قلتهم بحسب الاختصاصات التي اشتهروا بها وعملوا في مجالها.

١ ــ **رجال العلوم العقلية**. وأبرز العلوم التي اشتهروا بها كانت علم الطب والصيدلة. ففي مجال الطب يمكن القول، إن الذين زاروا الشام من الأطباء الأندلسيين، لم يتركوا ذلك الأثر البالغ الأهمية. وسبب ذلك لا يعود إلى ضحالة معلوماتهم الطبية، بقدر ما يعود إلى أن فترة إقامتهم بالشام كانت قصيرة جداً، أضف إلى ذلك، أن الاشتغال في ميدان اختصاصهم لم يكن هدفهم الرئيسي من زيارة الشام. مثال ذلك أحمد بن الحسن القضاعي أبو جعفر من أندة التابعة لبلنسية في شرق الأندلس، فقد رافق هذا المذكور ابن جبير الرحالة المعروف، ولازمه بصورة دائمة في كل أعماله وتنقلاته في كل المناطق التي زارها في العراق والشام والحجاز وغيرها. وكان أبو جعفر هذا متحققاً في علم الطب وله فيه باع طويل. لكنه وبالرغم من ذلك، لم يُعْرَف شيء عن اتصالاته بأطباء البلدان المشرقية التي حل بها، وخاصة مدينة دمشق، حيث طالت إقامته بعض الشيء. الأمر الذي يوحي، أنه لم يفعل ذلك. توفي سنة

٥٩٩ هـــ ١٢٠٣ م قبل رفيقه في الرحلة ابن جبير بمراكش[٣٣١] أما النموذج الثاني فقد تمثل في شخصية حسن بن يوسف الأنصاري المروي، نسبة إلى المرية بجنوب الأندلس. ويعتبر هذا الطبيب شبيهاً إلى حد كبير برفاقه الأندلسيين، الذين عاصروا وعاشوا في فترة حكم البوريين والزنكيين والايوبيين. فقد اشتغل منذ نشأته بدراسة الطب في بلده، إلى جانب التركيز على معرفة علم الفلك والنحو وبعض الفقه. وصل إلى مدينة دمشق سنة ٧٩٠ هـــ ١٣٨٨ م، وأقام بها مدة قصيرة جداً ثم غادرها إلى المدينة المنورة لتأدية فريضة الحج، ومن هناك توجه إلى مصر، حيث أقام بمدينة القاهرة طيلة حياته[٣٣٢] وهو كسابقه لم يترك أثراً يدل على اشتغاله بالطب، أو اتصاله بالأطباء خلال الفترة التي أمضاها بدمشق، وربما يعود ذلك إلى أن هذه الفترة كانت قصيرة، بحيث لم تسمح له باظهار مقدرته وامكاناته العملية في ميدان الطب، صنعته الرئيسية، أما في ميدان علم الصيدلة، فإن الأمر يختلف بعض الشيء. فقد زار مدينة دمشق واحد من الذين كانت لهم معرفة في النبات والحشائش والخصائص الدوائية لها. وهو أحمد بن محمد ابن مفرج الأموي الاشبيلي النباتي المعروف بابن الرومية[٣٣٣]. وقد درس أسس هذا العلم في بلاده وتعمق فيه، حتى استطاع أن يؤلف كتاباً في الحشائش، قبل مجيئه إلى الشام، ورتبه على حروف المعجم. ويبدو من خلال ترجمته، أن الهدف الرئيسي من زيارته للمشرق، لم يكن بقصد الإفادة في مجال اختصاصه، بقدر ما كان بقصد الحج والسماع على العلماء المختصين في ميدان العلوم الدينية، كالحديث والفقه. فقد سمع الحديث في كل من مدينة حلب ودمشق على علماء أمثال ابن الحرستاني وابن ملاعب وابن العطار وغيرهم.

والفائدة التي حصلت في ميدان علمه الرئيسي، تجلت بأنه دل على مكان نبات، كانت له استخدامات مفيدة في مجال التداوي يقول المقري في نفح الطيب: «قال بعضهم: اجتمعت به، وتفاوضت معه في ذكر الحشائش، فقلت له: قصب الذريرة، قد ذكر في كتب الطب، وذكروا انه يستعمل منه شيء كثير، وهذا يدل على أنه كان موجوداً كثيراً، وأما الآن فلا يوجد، ولا يخبر عنه مخبر، فقال: هو موجود وانما لا يعلمون اين يطلبونه، فقلت

---

٣٣١ ـــ نفح الطيب ـــ ج ٢ ص ٣٨٣.
٣٣٢ ـــ الضوء اللامع ج ٣ ص ١٣١.
٣٣٣ ـــ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٩٦.

له : وايـن هو؟ فقـال : بالأهـواز منـه شيء كثير»[٣٣٤] توفي بمدينـة اشبيليـة سنـة ٦٣٧ هـ ـ ١٢٤٠ م ، علماً بأن مولده كان في سنة ٥٩١ هـ ـ ١١٩٥ م[٣٣٥] أما في بقية العلوم التطبيقية الأخرى ، فلم أعثر على ذكر لأحد من الأندلسيين المؤقتين الذين زاروا الشام .

٢ ـ **رجال العلوم النظرية** . وهم صورة صادقة عن رفاقهم من الأندلسيين المقيمين ، اهتموا بدراسة وتدريس عدة فروع مختلفة من هذه العلوم ، كالحديث والفقه وعلوم اللغة العربية . ففي مجال الحديث والفقه اشتهر منهم الفقيه العالم محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي صاحب كتاب (سراج الملوك) . والذي يعتبر نموذجاً مميزاً وفريداً من بين من جاء من الأندلس إلى المشرق ، سواء من حيث ثقافته المتمكنة التي حصلها بمدينة أشبيلية في الأندلس ، حيث ولد سنة ٤٥١ هـ ـ ١٠٦٠ م ، أو من حيث الأثر الكبير الذي تركه في ميدان التأليـف والانتاج ، على صعيد المشرق ككل ، كانت رحلة هذا الفقيه المتميز إلى المشرق في سنة ٤٧٦ هـ ـ ١٠٨٢ م فزار كلاً من بغداد والبصرة ، وفيهما سمع من العديد من علمائهما ، بالرغم من ثقافته العالية . ومن هناك توجه إلى الشام ، لكن إلى أين لا يعرف ، حيث أن المقري وابن خلكان ، لا يوضحان أين استقر في البداية ، في دمشق أم في غيرها . حيث باشر التدريس منذ أن وصلها بعكس الكثيرين من الأندلسيين المقيمين وغير المقيمين ، الذين كانوا في بداية نزولهم في الشام يقبلون على السماع والدراسة . لكن المدة التي أمضاها في التدريس كانت وجيزة جداً ، وكان يقبل بالقليل مقابل ذلك ، لكنهما أي المقري وابن خلكان يذكران أنه جاور بالبيت المقدس مدة ، لا يستبعد أن يكون قد مارس التدريس خلالها . ومن هناك رحل إلى الاسكندرية وظل مقيماً فيها حتى سنة ٥٢٠ هـ ـ ١١٢٦ م ، تاريخ وفاته[٣٣٦] ولفترة تكاد تكون وجيزة جداً نزل بالمدرسة العادلية بدمشق الفقيه الشيخ محمد بن حسن الأشبيلي ، المكنى بأبي مروان ، أصله من باجة بالقيروان ، جاء سنـة ٦٣٤ هـ ـ ١٢٣٧ م ، قادماً من الأندلس عن طريق مدينة عكا البحرية .

ويرجع السبب في عدم إقامته لمدة طويلة ، إلى أن هدفه الرئيسي من رحلته إلى المشرق

---

٣٣٤ ـ نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٧ ـ ابن سعيد ـ القدح المعلى في التاريخ المحلى تحقيق ابراهيم الابياري ط بيروت ١٩٨٠ ص ١٨١ .

٣٣٥ ـ نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٨ ـ القدح المعلي في التاريخ المحلى ص ١٨١ .

٣٣٦ ـ نفح الطيب ج ٢ ص ٨٥ وما بعدها ـ وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٦٢ وما بعدها .

هو تأدية فريضة الحج. ولم يستفد منه الشاميون خلال إقامته بالمدرسة المذكورة شيئاً فيما يخص الحديث أو الفقه. إنما انحصرت فائدته في ناحية أخرى كانت غير معروفة على ما يبدو بالنسبة لسكان بلاد الشام، وغدت من الأشياء الجديدة التي اكتسبها أهل الشام عن المغاربة، وهي معرفة قدر مدّ النبي (ص). يقول أبو شامة في صدد ذلك، وهو الذي قابل الفقيه المذكور وجالسه ونقل هذه الحادثة عنه: «واستفدنا من هذا الباجي فائدة جليلة، وهو معاينة قدر مدّ النبي (ص) فانه عندهم الكيل الكبير، فوجدت مدًّا يسع صاعين الا يسيراً، ووجدته ممسوحاً يسع صاعاً ونصفاً أو شيئاً، فيكون مدان ممسوحان ثلاثة أصبع زائدة. عندي طاسة بيضاء صغيرة عايرتها به فوجدتها تسع مدين وهما نصف صاع ...»[٣٣٧] وقد توفي هذا الشيخ بمدينة القاهرة بعد أن أدى فريضة الحج بزمن قليل سنة ٦٣٥ هـ ــ ١٢٣٨ م ولعل أكبر شخصية أندلسية من المؤقتين تمثلت بشخصية المحدث محمد بن محمد بن سراقة الملقب بمحيي الدين. الذي حل بمدينة حلب خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي. وهو نموذج يشبه إلى حد كبير الكثير من رفاقه المحدثين المقيمين، الذين أمضوا وقتاً طويلاً، وتحملوا مصاعب السفر ومشاق الانتقال من بلد إلى آخر في سبيل سماع الحديث وحفظه والتعرف على فنونه وضروبه.

ويمتاز على الذين سبقوه من هذه الفئة، أن إقامته كانت أطول وفائدته أعم، لكنهم يمتازون عليه، بأن ثقافتهم كانت مكتملة عشية وصولهم إلى الشام. ولد هذا المحدث في مدينة شاطبة jativa بشرق الأندلس سنة ٥٩٢ هـ ــ ١١٩٦ م وفيها تلقى البذور الأولى لعلم الحديث على أبي القاسم بن بقي، رحل بعدها إلى المشرق، فنزل في بداية رحلته بمدينة بغداد، حيث سمع عن أبي حفص عمر السهروردي، وأبي طالب القبيطي، وأبي حفص الدينوري وغيرهم. ومن بغداد توجه إلى حلب فسمع من القاضي ابن شداد وغيره. وفيها تولى مشيخة دار الحديث البهائية فترة من الزمن. ولأسباب غير معروفة غادر حلب وبلاد الشام كلها سنة ٦٤٢ هـ ــ ١٢٤٥ م إلى مصر، حيث نزل بمدينة القاهرة، وفيها تسلم مشيخة الحديث بالمدرسة الكاملية، حتى وافاه الأجل سنة ٦٢٢ هـ ــ ١٢٦٤ م[٣٣٨] ولم يكن الأمر يقتصر على شهرة الأندلسيين المؤقتين في مجال الحديث فحسب، انما وجد منهم

٣٣٧ ــ الذيل على الروضتين ص ١٦٤ ــ ١٦٥.

٣٣٨ ــ فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٠٦ ــ ٣٠٧ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٧٠.

من عمل في إمامة المساجد والمدارس وغير ذلك. كان في مقدمة هؤلاء، حسب معطيات المصادر، ابراهيم بن عيسى بن يوسف المعروف بأبي اسحق المرادي الأندلسي، إمام المدرسة الباذرائية* بدمشق، الذي عرف بورعه وفضله وشدة ايمانه. وقد باشر إمامة المدرسة المذكورة فترة لابأس بها، تمكن خلالها من جمع عدد كبير من الكتب الجيدة، وقفها على من يود الانتفاع بها من المسلمين، وجعل نظرها إلى علاء الدين محمد بن عبد القادر المعروف بابن الصائغ. وهو بذلك يفوق من حيث الأثر الذي تركه، أولئك الذين عملوا بالمساجد من الأئمة والمؤذنين من أبناء وطنه. وقد ترك مدينة دمشق، وحل بالقاهرة، حيث نال من الاحترام والترحاب الشيء الكثير على ما يبدو، يدل على ذلك، أنه دفن بواحدة من كبريات وأجلّ المقابر هناك، وهي مقبرة القرافة الصغرى بالقرب من الإمام الشافعي(٣٣٩).

علوم اللغة العربية. أما في هذا الميدان، فقد كان الأندلسيون قلائل جداً، حيث أن معظم الذين عملوا في ميدان النحو والأدب، كانوا من المستقرين الدائمين بالشام. ومع ذلك فان الأمر لا يخلو من وجود البعض، كما في الميادين الأخرى. مثال ذلك مثل النحوي محمد بن طاهر الداني، نسبة إلى دانية بشرق الأندلس. قدم المذكور مدينة دمشق سنة ٥٥٤ هـ ــ ١١٥٦ م بعد عودته من الحج، وفيها اشتغل بتدريس النحو لفترة لا أعرف إلى متى استمرت، ثم غادرها إلى بغداد حيث سكنها بصورة دائمة حتى وفاته سنة ٦١٩ هـ ــ ١٢٢٣ م. وله من المصنفات اللغوية كتاب «تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب» والمرجح أنه ألفه بمدينة بغداد لإقامته الطويلة فيها. وقد وصل مستوى البعض من هؤلاء النحويين المؤقتين إلى أعلى درجات التحصيل والحفظ والحذاقة بهذا العلم، وبالتالي سبق ابن مالك النحوي باكتساب لقب سيبويه زمانه. هذا النحوي هو الشيخ أبو عبد الله الطليطلي، الذي لا يذكر ابن منقذ اسمه بالتفصيل وبالتالي لا يحدد متى وصل الشام ولا متى غادرها. وبالرغم من أن ابن منقذ هو الذي يذكره دون بقية المصادر، فان من الممكن القول أنه عاش في الشام خلال القرن السادس الهجري. وقد أهله مستواه الرفيع إلى تسلم رئاسة

---

* المدرسة الباذرائية، هي إحدى مدارس الشافعية بدمشق، داخل باب الفراديس شمال جيرون وشرقي الناصرية الجوانية، كانت قبل ذلك داراً تعرف باسامة، أنشأها محمد بن الحسن بن عبد الله البادرائي البغدادي (الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٢٠٥).

٣٣٩ ــ ذيل مرآة الزمان ج ٢ ط حيدر اباد الدكن ١٩٥٥ ص ٤١٢.

دار العلم في مدينة طرابلس الشام لفترة من الزمن، انتهت على أثر الاحتلال الصليبي لهذه المدينة(٣٤٠).

حيث بادر والد ابن منقذ وعمه بانقاذه ونقله إلى شيزر، حيث بقي هناك مدة طويلة على ما يظهر، لان ابن منقذ نفسه يذكر أنه درس عليه النحو لمدة عشر سنوات كاملة. وكان الطليطلي هذا يصطحب معه عدة كتب نحوية مشهورة، كان يحفظها جميعاً كما يتضح من حديث ابن منقذ عنه يقول: «... دخلت عليه يوماً لاقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو، كتاب سيبويه وكتاب الخصائص لابن جني وكتاب الايضاح لأبي علي الفارسي وكتاب اللمع وكتاب الجمل. فقلت يا شيخ أبا عبد الله قرأت هذه الكتب كلها؟ قال قرأتها لا، والله إلا كتبتها في اللوح وحفظتها. تريد تدري، خذ وافتحه واقرأ من أول صفحة سطراً واحداً. فأخذت جزءاً واحداً وفتحته وقرأت فيه سطراً فقرأ الصفحة بأجمعها حفظاً حتى أتى على تلك الاجزاء جميعها فرأيت منه أمراً عظيماً ما هو في طاقة البشر» ولأسباب غير معروفة غادر شيزر وبلاد الشام واستقر بمصر حيث توفي(٣٤١). وأيضاً وخلال الربع الأخير من القرن السادس الهجري، يحل في مدينة دمشق نحوي آخر اشتهر أمره كثيراً في ميدان النحو، ليس على صعيد الحفظ كما الحال عند الطليطلي المذكور، بل زاد عليه بأن اشتهر على صعيد التأليف المبتكر، وبأسلوب لم تكن تعرفه الشام قبله على الاطلاق على ما أعرف. هذا النحوي هو زين الدين أبو الحسين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي الشهير بابن معطي. ولد سنة ٥٦٤ هـ ــ ١١٦٩ م في الجزائر، التي درس فيها النحو على أبي موسى الجزولي وغيره. ويبدو أنه كان على درجة عالية من التضلع بهذا العلم عشية وصوله إلى دمشق، لأنه لم يدرس النحو فيها بل انكب على دراسة الحديث، في الوقت الذي كان يدرس النحو في الجامع الأموي الكبير. وبقي بدمشق حتى السنين الأخيرة من القرن السادس الهجري، عندما جاء الملك الكامل الأيوبي إليها، فالتقاه ودعاه للاقامة بمصر، فلبى الدعوة، وهناك عين مدرساً للأدب في جامع عمرو بالقاهرة حتى وفاته سنة ٦٢٨ هـ ــ ١٢٣١ م. والذي يلفت النظر في هذا النحوى أنه تحول إلى

٣٤٠ ــ احتل الصليبيون مدينة طرابلس سنة ٥١٢ هـ/١١٠٩م.

٣٤١ ــ ابن منقذ ــ كتاب الاعتبار ــ صححه هرتويغ درنبرغ ط ليدن ١٨٨٤ ص ١٥٣.

الشافعية عندما وصل إلى دمشق والي الحنفية عندما وصل مصر ، الأمر الذي يدل على أن الحصول على مناصب تدريسية ، كانت تستوجب مثل هذا التصرف في كثير من الأحيان . وإذا لم يكن ذلك فما السبب الذي دعاه للتحول عن الشافعية إلى الحنفية مع أن الشافعية مذهب الغالبية العظمى من أهل مصر .. ومن مؤلفاته المشهورة كتابه المسمى بـ(الدرة الألفية في علم العربية) صاغها بقالب شعري ، بلغ عدد أبياتها ١٠٢١ بيتاً من الرجز وسريع المزدوج ، انتهى منها سنة ٥٩٥ هـ ــ ١١٩٩ م . وقد اختلف على مكان تأليفها ، فبعضهم يقول أنها ألفت بمصر ، وبعضهم الآخر يقول بدمشق ، وهو الرأي الارجح بالإعتماد على قول الاندلسي محمد بن أحمد بن محمد الشريشي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ ــ ١٢٨٦ م والذي شرحها بمجلدين كبيرين . ويعتبر ابن معطي هذا من المبتكرين في هذا المجال ، وربما هو الذي أوحى لابن مالك النحوي من بعده بتأليف ألفية على غرار ألفيته المذكورة ، وبالتالي فقد وصف إلى جانب تاج الدين الكندي المعاصر له ، على أنهما رئيسا عصرهما في الأدب على صعيد مدينة دمشق(٣٤٢) .

المدرسون : أما رجال هذه الفئة ، فهم أكثر عدداً من الفئات الأخرى ، سواء منهم الدائمون أو المؤقتون . ولم يكن هؤلاء الأخيرون ، أقل مستوى من الدائمين ، من حيث الجمع بين معرفة العلوم الدينية واللغوية ، أو من حيث التضلع فيها وإجادة تدريسها وإقرائها . أذكر منهم في أوائل هذه الفترة موضوع هذا البحث ، يحيى بن سعدون ابن تمام الازدي ضياء الدين المكنى بأبي بكر ، ولد بقرطبة سنة ٤٨٦ هـ ــ ١٠٩٣ م ، ورحل إلى المشرق وهو في مقتبل العمر ، لذلك فان مصدر ثقافته الرئيسي كان في المشرق ، مثال مدينة الاسكندرية التي كانت أولى محطاته ، حيث درس فيها على جلة من علمائها المشاهير ، كأبي طاهر السلفي وغيره . ومن الاسكندرية قصد مدينة بغداد ، فأخذ فيها عن كثير من العلماء ، بالاضافة إلى قيامه بتدريس علم القراءات الذي لا يستبعد أن يكون قد أخذه من الأندلس ، ومهما يكن من أمر ، فقد وصف إماما فيها ، إضافة إلى مقدرته في تدريس الحديث والنحو واللغة . واستوطن مدينة دمشق لفترة قصيرة غادرها على أثرها إلى الموصل دار سكنه الأخير ، وأما عن

---

٣٤٢ ــ كشف الظنون ج ١ ص ١٥٥ ــ دائرة المعارف الاسلامية مجلد ١ الترجمة العربية ص ٢٨١ ــ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٥

Encyclopedia of Islam Vol 3. p. 893.

بغية الوعاة ــ ص ٤١٦ .

نشاطه في دمشق، فلا يعرف عنه الشيء الكثير، فقد ذكر الحافظ السمعاني بعضاً من هذا النشاط، نقله المقري في نفح الطيب بقوله: «وقال اجتمع به بدمشق وسمع عنه مشيخة أبي عبد الله الرازي وانتخب عليه أجزاء... وكان شيخنا بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضي حلب، يفتخر بروايته وقراءته عليه..» وقد توفي بمدينة الموصل سنة ٥٦٧ هـ ـ ١١٧٢ م[٣٤٣]. أما النموذج الآخر من هؤلاء المدرسين، فانه لم يتجول في المشرق في طلب العلم، انما حصل ثقافته المتنوعة في الأندلس قبل رحيله عنها، والتي تميز في جميع فروعها، كما يظهر من قول ابن كثير عنه في كتابه (البداية والنهاية): «.. كان رأساً في علوم كثيرة، منها الأصول والفروع والعربية والتصريف، والعروض والتفسير وغير ذلك».

وصل إلى مدينة دمشق سنة ٦١٧ هـ ـ ١٢٢١ م واشتغل بالتدريس في الزاوية المالكية بالجامع الأموي، منذ أن وصلها. وقد تمثل هذا النموذج بشخص عثمان بن عمر بن ابي بكر المكنى بأبي عمرو بن الحاجب المالكي. وقد ظل يعمل مدرساً بالزاوية المذكورة فترة عشرين سنة ونيف حتى سنة (٦٣٨ هـ ـ ١٢٤١ م)، غادرها بصحبة عز الدين بن عبد السلام إلى مصر حيث استقر طيلة حياته. وأمر اصطحاب ابن عبد السلام له، يدلل بصورة أكيدة على مقدرة هذا المدرس بصورة متميزة من جهة، ومكانته المرموقة من جهة أخرى. هذا إذا ما علم أن ابن عبد السلام، كان من الشخصيات العلمية المعروفة، على صعيد الشام وغيرها. إذن والحالة هذه فليس من المعقول أن يرافق ويصطحب معه بشكل خاص الأندلسي المذكور، لولا جلالة وعمق معرفته. التي تتأكد من خلال مؤلفاته في مجال الفقه واللغة العربية، وهي كثيرة إلى حد ما، لم أذكرها هنا، انطلاقاً من أني لم أتمكن من معرفة ما ألفه في مصر وما ألفه بدمشق، وان كانت الفترة التي أمضاها في هذه الأخيرة، كافية لأن يؤلف قسماً لابأس به من هذه المؤلفات[٣٤٤] وقد كان بعض هؤلاء يكثر من التنقل بعد أن يصل إلى الشام، وذلك بحسب الظروف الملحة، ففي الفترة نفسها تقريباً يصل إلى الشام واحد منهم، هو المدعو فتح بن موسى أبو نصر الملقب بنجم الدين المعروف بالقصرى، ولد سنة ٥٨٨ هـ ـ ١١٩٢ م ودرس النحو في سن مبكرة. غادر الجزيرة الخضراء سنة

٣٤٣ ـ وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢١٩ ـ نفح الطيب ج ٢ ص ١١٦ ـ ١١٧.

٣٤٤ ـ البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧٦.

٦٠٧ هـ ـ ١٢١١ م إلى تونس حيث بقي فيها ثلاث سنوات متتالية، تركها سنة ٦١٠ هـ ـ ١٢١٤ م إلى مصر، حيث لم يمكث فيها طويلاً، ليتوجه إلى بلاد الشام، فحل بمدينة حماة مدة من الزمن سمع خلالها عن الشيخ سيف الدين الأمدي مسائل دينية مختلفة. ولما كانت سنة ٦١٧ هـ ـ ١٢٢١ م، انتدب للتدريس في بلدة رأس العين بمدرسة عماد الدين بن المشطوب لعدة سنوات. وكغيره من أفراد هذه الفئة، ترك الشام نهائياً في سنة ٦٤٣ هـ ـ ١٢٤٦ م وتوجه إلى مصر، فاستقر بأسيوط، يعمل في مجال التدريس، حتى وافته المنية سنة ٦٦٣ هـ ـ ١٢٦٥ م[٣٤٥]. وبالرغم من أن الفترة التي عاشها في الشام تساوي الفترة التي عاشها كل من المدرسين السابقين، بالرغم من ذلك، فانه لم يشتهر في مجال تأليف الكتب، الذي لا يستبعد أن يكون سبب هذه الظاهرة عنده، يعود إلى عدم استتباب أموره واستقرارها. أما في بقية العلوم النظرية الأخرى فلا يوجد من اهتم بها من هؤلاء المؤقتين، إذا ما استثني الجغرافيون الرحالة، الذين التقوا جميعاً في نقطة واحدة، هي عدم الاستقرار والبقاء في الشام بصورة دائمة، بعكس غالبية الفئات الأخرى، التي انقسم رجالها إلى مستقرين دائمين ومؤقتين لفترات متفاوتة ومتباينة. وهذا ما سيظهر بوضوح وجلاء من خلال دراستهم بشكل مفصل في الصفحات التالية.

الجغرافيون

وقد تمثل هؤلاء الجغرافيون بالرحالة الأندلسيين والمغاربة الذين زاروا بقاعاً واسعة من بلاد الشام في فترات زمنية مختلفة، وسجلوا معلوماتهم عن كل الأماكن التي حلوا بها، والتي جاءت أيضاً على صيغ مختلفة ومتباينة. وقبل التفصيل في كتابات هؤلاء الرحالة، فلا بد من القول، إن أعمال الرحلة والانتقال بين الشام والأندلس، لم تكن قد بدأت في مستهل هذه الفترة موضوع هذا البحث، أو بعدها بقليل على سبيل المثال، انما تعود إلى فترة أقدم وأسبق بكثير، بحيث يمكن ارجاعها إلى زمن الفتح العربي للأندلس سنة ٩٢ هـ ـ ٧١١ م. فقد كانت طريقة تقليدية للتواجد الأندلسي المغربي في بلاد الشام. ولكن الجديد الآن، أن القادمين من الأندلس، لم يقتصروا على أخذ العلم لفترة زمنية معينة، ومن ثم العودة إلى بلادهم، بل أضحى العطاء أكثر، حيث تجلى بالتركيز على دراسة أوضاع المدن والمناطق، التي حلوا بها من جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية تقريباً، وبالتالي تسجيلها بشكل دقيق

---

٣٤٥ ـ ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

ومفصل. يأتي في مقدمة هؤلاء الرحالة محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري، الذي غادر الأندلس إلى المشرق عام ٤٨٥ هـ ــ ١٠٩٣ م برفقة والده، الذي كان يعمل لدى دولة بني عباد في اشبيلية، فلما سقطت هذه الدولة، التي كانت إحدى دول الطوائف بالأندلس على أيدي المرابطين، قصد المشرق عسى يجد فيه الحظوة التي فقدها لدى الامراء. حل ابن العربي أولاً بالعراق، ثم بالشام بعد أن أدى فريضة الحج، حيث أقام فيها فترة من الزمن، زار خلالها مدينة دمشق وبيت المقدس وعسقلان وعكا، وبقي في فلسطين لوحدها نحو خمسة أشهر، وجميع هذه الفترة أمضاها بمجادلة العلماء ومناقشتهم في مسائل دينية بحته، كما سيأتي ذكره في موضوع لاحق[٣٤٦] ويأتي في سلسلة هؤلاء الرحلة، محمد بن عبد الرحيم الشهير بأبي حامد الغرناطي. غادر مدينة غرناطة التي ولد فيها سنة ٤٧٣ هـ ــ ١٠٨١ م، وهو في السابعة والعشرين من عمره، فبدأ بالمغرب حيث وصل إلى سجلماسة، ومنها انتقل إلى مصر عبر شمال إفريقية. وفي سنة ٥٥١ هـ ــ ١١٥٧ م حل بمدينة دمشق فترة قصيرة من الزمن، غادرها وقام برحلات طويلة قبل أن يعود إليها مرة ثانية، فقد حل ببغداد، حيث تعرف على الوزير يحيى بن محمد المعروف بابن هبيرة الذي رعاه وأنزله في داره، ووضع مكتبته تحت تصرفه. ثم طاف بايران وتجاوزها من شمالها، ليرحل عبر منطقة الانهار الروسية، فيصل مع نهر الفولفا إلى عدة مناطق. بعد ذلك عاد أبو حامد إلى دمشق، وأقام فيها منذ عام ٥٦٠ هـ ــ ١١٦٥ م، حيث وافاه أجله بعد خمس سنوات من هذا التاريخ[٣٤٧]. تلا رحلة أبي حامد الغرناطي رحلات قام بها محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الذي يعود أصل عائلته إلى مدينة شاطبة Jativa وإلى بلنسية Valencia بشرق الأندلس، من حيث ولادته، التي كانت سنة ٥٣٩ هـ ــ ١١٤٥ م وانتقل إلى غرناطة بجنوب الأندلس مع عائلته، حيث أقام فيها، وأخذ ثقافته عن أبيه وعلماء آخرين أمثال المقرىء علي بن أبي العيش، وكانت له عناية بالأدب وفروعه، فأجاد صناعة النظم والنثر[٣٤٨]. وفي أثناء وجوده في غرناطة، وقبل أن يبدأ بالرحلة إلى المشرق، كان يعمل في مجال الكتابة لدى أمير غرناطة الموحدي. وقد قام بثلاث رحلات إلى المشرق انطلق في الأولى سنة ٥٧٨ هـ ــ ١١٨٣ م، وحج وزار مصر والحجاز والعراق والشام، وعاد بعدها إلى بلده

---

٣٤٦ ــ العواصم من القواصم ص ٣٥ ــ ٤٢ ــ ٤٣ ــ ٦١ ــ ٦٢ ــ ٦٤ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٥.

٣٤٧ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٣٥.

٣٤٨ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٢٣ ــ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ٥١.

غرناطة سنة ٥٨١ هـ ــ ١١٨٦ م، بعد أن قضى ثلاث سنوات كاملة(٣٤٩) وقام بالرحلة الثانية على أثر شيوع الخبر المبهج عن تحرير بيت المقدس وما حوله. فكان انطلاقه من غرناطة سنة ٥٨٥ هـ ــ ١١٩٠ م واستمرت هذه الرحلة حتى سنة ٥٨٧ هـ ــ ١١٩١ م وعبر عن هدفه الذي حققه بعد انتهائها بقوله: «وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام، وزيارة المصطفى (ص) وزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد.. وفي شهر واحد»(٣٥٠) وقام برحلته الثالثة والأخيرة على أثر وفاة زوجته المدعوة (أم المجد) سنة ٦٠١ هـ ــ ١٢٠٥ م وفيها جاور بالحرم الشريف أمداً طويلاً، وكذلك ببيت المقدس، ثم تحول إلى مصر فقصد الاسكندرية، حيث وافاه الأجل عام ٦١٤ هـ ــ ١٢١٨ م(٣٥١). ومن هؤلاء الرحالة، علي بن سعيد المكنى بأبي الحسن والشهير بالمغربي. ولد بغرناطة سنة ٦١٠ هـ ــ ١٢١٤ م ونشأ فيها، وتوفي بتونس سنة ٦٨٥ هـ ــ ١٢٨٦ م. قام برحلته إلى المشرق وهو ابن تسعة وعشرين سنة، فحل بمصر فترة قصيرة، التقى خلالها بابن العديم، فصحبه معه إلى حلب(٣٥٢).

وجاء بعده الرحالة المغربي مهيب الدين أبو عبد الله محمد بن عمر السبتي المعروف بابن رشيد المتوفى سنة ٧٢١ هـ ــ ١٣٢١ م، الذي انطلق من المرية سنة ٦٨٣ هـ ــ ١٢٨٥ م بقصد الحج واكمال دراسته فمر في شمال إفريقية بطريقه إلى مصر، فسوريا والحجاز. واستغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات(٣٥٣). وقد كتب عن مشاهداته في هذه البلدان كتاباً، سماه (ملء العيبة في ما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة والطيبة). وهي نسخة ناقصة موجودة في مكتبة الأسكوريال الاسبانية، والاجزاء الباقية تحتوي معلومات عن قضاة أندلسيين وسيرة البخاري ومسلم، وأيضاً عن الشيوخ الذين سمع عنهم المؤلف في مراكش وتونس ومصر والحجاز(٣٥٤) وقد تبعه بعد ثلاث سنوات تقريباً الرحالة المغربي محمد

٣٤٩ ــ الذيل والتكملة سفر ٥ ق ٢ ص ٥٩٦ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٢٣.
٣٥٠ ــ الذيل والتكملة ــ سفر ٦ ق ٢ ص ٦٠٥.
٣٥١ ــ العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ٥١.
٣٥٢ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٧٢ ــ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ ورقة ٩٨ ــ ٩٩.
٣٥٣ ــ المقري ــ أزهار الرياض ج ٢ ص ٣٥٢.
٣٥٤ ــ Encyclopedia of Islam- Vol 3. p. 909.
ابن الخطيب ــ أوصاف الناس في التواريخ والصلات ــ ق ١ تحقيق محمد كمال شبانه ط المغرب ١٩٧٧ ص ١٠٠ وما بعدها.

ابن محمد بن علي الشهير بالعبدري، واسم العبدري كما يقول نقولا زيادة في كتابه (الرحالة العرب في القرون الوسطى) مرتبط ببلنسية بشرق الأندلس، من حيث أصل اسرته، وبالصويرة على مقربة من أغادير بمراكش من حيث سكنى هذه الأسرة. ولعل ذلك يكون في طفولة العبدري أو صباه.

لكنه كان يسكن في (حاحة) بالسوس بالقرب من مراكش عندما بدأ برحلته[٣٥٥] وقد بدأ العبدري رحلته إلى المشرق سنة ٦٨٨ هـ ـ ١٢٨٩ م، وحدد مقصده منها بقوله: «وبعد فاني قاصد بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده، ورسم ما تيسر رسمه وتسديده مما سما إليه الناظر المطرق، في حين الرحلة إلى بلاد المشرق من ذكر بعض أوصاف البلدان وأحوال منها بها من القطان، حسبما أدركه الحسن والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن ولا تحسين قبيح، مسطراً لما رأيته بالعيان ومقرراً له بأوضح بيان»[٣٥٦] وجاء بعده الرحالة المغربي القاسم بن يوسف التجيبي السبتي المولود سنة ٦٧٠ هـ ـ ١٢٧٢ م، ووضح أحداث رحلته في كتاب سماه (مستفاد الرحلة والاغتراب).

وقد زار كل من مصر والأراضي المقدسة، وزار من بلاد الشام، كل من دمشق وبيت المقدس سنة ٦٩٦ هـ ـ ١٢٩٧ م، أو في السنة التي تلتها. ولم يبق من هذه الرحلة سوى الجزء الثاني، مع أنها تتألف من ثلاثة أجزاء، أهمها بالنسبة لفترة هذا البحث الجزء الثالث، لكونه مخصصاً لتسجيل ملاحظات صاحبه عن بلاد الشام[٣٥٧].

وكانت مهمته في هذه الرحلة، الحج بالدرجة الأولى، وتحصيل العلم والمناقشات العلمية بالدرجة الثانية. وفي الربع الأول من القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، يصل إلى الشام الرحالة المغربي محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي الشهير بابن بطوطة، المولود بطنجة سنة ٦٨٢ هـ ـ ١٢٨٤ م، والمتوفى بمدينة فاس بالمغرب سنة ٧٥٥ هـ ـ ١٣٥٤ م وقد زار عدة بلدان في آسيا وإفريقية والأندلس. كما قام رحالة مغربي آخر برحلة إلى المشرق

---

٣٥٥ ـ الرحالة العرب في القرون الوسطى ص ١٠٥.

٣٥٦ ـ العبدري ـ الرحلة المغربية ت محمد الفاسي ط الرباط ١٩٦٨ ص ١.

٣٥٧ ـ التجيبي السبتي ـ مستفاد الرحلة والاغتراب ـ تحقيق عبد الحفيظ منصور طبعة تونس ١٩٧٥ ص (خ) (ب).

بعد ابن بطوطة بعدة سنوات ، هو خالد بن أحمد بن أبي خالد المعروف (بالبلوي) واسم رحلته (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) وكانت بقصد الحج ، وبدأت سنة ٧٣٧ هـ ـــ ١٣٣٧ م ، وانتهت ستة ٧٤٠ هـ ـــ ١٣٤٠ م . وصف فيها الديار التي زارها ، وهي بلاد المغرب ومصر وفلسطين والحجاز[٣٥٨] . وبعد هذا العرض البسيط عن حياة الرحالة ، الذين عرفتهم الشام خلال فترة هذا البحث ، فلا بد من تسليط الضوء على ما احتوته كتاباتهم عن الشام ، مراعياً بذلك الأشياء المشتركة بينهم من جميع النواحي ، ومن ثم الأشياء التي انفرد بها كل واحد منهم عن الآخر وتميز بها . ومن هذه الأشياء المشتركة ، والتي كانت مثار اهتمامهم ، أمر مناقشة العلماء والسماع عليهم ، وبالتالي التعرض لنقد الحركة العلمية وإبراز ايجابياتها وسلبياتها . فقد كان ابن العربي أول هؤلاء الرحالة ، يناقش العلماء ويستمع إلى آرائهم خلال فترة إقامته بدمشق وفلسطين ، حيث ترك في كتابه (ترتيب الرحلة) ذكراً مطولاً للعديد من هذه المناقشات وبالتالي المواضيع التي ركز على دراستها[٣٥٩] واهتم أبو حامد الغرناطي بدراسة الحديث وتدريسه .

وقد اتهمه ابن عساكر بالكذب وعدم الثقة ، وربما انطلق هذا الاتهام لكون أبي حامد لا يرقى إلى مرتبة ابن عساكر نفسه في ميدان علم الحديث ، هذا بالاضافة إلى أن أبا حامد كان يروي كثيراً عن مشاهداته التي رآها خلال رحلته إلى روسيا وغيرها ، والتي لا يعرف عنها ابن عساكر أي شيء ، وبالتالي فهي غريبة عليه ، وهو الذي لا يؤمن بشيء إلا إذا كان وارداً في الحديث ، ميدان اختصاصه الرئيسي . حتى إن ابن عساكر نفسه رفض الاجتماع بأبي حامد بعد عودته إلى دمشق سنة ٥٦٠ هـ ـــ ١١٦٥ يقول : « .. وكان كثير الدعاوي يذكر أنه رأى عجائب في بلدان شتى أكثرها مستحيل على العقل ، ولم أجتمع إليه لما عاد إلى دمشق لنفوري منه ، لما يحكى عنه من الكذب .. »[٣٦٠] لكن ابن النجار الذي ينقل المقري

---

٣٥٨ ـــ رحلة البلوي ص ١ وما بعدها .

٣٥٩ ـــ تاريخ مدينة دمشق مخطوط الظاهرية ج ١٥ ورقة ٢٧٩ . نفح الطيب ج ٢ ص ٢٥ . وقد ذكر ابن العربي بعض هذه المناقشات وخاصة في فلسطين في كتابه العواصم من القواصم وهي بمجملها تدور حول مسائل دينية بحتة ، وخاصة منها المتعلق بالعقيدة الاسماعيلية ، ودليل اهتمامه بهذه المسائل ، فانه رصد مجالس أهل السنة ، فوجدها في بيت المقدس ، ثمان وعشرون حلقة ومدرستين احداهما للشافعية وأخرى للحنفية/ العواصم من القواصم ص ٦٢ وما بعدها .

٣٦٠ ـــ تاريخ مدينة دمشق . مخطوط الظاهرية ج ١٥ ورقة ٣٠٧ .

روايته يقول: «ما عرفته إلا أمينا»[٣٦١] أما ابن جبير فقد سمع على عدة علماء بدمشق كأبي الطاهر الخشوعي، وأبي محمد بن أبي عصرون وابي القاسم بن عساكر وغيرهم[٣٦٢] لكن هذه الناحية لم تحظ بذلك الاهتمام الكبير منه كما هو حال ابن العربي وغيره من الذين جاؤا بعده على سبيل المثال، لكنه عوض من جهة أخرى، أنه قام بذكر المنشآت التعليمية والمدارس. ففي حلب ذكر المدرسة الحنفية الملتصقة بالجامع الأموي، ووصفها بأنها «من أحفل ما شاهدنا من المدارس بناء وغرابة صنعة...» وبدمشق فعل الشيء نفسه. ويشترك الرحالة ابن رشيد في هذا الشأن وان كنت لا أملك معلومات عن أعماله وسماعاته في الشام لان القسم الخاص بالشام من رحلته مفقود. لكن الذي يجعل ذلك صحيحاً أن مهمته الرئيسية في كل البلدان التي زارها، اقتصرت على السماع ومجادلة العلماء فيها، إلى درجة أن رحلته اتسمت بهذا الطابع بشكل واضح جداً.

ومثله أيضاً الرحالة العبدري، الذي زاد عن الذين سبقوه والذين جاؤا بعده، أنه بالإضافة إلى اهتمامه بالاجتماع بالعلماء ومناقشتهم، وجه لهم انتقادات حادة، ووصف المدن التي زارها بالفراغ من العلماء. مثال ذلك أنه بالرغم من الوصف الرائع الذي قدمه عن مدينة بيت المقدس بشكل عام، فقد أولى الشؤون العلمية اهتماماً خاصاً ومميزاً، لأن هذا الاهتمام كما ذكرت كان هاجسه الوحيد. وجدير بالذكر أن هذه الظاهرة لم تبد عنده عن فلسطين فحسب، انما ظهرت في كل كتاباته عن المدن والبلدان التي زارها، ابتداء من تلمسان وانتهاء بمدينة غزة بفلسطين. فقد وصف الحركة العلمية ببيت المقدس بالتعثر والتقهقر، وذلك لندرة رجال العلم فيها يقول: «ولم أر في هذا البلد مع شرفه واشتهاره من هو أهل لأخذ العلم عنه ولا معنياً به، إلا شيخاً هو قاضي البلد، يلقب ببدر الدين، واسمه محمد بن ابراهيم بن جماعة، له مجلس علم يدرس فيه أول النهار...»[٣٦٣] الملاحظة نفسها يكتبها عن مدينة غزة فيقول: «.. عريت عن عالم أو متعلم، واقفرت من فقيه أو متكلم...»[٣٦٤] والذي يمكن قوله حول ما ورد عند العبدري عن العلم والحركة العلمية في فلسطين العربية، أن أقواله لا تخرج عن كونها تعميمات سريعة. وربما يأتي سبب هذه

---

٣٦١ — نفح الطيب ج ٢ ص ٢٣٥.

٣٦٢ — المصدر السابق ص ٣٨٣.

٣٦٣ — الرحلة المغربية ص ٢٣٠.

٣٦٤ — المصدر السابق ص ٢٣٣.

التعميمات من أن إقامته في فلسطين، كانت قصيرة جداً، فأطول فترة أمضاها في فلسطين، كانت تلك التي حل خلالها ببيت المقدس، والتي لم تتجاوز أكثر من خمسة أيام. فهل يعقل أن باستطاعته الاجتماع بكل العلماء الموجودين فيها خلال خمسة أيام على سبيل المثال؟ أضف إلى ذلك أنه لم يشر إلى اجتماع أو حضور محفل علمي، سوى حضوره حلقة تدريس بالجامع الأقصى. ورب قائل يقول، إن ذلك قد يكون صحيحاً، انطلاقاً من أن المسجد الأقصى في تلك الفترة من الزمن، كان يستقطب الغالبية العظمى من العلماء. وقول كهذا لا يخلو من ايجابية كبيرة، لكن الأمر كان غير ذلك. فبالاضافة إلى الجامع الأقصى كان في بيت المقدس عدة مدارس، تعنى بشؤون التدريس والتعليم، وبالتالي فهي مجمع يستقطب العلماء والمدرسين، لم يذكر العبدري أنه زارها، كما فعل بالجامع الأقصى. وعذره في ذلك أنه ربما لم يسمع بوجود مثل هذه المدارس جرياً على عادة الأندلسيين والمغاربة، الذين لم يكونوا قد عرفوا مثل هذا التطور في انشاء المدارس وغيرها، وهم الذين تعلموا على الدراسة والتدريس في المساجد. وهناك ناحية أخرى تتجسد بمكانة بيت المقدس، كمدينة مقدسة يجلها المسلمون في سائر أقطارهم. أضف إلى ذلك أنها إحدى كبريات مدن الشام. إذن والحالة هذه فلا بد أن تأخذ، أو بالأحرى أن تكون موضع اهتمام العلماء، يقصدونها وتستهويهم الإقامة فيها. ولعل أهم ما حدا بالعبدري لأن يصدر تعميماته هده زيادة على كل ماذكر، أن سويته العلمية وتنوع معارفه بلغتا به حدا جعله ينفي وجود علماء، لكونهم لا يوازونه في المرتبة العلمية وسعة الاطلاع. وهذا ماأشار إليه محقق مخطوطة الرحلة المغربية عندما قال: «أن سبب تفجعه على ضياع العلم، هو ماكان عليه من اتساع المعرفة، ومشاركته في كل العلوم العقلية والنقلية، لدرجة قلّ ما نجد له مثيلاً في عصره والعصور التي تليه...»[٣٦٥] وأيضاً بالنسبة للتجيبي السبتي، فهو يشترك مع الرحالة بالاهتمام بالناحية العلمية، من خلال حديثه في الجزء الباقي من رحلته، وهو الجزء الثاني، فبالرغم من أنه يتحدث فيه عن سماعاته في مصر، فإنه يذكر، بعض اجتماعاته في مدينة دمشق، التي زارها سنة ٦٩٦ هـ ــ ١٢٩٧ م أو السنة التي بعدها، ولا يعرف على وجه التحديد، الفترة التي أمضاها فيها. فقد ذكر بعض اجتماعاته بقوله: «وأخبرنا فقيه الشام، عبد الله بن مروان سماعاً بدار الحديث الأشرفية...»[٣٦٦] «وأخبرنا الحسيب الطبيب بهاء الدين أبو محمد ابن المظفر

٣٦٥ ــ الرحلة المغربية ــ مقدمة المحقق ص (ع).
٣٦٦ ــ مستفاد الرحلة والاغتراب ص ٢٢١.

الدمشقي بقراءتي عليه بالصالحية خارجها ... »(٣٦٧) وأيضاً كان الأمر بالنسبة لابن بطوطة، فقد سمع الحديث وغيره بمدينة دمشق، لكن ليس بالشكل الذي يعول عليه كثيراً، ربما لأن هدفه من الرحلة لم يكن ينحصر بهذا الأمر، مثله في ذلك مثل ابن جبير السابق الذكر. ولعل أهم كتاباته عن العلم والحركة العلمية، أنه قام بذكر المدارس في كل من مدينة حلب ودمشق، ونوه بالاهتمام البالغ، الذي يوليه أهل دمشق وساكنيها بالعلم ومؤسساته بقوله: «وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس ... ومن أراد طلب العلم .. وجد الإعانة التامة على ذلك»(٣٦٨) ولم يكن الرحالة الأخير البلوي ببعيد عن الاهتمام بالناحية العلمية، بل يمكن القول إنها احتلت جزءاً كبيراً من وقته الذي أمضاه في الرحلة، مثله في ذلك مثل ابن العربي، وابن رشيد السبتي والعبدري. وكانت أكثر اجتماعاته بالعلماء، في مدينة بيت المقدس، قبل سفره إلى الحج سنة ٧٣٧هـ ــ ١٣٣٧م، حيث استمع واجتمع بعدة علماء في المسجد الأقصى(٣٦٩). ومن الأمور التي اشترك فيها هؤلاء الرحالة، وصف المساجد والمشاهد الدينية في أماكن متفرقة من بلاد الشام، إضافة إلى الأماكن العمرانية الأخرى. وقد ظهر ذلك واضحاً عند أربعة منهم هم ابن جبير والعبدري وابن بطوطة والبلوي. فأول ما استهوى ابن جبير وركز عليه، كانت هذه الأمور بالدرجة الأولى، فقد لفت نظره في مدينة حلب جامعها الكبير، الذي وصفه بدقة، وختم هذا الوصف بالقول: «... وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف»(٣٧٠) وفي مدينة دمشق أتى على ذكر ووصف الجامع الأموي، فوصفه وصفاً دقيقاً ومطولاً، بحيث لم يترك فيه شيئاً إلا وجاء على ذكره، بالرغم من أنه قال في البداية «وهو من أشهر جوامع الاسلام حسناً واتقان بناء وغرابة صنعة، واحتفال تنسيق وتزيين، وشهرته المتعارفة إلى ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه»(٣٧١) واحتلت المشاهد الدينية القديمة والآثار الباقية حيزاً كبيراً من حديثه عن دمشق، وأطال الحديث عن الربوة(٣٧٢) ومن المظاهر العمرانية، التي كتب ونوه عنها المستشفيات، فذكر اثنان منهما، واحد حديث والآخر قديم. واشاد بالحديث، انطلاقاً من أن الأمور فيه في غاية

---

٣٦٧ ــ المصدر السابق ص ٣٤٦.
٣٦٨ ــ رحلة ابن بطوطة ص ١٠٤ ــ ١٠٥.
٣٦٩ ــ رحلة البلوي ص ١٢٢.
٣٧٠ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٣٥.
٣٧١ ــ المصدر السابق ص ٢٣٥.
٣٧٢ ــ المصدر السابق ص ٢٤٨.

التنظيم ، وخاصة النظام المحدد لزيارة المرضى ومسلك الأطباء العاملين فيه ، وكيفية التداوي إلى غير ذلك ، الأمر الذي حداه للقول بإعجاب كبير : « هذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام »[٣٧٣] أما الرحالة العبدري فقد دخل الشام من جهة الجنوب عن طريق غزة ، كما مر سابقاً ، وذلك بعد أن أدى فريضة الحج . واقتصرت زيارته على بعض مدن فلسطين العربية ، كالخليل وبيت لحم وبيت المقدس وعسقلان وغيرها .

وبالرغم من إقامته القصيرة في هذه المنطقة من بلاد الشام ، التي لا يستبعد أن يكون هدفه الرئيسي منها زيارة الأماكن المقدسة ، والمشاهد والتبرك فيها ، بالرغم من ذلك فقد ترك لنا فصلاً خاصاً تحدث فيه عن المسجد الأقصى ، الذي لم يترك شيئاً يتعلق به ، إلا وذكره بدقة وتفصيل[٣٧٤] إضافة إلى ترب الصالحين ، والشهداء والأولياء وغيرهم . وكذلك الأمر بالنسبة لابن بطوطة الرحالة الملاحق ، الذي أولى حيزاً كبيراً من اهتمامه لهذه الأمور ، فكان كلما نزل في مدينة أو بلدة ، يأتي على زيارة المساجد والمشاهد الدينية الأخرى . والأمثلة كثيرة جداً ، بحيث يتعذر ذكرها جميعاً خشية التطويل والتكرار . ولعل أوضحها ، ذلك الوصف المطول للجامع الأقصى ببيت المقدس ، الذي لم يترك فيه شيئاً إلا وجاء على ذكره ، بعد أن قال عنه في البداية : « وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن ... »[٣٧٥] مثال آخر يتجلى بوقفته الطويلة عند وصف الجامع الأموي الكبير بدمشق ، حيث أتى على ذكر كل شيء عن ماضيه وحاضره بالتفصيل ، والذي لا يستبعد أن يكون قد اعتمد على وصف ابن جبير السابق لهذا المسجد في كثير من الأمور[٣٧٦] . وقد احتلت هذه الأمور بعضاً من اهتمام الرحالة البلوي ، الذي ذكر مسجد الخليل والمشاهد الدينية الأخرى فيها ، كمقام ابراهيم وزوجته سارة ، وضريح النبي اسحق ، والنبي يعقوب . وعن مسجد الخليل قال : « .. يوجد فيه مكان خاص للواردين والمقيمين من الفقراء والأغنياء للضيافة .. »[٣٧٧] وأول ما استرعى انتباهه لدى وصوله إلى بيت المقدس ، كان المسجد الأقصى ، الذي يصفه ، بأنه من أعظم مساجد الدنيا . واستغرق في وصفه طويلاً ، بحيث يمكن القول ، أنه لم يوصف غيره بمثل ما

---

٣٧٣ — المصدر السابق ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

٣٧٤ — الرحلة المغربية ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

٣٧٥ — رحلة ابن بطوطة ص ٥٧ — ٥٨ .

٣٧٦ — المصدر السابق ص ٨٨ .

٣٧٧ — رحلة البلوي ص ٩٦ — ٩٧ .

وصفه، وخاصة طول بنائه وعرضه وعدد سواريه ومحتوياته إلى آخر ما هنالك[٣٧٨] ومن المظاهر الأخرى، التي اشترك في تصويرها هؤلاء الرحالة، كانت تصوير بعض المظاهر الاجتماعية من عادات وتقاليد وغير ذلك، كان أهل الشام، قد اعتادوا عليها، ومارسوها خلال حياتهم في فترة القرون الوسطى محور هذا البحث. ومن الرحالة الذين ركزوا بعضاً من اهتمامهم على هذه النواحي، ابن العربي وابن جبير وابن بطوطة. ولعل أهم ملاحظة دوَّنها ابن العربي في هذا الميدان، تلك التي تصور ما وصل إليه أكابر دمشق في الملاءمة بين بنيان منازلهم وبين عاداتهم. ففي رواية ينقلها المقري في نفح الطيب يقول فيها: «في دخولي بدمشق بيوت بعض الأكابر، رأيت فيه النهر جارياً إلى موضع جلوسهم، ثم يعود من ناحية أخرى، فلم أفهم معنى ذلك، حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبل إلينا، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا، فلما فرغنا، ألقى الخدم الأواني وما معها في النهر الراجع، فذهب به الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية، فعلمت السر وأن هذا العجب»[٣٧٩]. فأما ابن جبير فقد لفت نظره وأثار اهتمامه، تلك العلاقات بين السكان، وتلك العادات، التي كان أهل دمشق يمارسونها. من ذلك عبارات التحية والسلام، التي يتبادلها السكان فيما بينهم. فأبدى أسفه الشديد تجاهها، وشبه أهل دمشق في طريقه تبادل التحية والسلام بالنساء عندما قال: «وصفة سلامهم ايماء بالركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب ما بين رفع وخفض وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائمهم تهوى بينهم هوياً. وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام، كنا عهدناه لقينات النساء، وعند استعراض رقيق الاماء، فيا عجباً لهؤلاء الرجال، كيف تحلّوا بسمات ربات الجمال»[٣٨٠] وقد استرعى انتباهه، أثناء زيارته لبعض مناطق جبل لبنان، المعاملة الرائعة التي يعامل بها المسيحيون اخوتهم المسلمين هناك، فأشاد من خلالها بأخلاق المسيحيين في جبل لبنان، انطلاقاً من موقفهم تجاه المسلمين موقف المعين الرافد، عندما تحدق بهم الملمات، وتكون المساعدة ضرورة ملحه يقول: «ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان، إذا ما رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين، جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، يقولون هؤلاء، من انقطع إلى الله عز وجل، فيجب مشاركتهم... وإذا كانت معاملة

---

٣٧٨ ــ المصدر السابق ص ١٠٣ وما بعدها.

٣٧٩ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٤٣.

٣٨٠ ــ رحلة ابن جبير ــ ص ٢٦٨.

النصارى لضد ملتهم، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض»[٣٨١] وفي هذا القول رد صريح على مفتعلي الفتن، وذوي النزعة الانفصالية عن جسم الأمة العربية، وتشكيل دول طائفية بالتعاون مع اعداء هذه الأمة. وهم ينطلقون بذلك من أساس ديني لا معنى له، وبالتالي لا يمكن أن يصمد أمام الحقيقة التاريخية، التي تؤكد عراقة انتماء العرب إلى الأرض العربية، وانضوائهم تحت لواء القومية العربية، التي ظهر مفهومها في العصر الحديث بغض النظر عن الأديان والمعتقدات. ومن ناحية أخرى، فقد أثنى على الروح الانسانية، والتي تجلت بأعمق معانيها وأحلى صورها في معاملة أهل الشام الطيبة للغرباء، وايثارهم إياهم على أنفسهم في أحيان كثيرة، بحيث يتولد شعور عند كل غريب، أنه موجود بين أهله وفي وطنه. يقول في هذا الصدد: «.. وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء، للانفراد يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع، فيكون فيها طيب العيش ناعم البال، وينهال الخبز عليه من الضيعة، ويلتزم الإمامة والتعليم أو ما شاء»[٣٨٢] وأما ابن بطوطة فانه ذكر بعضا من صور الحياة الاجتماعية في الشام منها ما ذكره حول العطلة الأسبوعية في مدينة دمشق، التي قال أنها كانت يوم السبت، الذي كان يخرج فيه السكان إلى المنتزهات وشطوط الانهار والبساتين[٣٨٣] كما ذكر عادات أهل الشام في معاملة الغرباء في دمشق وغيرها. ومن الأمور الأخرى التي اشترك فيها بعضهم، كانت الأمور السياسية، التي بدأها ابن جبير بملاحظة ذكية سجلها في كتابه (رحلة ابن جبير)، تدور حول العلاقة بين أهل الشام والصليبيين. فوصفها بأنها كانت طيبة، بالرغم من حالة العداء السائدة بين الفريقين حينذاك. ووصلت إلى درجة من الوئام واللحمة، يصعب تحقيقها أحياناً بين أهل البلاد الأصليين أنفسهم، يقول: «ومن أعجب ما يحدث به، أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان منهم، ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى، تختلف بينهم دون اعتراض على غيرهم.. والاتفاق بينهم، والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب»[٣٨٤]. وفصل ابن جبير في أن أساس هذه العلاقة الطيبة، يرجع إلى أن جميع سكان الساحل، الذين سيطر الصليبيون على

---

٣٨١ ــ المصدر السابق ص ٢٥٩.

٣٨٢ ــ المصدر السابق ص ٢٥٨.

٣٨٣ ــ رحلة ابن بطوطة ص ٨٧.

٣٨٤ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٦٠.

أملاكهم ، يقدمون نصف محاصيلهم على اختلاف أنواعها للمحتلين دون حرج ولا تذمر ظاهر(٣٨٥) . وقد اثنى في مواضع شتى على السلطان صلاح الدين الايوبي ، الذي كان مشغولاً في قيادة معارك التحرير ، في أثناء زيارته لبلاد الشام . فقام بمدحه بشيء من الصدق والامانة ، وكان محقاً ومصيباً في ذلك ، انطلاقاً من المهمة الجليلة ، التي تصدى لتنفيذها صلاح الدين الأيوبي ، والتي تتجلى بالسعي الحثيث الصادق ، من أجل رد عادية الصليبيين وتحرير ما اغتصب على أيديهم من أرض العرب والاسلام ، وخاصة مدينة بيت المقدس(٣٨٦) . ومن الذين اشتركوا بالأمور السياسية ومقابلة الحكام ، كان ابن سعيد ، الذي قابل الناصر الأيوبي خلال فترة نزوله بمدينة حلب ، وفي أثناء هذه المقابلة سأله الناصر الايوبي عن قصده من الرحلة إلى المشرق ، فأخبره أنه في صدد تصنيف بعض الكتب ، الذي أسماه فيما بعد (المشرق في حلى المشرق) ، فأعانه في إنجاز مهمته ، بأن وعده بوضع جميع خزائن الكتب الموجودة عنده تحت تصرفه(٣٨٧) وتتعمق عنده قضية الاهتمام بالحكام والملوك من الذي ذكره صاحب نفح الطيب نقلاً عن ابن سعيد نفسه ، أنه اهتم بسيرة الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب ، الذي كان قد حكم بدمشق سنة ٥٩٢ هـ ـــ ١١٩٦ م ، فوصفه بأنه من أعظم السلاطين حزماً ودهاء وحكمة(٣٨٨) وأما الرحالة العبدري فإن الأمور السياسية ، تجلت عنده من خلال ما كتبه عن مدينة عسقلان ، فقد تفجع عليها ، وأظهر أسفه الشديد ، على ما حل بها من خراب ودمار ، بأسلوب يستشف منه رائحة دعوة صادقة لتجنب وعدم تكرار مثل هذه الفاجعة ، ولا يكون ذلك إلا باليقظة التامة والاستعداد الكامل والتحفز الدائم من قبل الحكام والشعب ، لمواجهة الخطوب بقوة وصدق وأمانة ، يقول : « .. ثم زرنا ثغر عسقلان جبره الله ، وهو خراب يباب لا أنيس به ، إلا أطلالا مائلة وآثاراً طامسة ، تثير بالقلب تباريح الأسى ، وتعيد الشرق من انسه حندسيا ، تحث المبصر على أعمال العبرة واسبال الجفون بوابل العبرة ... »(٣٨٩) ومن اهتماماتهم المشتركة ، كان الناحية الجغرافية وخاصة الطبيعية منها ، فقد أتى ابن جبير على ذكر التشابه بين بعض مناطق الشام ، وبعض

---

٣٨٥ ـــ المصدر السابق ص ٣٠١ .

٣٨٦ ـــ نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٨ ـــ الذيل والتكملة سفره ق ٢ ص ٥٩٩ .

٣٨٧ ـــ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٧٢ ـــ ٢٧٣ .

٣٨٨ ـــ نفح الطيب ـــ ج ٢ ص ٢٩٦ وما بعدها .

٣٨٩ ـــ الرحلة المغربية ـــ ص ٢٣١ .

مناطق الأندلس، كقنسرين وحمص ودمشق[٣٩٠] وذكر بعض الظواهر الطبيعية السائدة بلاد الشام، منها الرياح، التي كان لها تأثير كبير على حركة السفن من المشرق إلى المغرب[٣٩١] وكذا الحال بالنسبة لابن سعيد الأندلسي، فقد أشار إلى وجود تشابه، بين دمشق وحمص من جهة، وبين غرناطة واشبيلية من جهة أخرى[٣٩٢] وأما الرحالة العبدري، فان أهم ملاحظاته الجغرافية، تلك التي دونها عن مدينة عسقلان، فأشاد بموقها البحري والبري على حد سواء، بقوله: «وقلّ ما رأيت من إلبلدان، أن جمع من المحاسن، ما جمعت عسقلان، جبرها الله، صنعا واتقاناً ووضعاً ومكاناً وبراً وبحراً ...»[٣٩٣] وفي مكان آخر مزج العبدري في إحدى ملاحظاته الجغرافيا مع الاقتصاد، عندما كان بصدد الحديث عن مدينة غزة، التي نالت إعجابه على كل الصعد، ما عدا الصعيد العلمي، فقد وصفها، بأنها من أكثر البلدان الشامية التي زارها، ازدهاراً، وهي ذات موقع هام جداً، باعتبارها جسراً حيوياً يصل بين مصر والشام[٣٩٤] ومن الأشياء التي اشترك في وصفها هؤلاء الرحالة وركزوا عليها بعض الشيء، الحالة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، فقد اقتصرت ملاحظات ابن جبير على تنويهات بسيطة جداً في هذا الميدان، فجاءت وصفية عامة غير مفصلة، مثال ذلك ما ذكره في أول دخوله بلاد الشام، عندما قال عن مدينة منبج: «بأنها مدينة ذات بساتين وارفة، وآبار غنية بالمياه، وحوانيتها تمتاز بسعتها وكبر حجمها»[٣٩٥] وتحدث عن التجارة بعض الشيء، عندما زار مدينة عكا، التي وصفها بأنها من المدن التجارية الكبرى على الساحل الشامي، بحيث كانت تكتظ بالسفن التجارية القادمة من المغرب وبالعكس. وأولى ابن بطوطة أيضاً هذه الأمور بعض الاهتمام. ولكن معلوماته كانت هي الأخرى مقتضبة وعامة، فكل ما ذكره عن التجارة، لم يتعد كونه ذكراً عابراً عن الأسواق وعن طريقة صنع المحلات التجارية وتجهيزها في مدينة حلب وغيرها من المدن الأخرى[٣٩٦] ومن الاشياء المشتركة بينهم عدم ذكر اليهود في بيت المقدس. بالرغم من اهتمام

---

٣٩٠ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٢٣.

٣٩١ ــ المصدر السابق ص ٢٨٤.

٣٩٢ ــ نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٩.

٣٩٣ ــ الرحلة المغربية ــ ص ٢٣٢.

٣٩٤ ــ المصدر السابق ص ٢٣٣.

٣٩٥ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٢٣.

٣٩٦ ــ رحلة ابن بطوطة ص ٧٠ ــ ٧١.

كل من ابن بطوطة والعبدري بالأمور الدينية والمشاهد المقدسة ، على اعتبارهما زارا مدينة بيت المقدس . فإنهما لم يذكرا شيئاً يدل على وجود يهود في أية مدينة فلسطينية ، وفي هذا رد قوي ، يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار ، في كل مناسبة تذكر فيها فلسطين وبيت المقدس بشكل خاص وذلك انطلاقاً من الادعاءات الصهيونية ، التي تؤكد في كل مناسبة على أن القدس ، يجب أن تكون وتبقى العاصمة الأزلية للدولة الصهيونية المزعومة . والحق يقال ، أن ابن بطوطة وقبله العبدري ، لا يمكن أن يكونا قد تناسيا ذكر وجود اليهود في بيت المقدس عن قصد أو هدف ، فيما لو كان لهذا الوجود حقيقة أو أثر ، وإذا كان الأمر مدبراً أو مقصوداً من قبل هذين الجغرافيين على سبيل المثال ، فأين كان اليهود عشية الاحتلال الصليبي لعاصمتهم المزعومة ؟ واين كانوا أيام الإعداد والحرب من أجل استعادتها بقيادة صلاح الدين الايوبي ؟ وللجواب على هذه التساؤلات أقول بأني لم أعثر على ما يدل أو يشير إلى وجود جالية يهودية ببيت المقدس ، حيث يجب أن يتواجدوا ، انطلاقاً من أنها مقدسة بالنسبة لهم ، كما يدعون في هذه الأيام ، لا في كتب الذين كانوا أقرب الناس إلى صلاح الدين ، ولا في كتب غيرهم . وإذا كانت هذه الأشياء ، التي تقدم ذكرها حتى الآن هي التي شكلت نقاط الالتقاء بين بعض هؤلاء الرحالة ، فان هناك أموراً أخرى ، تميز بها كل واحد عن الآخر . فبالنسبة لابن العربي أول هؤلاء ، فقد تميز عن رفاقه ، من أنه لم يوسع رحلته التي اقتصرت على مدينة دمشق وبعض مدن فلسطين والتي لم تصل إلينا كل تفاصيلها . أما أبو حامد الغرناطي ، فبالرغم من اقامته الطويلة بمدينة دمشق ، فانه لم يوليها شيئاً من اهتمامه . وانفرد بميزة خاصة عن كل الجغرافيين موضوع هذا البحث ، تجلت بأنه احتل مكانة مرموقة في ميدان العجائب ، فقد ألف كتابان ضمنهما معلومات عن رحلته في ايران وبعض المناطق الروسية ، أولهما (المغرب في بعض عجائب المغرب) كتبه للوزير ابن هبيرة ، وثانيهما (تحفة الألباب) الذي ألفه بالموصل استجابة لرجاء الشيخ محيي الدين أبي حفص عمر بن محمد بن خضر الاردبيلي . وهكذا فانه لا يمكن أن يقارن من قريب أو بعيد مع غيره من الرحالة للاختلاف في مجال اهتمامه عن اهتمامهم الذي تركز على نواحي عديدة تتصل ببلاد الشام(٣٩٧) . وأما ابن جبير فأول ما يمتاز به ، أنه جاء إلى الشرق بمحض ارادته وعن سابق تخطيط بهدف الاطلاع والتجوال ، بعكس ابن العربي على سبيل المثال الذي قصد المشرق بفعل تغير أوضاع عائلته لدى الحكام في اشبيلية ، كما يختلف عنه اضافة إلى أبي حامد الغرناطي ، بأن زيارته لم تقتصر

---

٣٩٧ ـــ نفح الطيب ج ٢ ص ٢٣٥ .

على زيارة دمشق فحسب ، إنما زار عدة مناطق شامية ، بدأها بالرقة التي كانت أول محطة شامية نزل بها ، ليعرج بعدها على الميادين ومنبج فحلب وقنسرين والمعرة وحماة وحمص ودمشق ، ومن ثم بيت جن وبانياس ، وبعض المناطق اللبنانية والفلسطينية ، كتبنين وصفد وعكا وغيرها ، ويلاحظ أن ابن جبير من خلال رحلته في الشام ، كانت اقامته بدمشق طويلة إلى حد ما ، فقد بلغت سبعين يوماً امتدت من ٢٤ ربيع الأول عام ٥٨٠ هـ ـــ ١١٨٥ م وحتى ٢ جمادى الآخرة من العام نفسه ، وهي مدة طويلة ، إذا ما قورنت بالمدة التي قضاها في بغداد أو في غيرها كالحجاز ، فهي تعادل ست مرات ونيف المدة التي أمضاها في بغداد ، وتساوي المدة التي قضاها في الحجاز كله ، برغم أن الحج كان أحد الأهداف الرئيسية لرحلته . أما ابن سعيد فانه لا ينفرد بميزات خاصة تميزه كثيراً ، سوى اهتمامه بتأليف الكتب التي أهدى بعضها ، وهو كتاب (ملوك الشعر) للملك الناصر الايوبي صاحب حلب[٣٩٨] . أما الرحالة العبدري فيختلف عن الجميع بسعة اطلاعه وغزارة علمه ، ومن ثم في قصر الفترة الزمنية التي أمضاها ، في المنطقة التي زارها في فلسطين ، بعد أن كان قد وصل إليها ، على أثر رحلة طويلة ، بدأت بتلمسان وبجاية وتونس والقيروان وطرابلس ، والاسكندرية فالقاهرة ، التي انتقل منها إلى العقبة فمكة المكرمة ، حيث أدى فريضة الحج ، أضف إلى ذلك أنه يعتبر مكملاً لابن جبير ، الذي لم يسجل لنا عن فلسطين شيئاً يذكر ، إذا ما استثنيت بعض الملاحظات عن مدينة عكا . أما ابن بطوطة ، فانه يمتاز عن الجميع إذا ما استثنيت دقة وصدق ابن جبير ، يمتاز بعدة ميزات جعلته ينفرد بها دونهم . منها ، أن ابن بطوطة قضى معظم سني حياته بالتنقل وحياة الترحال ، بحيث استطاع ان يزور ويكتب عن بلدان كثيرة جداً ، لم يكن قد عرفها ابن جبير على سبيل المثال ، كونه توسع بشكل ظاهر ، أكثر من الذين سبقوه وبعض الذين جاؤا بعده ، سواء على صعيد بلاد الشام أم على صعيد غيرها . فقد زار ابن بطوطة واطلع على مناطق شامية أكثر منه ، فقد دخل بلاد الشام أول مرة سنة ٧٢٦ هـ ـــ ١٣٢٦ م ، فزار كلاً من غزة والخليل ، وبيت المقدس ، وبيت لحم ، وعسقلان ، والرملة وعجلون ، وعكا وصور ، وصيدا وطبريا وبيروت وطرابلس ، وحمص وحماة والمعرة ، وبلدة سرمين وحلب ، ثم انطاكية وبلدة صهيون والقدموس وجبلة واللاذقية وبعلبك ودمشق . أما في المرة الثانية ، وبعد غياب دام عشرين سنة ، فزار كلاً من الميادين والسخنة وتدمر ودمشق وحمص وحماة والمعرة وحلب .

---

٣٩٨ ـــ نفح الطيب ص ٢٩٥ .

هذا بالاضافة إلى طول الفترة التي أمضاها في هذه المدن ، وخاصة بدمشق كما امتاز عنهم جميعاً ، بأنه أشار إلى بعض الصناعات ، في بعض مدن الشام التي زارها ، فذكر صناعة الدبس المستخرج من العنب ، وصناعة الثياب ، وملاعق الخشب والأواني بمدينة بعلبك(٣٩٩) . كما امتاز عنهم أيضاً بالاهتمام بالأمور الادارية ، التي لم تلق من الجميع حتى مجرد إشارة بسيطة ، فتحدث عن القضاء في معظم المناطق التي حل بها ، كحلب ودمشق وطرابلس ، وزاد على ذلك ، بأن تحدث عن الحاكم وكاتب السر ووكيل بيت المال ، وكافة الأمور الادارية بمدينة طرابلس الشام(٤٠٠) لكن أروع ما كتبه في هذا المضمار ، كان عن مدينة دمشق . حيث ذكر الأوقاف فيها بالتفصيل ، منها أوقاف على العاجزين عن الحج ، وأوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن ، اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، وأوقاف لفكاك الأسرى ، وأوقاف لابناء السبيل ، وأوقاف لرصف الطرق وتعديلها ، لأن أزقة دمشق وشوارعها في تلك الفترة كما يذكر ، تتألف كل واحدة منها من رصيفين لمرور المترجلين ، وفي الوسط يكون مرور الراكبين ، وهناك أوقاف الأواني وغير ذلك(٤٠١) وفوق كل ذلك فانه يمتاز عنهم جميعاً ، بأنه ضمن كتابه ، معلومات عن الرحلة الأولى والثانية لبلاد الشام ، بينما انعدم ذلك عند ابن جبير ، بالرغم من أنه زار فلسطين مرتين بعد رحلته الأولى . التي دونت أحداثها في كتابه المسمى بـ(رحلة ابن جبير) ، وعذره في ذلك ، انه ربما لم يسعفه الوقت لان يجري التعديل الجديد أو غير ذلك من أمور يصعب تحديدها ومعرفتها .

الاداريون

وما ينطبق على الاداريين الدائمين ، فإنه ينطبق على المؤقتين ، باستثناء بعض النواحي ، التي تتجسد في أنه لا وجود لأداريين أندلسيين مغاربة ، عملوا لفترة معينة ثم غادروا الشام ، ماعدا منصب القضاء ، الذي لاقى أصحابه اهتماماً ملحوظاً من قبل المؤرخين ، وذلك لعظمة وجلالة هذا المنصب . والذين عرفوا من القضاة المؤقتين هم قلائل جداً ، ومع ذلك فهم صورة طبق الأصل عن أولئك الدائمين من حيث السلوكية والأهلية وغير ذلك . فكانوا على قسمين ، القسم الأول عمل لصالحه الشخصي مستغلاً وجوده في منصب قاضي القضاة ، والقسم الثاني طبق كل ما يستلزمه هذا المنصب من واجبات وحقوق . وقد تمثل

٣٩٩ ــ رحلة ابن بطوطة ص ٨٣ .

٤٠٠ ــ المصدر السابق ص ٦٤ ــ ٦٥ .

٤٠١ ــ المصدر السابق ص ١٠٤ .

القسم الأول من القضاة المؤقتين بشخص أحمد بن ياسين بن محمد الرياحي، الذي يعتبر أول قاض للمالكية في مدينة حلب، بعد اعتماد هذا المنصب فيها بشكل رسمي سنة ٧٤٧ هـ ــ ١٣٤٧ م. وكان كما قيل سيىء السيرة والاخلاق، لم يرع للقضاء حرمة. وقد بقي أربع سنوات متتالية، عزل على أثرها سنة ٧٥٢ هـ ــ ١٣٥٢ م وبقي هكذا فترة أربع سنوات، أعيد بعدها حتى سنة ٧٦٠ هـ ــ ١٣٥٩ م وعزل مرة أخرى، لكن هذه المرة لفترة وجيزة، ليتسلم مرة ثالثة حتى سنة ٧٦٣ هـ ــ ١٣٦٢ م عندما عزل إلى غير رجعة. وقد سافر إلى القاهرة على أمل الحصول على قرار جديد باعادته إلى منصبه، لكن الموت أدركه هناك سنة ٧٦٤ هـ ــ ١٣٦٣ م ليتخلص الحلبيون من حكمه الجائر والمتعسف، الذي يظهر من خلال مشاعر الفرح، الذي عم أهالي مدينة حلب عندما غادرها، حيث دقوا البشائر وزينوا البلد احتفاء بالخلاص منه[٤٠٢]. ولسوء حظ أهالي الشام، فإن أمثال هذا القاضي، لم يكونوا يحبذون الرحيل عنها. لذلك فإن القاضي المذكور هو الوحيد من بين القضاة السيئي السيرة والمفتقرين إلى المعرفة، الذي هاجر عن الشام، ولم تكن هجرته نتيجة ضغط، أو عدم استقرار، وذلك بعكس الفريق الآخر من القضاة، الذين جمعوا ما بين المعرفة الشرعية والقضائية، وما بين السلوكية والأخلاقية الضرورية لكل من يتصدى لهذا المنصب. فكان من هؤلاء، أول قضاة مدينة حماة من المالكيين في أوائل العقد الأول من النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، الذي عرف عنه تضلعه الحاذق في علوم اللغة العربية والشرعية وخاصة على المذهب المالكي. فكان يحفظ موطأ مالك، اضافة إلى معظم سيرة ابن هشام. كما اشتهر بعلم القراءآت والحساب والتفسير، حتى وصفه البعض بأنه لم يعرف مالكيا زار بلاد الشام بسعة علومه واحاطته بها. وقد تمثل هذا القاضي بشخص اسماعيل بن محمد بن هانىء اللخمي الغرناطي المالكي الملقب بشرف الدين أبي الرشيد. ولد بغرناطة بجنوب الأندلس سنة ٧٠٨ هـ ــ ١٣٠٩ م أو سنة ٧١٠ هـ ــ ١٣١١ م وأخذ العلم عن جماعة من العلماء فيها. وفي سنة ٧٣٠ هـ ــ ١٣٣٠ م، قدم القاهرة، حيث بقي لمدة وجيزة، توجه بعدها إلى مدينة حماة، وفيها تسلم قاضي قضاة المالكية حتى سنة ٧٦٧ هـ ــ ١٣٦٦ م، وانتقل على أثرها إلى مدينة دمشق لتسلم قضائها المالكي لفترة قصيرة، ليعود مرة أخرى إلى حماة، التي لم تطل اقامته

---

٤٠٢ ــ الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٢٧ ــ تاريخ أبي الفدا ج ٤ ص ١٤٧ ــ النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ١٩٠. الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ١ ورقة ١٩١ ــ ١٩٢.

فيها هذه المرة، ليغادرها إلى مصر، حيث توفي بمدينة القاهرة سنة ٧٧١ هـ ــ ١٣٧٠ م[٤٠٣]. وفي النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، حل بمدينة حماة قاضٍ من هذا الطراز من ناحية الثقافة والمعرفة بشؤون القضاء، إضافة إلى السيرة الطيبة وامتثال الحق والعدل في الأحكام، هو محمد بن يحيى الأندلسي اللبسي، الذي وصفه ابن حجر العسقلاني المعاصر له قائلاً: «الشيخ الامام العلامة في الفنون قاضي الجماعة.. انه انسان حسن إمام في علوم منها الفقه والنحو وأصول الدين، يستحضر علوماً كأنها بين عينيه». هذه الثقافة الواسعة، لا يعرف من أين استقاها وحصلها، لكن الأمر الواضح أنه كان أحد تلامذة ابن حجر، الذي توسط له عند الملك الأشرف، فولاه قضاء المالكية بحماة، التي لم تطل مدته فيه، فتركه لأسباب غير معروفة، عندما تضايق من حاكمها. فسافر إلى حلب بحجة أنه يريد سماع الحديث على بعض حفاظها. ومن هناك التجأ إلى برسا في بلاد الروم، حيث بقي حتى وافاه الأجل سنة ٨٨٤ هـ ــ ١٤٧٩ م[٤٠٤] الأمر الذي يوحي أن هذا القاضي أراد أن يكون منصب القضاء من المناصب التي يجب أن تتمتع بالاستقلال التام عن الحكام ومشيئتهم. أو أنه خشي من عاقبة البقاء في مدينة حماة، ما بقي يعارض الحاكم فيها بشدة، مما جعله يختار صقعاً لا يمت إلى الاسلام بصلة، يكون فيه أميناً على حياته. واحتضنت مدينة بيت المقدس قاضياً، حصل من العلم شيئاً كثيراً في بلده غرناطة بجنوب الأندلس. رحل إلى بلاد الشام في وقت متأخر بالنسبة لفترة هذا البحث. فأول ما حط رحاله في مدينة القاهرة سنة ٨٨٨ هـ ــ ١٤٨٣ م. وهناك حضر مجلساً لبعض علمائها والقى عدة دروس، برهن من خلالها على مقدرة علمية فائقة، مما جعل بعضهم يسعون له لدى السلطان، فولاه قضاء القدس الشريف في أواخر سنة ٨٨٩ هـ ــ ١٤٨٤ م، واستمر فيه حتى سنة ٨٩٢ هـ ــ ١٤٨٧ م، غادر على أثرها القدس متوجهاً إلى القاهرة، حيث بقي فيها حتى وافته المنية سنة ٨٩٥ هـ ــ ١٤٩٠ م[٤٠٥]. أما على المذهب الشافعي وغيره من المذاهب الأخرى، فاني لم أعثر فيما وقفت عليه من مصادر على ترجمة أحد من الأندلسيين المغاربة

٤٠٣ ــ طبقات القراء ج ١ ص ١٦٨ ــ الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٨٩ ــ ٣٨٠ بغية الوعاة ص ١٩٩. الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ١ ورقة ٢٤٦ ــ ٢٤٧ ــ ٢٤٨ ولقبه في هذا الكتاب أبي الرشيد ــ وفيات ابن رافع الترجمة رقم ٨٩٠.

٤٠٤ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ ــ ٦١٨.

٤٠٥ ــ الأنس الجليل ج ٢ ص ٥٩٠ ــ الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٦٢.

المؤقتين كان قد شغل منصب قاضي القضاة أو عمل في هذا المجال في كل أنحاء بلاد الشام، وخلال الفترة الطويلة من العصور الوسطى ميدان هذا البحث. أما العاملون في المجالات الاقتصادية، فلا وجود لهم البته في المصادر، الأمر الذي يوحي بأن من قدم الشام من هؤلاء، لم يكن بحاجة إلى الرحيل عنها، وذلك لتوفر فرص العمل في شتى المجالات الاقتصادية والزراعية والصناعية والتجارية، أضف إلى ذلك المعاملة الطيبة التي عامل بها الشاميون الأندلسيين طيلة فترة هذا البحث، وبالرغم من ذلك، فلا استطيع الجزم، بأنه لم تحدث هجرة من الشام على صعيد هذه الفئة بصورة نهائية.

وذلك لسبب بسيط، هو أن الظروف مهما كانت ملائمة وايجابية، فلا يمكن أن تتفق أو تشمل الجميع من هؤلاء، الذين شكلوا أعداداً كبيرة تفوق جميع أعداد الفئات الأخرى من الأندلسيين نزلاء بلاد الشام. وأما بالنسبة لرجال الفن على مختلف فئاتهم، فاني لم أعثر على تراجم أو اشارات لأندلسيين عملوا في الفن المحظور في الشام[٤٠٦] وهربوا منها كي يمارسوها في مناطق أخرى. وما ينطبق على الأندلسيين المقيمين في هذا الشأن، فانه ينطبق على المؤقتين ان كان لهم وجود ما.

٤٠٦ ــ يقصد بالفن المحظور هنا الموسيقى والغناء وما شاكل ذلك.

الفصل الثاني

دور الأندلسيون المغاربة في الحياة العامة ببلاد الشام

لقد تبين من خلال الفصول السابقة، أن الأندلسيين المغاربة، كونوا جالية كبيرة العدد، متنوعة الاختصاصات، توزع أفرادها بحسبها، وشاركوا في جميع شؤون الحياة العامة ووجوهها، بحيث لم يخل مكان ولا مجالٌ منهم. وقد عبروا في كثير من الأحيان عن عمق صدقهم وتفانيهم في الأعمال، التي أوكلت إليهم، وغدوا في أحيان كثيرة أيضاً معلمين وروادأ في ميادين اختصاصاتهم، وترك بعضهم آثاراً علمية خالدة في عدد من العلوم. كما عبرت مجموعة منهم عن حس عربي إسلامي، ترجموه إلى حقيقة وفعل، عندما وقفوا مدافعين عن العروبة والاسلام مضحين بانفسهم أحياناً، وبأموالهم أحياناً أخرى. ولتكون الصورة أوضح وأجلى فلا بد من دراسة دورهم في كل ميدان بشكل منفصل عن الآخر.

في مجال العلوم

لقد كان دورهم في هذا المجال رائداً ومرموقاً، ظهرت آثاره في كل الظروف والأوقات تقريباً. وهذا ليس غريباً عليهم، لكونهم أبناء بيئة حضارية عالية المستوى. فقد حملوا لواء المشاركة والاسهام في كل فرع من فروع العلوم العقلية والنقلية المعروفة والمسموح بها في تلك الفترة من الزمن، والتي تشكل بحد ذاتها محور هذا البحث. فظهر منهم أقطاب حفلت

حياتهم بالاشتغال والعطاء بلا حدود ، فأفادوا الدارسين والطلبة ، وقدموا لهم أجزل العطاء ، وأجل الخدمات وأروعها . يحدوهم في ذلك الوفاء والاخلاص من جهة ، وغزارة معرفتهم من جهة أخرى . ففي ميدان العلوم العقلية والتطبيقية ، اشتهروا بشكل مميز بعلم الطب والصيدلة ، إضافة إلى معرفة لابأس بها في كل من الهندسة والفلك والكيمياء . ففي ميدان الطب ، لم يكونوا مجددين ، بمعنى أنهم لم يأتوا باكتشاف يمكن اعتباره حديثاً بالنسبة لبلاد الشام ، بالرغم من أن غالبيتهم ، حلوا بالشام وهم على درجة كبيرة من العلم والمعرفة الطبية التي لم تكن غريبة على الأطباء الشاميين . وتأتي أهمية دورهم في هذا الميدان من خلال الخدمات الجليلة التي قدموها للمجتمع الشامي في أصعب الظروف وأحوجها إلى الخدمة والرعاية في زمن صلاح الدين الايوبي ، عندما كان يخوض المعركة من أجل تحرير بيت المقدس وغيرها من مناطق الساحل العربي الشامي من دنس الاحتلال الصليبي ، بحيث قدر لبلاد الشام وفي فترات مختلفة ، أن تحتضن أنماطاً رفيعة المستوى من الأطباء الأندلسيين واعظمهم في تلك الفترة . وتأتي عظمة هؤلاء الأطباء من أنهم شغلوا مراكز ، كان لها أكبر الأثر في رفد الشام بالكوادر الطبية ، إضافة إلى اشتراكهم في الحرب ، كأطباء في جيش صلاح الدين وكأطباء في الداخل ، وخاصة بمدينة دمشق ، التي كانت حينذاك محور استقطاب الفعاليات جميعها وعلى مختلف الأصعدة والوجوه ، باعتبارها قاعدة التحرير . ويمكن التفصيل بشكل أكثر من ذلك ، بالقول إن أكثر من اثنين من الأطباء الأندلسيين ، توصلوا إلى رئاسة المستشفيات ، بمدينة دمشق ، هذا بالإضافة إلى أن غالبيتهم عملوا كأطباء رسميين ، في مستشفيات الشام . وأيضاً فان أكثر من اثنين منهم عملوا كأطباء ومعتمدين عند الحكام والسلاطين ، مثال ذلك ، الطبيب عبد المنعم الجلياني[1] الذي خدم صلاح الدين الايوبي فترة طويلة من الزمن ، كان معظمها في ميدان الحرب والمعارك ، التي دارت رحاها بين العرب والصليبيين على أرض فلسطين العربية في الربع الأخير من القرن السادس الهجري ، وهو يشبه في عمله هذا إلى حد كبير ، رئيس المجموعة الطبية ، التي ترافق فرقة أو قطعة من الجيش في أيامنا هذه . وتأتي أهمية دورهم من جهة ثانية ، أنهم بالاضافة إلى عملهم كأطباء في المستشفيات ومرافقين للجيش ، فإنهم شكلوا كادرا مؤهلاً للقيام بعملية التدريس في كثير من المدن الشامية ، لذلك كثيراً ما كانوا يخصصون وقتاً معيناً لهذه المهمة النبيلة ، بالرغم من كثرة مشاغل البعض منهم وضيق أوقاتهم . فقد تخرج عليهم عدد كبير من الطلاب ،

١ — انظر عنه ص ١٣٥ من هذا البحث .

استطاع بعضهم أن يصل إلى مستوى عالٍ من المهارة في صناعة الطب والتأليف به. أذكر من هؤلاء على سبيل المثال واحداً من تلاميذ الطبيب الأندلسي أبي المجد محمد بن أبي الحكم[٢] وهو مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي الدمشقي المولد والمنشأ. كان يعرف بالمهندس لمعرفته بعلم الهندسة قبل أن يتحول إلى الاشتغال بالطب. درس المذكور علم الطب على أبي المجد حتى برع فيه، الأمر الذي مكنه من أن يصبح أحد الأطباء في البيمارستان النوري، والذي ظل يعمل فيه حتى وافته المنية سنة ٥٩٩ هـــ ١٢٠٣ م. ومما يدل على براعته في هذا العلم، مؤلفه الموسوم بـ (كتاب الأدوية المفردة) المرتب بحسب تسلسل الحروف الأبجدية[٣] وقد اعتبر هؤلاء الأطباء مجددين من ناحية أخرى، تجلت بأنهم عملوا على تجسيد خبرتهم وعلمهم بمؤلفات كثيرة، أما في ميدان العلوم الصيدلانية، فقد كان الأمر أكثر جدة وحداثة على صعيد المجتمع الشامي، فقد وجد من بين الصيادلة المغاربة، من كان له السبق في اكتشاف العديد من المواد الدوائية، التي لم تكن معروفة بالشام، ولم يذكرها أحد من قبل. مثال ذلك الطبيب الصيدلاني ابن البيطار، الذي ألف كتابا سماه (الجامع في الادوية المفردة).

وقد اعتبره البعض من أكمل ماصنفه العرب في هذا المضمار، حيث احتوى على اسم ٣٠٠ مادة دوائية جديدة. وكان أبرز الذين استفادوا منه بمدينة دمشق، الطبيب الدمشقي ابن أبي اصيبعة، صاحب كتاب (عيون الانباء في طبقات الاطباء)[٤] مثال آخر، يتجلى بالطبيب الأندلسي عمر بن علي البذوخ[٥] الذي أسدى خدمات جليلة للمجتمع الدمشقي خلال فترة وجوده بدمشق، حيث اقتصر على خدمة عامة للناس، بعكس الكثيرين من زملائه وأبناء وطنه. فكانت له دكان خاصة باللبادين، يرتاده الناس للاستشارة الطبية، فكان إضافة إلى أنه يقوم بتشخيص المرض وتعيين موضعه، كان يعطي الدواء، الذي هو من صنع يده في كثير من الأحيان، أما في بقية الفروع الأخرى من العلوم العقلية البحتة، كالكيمياء والهندسة والفلك وغيرها، فإن الأندلسيين، لم يشتهروا بها بشكل يسمح للمرء أن يفند الفوائد والخدمات التي قدموها لبلاد الشام من خلال هذه العلوم.

---

٢ ــ ظر ترجمته ــ الوافي بالوفيات ج ٤ ط دمشق ١٩٥٩ ص ٢٤.

٣ ــ يون الانباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٩٠ ــ ١٩١.

٤ ــ انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٣٣ ــ التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ١٢١.

٥ ــ انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٥٥ ــ ١٥٧.

وهذا لا يعود إلى قصورهم العقلي على هذا الصعيد، بقدر ما يعود إلى عدم الاهتمام بها، خاصة وأن بعضها لم يكن يرحب بها كالكيمياء، التي يعتبرها الفقهاء منذ زمن بعيد من أعمال السحر والشعوذة، التي يحاربها الشرع. ومع ذلك فقد ظهرت عند بعضهم بوادر طيبة، أسفرت عن بعض الابتكارات الجديدة، التي لم يقدر لها أن تتطور وتنتشر، مما جعل فائدتها غير فعالة، ولا ذات تأثير ظاهر في الحياة العلمية. مثال هذه الابتكارات، تجسد بصنع عدة آلات هندسية صممها الطبيب المغربي يحيى البياسي، وأهداها لاستاذه ابن النقاش[٦]. مثال آخر يتجلى بابن عربي، الذي كان يعرف الكيمياء على حد قوله بالفطرة، فكان يقول دائماً: «أعرف الاسم الاعظم، وأعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب»[٧] أما في مجال العلوم النظرية فقد كان دورهم أكبر وأعمق أثراً، لما لاقته هذه العلوم من رعاية واهتمام، بالقياس على العلوم العقلية.

فقد اشتغل العدد الأكبر من الأندلسيين المغاربة، الذين حلوا بالشام في هذا الميدان. وتشمل هذه العلوم، كلاً من العلوم الدينية كالحديث والفقه، وعلوم اللغة العربية، كالنحو والأدب والبديع، والعلوم الاجتماعية كالجغرافية والتاريخ والتصوف والفلسفة إلى غير ذلك. ففي مجال العلوم الدينية، اشتهروا بشكل خاص على صعيد علم الحديث، هذا العلم الذي لم يكن جديداً على بلاد الشام، كأن يقال أن الأندلسيين هم الذين وجدوه وشجعوه على سبيل المثال. والشيء الجديد بالنسبة للشاميين، ينحصر بأنهم لم يعرفوا قبل هذه الفترة، حفاظاً كباراً ومحدثين مؤهلين من أصل مغربي، عملوا في هذا الميدان. فقد كانت تقتصر مهمة الأندلسيين، في فترة ما قبل القرن الخامس الهجري، على السماع والأخذ عن المحدثين الشاميين، ومن ثم يعودوا إلى حيث انطلقوا أما فيما بعد هذه الفترة، فان الصورة أصبحت عكسية حيث أصبح الأندلسيون يرتادون الشام بقصد العمل، الذي كان يعني للبعض الدراسة والحفظ في الشام وغيرها. ومهما يكن من أمر فقد استطاع كثيرون منهم، أن يصلوا إلى أعلى المراتب عن علم وجدارة، وغدوا في أحيان كثيرة معلمين وأساتذة كباراً في هذا الشأن. فظهرت مكانتهم بوضوح من خلال المدارس التي ترأسوها ودرسوا بها، وكحفاظ يقصدون من شتى الأقطار الإسلامية للاستزادة منهم. كما تظهر أيضاً من خلال الطلاب،

---

٦ ــ انظر ص ١٣٧ من هذا البحث.

٧ ــ شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٠٠.

الذين تخرجوا عليهم في فترات زمنية مختلفة . والحق يقال ، إنهم ما عدا علم الطب ، لم يشتهروا في ميدان آخر ، كما اشتهروا في علم الحديث ، فقامت على أكتافهم مهمة دفع حركة هذا العلم قدماً إلى الأمام بكل نشاط وحيوية ، وكما ذكرتُ فإن معرفتهم الكبيرة الواسعة ، بتفاصيل هذا العلم ودقائقه ، جعلت منهم شخصيات معروفة ومميزة ، الأمر الذي مكن العديد منهم ، أن يتسلم مناصب تدريسية عالية في مدارس دمشق وأمكنة التدريس فيها ، وأيضاً في بعض المدن الشامية الأخرى .

فالبرغم من أن عدد هؤلاء المحدثين لا يتجاوز العشرة ، فإن الذين أطلق عليهم لقب (الحافظ) بلغ اثنين هما زكي الدين البرزالي[٨] وعلم الدين البرزالي الذي نال دنيا عريضة في هذا العلم ، فكان محدث الشام في القرن الثامن الهجري بلا منازع . ودليل ذلك ، أنه لما وافته المنية ، قيلت فيه قصائد كثيرة ، تظهر من خلالها الثغرة الواسعة ، التي تركها بموته ، فمن قصيدة رثاه فيها القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله ، ونقلها السبكي في كتابه (طبقات الشافعية) يظهر فيها مكانته وتمكنه في ميدان علم الحديث يقول :

محدثُ الشامِ صدقاً بلْ مؤرخهُ — حبراً بهذا وذا فيما مضى القلمُ
يا طالبَ العلمِ في الفنين مجتهداً — في ذا وهذا ينادي المفردُ العلمُ[٩]

وقال عنه السبكي نفسه ، عندما كان بصدد ترجمة المزي : « ... أقول ما رأيت احفظ من ثلاثة ، المزي والذهبي والوالد .. وعاصرت أربعة لا خامس لهم ، هؤلاء الثلاثة والبرزالي ، فاني لم أر البرزالي ، وكان البرزالي يفوقهم في معرفة الاجزاء ورواتها الاحياء ... »[١٠] وقال عنه معاصره ابن تيمية : « نقد البرزالي نقر في حجر »[١١] ، وقد عمل البرزالي خلال فترة وجوده الطويلة بمدينة دمشق بالتدريس في عدة مدارس ، وتخرج عليه كثيرون من المهتمين بهذا العلم ، أذكر منهم على سبيل المثال حجي بن موسى الحسباني القدسي[١٢] والحسين بن علي

---

٨ — انظر ص ١٤٧ من هذا البحث .
٩ — السبكي — طبقات الشافعية ج ٦ ط دار المعرفة ببيروت ص ٢٤٧ .
١٠ — طبقات الشافعية ج ٦ ص ٢٥٢ .
١١ — الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٢١ .
١٢ — الدرر الكامنة ج ٢ ص ٦ .

الاصبهاني المقرىء[١٣] ووالد السبكي صاحب طبقات الشافعية[١٤] وشهاب الدين أبو العباس أحمد بن صالح الدمشقي ، الذي درس في عدة مدارس دمشقية فيما بعد كالقليجية والعصرونية والشامية البرانية ، كما تولى افتاء دار العدل وناب في القضاء عن البلقيني[١٥] وابن شافع السلامي الصميدي المصري[١٦] وتاج الدين أبو محمد عبد الرحمن بن ابراهيم المصري[١٦] وتاج الدين أبو محمد عبد الرحمن بن ابراهيم المصري الأصل الدمشقي[١٧] ومن تلامذته ، الذين أخذوا عنه وأتموا عمله ، كان الذهبي المعاصر له المحدث المؤرخ ، وابن كثير الدمشقي وابن حجي العيني[١٨] هذا بالاضافة إلى تلميذه ابن رافع السلامي ، الذي ذيل على تاريخه وكثيرين غيرهم . وأيضاً فانه بالرغم من قلة عدد هؤلاء المحدثين فان معظمهم تسلم مناصب تدريسية عالية ، كما سيظهر في الجدول التالي

اسم المحدث	مكان عمله وزمن انتهائه	مرتبته في المدرسة	اسم المدينة التي تقع فيها المدرسة
محمد بن علي بن ياسر الجياني	خزانة الكتب النورية حتى ٥٦٣ هـ	رئيس خزانة الكتب النورية	حلب
زكي الدين محمد بن يوسف البرزالي	مشهد ابن عروة بالجامع الأموي ـ ٦٣٦ هـ	مشيخة الحديث فيه	دمشق
محمد بن سراقه الشاطبي	المدرسة البهائية ٦٤٢ هـ	مشيخة الحديث فيها	حلب
ابراهيم بن عبد العزيز	المدرسة الظاهرية ٦٧٨ هـ	مشيخة الحديث فيها	دمشق
أحمد بن فرح اللخمي الاشبيلي	الجامع الأموي ٦٩٩ هـ	مشيخة الحديث فيه	دمشق
القاسم بن محمد علم الدين البرزالي	المدرسة الظاهرية الاشرفية النورية ـ النفيسية ٧٣٩ هـ	مشيخة الحديث بهذه المدارس	دمشق

١٣ ـ الدرر الكامنة ج ٢ ص ٦٣ .
١٤ ـ طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .
١٥ ـ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٧٠ .
١٦ ـ المصدر السابق ص ٩٤ ـ ٩٥ .
١٧ ـ المصدر السابق ص ١٠٨ .
١٨ ـ تاريخ أبي الفدا ج ٢ ص ٤١٩ شذرات الذهب ج ٦ ص ٩٧ .

وقد اشتهروا في ميدان آخر غير علم الحديث ، هو علم القراءآت . ويمكن القول إنهم كانوا مجددين على هذا الصعيد . وتجلى التجديد عندهم ، بأنهم نقلوا إلى بلاد الشام ، عدة طرق للقراءآت ، لم تكن معروفة بالشام قبل هذه الفترة . مثال ذلك ، طريقة المقرىء الأندلسي الكبير ، أبي عمرو بن العلاء الداني ، الذي نقلها إلى الشام ونشرها عن طريق التعليم ، المقرىء الأندلسي أحمد بن محمد الأنصاري الشاطبي ، الذي حل بدمشق منذ سنة ٥٠٤ هـ . وكان قد جسد هذه الطريقة في كتاب سماه (قراءة ابي عمرو الداني) . هذا بالإضافة إلى بعض الكتب الأخرى التي ألفها ككتاب (المقنع في القراءآت السبع) و (التنبيه على قراءة نافع)[١٩] . كما حمل لواء التجديد مقرىء أندلسي آخر هو ابن الطحان ، الذي وصف أنه لا يوجد بالمغرب أعلم منه .

وقد تجسد التجديد عنده في العديد من الكتب التي ألفها ، ككتاب (نظام الاداء في الوقف والابتداء) ، وكتاب (مخارج الحروف) الذي هو عبارة عن مقدمة في علم القراءآت[٢٠] . وبلغ الابتكار والتجديد أوجه عند بعضهم ، إذ أنه أقدم على وضع مؤلف في القراءآت بقالب شعري ، حتى يسهل حفظ واتقان طرقها . فألف أبو القاسم الشاطبي كتابا سماه (حرز الأماني) الذي قيل عنه ، أنه لم يسبقه أحد قبله في أسلوبه[٢١] . وخلاصة القول ، فإن الذين اشتغلوا بالحديث والقراءآت من الأندلسيين ، استطاعوا أن يتركوا ذكراً طيباً وخالداً ، لكونهم برعوا في هذا الميدان وأجادوه حفظاً وتدريساً وانتاجاً ، وأضفوا على مؤسساته هالة من النشاط والحيوية ، بحيث بقي كل من علم الحديث والقراءآت في المقدمة .
وهناك فئة كما مر في بحث سابق اختص أفرادها بفرع من فروع اللغة العربية هو علم النحو ، الذين لم يكونوا في ميدانه أقل شأناً من علم الحديث ، فكما ظهر منهم حفاظاً ومحدثين كباراً ، فقد ظهر منهم نحويون عظام ، كان لهم أكبر الأثر في خدمة النحو والنحويين . واستطاع كثيرون منهم أن يتصدروا لمهمة تدريس هذا العلم وقواعده في العديد من المدارس ببلاد الشام ، وغيرها من أمكنة التدريس كالجوامع وما شابه ذلك . وعبروا في كثير من الأوقات عن براعتهم وأهليتهم الكاملة في التصدي لهذه المهمة الصعبة ، الأمر الذي أضفى على بعضهم

١٩ — انظر ص ١٦٢ من هذا البحث .
٢٠ — انظر ص ١٦٣ من هذا البحث .
٢١ — انظر ص ١٦٣ — ١٦٤ من هذا البحث .

صفة الخلود والبقاء، وذلك من خلال المؤلفات التي خلفوها. ولعل أروع الأمثلة على ذلك ابن مالك النحوي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ــ ١٢٧٤ م بدمشق الذي لقب بـ (شيخ النحاة) انطلاقاً من سعة اطلاعه وخبرته الواسعة في هذا المجال، الأمر الذي أهله لأن يتسلم رئاسة المدرسة العادلية الكبرى وشيخ النحو والنحويين فيها ولفترة طويلة من الزمن. ولا تنحصر أهميته كشخصية نحوية مرموقة، بقدر ما تنحصر وتتجسد بأنه كان صاحب مدرسة كتب لها الخلود ولزمن طويل بعد رحيله، إلى درجة وصلت إلى أن جميع النحويين الذين خلفوه من الشاميين والأندلسيين، لم يتمكنوا من التأليف والانتاج بالشكل الذي يجاريه. وتوقف الأمر بأن أقدم كثير من مشاهير النحويين على شرح مؤلفاته التي تركها. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل حقاً على المستوى الرفيع والمتقدم، الذي بلغه في حقل النحو، وربما لم تعرف بلاد الشام نحوياً طيلة فترة العصور الوسطى، كابن مالك، سواء من حيث علمه وسعة اطلاعه، أو من حيث المؤلفات الكثيرة، التي تبحث في مجاهيل وقواعد هذا العلم، والتي بلغت أكثر من عشرين مجلداً(٢٢). وقد تخرج عليه عدد كبير من الطلاب، كان لهم شأن عظيم فيما بعد، سواء على صعيد العلم، أو على صعيد الادارة، أذكر منهم على سبيل المثال: المزي والعلم الفارقي والشمس البعلي والشيخ النووي(٢٣) والمدرس محمد بن عبد الرحمن السلمي المعروف بابن الفويرة المتوفى سنة ٦٧٥ هـ ــ ١٢٧٧ م(٢٤) وزين الدين أبو البركات المنجا بن عثمان بن أسعد الدمشقي المتوفى سنة ٦٩٥ هـ ــ ١٢٩٦ م الذي برع في علم النحو على حياة استاذه ابن مالك، الذي قال عنه عندما سئل عن شرح الألفية: «شرحها لكم ابن المنجا»(٢٥) ومحمد بن ابراهيم الأزرعي الذي ولي قضاء دمشق سنة ٧٠٥ هـ ــ ١٣٠٦ م(٢٦)، ومحمد بن محمد شمس الدين الانصاري الشافعي، الذي يعتبر من أفضل ما تخرج في النحو والعربية، وتوفي بعد أستاذه بسنوات، وبالضبط سنة ٦٨٢ هـ ــ ١٢٨٤ م(٢٧) ومحمود بن سليمان بن فهد الحلبي المتوفى سنة

---

٢٢ ــ انظر ص ١٩٢ وما بعدها من هذا البحث.

٢٣ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢٧ ــ ٤٢٨.

٢٤ ــ ذيل مرآة الزمان ج ٣ ص ٢٠٣.

٢٥ ــ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ١٢٠ ــ ١٢١.

٢٦ ــ الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٧٨.

٢٧ ــ ذيل مرآة الزمان ج ٤ ص ١٩٧.

٧٢٥ هـ ــ ١٣٢٥ م ، الذي تسلم كتابة السر ، ووصفه البعض ، بأنه لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله . وبقي في ديوان الانشاء نحواً من خمسين سنة في دمشق ومصر [٢٨] وغير هؤلاء كثيرون . ومن ناحية أخرى ، فإن ابن مالك لاقى من الاهتمام بعد وفاته ، ما لم يلاقه أحد من قبله ، ولا من بعده ، على صعيد الشام في العصور الوسطى ، فأثنى عليه كثيرون من المهتمين بالنحو ، الأمر الذي يضفي على أقوالهم شيئاً كبيراً من الثقة ، لكونهم أعلم من غيرهم برجال هذا الشأن . فقد وصف بالكمال والمعرفة التامة بعلم النحو في كل زمان ومكان ذكر فيهما .

فقد دلل أحدهم وهو ركن الدين بن القوبع ، على أن ابن مالك وضع حداً لعملية الابتكار والتجديد في ميدان علم النحو لا يمكن تجاوزه ، فكان يقول دائماً : « ان ابن مالك ما خلّى للنحو حرمة ... » . وقال شرف الدين الحصني يرثيه مبيناً سمو منزلته ، وتميز شخصيته على صعيد علمه ، وعبر عن ضخامة الفاجعة التي ألمت بعلم النحو من بعده . يقول :

يا شتاتَ الأسماءِ والأفعــالِ بعدَ موتِ ابن مالكِ المفضالِ
وانحرافِ الحروفِ بعدَ ضبطٍ منهُ في الانفصالِ والاتصالِ
ومصدراً كان للعلوم بإذن الله من غير شبهة ومحال [٢٩]

ومهما يكن من أمر ، فانه رغم تفاوت النحويين الأندلسيين في المستوى والأهلية كسعة الاطلاع والحفظ ، فإنهم أسهموا جميعاً من خلال التدريس في المدارس وغيرها ، أو من خلال المؤلفات التي تركوها ، أسهموا في إحياء علوم النحو والصرف في كثير من الأحيان .

وقد ساعدهم على ذلك تضلعهم في علم النحو ، والذي يظهر من خلال المناصب التدريسية العالية ، التي شغلوها في المدارس الشامية ، حيث تسلم ثلاثة أو أربعة مشيخة النحو في عدة مدارس ومساجد شامية ، من أصل اثني عشر نحوياً ، وتسلم أربعة منهم رؤساء مدارس ودور علم شهيرة كما في الجدول التالي :

---

٢٨ ــ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٢٣٦ .
٢٩ ــ الوافي بالوفيات ج ٣ ص ٣٦٢ ــ ٣٦٣ .

اسم النحوي	مكان عمله وزمن انتهائه	مرتبته في المدرسة	اسم المدينة التي تقع فيها المدرسة
أبو عبد الله الطليطلي	دار العلم في طرابلس الشام	مدير هذه الدار العام	طرابلس الشام
ابن معطي النحوي	المسجد الأموي ٥٩٥ هـ	شيخ النحو فيه	دمشق
القاسم بن أحمد المرسي	المدرسة العادلية	مشيخة النحو بالعادلية	دمشق
اللورقي	العزيزية ـــ ٦٦١ هـ	ونائب مدرس	دمشق
محمد بن عبد الله الشهير بابن مالك	المدرسة العادلية ٦٧٢ هـ	شيخ أو رئيس المدرسة	دمشق
محمد بن محمد بدر الدين أبو عبد الله	المدرسة العادلية ٦٨٦ هـ	شيخ النحو فيها + معيد بالامينية	دمشق
محمد بن القاسم المرسي	تربة أم الصالح+الاشرفية ٧١٨ هـ	مشيخة الاقراء فيهما	دمشق
محمد بن الحسن المالقي	الخانقاه النجيبية ٧٧١ هـ	مشيخة الخانقاه نفسها	دمشق
أحمد بن محمد العناني	الناصرية الجوانية+الخانقاه الأندلسية ٧٧٦ هـ	شيخ النحاة فيهما	دمشق

وتأتي قيمة الدور الذي شغلوه أيضاً اضافة إلى ذلك، من خلال الكتب التي ألفوها، والتي كان بعضها غير معروف على صعيد الشام وخاصة من ناحية الأسلوب والمنهج، بحيث غدا جديداً ومبتكراً، مثال ذلك ألفية ابن معطي، التي تعتبر أولى المؤلفات النحوية التي صيغت بقالب شعري، بحيث سبق ابن مالك، الذي لا يستبعد أن يكون هو الذي أوحى له لتأليف ألفيته فيما بعد. وكان التجديد في مستوى أقل من ذلك عند بعضهم، كما هو حال القاسم ابن أحمد اللورقي، الذي ألف عدة كتب شرح فيها مؤلفات غيره، ككتاب (شرح الجزولية) الذي يعتبر من أمهات الكتب النحوية الأندلسية، التي لا يستبعد أن يكون نزلاء

الشام من الأندلسيين المغاربة ، هم الذين نقلوها معهم إلى حيث هذه البلاد . أما في مجال الأدب . فلم تكن آثارهم بذات قيمة ، بالشكل الذي يمكن مقارنتها أو وضعها في كفة آثارهم في ميدان النحو والصرف . فلم يشتهر منهم الا شعراء قلائل جداً ، اقتصر بعضهم على إنشاء قصائد معينة في المدح والوصف وغير ذلك . وتميز بعضهم الآخر ، بأنهم ألفوا دواوين احتوت على ضروب ومناسبات ، كما فعل عبد المنعم الجلياني ، الذي لم يكن لمؤلفاته تلك القيمة على صعيد الشعر والأدب ، بقدر ما كانت قيمتها من خلال الطريقة التي اتبعها في صياغة شعره ، بحيث استطاع أن يضمنها عدة علوم كالحكمة والطب وغير ذلك من المواضيع . أما في ميدان النثر والكتابة فليس من شيىء خالد دونته أياديهم أو جادت به قرائحهم ، يستحق أن ينوه به كعمل متميز . وهناك فئة أخرى من الأندلسيين المغاربة ، جمع رجالها بين الالمام بعلوم العربية وعلوم الدين ، واشتغلوا فيهما طيلة إقامتهم بالشام . وتأتي أهمية دور هؤلاء بالدرجة الأولى من خلال الأعمال والمهام التدريسية التي تصدوا لها . لأن العلوم المذكورة ، لم تكن جديدة على المجتمع الشامي ، فهي من العلوم القديمة والأصلية الوجود ، التي نالت اهتمام العلماء بصورة متميزة عن غيرها . لذلك فإن نزلاء الشام من الأندلسيين ، لم يكونوا إلا صورة طبق الأصل عن أمثالهم من الشاميين ، استطاعوا في أحيان كثيرة أن يتفوقوا في بلورة علومهم في هذا المجال ، الأمر الذي ساعدهم على أن يصلوا إلى مراكز تدريسية عالية جداً . تراوحت بين مشيخة مدرسة ما ككل ، أو مشيخة التدريس لمادة من المواد فيها . ما يقرب من خمسة وعشرين مدرساً ، تسلم نصفهم تقريباً مراكز تدريسية رفيعة ، مما يدل بوضوح على تقدمهم في مجالات علمهم ، وبالتالي الدور الذي لعبوه في دفع الحركة العلمية قدماً إلى التطور والازدهار . وفيما يلي أسماء هؤلاء المتميزين :

اسم المدرس	مكان عمله وزمن انتهائه	مرتبته في المدرسة	اسم المدينة التي تقع فيها المدرسة
زين الدين بن عبد السلام بن علي الزواوي	تربة أم الصالح	مشيخة الاقراء فيها	دمشق
علي بن قاسم الاشبيلي	الجامع الكبير بحلب ٦٠٥ هـ	مشيخة النحو والقراءآت فيه	حلب

اسحق بن أحمد المغربي كمال الدين	المدرسة الرواحية ٦٥٠ هـ	معيد لابن الصلاح	دمشق
محمد بن حسن الفاسي أبو عبد الله	مدارس حلب ٦٥٠ هـ	رئاسة التدريس الاقراء	حلب
محمد بن أحمد المرسي اللورقي	المدرسة العادلية ٦٦١ هـ	مشيخة المدرسة	دمشق
محمد بن أحمد جمال الدين الشريشي	الرباط الناصري بالصالحية ٦٨٥ هـ	مشيخة الرباط نفسه	دمشق
سعيد بن محمد الملياطي المغربي	الخانقاة السامرية ٧٧١ هـ	مشيخة الخانقاة نفسها	دمشق
محمد بن الحسن المالقي	المدرسة النجيبية	مشيخة التدريس فيها	دمشق
عبد النبي بن محمد المغربي	مدارس دمشقية متفرقة	معيد فيها	دمشق

وتأتي قيمة دور هؤلاء بالدرجة الثانية من خلال الكتب التي وضعوها في علوم القرآن والتفسير والعربية، وان كانت نسبة كبيرة منها، تضمنت شروحاً وتفاسير لكتب سابقة معروفة. وقد بلغ عدد هذه الكتب ما يقارب العشرين كتاباً. وفي ميدان علمي التاريخ والجغرافيا، فإن دَوْرَ الأندلسيين، يتباين بشكل ملحوظ في هذين العلمين وخاصة في مجال الانتاج والتأليف. ففي ميدان علم التاريخ، لم تشتهر مؤلفات أو أعمال كثيرة للأندلسيين المغاربة تستحق وقفة طويلة عندها. ولعل أهم هذه المؤلفات، ما قام المحدث والمؤرخ البرزالي بكتابته، حيث استكمل فيه ما كتبه المؤرخ المقدسي المعروف بأبي شامة عن مدينة دمشق والعلماء فيها، والذي سماه (الذيل على الروضتين). وكتاب البرزالي المعروف بـ(تاريخ البرزالي)، من كتب التاريخ والتراجم الهامة التي غطت فترة طويلة من الزمن. وتأتي أهميته من أنه من الكتب الجديدة التي ألفت في تلك الفترة من الزمن، أضف إلى ذلك، أنه شكل أحد المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها مؤرخون لاحقون كابن كثير، وابن حجر العسقلاني، وابن قاضي شهبة وغيرهم، كالنعيمي الدمشقي صاحب (الدارس في تاريخ المدارس) الذي نقل عنه كثيراً وبشكل واضح، فهو يذكره في كل موضع نقل عنه مثال ذلك: قوله في أحد المواضيع: «ورأيت بخط الحافظ علم الدين البرزالي في تاريخه في سنة

ست وثلاثين وسبعمائه ومن خطه نقلت...»[30] أما في ميدان علم الجغرافيا، فقد كانت آثارهم أوسع وأعم فائدة، وتجلى ذلك بالمعلومات التي دونها الرحالة الأندلسيون، أمثال ابن جبير والعبدري وابن بطوطة وغيرهم. فابن العربي أول هؤلاء، لم يأت بشيء جديد يمكن أن يعول عليه، وخاصة في ميدان الحياة الثقافية التي كانت محور اهتمامه من زيارة الشام. وبالنسبة للرحالة الثاني أبي حامد الغرناطي فإن الأمر عنده، كان أكثر فائدة، على اعتبار أنه زار مناطق من إيران وروسيا الحاليتين، فجاء بأشياء جديدة، لم تكن معروفة على صعيد الشاميين، وخاصة في ميدان العجائب، التي شاهدها في البلدين المذكورين، والتي كان منها ما يتعلق ببقايا الانسان القديم أو علم المومياء. وقد أثارت عليه اهتماماته في هذا الميدان وغيره ثائرة البعض من أهل دمشق، فاتهموه بالكذب والشعوذة، وكان على رأسهم ابن عساكر صاحب (تاريخ مدينة دمشق)، الذي لم يستطع أن يتمثل المعاني والأهداف لمثل هذه الاهتمامات، لكونها تختلف عن ميدان اهتمامه الذي انحصر في مجال علم الحديث. أما فيما يتعلق بدمشق، فانه لم يذكر شيئاً يستحق التلميح عنه.

وبعده جاء ابن جبير وابن بطوطة والعبدري فزاروا مناطق شتى من بلاد الشام.

وبغض النظر عن كبر وصغر الرقعة التي زارها هؤلاء الرحالة وكتبوا عنها. فانهم اتفقوا أو بالأحرى تلاقوا في ناحية واحدة، تجلت بأن اهتمامهم ما عدا أبا حامد الغرناطي، كان واحداً تقريباً. وتأتي قيمة هؤلاء الرحالة من خلال الملاحظات الذكية التي دونتها أيديهم في أثناء زيارتهم للشام. فقد ركزوا على وصف المواقع الأثرية والأماكن الدينية المشهورة، وتصوير الحالة الاقتصادية، التي كانت تسود في المناطق التي حلوا بها. كما وقفوا على جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية كالعادات والتقاليد والنهضة العلمية والعلاقات بين السكان الأصليين من جهة، وبينهم وبين الصليبيين من جهة أخرى. ويأتي ابن جبير في مقدمة هؤلاء من حيث دقته العلمية وتركيزه على ذكر نواح في غاية الأهمية، ما زالت تؤخذ بعين الاعتبار عند اجراء أية دراسة اجتماعية واقتصادية، وبشكل خاص عن مدينة دمشق، ومدن الساحل اللبناني والفلسطيني. يأتي بعد ابن جبير في الأهمية الرحالة ابن بطوطة، الذي اقتفى طريقة سلفه في

٣٠ ـــ الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٥٣. واسم كتابه الكامل (المقتفى لتاريخ أبي شامة) ويعمل في تحقيقه عبد الجبار زكار، وهو الجزء الثاني الذي يؤرخ فيه البرزالي للسنوات ٦٩٩ ـ ٧٠٠، ٧٠٢، ٧٠٣هـ.

التسجيل والمنهج، وتأتي أهمية معلوماته عن الشام من عدة نواحٍ، كالحياة الاجتماعية والاقتصادية في فترة زمنية بعيدة عن فترة ابن جبير، فقد زار بلاد الشام، كما هو معروف، مرتين خلال القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، بين الأولى والثانية مدة عشرين عاماً. اضافة إلى ذلك، فقد كانت إقامته أطول من إقامة ابن جبير. وأيضاً بالنسبة للرقعة التي زارها، كانت أكثر اتساعاً وشمولاً. وهكذا وبالرغم من عدم نزولهم بالشام بشكل دائم، فإنهم قدموا خدمات جليلة للمجتمع من خلال الملاحظات التي دونوها في فترات زمنية مختلفة، ظلت أهميتها تزداد كلما تقادمت الأيام والسنون.

ولعل خير ما أظهرته تلك الملاحظات على الاطلاق، المعاملة الطيبة والشعور بالارتياح من قبل حكام وسكان الشام للأندلسيين المغاربة الوافدين إليها. الشيء الذي يدل دلالة واضحة على أن بلاد الشام أرضاً وسكاناً، ما كانت في يوم من الأيام إلا موطن العرب من أين ما جاؤوا وكيفما حلّوا، لا فرق بين مغربي أو مشرقي. ومن العلوم التي يمكن درجها تحت منظومة العلوم الاجتماعية، الفلسفة والتصوف. أما بالنسبة للفلسفة التي تعتبر مفتاح بيوت العلم وأداة تطويره والحض على الاشتغال في جميع ميادينه، فانها لم تلق أدنى اهتمام أو رعاية من قبل الأندلسيين، إلا في نادر الأوقات، وذلك بالرغم من وجود استعداد لدى البعض منهم. وربما يعود سبب ذلك، كما ذكرت في مكان آخر من هذا البحث إلى النظرة الحذرة لهذا النوع من العلوم. وتتلخص هذه النظرة، بأن الفلسفة بدعة موجهة ضد الشرع والتعاليم الاسلامية، لا يجوز في أي حال من الأحوال السماح لأحد بتدريسها أو تشجيعها، وهذه علة اتخذت صفة الخلود والديمومة منذ بداية فترة هذا البحث وحتى نهايتها، شجع على استيطانها وخلودها الحكام الزنكيون والايوبيون ومن بعدهم المماليك. فيكونون بذلك قد توجوا رغبات وأحلام الجهلة من الفقهاء. وكانت النتيجة قاسية إلى درجة قضوا فيها على كل بادرة إبداع أو تجديد أو خلق، مقابل التهافت على دراسة الأحاديث النبوية وإعادة كتابتها وفرزها وتنقيتها إلى غير ذلك. أما في مجال التصوف، فإن الأمر كان غير ذلك، فقد انقسم المتصوفة إلى قسمين متباينين، القسم الأول اقتصر نشاط أفراده على الزهد والتعبد وتقديم النصائح إلى غيرهم، إلى غير ذلك من النشاطات التي لا فائدة منها ولا رجاء. بحيث أن رجال هذه الفئة شكلوا عبئاً ثقيلاً على الاسلام والمجتمع، لكونهم فئة تعيش على هامش الحياة، دون عمل مفيد ومنتج، وهو الأمر الذي دعا إليه الاسلام وجعله محور بقاء واستمرار الحياة والانسان. وهذا النوع من التصوف لم يكن من الأساليب الجديدة على بلاد الشام،

إنما عرف منذ فترة طويلة قبل حلول الأندلسيين في الشام، الذين وجدوا فيها بيئة صالحة لمثل هذا الاتجاه، الذي يمكن أن يكون سببه، زهد صاحبه وعدم اكتراثه في الحياة الدنيا، نتيجة تحولات مدمرة ومؤلمة على ساحة المجتمع الذي ينتمي إليه، بحيث يكون في هذا المجتمع مقهوراً لا قاهراً وعبداً لا سيداً. أما القسم الثاني من المتصوفة، فقد مثله المتصوف الكبير محيي الدين بن عربي، الآخذ بفكرة مذهب وحدة الوجود، الذي يعتبر من المفاهيم الجديدة والغريبة على المجتمع الشامي. ويعتبر ابن عربي هذا أعظم شخصية أندلسية قطنت بلاد الشام في العصور الوسطى موضوع هذا البحث، من حيث تأثير انتاجه وأفكاره التي جاء بها، والتي كانت مثار جدل ونقاش دام عدة قرون بعد وفاته، وما زال حتى أيامنا هذه. والجديد في مؤلفاته كما ذكرت، هو مذهبه في وحدة الوجود، الذي لم يكن له وجود في الإسلام في صورته الكاملة قبل ابن عربي. فهو الواضع الحقيقي لدعائمه، والمؤسس لمدرسته، والمفصل لمعانيه ومراميه، والمصدر له بتلك الصورة النهائية التي أخذ بها كل من تكلم في هذا المذهب، من المسلمين من بعده[٣١] فهو بذلك صاحب أول مذهب فكري جديد ومبتكر، انفرد وتميز به عن كل الأندلسيين، الذين احتضنتهم الشام. وتأتي عظمة وقيمة مؤلفاته، وخاصة تلك التي جسد فيها مذهبه، من أنها لم تعتمد على مصادر كانت مكتوبة من قبل، الأمر الذي جعل من ابن عربي شخصية مجتهدة، ذا فكر استقلالي ذاتي. وقد عبر عن هذه الناحية في عدة أمكنة. ففي رسالة كان قد أرسلها إلى فخر الدين الرازي، الذي عرف بسعة اطلاعه وعلمه الغزير، نقلها الشعراني في طبقاته، جاء فيها قوله التالي: «أعلم يا أخي وفقنا الله واياك، أن الرجل لا يكمل عندنا في مقام العلم، حتى يكون علمه عن الله عز وجل بلا واسطة من نقل أو شيخ، فان من كان علمه مستفاداً من نقل أو شيخ، فما برح عن الأخذ عن المحدثات، وذلك معلول عند الله عز وجل...»[٣٢] وصرح في موضع آخر معبراً عن الفكرة نفسها بقوله:

لقدْ حرمَ الرحمنُ تقليدَ مالكٍ — وأحمدُ والنعمانُ والكلُ ما عذروا

وقال أيضاً:

٣١ — فصوص الحكم ج ١ مقدمة المحقق ص ٢٥.

٣٢ — طبقات الشعراني ج ١ ط مصر ١٣٠٥ هـ ص ٥.

لستُ ممنْ يقولُ، قالَ ابنُ حزمٍ ولا أحمدُ ولا النعمـــانُ[٣٣]

ويعلق على أقواله هذه المفكر الاسباني آنخل جنثالث بالنثيا، أن ابن عربي يريد بذلك أن يقنع قارئه بهذه الحقيقة دونما شك، وذلك بالرغم من وجود أفكاره هذه بحرفتيها تقريباً في كتب سابقه عليه كارسطو وغيره[٣٤]. وأهم مؤلفاته من الناحية الفكرية والجديدة، كتاباه (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكية). مع أنه ألف أكثر من عشرين كتاباً، تعتبر حديثه على الشام في ذلك الوقت. ومهما يكن من أمر فإن ابن عربي، يعتبر بحق من عظام الأندلسيين سكان الشام، الذين استطاعوا أن يتركوا بصمات خالدة على جبين الحضارة الانسانية، وذلك بغض النظر عن أقوال الحاقدين والشناع، الذين لم ينصفوه بشيء، فأساؤا له وللعلم ولأنفسهم على حد سواء. وهكذا يظهر من كل ما تقدم، أن الجالية العلمية الأندلسية، ساهمت إلى حد كبير في استمرار الزخم العلمي الحضاري على مختلف فروعه، وذلك من خلال التدريس والتأليف ونقل الكتب الأندلسية ذات الشهرة الكبيرة. فقد بلغ عدد الكتب التي وضعها رجال هذه الفئة، مضافاً إليهم ما وضعه القضاة وغيرهم من العاملين في المساجد والزوايا المالكية الخاصة، بلغ أكثر من مئة وخمسين كتاباً، كان بعضها جديداً ومبتكراً، كما في القراءآت والنحو والتصوف والصيدلة. هذا بالإضافة إلى أن عدداً كبيراً من المؤلفات الأندلسية[٣٥]، كان قد نقلها إلى الشام عددٌ من هؤلاء الأندلسيين، فتلاقت بذلك الخبرة الأندلسية مع الخبرة الشامية، واتحدتا لتؤلفاً ذخراً علمياً كبيراً، ما زال بعضه يحتل أهمية خاصة حتى أيامنا هذه. أضف إلى ذلك، أن عدد التلاميذ الذين تخرجوا على العلماء الأندلسيين من مختلف الاختصاصات، بلغ أكثر من ثلاثين تلميذاً، حسب معطيات المصادر، من الذين احتلوا مراكز قيادية عالية على صعيد العلم والادارة وغير ذلك، ووصل الأمر ببعض هؤلاء إلى أنهم تفوقوا على أساتذتهم في كثير من الأحيان. هذا عدا عن التلاميذ الآخرين، الذين لم يشتهروا إلى الحد الذي وصل إليه أولئك الذين احتوت سيرهم كتب التراجم.

---

٣٣ ــ شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٠٠.

٣٤ ــ تاريخ الفكر الأندلسي ص ٣٨٣.

٣٥ ــ يمكن أن أذكر منها الجزولية والشاطبية، وكتاب الشفاء للقاضي عياض وسراج الملوك للطرطوشي، وبعض كتب الطب اليونانية التي نقلها بعض أطباء الأندلس، كابن البيطار الذي جاء بكتب جالينوس وديسقوريدس إلى دمشق، إضافة إلى أن غيره نقل كتب ابن زهر وغيره. كما أن بعضهم الآخر جاء بكتبه، كما فعل ابن الرومية النباتي. اضافة إلى كتب مالكية محضة كموطأ مالك وغيره.

دورهم في الادارة العامة

لم يكن للأندلسيين المغاربة، فيما عدا منصب القضاء، ذلك الدور الفعال في حياة بلاد الشام الادارية، بالرغم من أنهم أبناء بيئة خبيرة بهذه الشؤون. فلم يعرف أن أحداً منهم، تسلم نائباً في الحكم في أية منطقة شامية، أو أصبح وزيراً، أو غير ذلك من المناصب الادارية الكبيرة، التي لها مساس بالحياة السياسية.

وكانت أفضل المراكز التي شغلوها في هذا الميدان، لم تتعد كاتباً صغيراً في ديوان الانشاء أو في أي مركز مماثل، مع وجود بعض الاستثناءات النادرة، مثال ذلك أن أربعة منهم، توصلوا إلى مناصب رفيعة إلى حد ما، تلي منصب القضاء مباشرة، وتسلم واحد من هؤلاء الأربعة ناظر الدواوين بدمشق، وتسلم الثاني وكالة بيت المال بمدينة الكرك، وتسلم الثالث مدير أمن السجن المركزي بدمشق(٣٦) أما الرابع فلم يتسلم أي منصب معين، وهو رجب الدين الرجيحي التونسي، ومع ذلك فانه كان من المقربين جداً إلى الحكام بدمشق، بحيث يعتمدون عليه في كثير من الأمور، كما يبدو من حديث الصقاعي صاحب كتاب «تالي وفيات الأعيان» عنه، ولا أدل على قيمته الكبيرة ومكانته المرموقة عند الحكام، من أنه أقطع إحدى قرى الغوطة الدمشقية، الأمر الذي كان لا يحصل إلا للمتنفذين من الحكام والأمراء في الفترة المملوكية. ومما يدل على ذلك أيضاً، أنه عذب في بعض الأحيان وحجز عليه(٣٧) وربما تعود هذه الظاهرة، التي تتجلى بغياب الأندلسيين عن المراكز الادارية العالية، تعود في غالب الاحيان، إلى أن هذه المناصب، كانت على ما يبدو حكراً على أهل البلاد الأصليين، وبخاصة منهم أولئك الذين يمتون بصلة القرابة والدم إلى الحكام، كما كان يحدث خلال فترة حكم المماليك، الذين استأثروا بكل المناصب الإدارية القيادية. ويمكن ذكر سبب آخر ربما لا يبتعد كثيراً عن الواقع، هو أن الأندلسيين، الذين كانت لديهم رغبة في الحصول على مثل هذه المناصب، نزعوا عن هذه الرغبة عندما وجدوا في بلاد الشام شخصيات إدارية لا تجارى في مجال عملها. مثال ذلك ما حدث لبعضهم أيام حكم صلاح الدين الايوبي بمصر، وهو أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب بركن الدين، أو جمال الدين. فقد قدم إلى مصر، وكله أمل بالتوصل إلى منصب اداري في ميدان

٣٦ ــ انظر عن هؤلاء ص ٢٤١ وما بعدها من هذا البحث.

٣٧ ــ تالي كتاب وفيات الأعيان ص ١٣٥ ــ الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٠٨.

الكتابة والانشاء، على اعتبار أنها كانت محور اختصاصه الرئيسي، لكنه عدل عن ذلك، عندما وجد نفسه لا شيء بالمقارنة مع القاضي الفاضل، وعماد الدين الاصفهاني الكاتب، كتاب صلاح الدين[٣٨]. لكن هذه القناعات، لم تكن ثابتة، بحيث يمكن اعتمادها، أو القياس عليها، بشكل لا يقبل الجدل، فقد انتهز الأندلسيون وتحينوا الفرص في كثير من الأحيان، لكن محاولاتهم باءت بالفشل لسبب أو لآخر، بالرغم مما عرف عنهم من امانة وإخلاص وإقدام، وخير مثال على ذلك، ما حدث سنة ٦٨٨ هـ ـ ١٢٧٠ م، عندما قدم الشجاعي[٣٩] من طرابلس إلى دمشق، وتعرض لأهلها بالمصادرة والظلم، مدحه شمس الدين محمد بن سليمان بن علي المعروف بالتلمساني المتوفى سنة ٦٨٨ هـ ـ ١٢٧٠ م بدمشق، بقصيدة نالت منه كل تقدير وإعجاب، لكن المذكور توفي بعد فترة وجيزة، فقال الشجاعي بما معناه، أنه لو كان حياً، لكان نقله إلى وظيفة عالية[٤٠]، أما في مجال القضاء فقد كان دورهم أكبر وأكثر ظهوراً من غيره، إضافة إلى أنه من المناصب الادارية العالية الجديدة على المجتمع الشامي، بحيث يمكن القول، أن استحداثه في كثير من المدن الشامية كدمشق وبيت المقدس وحلب وحماة وغيرها، كان منوطاً بوجود جالية أندلسية تستحق استحداث منصب كهذا. وقد بدأ دورهم جلياً بارزاً منذ أن أحدث منصب قاضي قضاة المالكية بمدينة دمشق لأول مرة سنة ٦٦٤ هـ ـ ١٢٦٦ م وقد شكل القضاة الأندلسيون المغاربة ببلاد الشام فصيلين مختلفين من حيث الأهلية العلمية، أو من حيث العدالة في الأحكام. فكما مر في بحث سابق ظهر أن كثيرا منهم، توصلوا إلى منصب قاضي القضاة، بالرغم من جهلهم المطبق وهزيمتهم على صعيد الخبرة في شؤون القضاء. ومنهم من كان أهلاً من كل ناحية وخاصة العلم والمعرفة والخبرة. وكذلك الحال، كانوا قسمين على صعيد الالتزام والسلوكية القضائيين. فالقسم الأول حكم أفراده بالعدل قدر استطاعتهم، فاستحقوا التقدير والثناء. أما القسم الثاني، فلم يتمكن أفراده من احقاق الحق وامتثال العدالة، لا لشيء، إلا لتحقيق مآربهم وأغراضهم الشخصية، التي كثيراً ما تجلت بجمع المال عن

٣٨ ـ وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٨٥.

٣٩ ـ هو علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري، نشأ بدمشق واتصل بالأمير سيف الدين قلاوون الألفي وجعله وزيراً عندما حكم مصر حتى سنة ٦٩٠ هـ، ولاه الملك الأشرف ابن الملك المنصور النيابة بالشام، وعزله سنة ٦٩١ هـ وجعله نائباً بمصر سنة ٦٩٢ هـ حتى قتل فيها سنة ٦٩٣ هـ (تالي كتاب وفيات الأعيان ص ٩٠ ـ ٩١).

٤٠ ـ تالي كتاب وفيات الأعيان ص ٨٢.

طريق قبول الرشاوى على حساب المتقاضين من أصحاب المشاكل. ودليل ذلك، أن كثيرين منهم، وصلوا إلى منصب قاضي القضاة عن طريق التوسط والالتماس لدى الحكام وغيرهم من المقربين، وأحياناً أخرى عن طريق دفع مقدار كبير من المال وصل عند بعضهم إلى ٥٠٠ دينار. ووصل الأمر ببعضهم إلى التحول عن حرفة التجارة من أجل ممارسة مهنة القضاء. يضاف إلى ذلك حالة الجهل، التي كانت عنوان هؤلاء. مثال ذلك القاضي المالكي ابن الحفيد، الذي تحول عن تجارته إلى التصدي للقضاء في مدينة حلب في القرن الثامن الهجري، ولمدة لابأس بها من الزمن[٤١] وهذه الظاهرة السيئة، هي ما يمكن وضعها كمسبب رئيسي لحالة الفوضى، واستغلال هذا المنصب والإساءة إليه في أحيان متفرقة، وبالتالي فإن الأندلسيين المغاربة على مختلف فئاتهم العلمية وغير العلمية، لم يظهر منهم أناس عبروا عن لا أخلاقية وعدم اهتمام، بقدر ما ظهر في مجال القضاء، بحيث يمكن القول، أن نصف القضاة المالكيين البالغ عددهم حسب معطيات المصادر أكثر من خمس وثلاثين قاضياً بين مؤقت ودائم خلال هذه الفترة، أن نصفهم نماذج سيئة وضعوا نصب أعينهم مصالحهم المادية، وأغمضوها عن كل ما هو ايجابي وصالح. وبالرغم من هذا التباين الواضح على صعيد الأهلية والسلوكية، فان القضاة المالكيين، تميزوا عن غيرهم بالصلابة والشدة في الأحكام، سواء أكانت محقة أم غير محقة، وهي من الأمور الجديدة، التي لم تكن معروفة أو مأخوذ بها قبلهم في بلاد الشام، لكونها كانت تعتمد على القضاة الشافعية في الأحكام، والذين يمتازون عن المالكية بتسامحهم المميز وتساهلهم في كثير من القضايا الصعبة، بحسب تعاليم هذا المذهب. وقد ورث القضاة المالكيون مثل هذا الموقف عن مالك بن أنس وغيره من العلماء المالكية الكبار، بحيث كانوا لا يستطيعون التخلي عنه، خاصة وأنهم وجدوا في بيئة احتوت جماعات كبيرة تختلف فيما بينها على صعيد تطبيق السنة والشرع مثال ذلك موقف الشيعة وغيرهم من الفرق الأخرى. لذلك فقد تشددوا كثيراً في تطبيق تعاليم المذهب المالكي، بحق من يسير على طريق الزندقة، التي تعني في أبسط معانيها، الارتداد عن الاسلام. فجزاء كل زنديق عندهم كالكيين القتل والموت دون رحمة ولا شفقة، ولا تقبل عندهم توبته، كما هو الحال عند ممثلي بعض المذاهب الأخرى كالشافعية على سبيل المثال. الذين يرون في توبة الزنديق تخليصه من الموت والقتل[٤٢] ولم يكن الأمر يتوقف عند هذا

---

٤١ ـ انظر ص ٢٣٢ من هذا البحث.

٤٢ ـ القاضي عياض ـ الشفا ج ٢ بدون تاريخ للطبعة ص ٢٨٥.

الحد، انما شمل مواقف أخف وطأة من الارتداد عن الاسلام، كالذين يشتمون الرسول (ص)، فحكمهم حكم الزنادقة المرتدين، والذي يتجلى بالموت. فمن رواية لأبي مصعب وابن أويس الأندلسيين، ينقلها القاضي عياض في كتاب الشفاء يقولان: «سمعنا مالكاً يقول: من سب رسول الله (ص) أوشتمه أو عابه أو تنقصه، قتل، مسلماً كان أو كافراً، ولا يستتاب»(٤٣). ويعطي مثالاً على ذلك أن فقهاء القيروان وأصحاب سحنون أفتوا بقتل ابراهيم الفزاري، بالرغم من مكانته، كعارف في كثير من العلوم وكشاعر مرموق، وذلك على أثر مجلس حضره مع القاضي أبي العباس بن أبي طالب بقصد المناظرة، فاستخف بالرسول وأنبياء آخرين، مما حدا بالقاضي يحيى بن عمر وغيره من الفقهاء على اصدار الحكم بقتله وصلبه، فطعن بسكين وصلب(٤٤) ولم يكن هذا التشدد عند المالكية، ليطبق على المسلمين فحسب، انما شمل الذميين، الذين يقبلون على سب الرسول أو الاستخفاف به، أو وصفه بعبارات غير لائقة. وحجتهم في ذلك، أنهم لم يعطوا الذمي العهد أو الذمة على فعل هذا(٤٥). وهكذا فان القضاة المالكية، الذين عرفتهم الشام خلال العصور الوسطى، موضوع هذا البحث لم يترددوا في تطبيق هذه التعاليم أو يتهاونوا بها. فقد حدث في معظم الأحيان أن جميع القضايا الكبيرة والمهمة كانت تحول اليهم للبت فيها بشكل نهائي. والأمثلة كثيرة في هذا المجال أذكر من ذلك قضايا الأشخاص المتهمين بمروقهم على الدين، أو المتهمين بالكفر إلى غير ذلك كالقضايا التي أجبر أصحابها مكرهين على اعتناق الاسلام، وهم من أهل الكتاب، أو بالعكس، كالذين اعتنقوا الاسلام من أهل الكتاب وارتدوا عنه، مثال ذلك على الحالة الأولى، أنه حدث في سنة ٦٨٠ هـ ــ ١٢٨٢ م أن استفتي جماعة من أهل الكتاب بدمشق، كانوا قد أعلنوا اسلامهم مكرهين، فعقد لهم مجلساً، وكلف القاضي المالكي بسماع آرائهم والحكم عليها بمقتضى تعاليم مذهبه. وبعد أن انتهى من استجوابهم، كتب محضراً شهد عليه جماعة من المسلمين، بأن المتهمين كانوا على كره من أمرهم، واعتبر حكمه هذا نهائياً، وعاد أكثرهم إلى دينه السابق(٤٦) وأما عن الحالة الثانية، التي تتجلى بالارتداد عن الاسلام من الذميين، فكانت أيضاً من اختصاص القاضي المالكي، التي كانت

---

٤٣ ــ الشفاج ٢ ص ٢٤٠.

٤٤ ــ المصدر السابق ص ٢٤٢.

٤٥ ــ المصدر السابق ص ٢٩٤.

٤٦ ــ ذيل مرآة الزمان ج ٤ ص ٩٨.

أحكامه فيها الموت، كما حدث على سبيل المثال سنة ٧٢٦ هـ ـ ١٣٢٦ م عندما أصدر قاضي دمشق المالكي حكمه بقطع رأس توما الراهب، الذي كان قد أسلم من فترة ثلاث سنوات قبل التاريخ المذكور، ثم ارتد سراً عن اسلامه(٤٧). وأيضاً كان الأمر بالنسبة للذين يتعرضون للأنبياء والصحابة بالشتم والانتقاص، كانت أحكام الموت تنتظرهم من قبل القاضي المالكي، الذي لا يقبل توبتهم، مثال ذلك ما حدث سنة ٧٠٤ هـ ـ ١٣٠٥ م لمحمد بن الباجربقي، الذي حكم عليه بقطع عنقه بشهادة ثلاثة من المسلمين، نتيجة كفريات وانتقاصات لبعض الانبياء صدرت عنه(٤٨) وبشكل عام وحتى لا أسترسل كثيراً بعرض الأمثلة المتوفرة عن هذه الحالات، والتي يمكن حصرها (بالكفر والزندقة)، ليس أجدر من الاكتفاء بضرب مثل واحد، يتجلى بما فعله القاضي المالكي بدمشق محمد بن سليمان الزواوي المتوفى سنة ٧١٧ هـ ـ ١٣١٨ م، الذي أراق دم الكثيرين ممن تعرضوا للرسول (ص) والصحابة بالشتم والتهكم(٤٩) وتميز الصالحون منهم إضافة إلى تطبيق مثل هذه المبادىء، بأنهم سعوا لأن يكون القضاء مستقلاً بشكل نهائي عن إرادة الحكام، وخاصة في الوقت الذي تتناقض فيه هذه الإرادة مع الحق وتجانبه، يحدوهم في ذلك صحة أحكامهم ودقتها بالاعتماد على الشريعة، وبالتالي احترام منصب القضاء بشكل عام، من خلال تجسيد الحق وايصاله إلى أصحابه دون خوف ولا مراعاة لأحد. وهذا ما حدث لقاضي بيت المقدس عيسى بن محمد المغربي الشحمني شرف الدين أبي الروح في القرن الثامن الهجري، عندما لم يأبه بأوامر الحاكم بإعدام عدة أشخاص، إلا بعد محاكمتهم والتأكد من أقواله ضدهم(٥٠) وسواء أكانت أحكامهم باطلة أم صحيحة، فقد لاقت قبولاً نهائياً وارتياحاً عظيماً في معظم الأوقات، مما يدل بصورة واضحة، على أن الحكام المماليك في فترة هذا البحث كانوا يجدون بالقضاة المالكية، سنداً قوياً لاستمرار حكمهم، على اعتبار أنهم لجأوا إلى تسويغ حكمهم غير الشرعي كغرباء عن البلاد، عن طريق تقريب الكوادر الدينية، التي عميت أبصارها عن رؤية مثل هذه الحقيقة. فتلاقى تعصب هؤلاء المماليك للاسلام، الذي كان مصطنعاً ومزيفاً، تلاقى مع تمسك المالكية بتعاليم مذهبهم السلفية. لذلك كثيراً ما استجابت

---

٤٧ ـ ذيول العبر ص ١٤٣.

٤٨ ـ المصدر السابق ص ٢٩.

٤٩ ـ الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٤٨.

٥٠ ـ انظر عنه ص ٢٢٩ من هذا البحث.

أحكامهم، لإرادة هؤلاء الحكام، ونظروا إليها نظرة ارتياح وتسليم. ففي سنة ٧٣٤ هـ ــ ١٣٣٤ م، لم ير حاكم دمشق دينكز المملوكي أي حرج أو غرابة في الحكم الذي أصدره القاضي المالكي، والذي يقضي بسجن قاضي الشافعية جمال الدين يوسف بن جملة الحجي بالقلعة، لأمر كان قد اتخذه حيال بعض الأشخاص عندما كان في القضاء[٥١]. وكدليل آخر على مثل هذا الالتقاء بين المالكية ممثلين بتعاليم مذهبهم القاسية، وبين الحكام المماليك، أن هؤلاء الأخيرين كثيراً ما أسهموا بايصال الجهلة من القضاة المالكية إلى منصب قاضي القضاة، دون رحمة بالناس ولا رأفة، وبالتالي العبث بالشرع والقضاء، مقابل تحقيق أهداف فردية دنيوية حقيرة. أما القضاة الأندلسيون المغاربة على المذهب الشافعي، فقد كانوا قليلي العدد، بحيث لا يمكن مقارنتهم بزملائهم من المالكية، ومعظم الذين عثرت على تراجم لهم، اتصفوا بالاستقامة والأحكام العادلة، ولم يشتهر عنهم مواقف متميزة يمكن التوقف عندها، كما الأمر بالنسبة لاخوتهم على المذهب المالكي.

دورهم في المجال العسكري

لم يكن الاندلسيون والمغاربة نزلاء بلاد الشام، بعيدين عن المعارك، التي خاضها العرب المسلمون ضد الصليبيين وغيرهم. ومسألة اشتراكهم في الحرب وخاصة ضد الصليبيين، تبدو من المسائل الطبيعية جداً، سيما وأنهم كانوا في حروب شبه دائمة مع المسيحيين قبل أن تنشب الحروب الصليبية في المشرق[٥٢] لكن المؤرخين لم يشيروا إلى هذا الاشتراك بشكل مباشر، بمعنى لم يتحدثوا عن مجموعة معينة منهم شاركت بشكل مستقل عن الجيش الشامي. وكل ما كتبوه حول هذا الموضوع، اقتصر على ذكر حوادث فردية، باستثناء واحدة سآتي على ذكرها في السطور التالية، والتي سيظهر من خلالها، أن الأندلسيين والمغاربة، اشتركوا وبمجموعات كبيرة إلى حد ما. ومشاركتهم في الحرب ضد الصليبيين ومن بعدهم التتار، لم تكن على صورة واحدة فحسب، ومنهم من قدم المال لتجهيز عدد من المقاتلين إلى غير ذلك من الوجوه ولعل أشهر الحوادث المعروفة عن الأندلسيين والمغاربة في هذا الميدان، تعود إلى النصف الأول من القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي. فعندما حاول الصليبيون احتلال مدينة دمشق سنة

٥١ ــ تتمة المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٤٣٤.

٥٢ ــ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٨٥.

٥٤٣ هـ ــ ١١٤٩ م اجتمع أهلها لتدارس الطرق والأساليب الناجعة، من أجل الدفاع عن مدينتهم، فكان يوسف بن دوباس المغربي الفندلاوي، أشدهم حماساً واستعداداً لخوض الحرب، من أجل أن تبقى دمشق نظيفة من دنس المعتدين، وذلك بالرغم من تقدمه في السن. وقد اندفع للقتال غير عابيء بالنصيحة، التي قدمها له حاكم دمشق، والتي تتلخص بعدم الاشتراك في الحرب. وكان رده رائعاً جسد من خلاله العزم والتصميم، عندما خاطب حاكم دمشق قائلاً: «قد بعت واشترى لا أقيله ولا أستقيله» وتلا الآية الكريمة ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ وظل يقاتل رحمه الله، حتى استشهد بأرض النيرب بالقرب من الربوة، وحمل جسمانه إلى مقبرة باب الصغير حيث دفن(٥٣) ويعتبر من الشخصيات المغربية، التي طار ذكرها وخلد على صعيد مدينة دمشق، فقد ذكر الذهبي من مؤرخي القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، أن قبره على عهده، كان ما يزال يقصد للزيارة والتبرك، بالرغم من مضي أكثر من مائتي عام على وفاته(٥٤). ولدي دليل أكثر وضوحاً وأكبر أهمية، على صعيد اشتراك الأندلسيين المغاربة في الحرب ضد الصليبيين، ويتجلى هذا الدليل بالملاحظة التي دونها الرحالة ابن جبير الأندلسي، خلال زيارته لبلاد الشام في الربع الأخير من القرن السادس الهجري. ويبدو أن هذا الاشتراك، لم يكن قد اقتصر على فرد بعينه، بقدر ما كان على شكل مجموعة كبيرة العدد، الأمر الذي جعل الصليبيين يلجأون إلى اتخاذ اجراءات مضادة للأندلسيين، تجسدت بفرض ضريبة عليهم دون غيرهم، وذلك جزاء اشتراكهم مع العرب المشارقة ضدهم. يقول ابن جبير عندما زار حصن تبنين: «وكان مكاناً لتمكيس القوافل.. ولا اعتراض على التجار فيه، لأنهم يقصدون موضع الملك.. وأكثر المعترضين في هذا المكث المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم. وسببها أن طائفة من أنجادهم، غزت مع نور الدين أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية، ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأس الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم، وقال الافرنج: ان هؤلاء المغاربة، كانوا يختلفون على بلادنا، ونسالمهم ولا نرزآهم شيئاً، فلما تعرضوا لحربنا، وتألبوا مع أخوانهم المسلمين علينا، وجب أن

---

٥٣ ــ ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ ــ معجم البلدان ج ١٥ ص ٢٧٧ ــ ٢٧٨ مادة فندلاو ــ العدوى ــ الزيارات ــ ت صلاح الدين المنجد ط دمشق ١٩٥٦ ص ٦٢ ــ ٦٣ ــ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان القسم الأول من الجزء الثامن ص ٢٠٠.

٥٤ ــ العبر في خبر من غبر ج ٤ ص ١٢٠.

نضع هذه الضربية عليهم ، فللمغاربة في أداء هذا المكث سبب من الذكر الجميل ، في نكايتهم العدو يسهله عليهم ويخفف عنتهم »[٥٤ مكرر] ويستمر اشتراك الأندلسيين المغاربة في الفترة التي تلت انتهاء حكم نور الدين زنكي . ويمكن القول إن اعدادهم ازدادت بشكل كثيف على عهد صلاح الدين الايوبي . فظهرت مشاركتهم على وجهين ، الأول كمحاربين أساسيين ، والثاني مرافقين للجيش ، يقومون بتقديم الخدمات ، التي لا تقل عن غيرها في ميدان الحرب . مثال الوجه الأول ، الحادثة التي ذكرها العماد الكاتب الاصفهاني في كتابه الموسوم بـ (الفتح القسي في الفتح القدسي) حيث يظهر من خلالها قيمة الدور الذي لعبه هؤلاء المغاربة على الصعيد العسكري ، كمقاتلين أشداء نذروا أنفسهم لتنفيذ مهمات في غاية الخطورة ، ففي سنة ٥٨٧ هـ ـــ ١١٩١ م وفي أثناء حصار العرب المسلمين لمدينة عكا ، جاء رسول من قبل أحد قادة الصليبيين ومعه أسير مغربي ، قدمه إلى السلطان صلاح الدين على سبيل الهدية ، فاستقبل الأسير بحفاوة وتقدير ، الأمر الذي يدل على مدى اعجاب صلاح الدين الأيوبي بالمغاربة الأندلسيين وتقدير جهودهم في الحرب التي خاضها ضد أعدائه[٥٥] ومثال الوجه الثاني ، الذي شارك به الأندلسيون اخوانهم في الحرب ، لم يكن على هيئة محاربين كجنود يحملون السلاح ، بل تجلى بمرافقة الجيش ، وتقديم خدمات كبيرة ، ساهمت إلى حد كبير برفع معنويات الجيش القتالية ، وأذكت في عناصره الروح القتالية العالية .

فقد عرفت أعداد كبيرة منهم ، كانت مهمتهم الرئيسية تحضير الطعام ، وتجهيز الحمامات للجنود من أجل الاغتسال . ويمكن تقدير عدد هؤلاء المغاربة بأكثر من ثلاثة آلاف رجل[٥٦] . لذلك يمكن النظر إلى الوظائف العالية ، التي نالها المغاربة في القدس بعد تحريرها ، على أنها تعبير عن المكافأة على خدماتهم والرغبة في استمرار هذه الخدمات في الوقت نفسه . وسوف يمر بعد قليل كيف أن صلاح الدين عبر عن ذلك ، وسار ابنه الأفضل وغيره من الحكام الايوبيين على نفس الطريق . فقد كانت صلة الأفضل بالقدس قوية منذ أن حررت ، لأنه كان الموكل من قبل أبيه بحفظ ما حرر منها . كما يستفاد من رسالته للعماد الأصفهاني على لسان صلاح الدين في معرض ذكره لانتصاراته وما فتحه عام ٥٨٣ هـ . ومما ورد فيه : « والآن فقد خلص لنا جميع مملكة بيت المقدس وحدها في سمت

٥٤ ـــ مكرر ـــ العبر في خبر من غبر ج ٤ ص ١٢٠ .
٥٥ ـــ الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٥٠٢ .
٥٦ ـــ السلوك لمعرفة دول الملوك ـــ ج ١ ق ١ ص ٩٤ .

مصر من العريش وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك. وتشتمل على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت. ولم يبق من هذه المملكة الا صور .... وأنه قد رتب الجانب القبلي والبلد القدسي. وشحن الثغور من حد جبيل إلى عسقلان بالرجال والأموال وآلات العدد والعدد المتواصل الممد. ورتب فيها ولده الأفضل علياً لحمايتها وحفظ ولايتها ...»[٥٧] وقد تجلت انعاماته على المغاربة أيام سلطنته، وعندما خلف والده عند وفاته بدمشق سنة ٥٨٩ هـ ـــ ١١٩٣ م، ليبقى على عرش السلطنة قرابة تسع سنوات، خضع بعدها لعمه العادل في سنة ٥٩٨ هـ ـــ ١٢٠٢ م. وفي أيام سلطنته وعندما أصبح قادراً على منح الاقطاعات وقف على فقهاء المالكية المدرسة الأفضلية، وبجوارها أوقف قطاعاً من المدينة يقع بجوار المسجد، وسور الأقصى من جهة الغرب ويخرج إليها من أحد ابوابه، علماً بأن المسجد الأقصى يقع في الجنوب الشرقي من مدينة القدس، وأضحى معروفاً باسم حارة المغاربة. كانت وقفاً كما يقول صاحب الأنس الجليل: «على طائفة المغاربة على اختلاف أجناسهم ذكورهم واناثهم، وكان الوقف حين سلطنته على دمشق، ولم يوجد لها كتاب، فكتب محضراً بالوقف لكل جهة، وثبت مضمونه لدى حكام الشرع الشريف بعد وفاة الواقف»[٥٨] . وكان للمغاربة جامع تقام فيه صلاة المالكية بداخل المسجد الأقصى، وكان هذا الحي أو الحارة يتضخم مع الزمن بالمغاربة الوافدين، منهم الميسورون ومنهم الفقراء أيضاً. وقام الشيخ عمر بن عبد الله ابن عبد النبي المغربي المصمودي المجرد بتعمير زاوية بأعلى الحارة، أنفق عليها من ماله، ووقفها على الفقراء والمساكين سنة ٧٠٣ هـ ـــ ١٣٠٤ م. وإذا كان عمل الأفضل هذا تجاه المغاربة نوع من المكافأة على خدماتهم في جيش أبيه، فإن ظروفه فيما بعد وفاة أبيه، تجعل الاعتقاد أنه فعل ذلك بدافع من الاستعانة بقوتهم العسكرية للدفاع عن القدس. فالمدينة فقيرة ولا تكفي وارداتها وواردات الأراضي التابعة لها للقيام بكلفتها، مما أدى إلى تخصيص ثلث وارد إقطاع نابلس لها. وكذلك فإن ضياء الدين ابن الاثير وزير الأفضل، أقنعه بالتنازل عن القدس، لأسباب منها التخلص من النفقة عليها. لكن المكانة الدينية للمدينة جعلها قوة معنوية لمن تتبعه. وربما كان هذا أيضاً من جملة الأسباب، التي جعلت نواب الأفضل في فلسطين وعلى رأسهم عماد الدين بن المشطوب مقطع نابلس يعرضون على سيدهم الرفق، ويتعهدون بالقيام بأودها وأود رجالها. كما أنها كانت حتى ذلك الوقت هدفاً

---

٥٧ ـــ أبو شامة ـــ الروضتين في أخبار الدولتين ج ٢ ص ١٣٧.

٥٨ ـــ الأنس الجليل ـــ ج ٢ ص ٣٩٧.

رئيسياً للصليبيين ، وكان بيدهم رأس جسر مناسب للهجوم عليها ، يتمثل في ميناء عكا الحصين . وكان على الأفضل والمشيرين عليه والمحيطين به أخذ هذا التهديد بعين الاعتبار ، خاصة وأن الأفضل لم يكن حاكم الامبراطورية الايوبية فعلياً كأبيه ، بل إن سلطانه اقتصر على الشام بكل ما حفلت به آنذاك من عوامل تمنع من قيام سلطة مركزية بها ، كما أنها كانت عاجزة عن تمويل جند كثيف ، فقد كانت غير قادرة على تمويل أكثر من أربعة آلاف جندي نظامي . وبهذه القوة الضئيلة كان عليه مجابهة الخطر الصليبي ، وكذلك خطر أفراد أسرته المستضعفين له . وكان أخوه العزيز صاحب مصر على رأسهم في الظاهر . ضمن هذه الأوضاع يبدو منطقياً الافتراض بأن الأفضل كان يرى في المغاربة قوة عسكرية مناسبة ، يمكن أن يفيد منها في الدفاع عن القدس على الأقل . ومما يؤكد على اشتراك المغاربة بالحرب مع صلاح الدين في معارك التحرير ، في حال غياب الاحصاءات الدقيقة ، أن هؤلاء المغاربة هم كالكثير من الشاميين الذين شاركوا بهذه الحرب من غير الجيش النظامي الذي لم يكن يشكل كل القوة المحاربة ولا حتى النسبة العددية الأكبر . فقد بين الانكليزي جب أن عدد الجند النظامي لدى جيش صلاح الدين الايوبي في موقعه حطين ، لم يكن يتجاوز الأربعة عشر ألف مقاتل(٥٩) أما المحاربون الآخرون ، فكانوا متطوعة ومتصوفة مع أتباعهم . ومنهم الأندلسيون المغاربة من غير المؤهلين للحرب بشكل نظامي مرتب . ولم يكن الافرنج على ما يبدو غافلين عن هذه القيمة التي يحتلها المغاربة عند حكام الشام . فقد حدث في سنة ٦٢٦ هـ ــ ١٢٣٠ م أن حمل عدد كبير من أسرى جزيرة ميورقة إلى الساحل الشامي ، حيث استفكوا وقدموا إلى دمشق يقول أبو شامة في الذيل على الروضتين في صدد حديثه عن سنة ٦٢٧ هـ ــ ١٢٣٠ م : «في هذه السنة جاء الخبر بأن الفرنج استولوا على جزيرة ميورقة ، وقتلوا خلقاً كثيراً ، وأسروا كذلك ، وقدموا ببعض الأسرى إلى ساحل الشام ، فاستفك منهم طائفة ، فقدموا علينا دمشق وأخبروا بما جرى عليهم(٦٠) وهذا إن دل على شيء فانما يدل على مدى التقدير ، الذي أظهره الايوبيون للمغاربة لما قاموا به من أعمال مميزه ومخلصة خلال الحرب مع الصليبيين ، يضاف إلى ذلك ، أنهم قوة جديدة تضاف إلى الموجودين القدماء . وكما كان الحال في زمن الزنكيين والايوبيين وقبلهم البوريين ، فإن الأمر لم

---

٥٩ ــ Encyclopodia of Islan Vol 1- p. 797-798.

٦٠ ــ الذيل على الروضتين ص ١٥٩ .

يتبدل في زمن المماليك . فقد ظل الأندلسيون المغاربة في مقدمة المتحمسين للدفاع عن أرض الشام ، وكرامة العرب المسلمين فيها ضد الصليبيين وغيرهم .

والأمثلة كثيرة في هذه الفترة ، أذكر منها على سبيل المثال حادثة وقعت في سنة ٧٨٥ هـ ــ ١٣٨٣ م عندما هاجم الافرنج مدينة بيروت العربية . فعلى أثر اتصال المسؤولين عن ادارتها مع نائب دمشق بقصد المساعدة للدفاع عنها ، تذرع بأنه يحتاج إلى أمر سلطاني ، فقام بعض المتنفذين من المماليك بدعوة الناس للتطوع من أجل الجهاد ، فكان على رأس الذين استجابوا لهذه الدعوة ، القاضي المالكي آنذاك مع مجموعة كبيرة من الأندلسيين المغاربة الموجودين بدمشق[٦١] ولم تكن شهرة الأندلسيين المغاربة ، قد اقتصرت على صعيد الحرب ضد الصليبيين فحسب ، انما كانت لهم ايادٍ بيض في كل مناسبة تعرضت لها الشام للاعتداء والغزو .

فعندما أحدقت الجيوش التتارية بالشام ، وداهم خطرها بشكل خاص مدينتي دمشق وحلب ، شكل الأندلسيون والمغاربة الطلائع المدافعة عن هاتين المدينتين . مثال ذلك القاضي المالكي بدمشق ابراهيم بن محمد التادلي ، الذي اشترك بقتال التتار قبل دخولهم إلى المدينة ، حيث جرح عدة جروح ، توفي متأثراً فيها سنة ٨٠٣ هـ ــ ١٤٠١ م[٦٢] .

ويفهم للوهلة الأولى من كل ما تقدم من أمثلة ووقائع ، أن اشتراك الأندلسيين والمغاربة كان رهناً بمداهمة بلاد الشام من قبل الجيوش الغازية المعتدية ، بحيث يشتركون لفترة معينة وينصرفون لكن الحقيقة تبدو غير ذلك فمن خلال بعض الأمثلة يتبين أنهم انخرطوا في صفوف الجيش النظامي كمتطوعين ومحترفين للعمل العسكري ، مثلهم في ذلك مثل أبناء البلاد الأصليين تماماً . والقاضي محمد بن محمد الدمشقي المالكي الملقب بعلم الدين القفصي ووالده ، خير مثال على ذلك . فقد كان عمله الرئيسي قبل تسلمه القضاء في عدة مدن عربية شامية كحلب ودمشق وحماة ، كان جندياً في الجيش المماليكي . وكذلك الأمر بالنسبة لوالده من قبله[٦٣] .

أما الوجه الثالث لمشاركتهم وإسهامهم في الدفاع والذود عن بلاد الشام ، فقد تجلى

---

٦١ ــ انباء الغمر بأبناء العمر ج ١ ص ٢٧ .

٦٢ ــ الضوء اللامع ج ١ ص ١٥٥ ــ ١٥٦ ابن عربشاه ــ عجائب المقدور في أخبار تيمور ــ ط مصر ١٣٠٥ هـ ص ٩٨ .

٦٣ ــ انظر ص ٢٣٣ من هذا البحث .

بتقديم الأموال من أجل تجهيز المقاتلين بالسلاح والعتاد وغير ذلك. مثال هؤلاء، مثل محمد ابن محمد أبو الوليد التجيبي الأندلسي إمام محراب المالكية بدمشق المتوفى سنة ٧١٨ هـ ـ ١٣١٩ م والذي يقول عنه ابن حجر العسقلاني في كتابه الدرر الكامنه: «... وكانت له عدة كاملة من السلاح والخيل أعدها للغزاة من ماله ...»[٦٤] لذلك فليس غريباً أن يكون جزءاً كبيراً من تصرفات الحكام المماليك الإيجابية تجاه الجالية المغربية في الشام، مثل تخفيض الضرائب على البضائع التجارية، التي يأتي بها إلى الشام التجار المغاربة وغير ذلك، تكون بسبب موقفهم العسكري ضد الأعداء.

وقد أسهم المغاربة في الدفاع عن الشام على وجه آخر، يختلف عن الوجوه السابقة الذكر من حيث الأسلوب. وقد تجلى هذا الوجه بالدبلوماسية الفذة، التي قدر لها أن تنجح وتثمر نتائجها. ففي سنة ٨٠٤ هـ ـ ١٤٠٢ م وأثناء حصار تيمورلنك لمدينة دمشق، أو بالأحرى أثناء احتلالها، يصل إليها قادماً من مصر مع جيش الناصر فرج المملوكي[٦٥] القاضي والعلامة عبد الرحمن بن خلدون، الذي لم يرجع مع الناصر المذكور، والذي لم يشترك بالدفاع عنها وتخليصها من جيش تيمورلنك. فقد دخل ابن خلدون في ظلمة الليل من فوق أحد أسوار المدينة مشدوداً بالحبال، غير متهيب من الطوق الحديدي المضروب عليها، وغير آبه بما فعله جيش تيمورلنك في حلب من تقتيل وتدمير. ويسقط في قبضة الحرس، ويتخلص منه ليتقدم إلى ملك الشام الجديد (ملك شاه بن تيمورلنك) يطلب منه مقابلة أبيه. وتم له ذلك وتوصل إلى مقابلة الطاغية تيمورلنك، الذي بهر بحديث العالم المغربي ورأيه السديد وتوجيهاته الغالية، وخاصة منها التي تتعلق بدعوة تيمورلنك إلى احتلال وغزو المغرب. وذاكره في شروط الصلح مع دمشق، ويستطيع بما كتبه من شروط، أن يحمي عاصمة بني أمية من الاستباحة والتدمير[٦٦] وان كان الأمر لم يتم بالشكل الذي اتفق عليه حيث استبيحت دمشق وعذب أهلها وقتل كثيرون منهم إضافة إلى ابتزاز أموالهم ونهب ثرواتهم[٦٧]. لكن مهما يكن من أمر فقد خفف ابن خلدون من حدتها بمقابلته لتيمورلنك نفسه، وأدى خدمة عظيمة الاهمية، لا تقل عن غيرها من خدمات الأندلسيين المغاربة

---

٦٤ ـ الدرر الكامنة ج٣ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.

٦٥ ـ هو سلطان مصر والشام ومايتبعهما في ذلك الوقت.

٦٦ ـ محمود الباجي ـ عبد الرحمن بن خلدون ط تونس جمعية الاتحاد الصفاقسي الزيتوني ص ٥٨.

٦٧ ـ عجائب المقدور في أخبار تيمور ص ٩٨ وما بعدها.

لآخرين. وهكذا فقد بدا واضحاً، أن الأندلسيين المغاربة، سواء منهم الذين أقاموا بصورة دائمة، أو الذين بقوا فيها لفترات متفاوتة، خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط موضوع هذا البحث، لم يقفوا مكتوفي الأيدي حيال ما يجرى من أحداث ومعارك، كان لقصد منها، السيطرة على هذه البقعة من أرض العرب والاسلام. وقد سطروا من خلال اشتراكهم بالذود عنها أنصع الصفحات وأنقاها. فبرهنوا بذلك على صدق انتمائهم العربي الاسلامي. فلم تقعدهم الشيخوخة أو التقدم في السن، ولم يرهبهم الموت ولا زوال المناصب الادارية، أو فقدان الأموال، أو أي شيء من هذا القبيل، فاستحقوا بذلك كل تقدير واحترام. ويمكن القول، أنهم كانوا في أحيان كثيرة أشد اندفاعاً وحرصاً من أهل البلاد الأصليين.

دورهم في الحياة الاقتصادية

لم يكن دور الأندلسيين المغاربة في مجال الاقتصاد بأقل من دورهم في أي مجال آخر. الأمر الذي ظهر جلياً وواضحاً من خلال بحث العاملين في هذا المضمار. وقد حدث أن نقلوا أشياء جديدة، كانت غير معروفة بالشام وخاصة في الميدان الصناعي. ففي ميدان الزراعة، لا بد وأنهم عملوا فيه بشكل كثيف، وذلك انطلاقاً من أنهم لم يكونوا غرباء عليه، فقد عرفت الأندلس بزراعاتها الراقية والمتنوعة، وما يؤكد أنهم عملوا في هذا المجال، أن كثيرين منهم اشتغلوا في حراسة البساتين، وآخرين امتلكوا الضياع والقرى الزراعية، إضافة إلى أن نور الدين زنكي، خصص لهم منذ الفترة الأولى من القرن السادس، عدة بساتين وأراض غير مشجرة[٦٨] لكنهم بالرغم من ذلك، فانهم لم يشتهروا بشيء جديد يمكن أن يتوقف المرء عنده، على صعيد الزراعة، كأن يقال مثلاً أنهم نقلوا طريقة زراعة معينة لصنف من الأصناف النباتية، أو أي شيء من هذا القبيل. أما بالنسبة للصناعة، فان دورهم كان أكبر، وأكثر لكونهم أيضاً ورثة مجتمع صناعي متقدم، إضافة لذلك، فانهم نقلوا عدة صناعات لم تكن معروفة على صعيد بلاد الشام، وأضحت جديدة بالنسبة للشاميين. مثال ذلك صناعة الحرير[٦٩] وصناعة الأدوات المتنوعة كالصحون والكؤوس وبعض الأوعية الأخرى، التي تدعى عادة في الشام بـ(المالقي) التي لا يستبعد أن تكون نسبة إلى مدينة

---

٦٨ ـــ انظر ص ١٠٥ من هذا البحث.

٦٩ ـــ انظر ص ٢٤٦ ـــ ٢٤٧ من هذا البحث.

مالقة في جنوب الأندلس. وجدير بالذكر أن مثل هذه التسمية ما زالت معروفة ومأخوذ بها في سائر أنحاء بلاد الشام تقريباً. وتتجسد فائدة نقل مثل هذه الصناعات الجديدة في وجهين اثنين، أولهما يخلص المستهلكين من دفع سعر إضافي، لأن مثل هذه الصناعات، ستستورد من خارج البلاد، لكونها غير رائجة على الصعيد المحلي. لأن القائم على عملية الاستيراد، سواء كان من التجار المستقلين، أو المعتمدين لدى الدولة، سيأخذ بعين الاعتبار ثمن الكلفة من بلد المنشأ، وأجور النقل منه إلى حيث السوق الاستهلاكية، يضاف إلى ذلك حساب الأرباح. وثانيهما يتلخص بأن مثل هذه الصناعات، تساعد على تشغيل عدد من العمال، سواء منهم الذين يشتغلون فيها بصورة رئيسية، أو الذين يقومون بتسويقها والاتجار بها، وبالتالي تصبح البلاد من المناطق المصدرة، بعد أن كانت مستوردة، وهذا الأمر يقوي ويدعم الاقتصاد الوطني بحسب ما يقوله علماء الاقتصاد. وأما بالنسبة للتجارة، فبالرغم من أنهم انطلقوا من مصلحتهم الشخصية، قبل كل شيء، وهذا أمر طبيعي، فإنهم لعبوا دوراً، إن لم يكن من الممكن وضعه في مقابل دورهم في كل من الميدانين السابقين، كقطاعين منتجين، فإن من الممكن القول، أنه انعكس بصورة أو بأخرى على الوضع الاقتصادي، فكان ايجابياً أكثر منه سلبياً في معظم الأحيان. ويظهر ذلك واضحاً من خلال الخدمات التي قدمها التجار للمجتمع عن طريق أعمال احترفوها، أو عن طريق المشاريع التي أقاموها. مثال ذلك الطبيب الأندلسي يوسف بن يحيى بن اسحق السبتي المغربي، الذي عمل بالتجارة، منذ أن وصل إلى مدينة حلب، لكونه كان فقيراً معدماً. فوصل بأسفاره إلى العراق والهند وفارس، وعاد بأموال طائلة، خصص قسماً منها لشراء قطعة أرض بحلب، أشاد عليها بناء جعله مركزاً لتعليم الطب والمداواة[٧٠] وأيضاً فعل الطبيب الأندلسي المعروف بالكلي، فقد ترك مهنة الطب وتحول إلى التجارة واقتصر عمله الرئيسي على شراء حاجيات المماليك بأرخص الأثمان وأوفرها[٧١] وتنعكس نتائج أعمال كهذه بالدرجة الأولى على الاقتصاد الوطني مباشرة. فبناء مركز طبي، لا بد أنه كان سيكلف أموالاً وجهوداً، ستلجأ الدولة إلى توفيرها بفرض ضرائب وأتاوات على الشعب، وفرها الآن شخص واحد هو الطبيب المذكور. أما فائدة عمل الطبيب الكلي، فقد انحصرت إضافة إلى مصلحته الشخصية، بمصلحة الدولة مباشرة، حيث عرف عنه كما ذكرت المهارة بالشراء بأرخص الأثمان، فوفر مبالغ كبيرة، كانت

٧٠ ــ انظر ص ١٣٨ من هذا البحث.

٧١ ــ ذيل مرآة الزمان ج ٣ ص ١٩٣ ــ ١٩٤.

ستصرف على المشتريات نفسها. وهناك فئة من الأندلسيين من غير العاملين بالزراعة والصناعة والتجارة.

وكان عددها كبيراً جداً بالقياس على الفترة الأولى من هذا البحث، حيث سيرى بعد قليل أن عدد الذين اشتغلوا في أعمال الخدمة في جيش صلاح الدين، بلغ أكثر من ثلاث آلاف رجل مغربي. فكيف إذا جمعنا بقية القطاعات الأخرى، وخاصة في الفترة الأخيرة من هذا البحث، عندما أضحت الهجرة الأندلسية باتجاه الشام غزيرة جداً. وكما شكلت عدداً كبيراً، فانها شكلت دعماً كبيراً أيضاً وسنداً قوياً للاقتصاد الشامي.

وقد تمحور وجود هذه الفئة بمدينة دمشق. وهي التي أسميتها برجال الخدمة من فقراء المغاربة، الذين انتشروا وتوزعوا على جميع القطاعات الاقتصادية وغير الاقتصادية. والشيء الجديد الذي اتسم به هؤلاء، أن أجورهم كانت ضئيلة جداً، يرضون بالقليل والنادر. مثال ذلك أولئك الذين عملوا، كأمناء طواحين أو نواطير بساتين، أو طباخين ومجهزي حمامات في الجيش. لذلك فقد علت شهرتهم كعمال يرضون بأرخص الأجور وأقلها، مثلما علت شهرتهم وطارت على صعيد الأمانة والجد والاخلاص في العمل. ويمكن وضعهم بالاعتماد على هذا الوضع في أدنى السلم الاجتماعي من ناحية دخلهم وانتاجهم العائد عليهم. وهذا ما جعل الطلب عليهم شديداً في أغلب الأحيان، وخاصة من قبل المسؤولين عن الحكم والادارة في الدولة. وظاهرة كهذه، إن دلت على شيء، فإنما تدل على إنجاز الأعمال مهما كانت بأقل مقدار من المال، الأمر الذي ينعكس بالنهاية على الاقتصاد والادخار. ولعل أوضح الأمثلة التي تجسد هذه الحقيقة، ما جرى بدمشق ٨٢٣ هـ ــ ١٤٢٠ م، عندما جاء حاكم دمشق إلى الجامع الأموي، وأخذ يفند مرتبات العاملين في جميع النواحي، والشؤون العامة بدمشق. وحينما وصل إلى تفنيد واستعراض مرتبات العاملين بالعمارة، وجد أن المبلغ المخصص لهؤلاء كبير جداً، فقال للناظر والمباشرين: «باشروا ذلك بأنفسكم، وان احتجتم إلى أمين على آلات العمارة، هاتوا مغربياً كل يوم بدرهمين، فاذا فرغت حاجتكم فيه يروح..»[٧٢] وهذا ما يوحي، بأن أجور العمال من غير الأندلسيين، كانت كبيرة إلى حد ما، إذا ما قورنت بأجورهم، ويظهر من كل الذي تقدم ذكره حتى الآن، أن العمال من الأندلسيين والمغاربة، شكلوا قاعدة واسعة، كان لها دورها الرائد في دعم الاقتصاد العربي في بلاد الشام، في فترة هذا البحث.

---

٧٢ ــ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٤٠٤.

وان كانت قد تعددت وجوه ونشاطات هذه الفئة من الأندلسيين ، فانهم التقوا في مصب واحد وفي نتيجة واحدة ، تجلت بدعم أو رفد المنشآت الاقتصادية وغيرها بالعمال ذوي الأجور القليلة ، مقابل الهمم العالية ، بحيث يمكن أن يقفوا على قدم المساواة مع أفراد أية فئة أندلسية أخرى . أما بعد فقد وجد الأندلسيون المغاربة في بلاد الشام أرضاً خصبة وبيئة صالحة ، تقيهم شر العوز والحاجة ، وتخفف عنهم مرارة الشوق والبعد عن الوطن الأم ، الأمر الذي ساعدهم على الاستقرار ، يحدوهم الشعور بالهدوء والاطمئنان . فلقد أحبهم أهل الشام وحكامها ، وأكرموا مثواهم وأحسنوا منزلتهم ، وأعلوا قدرهم ، واختصوهم بكل عناية ورعاية على مختلف فئاتهم . فمن أجلهم ابتنوا عدداً من المدارس والخوانق والزوايا ، وخاصة في مدينة دمشق وبيت المقدس ، الأمر الذي يوحي بوضوح أن هاتين المدينتين ، استقطبتا الغالبية العظمى من الجالية الأندلسية . ففي مدينة دمشق وكما مر في بحث سابق ، أن أول الزوايا التي خصصت للمالكية ، كانت في الجامع الأموي الكبير ، والتي بقيت وقفاً عليهم حتى آخر لحظة من فترة هذا البحث . وكان يتولاها في أكثر الأحيان فقيه أندلسي مغربي ، يكون مسؤولاً عن امامة المالكية بدمشق ورعاية شؤونها الفقهية والتعليمية في بعض الأحيان ، انما تعداها إلى الصعيد الشعبي ، فقد أسهم بعض الاغنياء من أهل دمشق ، ببناء زاوية للمغاربة في أوائل القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي هو الرئيس علاء الدين المشهور بابن وطية الموقت بالجامع الأموي سنة ٨٠٢ هـ ـــ ١٤٠٠ م وهذه الزاوية هي التي عرفت بزاوية ابن وطية ، التي تقع إلى الشمال من جامع جراح ، وشرطها الرئيسي ، أن تكون برسم المغاربة على اختلاف اجناسهم ، وأن لا يكون النازل بها شريراً أو مبتدعاً وأن لا يكون شيخها من القضاة أو الحكام . ويقول عنها النعيمي الدمشقي صاحب كتاب الدارس في تاريخ المدارس : « وقفت على كتاب وقفها في أواخر جمادى الاخرة سنة واحد وتسعمائة وتعرف الان بزاوية المغاربة » . وخصص ابن وطية عدة حوانيت تقع بالقرب منها ، وذلك للصرف على المغاربة الموجودين فيها[٧٣] . ومن الخوانق التي خصصت للمغاربة في دمشق ، الخانقاة الأندلسية ، والخانقاه السميساطية . وقد ذهب الاهتمام من قبل الشاميين بالجالية الأندلسية المغربية إلى حد أبعد ، تجلى بأن العديد من أهل دمشق ، وقف على موتاهم مقابر خاصة بهم كمقبرة خليل بن زويزان ، التي تقع إلى الجنوب من مقابر الصوفية ، والتي وقفها على ما يبدو على الصالحين من الصوفية وغيرهم من العلماء المغاربة المشاهير . وكان أول الذين

---

٧٣ ـــ الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٢٠٤ .

دفنوا بها الفقيه أبو الحسن علي المراكشي(٧٤) والمقبرة التي تعرف بـ (مقبرة فقراء المغاربة)، وتقع في سفح قاسيون في مغارة الدم(٧٥) ولا يستبعد أن تكون قد احتوت كثيراً من نزلاء دمشق من المغاربة، كونهم شكلوا النسبة الكبيرة من التواجد الأندلسي المغربي في هذه المدينة، وان كانت المصادر تضن بكل شيء يتعلق بهم تقريباً. ومن ناحية أخرى، فقد وجد من أهل دمشق، من وقف جزءاً كبيراً من ثروته على فقهاء المغاربة بعد وفاته، مثال ذلك أحمد بن عبد الله الذهبي الكتبي المتوفى سنة ٦٦٣هـ ــ ١٢٦٥م الذي يقول عنه رفيقه أبو شامة في الذيل على الروضتين: «... ثم بقي عندنا مدة عمره وخلف كتباً كثيرة وثروة، ووقف داره على فقهاء المالكية، وأوصى لهم بثلث ماله، وحرضته أن يقف شيئاً من أصول كتبه فلم يفعل»(٧٦) هذا بالإضافة إلى الأراضي والبساتين التي خصصت للصرف عليهم منذ الفترة الأولى لحكم نور الدين زنكي، وكذلك الأمر كان في بيت المقدس، إذا خصصت لهم فيها زاوية واحدة في المسجد الأقصى تشبه تلك التي خصصت لهم في الجامع الأموي بدمشق، وخانقاه واحدة دعيت الخانقاه الفخرية(٧٧). وبالمقابل فإن الأندلسيين المغاربة شكلوا جالية كبيرة العدد إلى حد ما، لكن غياب الاحصائيات والأرقام الخاصة بهذه الجالية، تجعل المرء يلجأ إلى التقدير التقريبي. بحيث يمكن القول وبشيء من المجازفة، أن عدد المغاربة في الشام بلغ عشرات الآلاف من مختلف الفئات، التي كانت فئة العمال والفقراء تشكل الغالبية العظمى منهم، وذلك بالاعتماد على بعض الاشارات التي وردت في بعض المصادر وخاصة عن رجال الخدمة في الجيش، كالمقريزي، والقطاعات الاقتصادية الأخرى، كما عند غيره. وما يدلل أيضاً على ضخامة عدد الجالية المغربية في الشام، ظهور مناصب إدارية كبيرة خاصة بالمالكية، كمنصب القضاء، الذي يشير بوضوح إلى العدد الهائل الذي شكله المغاربة في الشام، وخاصة في فترة حكم المماليك التي شهدت هجرة أندلسية كبيرة، بعدما سقطت أكثر معاقل العروبة والاسلام في شبه الجزيرة الايبيرية. لأن منصباً كبيراً كالقضاء، لا يمكن أن يستحدث في مدينة لا تحتوي عدداً كبيراً من الذين يأخذون بالمذهب المالكي. ودليل ذلك أن مدينة حمص، التي لم تذكر المصادر رغم كثرتها وتنوعها،

---

٧٤ ــ الذيل على الروضتين ص ١٥٣.

٧٥ ــ المصدر السابق ص ١٧٣.

٧٦ ــ الذيل على الروضتين ص ٢٣٥.

٧٧ ــ انظر عن هذه الأمكنة.. الأنس الجليل ج ٢ ص ٥٨٠ وما بعدها.

أن أندلسياً سكنها أو حل بها بشكل دائم. الأمر الذي جعل الحكام لا يعتمدون فيها قاضياً مالكياً. طيلة هذه الفترة المعنية بهذا البحث. دليل آخر يؤكد ضخامة عدد المغاربة في الشام، يأتي من الاهتمام الرسمي والشعبي بهم، كبناء المدارس والزوايا والخوانق والمقابر وتخصيص الثروات للصرف عليهم. وأكثر من ذلك تسمية قطاعات من بعض المدن الشامية بإسمهم، كما حدث في مدينة بيت المقدس، حيث عرفت إحدى حاراتها باسم (حارة المغاربة)، مما يوحي بأن عددهم كان كبيراً فيها، والجدير بالذكر أن عددهم تباين، واختلف من مدينة إلى أخرى، بحيث يمكن القول، إن العدد الكبير منهم، تواجد في مدينة دمشق، التي امتازت عن غيرها من المدن الشامية في شتى المجالات، والصعد وتليها مدينة بيت المقدس فحلب[٧٨] فحماة فطرابلس الشام ومن ثم صفد والخليل وغزة ودرعا والحواضر الأخرى، التي لا يعول عليها من ناحية التواجد الأندلسي فيها، والذي اقتصر على بعض الافراد. وما يجعل ترتيب دمشق بالدرجة الأولى على صعيد التواجد الأندلسي صحيحاً، من خلال المقابر التي دفنوا بها، فبالإضافة إلى المقبرتين الآنفتي الذكر (مغارة الدم والصوفية)، توجد عدة مقابر أخرى دفن فيها كثير منهم كمقبرة الباب الصغير وباب توما بالقرب من الشيخ رسلان وباب الفراديس والمزة. وقد اتسم رجال هذه الجالية بالحيوية والنشاط، يحفزهم في تنفيذ أعمالهم الاخلاص والوفاء لأرض اعطتهم بسخاء وكرم. فلم يعرف أنهم تخاذلوا في عمل، أو بالأحرى تأخروا عن أداء مهمة أوكلت إليهم، في أي ميدان وجدوا فيه. ولولا شذوذ بعض القضاة المالكيين واندفاعهم وراء مآربهم الشخصية والمادية، لكان بالامكان القول، أنهم جميعاً عرفوا بالاستقامة وتحلوا بالأخلاق النبيلة الفاضلة. فقد غدت عبارات الصدق والأمانة عناوين بارزة ميزتهم عن غيرهم، وجعلتهم في المقدمة على صعيد هذا الجانب الانساني البحت.

ومن ناحية أخرى، فإنهم لم يشكلوا جالية منفصلة أو متميزة عن الفئات الاجتماعية ببلاد الشام، لا تقبل التخلي عن أعرافها وعاداتها. انما انصهروا إلى حد كبير في بوتقة المجتمع الشامي، على كل صعيد وجانب. فمن الناحية الدينية تخلوا عن تمسكهم المطلق

٧٨ — يذكر ابن خطيب الناصرية اسم حارة للمغاربة بمدينة حلب في كتابه الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب الجزء الثاني من المخطوط عندما كان بصدد الحديث عن أحد العلماء، الذي توفي سنة تسعين وسبعمائة بحارة المغاربة، والتي يذكر أنها كانت تجاه مسجد غوث (انظر الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ ورقة ٨٧ — ٩٨ — ٩٩).

بالمذهب المالكي، الذي كان يعتبر المذهب الوحيد في الجناح الغربي من أرض العرب والاسلام (الأندلس) وان لم يكن هذا التخلي بشكل جماعي، حيث بقي منهم العدد الأكبر على مذهب المالكية، وخاصة الذين نزلوا الأماكن التقليدية للوجود الأندلسي في دمشق وغيرها(٧٩) فأولئك الذين عملوا بالقضاء المالكي اضافة إلى العاملين خارج مدارس الشام المخصصة للشافعية والحنفية، فان قضية تحول جماعة كبيرة من المالكية إلى الشافعية والحنفية.

تعتبر تطوراً هاماً على طريق الاندماج بالمجتمع الجديد، بالرغم من أن سببها اقتصادي محض، يتجلى بالحصول على عمل وراتب مناسب في أية من المدارس غير المالكية. وهذا يظهر من خلال تتبع سير العلماء في مختلف المجالات التي عملوا بها في الشام. وان كان من الصعب، أو بالأحرى من الممل والمكرر هنا، أن آتي على ذكرهم جميعاً، فان من الخير اعطاء نسبة تبين هذا الأمر. فلو جمع المحدثون والنحويون والمدرسون وبعض القضاة على المذهب الشافعي وبعض الاداريين والخطباء وغيرهم في بعض المجالات الأخرى، لتبين أن نسبة ٩٠٪ من هؤلاء وربما أكثر، كانوا قد تحولوا إلى الشافعية والحنفية وغير ذلك. ولكي تصبح الصورة أقرب، فاني سأذكر تجمعين علميين اشتهرا على صعيد المغاربة هما: المدرسة العادلية الكبرى والرباط الناصري. فقد وجد في المدرسة العادلية من المغاربة أكثر من ثلاثة من العلماء المشاهير وعدد من غير المشاهير، خلال القرن السابع الهجري، كلهم تحولوا إلى المذهب الشافعي. أذكر منهم الثلاثة المعروفين بشكل جيدا القاسم بن أحمد النحوي بن الموفق، وابن مالك النحوي، وابنه بدر الدين(٨٠) وكذلك الحال في الرباط الناصري بقاسيون، الذي شهد منذ افتتاحه في أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري، أربعة من الأندلسيين، الذين تحولوا إلى الشافعية أيضاً وهم جمال الدين الشريشي، وابنه كمال الدين، وحفيده جمال الدين محمد، ومحمد بن القاسم مجد الدين أبي بكر.

وما ينطبق على هاتين المدرستين، فإنه ينطبق على مدارس شامية أخرى كالظاهرية في دمشق، التي اقتصرت على تعليم الشافعية والحنفية. ولعل أروع صور الاندماج بالمجتمع

---

٧٩ ــ الوجود التقليدي في دمشق للأندلسيين، انحصر في عدة أماكن معروفة بشكل جيد منها زوايا في مدارس كما مر في عدة أمكنة، مثل الخانقاه الأندلسية، ومدارس كالنورية، وزوايا أخرى كالتي في الجامع الأموي، وزاوية ابن وطية وفي القدس. زاويتهم في الأقصى، اضافة إلى زاوية أخرى شادها أحدهم.

٨٠ ــ انظر ص ١٩٢ وما بعدها من هذا البحث.

الجديد بين المغاربة وأهل الشام، تجسدت بالاقبال من جانبهم على الزواج من النساء الشاميات، وباقبال أهل الشام على الزواج من أندلسيات. والأمثلة كثيرة في هذا المضمار، أذكر منها على سبيل المثال علم الدين البرزالي المحدث المغربي المشهور، الذي تزوج من امرأة دمشقية، اسمها دنيا بنت حسن بن بلبان المتوفاة سنة ٧٥٩ هـ - ١٣٥٨ م[٨١] وأيضاً شعيب بن محمد بن جعفر رضي الدين التونسي أبو مدين، الذي حل بدمشق سنة ٧٥٧ هـ - ١٢٥٦ م وسافر إلى حماة بعد فترة وجيزة، حيث نزل بشكل دائم، وتزوج بامرأة منها، وظل فيها حتى وافته المنية سنة ٧٧٠ هـ - ١٣٦٩ م[٨٢]. وأذكر من الشاميين بالمقابل ممن تزوجوا من أندلسيات أبا شامة المقدسي ووالده اسماعيل. فقد ذكر في كتابه الذيل على الروضتين أن والده تزوج بامرأة اندلسية لا يذكر اسمها، واكتفى بالقول، أنها أم أخيه محمد[٨٣] وحذا هو حذو والده، وتزوج بواحدة من الأندلسيات نزيلات دمشق اسمها (ست العرب والدة ابنه محمد) وقد ذكر انها بنت شرف الدين محمد بن علي بن دنو القرشي العبدري المرسي، الذي وصفه، أنه كان من أهل الفضل والرئاسة ومن وجوه بلده.

ويبدو أن أبا شامة، كان يحبها كثيراً إلى درجة جعلته ينظم فيها قصيدة طويلة، جسد فيها فضائل هذه الزوجة ومناقبها وأخلاقها يقول:

تزوجت من أولاد دنو عقيلة بها من خصال الخير ماحير العقلا[٨٤]

يضاف إلى هذا الأمر، أن بعض العائلات المغربية التي استقرت بالشام ظلت طيلة فترة هذه البحث، لذلك والحال هذا فلا بد أن يكون أفرادها قد تزاوجوا مع الشاميين، والعكس صحيح. حيث أن بعض هذه العائلات ما زالت معروفة باسمها منذ ذلك الوقت وحتى هذه الايام. ولتكون الصورة أوضح، فاني سأذكر بعض هذه العائلات. منها آل الزواوي والبكري والتونسي والمالقي والمغربي. وتتوزع هذه العائلات في مدن شامية متفرقة في وقتنا الحاضر. فعائلة البكري تكاد تنحصر في مدينة دمشق وهي من العائلات المعروفة جداً، وان كان الأمر لا يخلو من وجود أقرباء لهم في مدينة حلب على ما أظن. وعائلة الزواوي ينحصر وجودها في أغلب الأحيان بدمشق وفلسطين. أما عائلة المالقي فلها وجود قليل من

---

٨١ - الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٠٢. وفيات ابن رافع الترجمة رقم ٧١٦.

٨٢ - الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٩٢.

٨٣ - الذيل على الروضتين ص ٢٢٧.

مدينة دمشق. أما عائلة المغربي، فأغلب الظن أنها لا تعود إلى أرومة واحدة، على اعتبار أن كل من جاء من الأندلس أو المغرب على حد سواء عرف في كثير من الأحيان بتسمية (المغربي).

وتوجد عائلات تحمل هذه الكنية في معظم مدن الشام. أما العائلة الأخرى، فهي عائلة (التونسي) التي أعرف منها عائلة كبيرة إلى حد ما موجودة في حي الميدان بدمشق حتى يومنا هذا، منها ضباط كبار وأساتذة ومحامون وعلماء دين. ويتجلى الاندماج المغربي على نطاق أضيق، في أن بعض العائلات الشامية في مدينة دمشق، أحاطت بعض العائلات الأندلسية بالرعاية والحماية، كما حدث لابن عربي المتصوف الأندلسي، الذي نزل عند عائلة بني الذكي حتى وفاته سنة ٦٣٨ هـ معززاً مكرماً، وشملت هذه الرعاية، أن دفنوه في أحد الأماكن التي تعود ملكيتها لهم في سفح قاسيون، حيث ما زال ضريحه حتى يومنا هذا[٨٥]. ومن هذا النوع نجد أبا شامة المقدسي، الذي عرف عنه تضلعه بمعرفة المغاربة، خاصة منهم الذين نزلوا دمشق في القرن السابع الهجري، حيث أتى على ذكر الكثيرين منهم في كتابه المعروف، بالذيل على الروضتين، حتى إنه صلى على كثيرين منهم أثناء وفاتهم، وأكثر من هذا، أنه كان يعرف تفاصيل مهمة من سير حياتهم وأوضاعهم العامة. والواقع أنهم لم يتميزوا عن غيرهم من سكان الشام، إلا في ناحية واحدة، تجلت بالبخل والشح، وبلغ بهم الأمر إلى درجة لم يتمكنوا عندها من تغيير هذه العادة، بالرغم من وجودهم في بيئة معظم سكانها يشتهرون بسعة عطائهم وسخائهم. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا القلائل منهم، كابن مالك النحوي، الذي قال عنه السيوطي في كتاب طبقات اللغويين والنحاة أنه: «.. أنه انفرد عن المغاربة بشيئين، الكرم ومذهب الامام الشافعي...»[٨٦] وإذا كانوا قد اتسموا بالبخل على صعيد المال في حياتهم العامة، فربما يكون ذلك من الأمور الطبيعية جداً، خاصة وأنهم لا يملكون مصادر ثابتة للعيش يعتمدون عليها، وكثيراً ما كانت هذه الميزة متجسدة عند الفقراء منهم، لأن من امتلك الثروة وكثرت أمواله، كان يخصص قسماً منها للصرف على الفقراء، أو تجهيز المقاتلة من الجنود، أو بناء بعض المنشآت. فقد تبين على سبيل المثال، أنه

٨٤ ــ المصدر السابق ص ١٩٦.

٨٥ ــ انظر ص ١٧٧ من هذا البحث.

٨٦ ــ طبقات اللغويين والنحاة ص ٥٥/ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ ورقة ٢٥٩.

من مجموع التراجم التي وردت في هذا البحث، وجد ستة أشخاص أو أكثر بقليل، امتلكوا الثروة واتصفوا بالغنى، أذكر منهم، علم الدين البرزالي ورجب الدين الرجيحي التونسي ومحمد السبتي النجار، والشرف يحيى المغربي وابراهيم بن عيسى المرادي وعمر بن عبد الله المصمودي. فيما عدا هؤلاء تقريباً، يمكن القول، أن الجميع عاشوا عيشة كفاف عادية جداً، أو أقل من عادية، كما يظهر من قصيدة للشاعر الاندلسي نزيل دمشق شمس الدين محمد التلمساني (الشاب الظريف) يقول:

مولايَ إنـــا في جوارِكَ خمسةٌ ... بتنا ببيتٍ مالـهُ مصبــاحُ
ما فيـهِ لا لحمٌ ولا خبـزٌ ولا ... ماءٌ ولا شيءٌ لهُ يرتــاحُ
ما فاتنـا إلا التخلـلُ بالعبـا ... فجسومنـا لعبـثْ بها الأرواحُ
كلٌ تراهُ في الكآبـةِ والطـوى ... شبحاً فنحنُ الخمسةُ الأشباحُ[87]

إذن فان البخل على صعيد المال، يعتبر من النواحي، التي لا يعول عليها، بحيث تكون مقياساً على مجموعة كهذه، لأنهم برهنوا من خلال اشتراكهم بالحرب مع أخوتهم عرب الشام ضد الصليبيين والتتار، على أعظم كرم وانبله على الاطلاق، فضحوا بالدماء والأرواح والأموال. أما بخصوص سكن الجالية الأندلسية، فقد كان في أماكن متفرقة من المدن والحواضر التي نزلوها. ويصعب تحديد هذه الأماكن في بعض المدن، ويسهل في مدن أخرى. ففي مدينة بيت المقدس، خصصت لهم حارة بكاملها عرفت باسمهم، كما مر في موضع سابق من هذا البحث، اضافة إلى بعض الزوايا. وكذلك الأمر في مدينة دمشق، حيث يسهل تحديد أماكنهم بصورة تقترب من الواقع. فمن المحتمل أن نسبة كبيرة منهم، سكنت في الحارة التي سميت بـ(حارة الغرباء، التي تقع داخل باب النصر، الذي كان يسمى بباب دار السعادة[88] وبعضهم سكن في المدارس والخوانق والزوايا، التي عملوا بها، مثال ذلك، سعيد المغربي التلمساني الذي كان مقيماً بمسجد في محلة طواحين الأشنان خارج باب توما، والذي توفي بالجامع المذكور سنة ٦٦٣ هـ ــ ١٢٦٥ م[89] وبعضهم الأخر سكن في أماكن متفرقة قريبة من أماكن عملهم. وما ينطبق على مدينتي بين المقدس

---

٨٧ ــ تالي كتاب وفيات الأعيان ص ٨٣.

٨٨ ــ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٧٣.

٨٩ ــ الذيل على الروضتين ص ٢٣٣.

ودمشق، فانه ينطبق تماماً على المدن الشامية الأخرى، التي نزل بها الأندلسيون، ماعدا أنه في القدس ودمشق وحلب، خصص لهم زوايا وحارات مقتصرة عليهم، الأمر الذي لم يعهد في أي مدينة شامية، بحسب معطيات المصادر. وخلاصة الأمر فإن سكان بلاد الشام وحكامها، عبروا عن وعي ناضج وتفكير سليم، بتصرفهم اللائق مع عرب الأندلس، الذين أجبروا للنزوح عن أرضهم إلى غير رجعة. فلبوا بذلك نداء الاخوة وواجب العروبة عليهم.

وكذلك الأمر بالنسبة للأندلسيين المغاربة، فقد برهنوا في كل الأوقات على حبهم ووفائهم للأرض التي سكنوا، بكل الوسائل وشتى السبل، وترجموا بمواقفهم الخالدة، صدق انتمائهم للعروبة وحقيقة المصير المشترك الذي يلتقي على صعيده العرب، عندما تشتد المحن وتثقل وطأة المصائب والكوارث. فلم تستطع المسافات ولا طول الزمن وامتداده، أن تنسيهم حقيقة كبيرة تتجسد بأنهم أبناء وطن واحد، هو الوطن العربي، وأرض واحدة، هي الأرض العربية، التي اختصتها العناية الالهية، لأن تكون ميدانا لنمو وترعرع نواة الاسلام الأولى، لتكبر وتنتشر بسرعة إلى المناطق العالمية الأخرى.

ولكن قضية القواسم المشتركة بين عرب الأندلس وعرب الشام، ربما تكون مثار تساؤل البعض وحيرتهم، على اعتبار أنهم ينطلقون، من أن الأساس والقاسم المشترك اللذين جمعا بين عرب المشرق والمغرب، هما الاسلام والرابطة الاسلامية، وبالتالي ينفون الرابطة العربية والانتماء إلى أرض العرب. واقع الحال أن قولا كهذا لا يخلو من الصحة، على اعتبار أن الاسلام في تلك الفترة من الزمن، كان من الأمور، التي يأخذها المسلمون بعين الاعتبار بالدرجة الأولى. لكن بالمقابل يرى أن الشعور بالانتماء إلى الأرض العربية، كان أسبق بكثير من الشعور بالانتماء إلى الاسلام لان الاسلام بحد ذاته، لا يشكل أكثر من مظهر حضاري بلغ أعلى مستويات الرقي والنضوج، وشمل جميع نواحي ووجوه الحياة العامة، بحيث غدا منظماً لشؤون العرب ومرشداً لهم على طريق التقدم والازدهار ونيل المجد. والأمثلة كثيرة في هذا المضمار، لعل خيرها وأقربها إلى العقل والمنطق، ما جرى عليه الامويون خلال فترة حكمهم. فقد ركزوا على أن تكون المناصب الرئيسية، والحساسة بأيدي العرب دون غيرهم، وذلك انطلاقاً من أن الاسلام، لا يعدو كونه قانوناً لتنظيم شؤون الحياة، اختص به العرب دون غيرهم، وكلفوا بنشر العدالة والمساواة بين الناس على مختلف انتماءاتهم الجغرافية بموجب هذا القانون. مثل آخر يأتي من خلال التاريخ العباسي في بدايته وعلى مدى قرن

واحد تقريباً ، عندما كان الخليفة عربياً ، وكذلك المناصب الأخرى في أكثر الأوقات . وان كان قد تسلم بعض الغرباء من غير العرب مراكز قيادية هامة ، كالوزارة ، فانهم كانوا يعزلون عن مناصبهم ومراكزهم . عندما يشكلون خطراً على العروبة والمصالح العربية . وهناك أمثلة أخرى كثيرة لا مجال لذكرها الآن ، لكونها لا تحيد عن هذا المسار ، وسأستعيض عنها بسؤال من صلب هذا البحث هو : لماذا لجأ الأندلسيون وبأعداد كبيرة إلى أقطار المشرق العربي ، ولم يلجأوا إلى أقطار إسلامية أخرى غير عربية ؟ في مستهل الإجابة . على هذا السؤال ، لا بد من الاعتراف ، أن الأمر لا يخلو من هجرة بعض الأندلسيين إلى أقطار إسلامية غير عربية ، لكن ليست بالكثافة ، التي حدثت باتجاه الشام ، أو غيرها من الأقطار العربية الأخرى كمصر والمغرب العربي ، فالذين قصدوا أقطار غير عربية ، لم يشكلوا سوى قلة قليلة لا يعول عليها في مشكلة كهذه . اذن لم تكن الدوافع اسلامية ، بقدر ما كانت استجابة لشعور قوى بالانتماء إلى أرض واحدة ومصير مشترك ولغة واحدة . ظهرت نتائجه من خلال حياة الاندلسيين المغاربة على أرض بلاد الشام . بحيث لم يشعروا بأنهم غرباء على أهل البلاد في أي وقت من الأوقات . وبرهنوا ومعهم سكان الشام ، أن لا ناصر للعرب غير العرب ، مهما تعددت الدول وأنظمة الحكم ، ومهما باعدت المسافات ، والايديولوجيات السياسية . ولعل في هذه المواقف الرائعة الخالدة ، أكبر مثال وأصدق دليل على ضرورة التقارب والوحدة العربية ، في وقت كثرت فيه الفتن والخلافات بين الحكام العرب ، وتجسدت عوامل الجفاء والفرقة بين الشعوب العربية ، إلى درجة وصل الأمر عند بعضها إلى تسمية أفراد الشعب الآخر بالغرباء والأجانب . وبرهنوا من جهة أخرى ومن خلال هذه المواقف أيضاً أنه لا فرق بين عربي مشرقي أو عربي مغربي ، فكلاهما مسؤول في النهاية عن الآخر ، شاء ذلك أم أبى . فهل يستفيد حكام العرب من مثل هذه المواقف ، التي إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن أرضهم وشعوبهم ، تعاني من الأسباب نفسها التي أدت إلى انهيار دولة العرب والاسلام في الجناح الغربي ، خلال فترة العصور الوسطى . عندما فصل مشرق الوطن العربي عن مغربه ، بفعل الأنانية السوداء وشهوة الحكم وحب السيطرة ، التي تجسدت كأمراض مزمنة في نفوس حكام العرب في تلك الفترة من الزمن ، فكانت النتيجة أقسى من الفراق والفصل وأعمق أثراً ، بحيث أدت إلى ضياع بلاد ، وانهيار حضارة وموت شعب بكامله . في وقت بدأت فيه عوامل الوحدة وتجميع الصفوف تظهر على الساحة الأوروبية ، الأمر الذي أدى إلى ظهور دول سيطرت على مقدرات ومستقبل الشعوب ، التي نشكل نحن العرب غالبيتها العظمى ،

وما نزال حتى يومنا هذا، بحيث تطور الأمر إلى شكل جديد، أصبحنا فيه دعاة للقطرية الملتزمة، بدلاً من الدعوة والتحريض بصدق وجدية، إلى جمع الصفوف ولم الشمل، في وقت لا تستطيع أية دولة عربية، أن تسير مع الركب الحضاري العالمي بمفردها. لذلك فإن استمرار وضع كهذا سيؤدي بالنهاية إلى كارثة حضارية خطيرة، من المستحيل الخروج من تحتها أو التخلص من آثارها، لكوننا نحن العرب نعيش اليوم على هامش الدول المتقدمة والحضارية.

فهرس
المصادر والمراجع

١ ــ المصادر والمراجع العربية والمترجمة

ــ **ابن الآبار (محمد بن عبد الله)** التكملة لكتاب الصلة الجزء الأول والثاني. عني بنشره عزت العطار الحسيني ــ طبعة القاهرة ١٩٥٦ .

كتاب المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي طبعة مجريط ١٨٨٥ .

الحلة السيراء ــ الجزء الثاني ــ تحقيق حسين مؤنس ــ الطبعة الأولى ــ القاهرة ١٩٦٣ .

ــ **ابن الأثير (علي بن محمد الشيباني)** الكامل في التاريخ ــ الجزء السادس طبعة بيروت ١٩٦٥ الجزء التاسع طبعة بيروت ١٩٦٦ .

ــ **ابن الأحمر الغرناطي (اسماعيل)**

أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري ــ تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ــ طبعة أولى بيروت دار الرسالة ١٩٧٦ .

ــ **الإدريسي (محمد بن محمد)**

صفة المغرب وأرض مصر والأندلس (جزء من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) طبعة ليدن ١٩٦٤ .

ــ **الاربلي (عبد الرحمن)**

مدارس دمشق وحماماتها ــ تحقيق محمد أحمد دهمان ــ طبعة دمشق ١٩٤٧ .

ــ **ابن أبي اصيبعة (أحمد بن القاسم الخزرجي)**

عيون الأنباء في طبقات الأطباء. الجزء الثاني الطبعة الأولى ــ المطبعة البهية ١٨٨٢ .

ـــ ابن اياس (محمد)
بدائع الزهور في وقائع الدهور ـــ الجزء الثاني طبعة القاهرة ١٩٧٢ .
ـــ الباجي (محمود)
عبد الرحمن بن خلدون ـــ طبعة تونس جمعية الاتحاد الصفاقسي الزيتوني ـــ بدون تاريخ .
ـــ بالاثيوس (آسين)
ابن عربي ـــ ترجمة عبد الرحمن بدوي ـــ بدون تاريخ .
ـــ البتنوني (محمد لبيب)
رحلة الأندلس ـــ الطبعة الأولى مطبعة الكشكول ١٩٢٧ .
ـــ بدر (أحمد)
دراسات في تاريخ الأندلس ـــ وحضارتها منذ الفتح وحتى الخلافة ـــ الطبعة الثانية دمشق ١٩٦٩ . وتاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري طبعة دمشق ١٩٧٤ .
ـــ البدري (عبد الله بن محمد) نزهة الأنام في محاسن الشام طبعة مصر ١٣٤١ هـ .
ـــ ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة ـــ الجزء الأول والثاني ـــ الدار المصرية للتأليف والنشر القاهرة ١٩٦٦ .
ـــ البقاعي (ابراهيم بن عمر)
تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي ـــ تحقيق عبد الرحمن الوكيل طبعة مصر ١٩٥٢ .
ـــ البكري (عبد الله بن عبد العزيز)
جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك . تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ـــ الطبعة الأولى بيروت ١٩٦٨ .
ـــ البلاذري (أحمد بن يحيى)
فتوح البلدان ـــ طبعة القاهرة ١٩٠١ .
ـــ البلوي (خالد بن عيسى)
تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ـــ نسخة مخطوطة محفوظة بالمكتبة الوطنية (الظاهرية) ـ بدمشق برقم ١٠٨ جغرافية .
ـــ التجيبي السبتي (القاسم بن يوسف)
مستفاد الرحلة والاغتراب ـــ تحقيق عبد الحفيظ منصور طبعة تونس ١٩٧٥ .
ـــ ابن تغري بردي (يوسف الأتابكي)
النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، الجزء السادس والسابع والعاشر والحادي عشر والثاني

عشر. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ــ وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر ــ بدون تاريخ.
ــ التفتازي (أبو الوفا)
مدخل إلى التصوف الاسلامي طبعة مصر ١٩٧٦.
ــ الجاحظ (عمرو بن بحر)
كتاب العثمانية ــ تحقيق عبد الله محمد هارون طبعة مصر ١٩٥٥.
ــ ابن جبير (محمد بن أحمد)
رحلة ابن جبير طبعة بيروت ١٩٥٩.
ــ ابن الجزري (محمد بن محمد)
غاية النهاية في طبقات القراء ــ الجزء الأول عني بنشره ج ــ برجستراير الطبعة الأولى القاهرة ١٩٣٢، الجزء الثاني نفس الناشر القاهرة ١٩٣٣.
ــ جنثالث بالنثيا (آنخل)
تاريخ الفكر الأندلسي ــ ترجمة حسين مؤنس طبعة مصر ١٩٥٥.
ــ حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله)
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون الجزء الأول عني بنشره على نسخة المؤلف محمد شرف الدين طبعة استانبول المطبعة البهية ١٩٤١. الجزء الثاني نفس الناشر طبعة استانبول ١٩٤٣.
ــ ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي)
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. الجزء الأول طبعة أولى حيدر آباد الدكن ١٣٤٨ هـ.
الجزء الثاني والثالث طبعة أولى حيدر آباد الدكن ١٣٤٩ هـ
الجزء الرابع طبعة أولى حيدر أباد الدكن ١٣٥٠ هـ
أنباء الغمر بأبناء العمر ــ الجزء الأول والثاني تحقيق حسن حبشي طبعة القاهرة ١٩٦٩ ــ الجزء الثالث نفس المحقق طبعة القاهرة ١٩٧٢.
ــ الحسيني (أبو المحاسن)
ذيل تذكرة الحفاظ طبعة بيروت دار أحياء التراث العربي ــ بدون تاريخ ذيل العبر ــ تحقيق محمد رشاد عبد المطلب طبعة الكويت بدون تاريخ.
ــ الحموي (ياقوت بن عبد الله)
معجم البلدان ــ الجزء الأول طبعة بيروت ١٩٥٥.
ــ الجزء الثاني طبعة بيروت ١٩٥٦.

ـ الجزء الثالث طبعة بيروت ١٩٥٧ .

ـ الجزء الخامس طبعة بيروت ١٩٥٧ .

ـ **الحميدي (محمد بن فتوح)**

جذوة المقتبس ـ تحقيق محمد بن تاويت الطنجي طبعة ١٩٥٢ .

ـ **الحميري (محمد بن عبد المنعم)**

الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق الدكتور احسان عباس طبعة بيروت ١٩٧٥ .

ـ **الحنبلي (مجير الدين)**

الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل ـ الجزء الأول والثاني بدون ذكر اسم الطبعة ولا تاريخها .

ـ **ابن حوقل (محمد الموصلي)**

صورة الأرض القسم الأول طبعة ليدن ١٩٣٨ .

ـ **خسرو علوي (ناصر)**

سفر نامه ـ ترجمة يحيى الخشاب طبعة مصر ١٩٤٥ .

ـ **ابن الخطيب (محمد بن عبد الله السلماني)**

الاحاطة في أخبار غرناطة الجزء الأول تحقيق محمد عبد الله عنان طبعة مصر ١٩٥٥ .

أوصاف الناس في التواريخ والصلات ـ القسم الأول تحقيق محمد كمال شبانة طبعة المغرب ١٩٧٧ .

ـ **ابن خطيب الناصرية (علي)**

الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب . الجزء الأول والثاني ، نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بالمكتبة الاحمدية بحلب . والمصورة محفوظة في مكتبة الدكتور سهيل زكار بدمشق .

ـ **ابن خلكان (أحمد بن محمد الاربلي)**

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ الجزء الثالث تحقيق احسان عباس طبعة بيروت ١٩٧٠ ـ الجزء الرابع والسابع نفس المحقق طبعة بيروت ١٩٧١ .

ـ **الذهبي (محمد بن أحمد شمس الدين)**

العبر في أخبار من غبر ـ الجزء الرابع تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة الكويت ١٩٦٣ الجزء الخامس نفس المحقق طبعة الكويت ١٩٦٦ .

تذكرة الحفاظ دون ذكر اسم الطبعة ولا تاريخها . ذيول العبر تحقيق محمد رشاد عبد المطلب طبعة الكويت دون تاريخ .

ـ **ابن رافع السلامي (محمد)**

الوفيات تحقيق عبد الجبار زكار طبع على الجستتنر .

ـــ الربعي (علي بن محمد المالكي)

فضائل الشام ودمشق تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة دمشق ١٩٥٠ .

ـــ ابن رشيد (محمد بن عمر السبتي)

الرحلة المسماة ملء العيبة في ما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة الطيبة نسخة مصورة عن المخطوطة المحفوظة في مكتبة الاسكوريال . والنسخة المصورة موجودة بحوزة الدكتور أحمد بدر بدمشق .

ـــ الرعيني الاشبيلي (علي بن محمد)

برنامج شيوخ الرعيني تحقيق ابراهيم شبوح طبعة دمشق ١٩٦٢ .

ـــ ابن الزبير (أحمد)

صلة الصلة ـــ الجزء السابع تحقيق ليفي بروفنسال طبعة الجزائر ١٩٣٧ .

ـــ زكي فهمي (نعيم)

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب طبعة القاهرة ١٩٧٣ .

ـــ زيادة (نقولا)

الرحالة العرب طبعة بيروت ١٩٥٦ .

ـــ سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزاوغلي)

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ـــ القسم الأول والثاني من الجزء الثامن طبعة أولى حيدر أباد الدكن ١٩٥١ ـــ ١٩٥٢ .

ـــ السبكي (عبد الوهاب تاج الدين الشافعي)

طبقات الشافعية الجزء الثاني والرابع والسادس الطبعة الثانية بيروت دار المعرفة بدون تاريخ .

ـــ السخاوي (محمد بن عبد الرحمن)

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ـــ الجزء الأول والثاني والثالث والخامس والسابع والثامن والتاسع والعاشر طبعة بيروت بدون تاريخ .

التبر المسبوك في ذيل الملوك طبعة بولاق ١٨٩٦ .

ـــ ابن سعيد (علي)

المغرب في حلى المغرب تحقيق شوقي ضيف طبعة مصر ١٩٦٤ .

الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة تحقيق ابراهيم الابياري .

طبعة مصر بدون تاريخ .

اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى تحقيق ابراهيم الابياري طبعة بيروت دار الكتاب اللبناني ١٩٨٠ .

ـــ السلمي (عز الدين بن عبد السلام)
ترغيب أهل الاسلام في سكنى الشام. صححه ونشره أحمد سامح الخالدي طبعة القدس ١٩٤٠.
ـــ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة الجزء الأول عني بتصحيحه محمد أمين الخانجي طبعة أولى مصر ١٩٢٦.
طبقات الحفاظ تحقيق علي محمد عمر طبعة مصر ١٩٧٣.
ـــ أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي)
الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. الجزء الأول القسم الأول تحقيق محمد حلمي أحمد طبعة القاهرة ١٩٥٦.
الذيل على الروضتين عني بنشره عزت العطار الحسيني طبعة أولى ١٩٤٧.
ـــ ابن الشحنة (محمد)
الدر المنتخب في تاريخ حلب. وقف على طبعه يوسف اليان سركيس طبعة بيروت ١٩٠٩.
ـــ ابن شداد (يوسف بن رافع)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـــ سيرة صلاح الدين الايوبي. تحقيق جمال الدين الشيال طبعة مصر ١٩٦٤.
الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة دمشق) تحقيق سامي الدهان طبعة دمشق ١٩٥٦.
ـــ الشعراني (عبد الوهاب)
الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار طبعه مصر ١٣٠٥ هـ
ـــ الصفدي (صلاح بن أيبك)
الوافي بالوفيات ـــ الجزء الأول. باعتناء هـ ـــ ريتر طبعة استانبول ١٩٣١ الجزء الثاني. محمد ابن ابراهيم بن عمر. محمد بن الحسين بن محمد. باعتناء س. ديدرينغ استانبول مطبعة وزارة المعارف ١٩٤٩.
الجزء الثالث والرابع تحقيق محمد بن عبد الله ـــ محمد بن محمود باعتناء س ديدرينغ طبعة دمشق ١٩٥٩.
الجزء السادس تحقيق ابراهيم بن سهل ـــ أحمد بن طولون باعتناء س ديدرينغ طبعة بيروت ١٩٧٢.

الجزء السابع تحقيق أحمد بن الطيب بن خلف ــ أحمد بن محمد بن شراعة باعتناء احسان عباس طبعة بيروت ١٩٦٩ .

ــ **الصقاعي (فضل الله أبي الخير)**

تالي كتاب وفيات الأعيان ــ تحقيق جاكلين سوبلة طبعة دمشق ١٩٧٤ .

ــ **الضبي (أحمد بن يحيى)**

بغية الملتمس طبعة دار الكتاب العربي ١٩٦٧ .

ــ **الطرطوشي (محمد بن الوليد)**

سراج الملوك طبعة مصر ١٢٨٩ هـ .

ــ **الطليطلي (صاعد بن أحمد)**

طبقات الامم ــ مطبعة مصر ــ بدون تاريخ .

ــ **ابن طولون (محمد)**

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ــ القسم الأول تحقيق محمد مصطفى طبعة مصر ١٩٦٢ .

القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية تحقيق محمد أحمد دهمان طبعة دمشق ١٩٤٩ .

ــ **عاشور (سعيد عبد الفتاح)**

العصر المماليكي في مصر والشام طبعة أولى مصر ١٩٦٥ .

ــ **ابن عبد الحكم (عبد الرحمن أبو القاسم)**

فتوح مصر والمغرب الجزء الأول طبعة ليدن ١٩٢٠ .

ــ **العبادي ــ عبد العزيز سالم**

تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام طبعة بيروت ١٩٧٢ .

ــ **العبدري (محمد أبو عبد الله)**

الرحلة المغربية تحقيق محمد الفاسي طبعة الرباط ١٩٦٨ .

ــ **العدوي (محمود)**

الزيارات بدمشق تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة دمشق ١٩٥٦ .

ــ **ابن العديم (عمر بن أحمد)**

زبدة الحلب من تاريخ حلب طبعة دمشق ١٩٦٨ .

ــ **ابن عذارى المراكشي .**

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الأول والثاني والثالث تحقيق س . كولان . اه ليفي بروفنسال طبعة دار الثقافة بيروت وهي منقولة عن طبعة المحققين في ليدن ١٩٤٨ . الجزء الرابع تحقيق احسان عباس طبعة بيروت ١٩٦٧ .

ـ العذري (أحمد بن عمر)
نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الاثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك تحقيق عبد العزيز الاهواني طبعة مدريد ١٩٦٥ .
ـ ابن عرب شاه (أحمد بن محمد)
عجائب المقدور في أخبار تيمور طبعة القاهرة المطبعة العثمانية ١٣٠٥ هـ .
ـ ابن عربي (محيي الدين)
فصوص الحكم ـ الجزء الأول والثاني تحقيق أبو العلا عفيفي طبعة بيروت ١٩٤٦ الفتوحات المكية الجزء الثاني طبعة مصر ١٢٩٣ هـ .
ـ ابن العربي (أبو بكر)
العواصم من القواصم تحقيق عمار طالبي الجزء الثاني طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر بدون تاريخ .
ـ ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن)
تاريخ مدينة دمشق . المجلد الأول تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة دمشق ١٩٥١ المجلد العاشر تحقيق شكري فيصل . المجلد الخامس عشر نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق .
تهذيب تاريخ ابن عساكر نشره أحمد عبيد طبعة أولى دمشق ١٣٤٩ هـ .
ـ ابن العماد الحنبلي (عبد الحي)
شذرات الذهب في أخبار من ذهب الجزء الرابع والخامس والسادس والسابع طبعة بيروت دون تاريخ .
ـ العماد الكاتب الاصفهاني
الفتح القسي في الفتح القدسي تحقيق محمد محمود صبح بدون ذكر الطبعة ولا تاريخها .
ـ علي محفوظ (حسين)
معجم الموسيقى العربية الجزء الثاني طبعة بغداد ١٩٦٤ .
ـ عمر (فاروق)
طبيعة الدعوة العباسية طبعة أولى بيروت ١٩٧٠ .
ـ عنان (محمد عبد الله)
المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ـ القسم الثاني طبعة أولى مصر ١٩٦٤ دولة الاسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر ـ العصر الأول ـ القسم الأول طبعة مصر ١٩٦٠ .

ـ الغبريني (أحمد بن أحمد)

عنوان الدراية ـ تحقيق رابح بونار طبعة الجزائر ١٩٧٠ .

ـ أبو الفداء (اسماعيل الملك المؤيد)

المختصر في أخبار البشر ـ الجزء الرابع دون تاريخ .

ـ ابن فرحون (علي بن محمد)

الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب طبعة أولى مصر ١٣٥١ هـ .

ـ ابن الفرضي (عبد الله بن محمد)

تاريخ علماء الأندلس . طبعة الدار المصرية ١٩٦٦ .

ـ الفيروز آبادي (محمد بن يعقوب)

البلغة في تاريخ أئمة اللغة ـ تحقيق محمد المصري طبعة دمشق ١٩٧٢ .

ـ ابن قاضي شهبة (تقي الدين أحمد)

طبقات النحويين واللغويين . نسخة مخطوطة محفوظة في المكتبة الوطنية الظاهرية بدمشق برقم ٣٤٦٨ .

تاريخ ابن قاضي شهبة المجلد الأول الجزء الثالث من المخطوط تحقيق عدنان درويش طبعة دمشق ١٩٧٧ .

ـ ابن القاضي (أحمد بن محمد المكناسي)

ذيل وفيات الأعيان المسمى بدرة الحجال في أسماء الرجال الجزء الأول تحقيق محمد الأحمدي أبو النور طبعة مصر ١٩٧٠ .

ـ القاضي عياض اليحصبي .

ترتيب المدارك وتقريب المسالك . الجزء الثالث والرابع تحقيق أحمد بكير محمود طبعة بيروت بدون تاريخ .

المدد الفياض بنور الشفا الجزء الثاني بدون تاريخ .

ـ القاضي النعمان (النعمان بن محمد)

المجالس والمسايرات تحقيق الحبيب الفقي ـ ابراهيم شبوح طبعة تونس ١٩٧٨ .

ـ القفطي (علي بن يوسف)

أخبار العلماء بأخبار الحكماء . عني بنشره محمد أمين الخانجي طبعة مصر ١٣٢٦ هـ .

انباه الرواة على أنباه النحاة الجزء الأول والثاني تحقيق أبو الفضل ابراهيم طبعة مصر ١٩٥٥ .

ـ ابن القلانسي (حمزة بن أسد)

ذيل تاريخ دمشق طبعة بيروت ١٩٠٨ .

ـ القلصادي (أبي الحسن علي)

الرحلة ـ تحقيق محمد أبو الأجفان طبعة الشركة التونسية ١٩٧٨ .

ـ القلقشندي (أحمد بن علي)

صبح الأعشى في صناعة الانشاء. الجزء الأول والرابع والسادس والتاسع والحادي عشر والثاني عشر . النسخة المصورة عن الطبعة الأميرية وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٣ .

ـ ابن القوطية (محمد بن عمر القرطبي)

تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق عبد الله أنيس طبعة بيروت ١٩٥٧ .

ـ ابن كثير (اسماعيل بن عمر)

البداية والنهاية . الجزء الثالث عشر والرابع عشر طبعة بيروت ١٩٦٦ .

ـ الكتبي (محمد بن شاكر)

فوات الوفيات ـ الجزء الأول والثاني تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة مصر ١٩٥١ .

ـ كرد علي (محمد)

خطط الشام . الجزء الرابع طبعة دمشق ١٩٢٦ الجزء السادس طبعة دمشق ١٩٢٨ .

ـ ليفي بروفنسال .

تاريخ الاسلام في المغرب والأندلس. ترجمة محمود عبد العزيز سالم ـ محمد صلاح الدين حلمي . نشرته مطبعة نهضة مصر بدون تاريخ .

ـ محمد حسن (زكي)

الرحالة المسلمون في العصور الوسطى . طبعة دار المعارف مصر بدون تاريخ .

ـ المراكشي (عبد الواحد)

المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ تحقيق محمد سعيد العريان ـ محمد العربي العلمي ـ طبعة مصر ١٩٤٩ .

ـ المراكشي (محمد بن عبد الملك)

الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة . السفر الأول القسم الثاني . السفر الخامس الأول والثاني تحقيق احسان عباس طبعة بيروت ١٩٦٥ .

ـ المقدسي (محمد بن أحمد)

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ الجزء الأول طبعة ثانية ليدن ١٩٠٩ .

ـ المقريزي (أحمد بن علي)

السلوك لمعرفة دول الملوك ـ الجزء الأول القسم الأول تحقيق محمد مصطفى زيادة طبعة القاهرة ١٩٦٤ . الجزء الثالث القسم الأول تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور طبعة القاهرة ١٩٧٠ .

ـ المقري التلمساني (أحمد بن محمد)
نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. الجزء الأول والثاني والثالث تحقيق احسان عباس طبعة بيروت ١٩٦٨.
أزهار الرياض الجزء الثاني تحقيق مصطفى السقا طبعة مصر ١٩٤٢.
ـ المسعودي (علي بن الحسين)
مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الرابع تحقيق شارل بلا طبعة بيروت ١٩٧٣.
التنبيه والاشراف ـ تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي طبعة مصر ١٩٣٨.
ـ مصطفى (شاكر)
مجلة كلية الاداب لجامعة الكويت ـ العدد الأول.
ـ ابن الملقن (عمر بن علي)
طبقات الأولياء تحقيق نور الدين شريبة طبعة مصر ١٩٧٣.
ـ المنجد (صلاح الدين)
المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى طبعة بيروت ١٩٦٣.
ـ ابن منقذ (أسامة بن منقذ الكناني)
الاعتبار صححه هرتويغ درنبرغ طبعة ليدن ١٨٨٤.
ـ مؤلف مجهول
الأخبار المجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم طبعة مدريد ١٩٦٧.
ـ النعيمي الدمشقي (عبد القادر)
الدارس في تاريخ المدارس الجزء الأول والثاني تحقيق جعفر الحسني طبعة دمشق ١٩٤٨.
ـ الهروي (علي بن أبي بكر)
الاشارات إلى معرفة الزيارات تحقيق جانين سورديل طومين طبعة دمشق ١٩٥٣.
ـ ابن واصل (جمال الدين محمد)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ـ الجزء الرابع تحقيق حسنين محمد ربيع طبعة مصر دار الكتب ١٩٧٢.
ـ ابن الوردي (زين الدين عمر)
تتمة المختصر في أخبار البشر الجزء الثاني تحقيق أحمد رفعت البدراوي طبعة بيروت ١٩٧٠.
ـ الوهراني (محمد بن محمد)
منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ـ تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نفش طبعة القاهرة ١٩٦٨.

ـــ **اليافعي المكي (عبد الله بن أسعد)**
مرآة الجنان وعبرة اليقظان ـــ الجزء الرابع طبعة أولى حيدر آباد الدكن ١٣٣٩ هـ .
ـــ **يعقوب (جورج)**
أثر الشرق في الغرب خاصة في العصور الوسطى ـــ ترجمة فؤاد حسنين علي طبعة القاهرة ١٩٤٦ .
ـــ **اليونيني (موسى بن محمد)**
ذيل مرآة الزمان . الجزء الأول ـــ الطبعة الأولى حيدر أباد الدكن ١٩٥٤
الجزء الثاني طبعة أولى حيدر آباد الدكن ١٩٥٥
الجزء الثالث طبعة أولى حيدر آباد الدكن ١٩٦٠
الجزء الرابع طبعة أولى حيدر آبار الدكن ١٩٦١

المصادر الأجنبية

الإنكليزية

— Georg. E. Kirk. A short history of the middle east from the Rise of Islam to modern times-Ed. London without date.

— Encyclopedia of Islam. Vol.3, London 1971, Vol.1, New-Ed., 1960.

الفرنسية

— Nikita Ellisseef-Nur Ad-din., Tome 3. DAMAS, 1967.

— Louis Pouret. Maghrelines DAMAS au XII/XIII Siecle Boulletine d'Etudes orientales Tome XXVIII Année 1975, DAMAS 1977.

الفهرس

□ الفصل الثالث

الباب الثاني

□ الفصل الأول

□ الفصل الثاني

الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري/علي أحمد. ـ ط. ١. ـ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨. ـ ٣٣٩ ص. ؛ ٢٤ سم.

١ ـ ١ر٩٥٦ أحم أ ٢ ـ العنوان ٣ ـ أحمد

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـ ١٩٨٨/١٠/١١٣٩

رقم الاصدار ٣٨٩